المدن ولعبة الأجيال

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر، شارع گولان، اربيل، كُردستان العراق

المدن ولعبة الأجيال

محمد مسعود محمد

اسم الكتاب: المدن ولعبة الأجيال
تأليف: محمد مسعود محمد
من منشورات ئاراس رقم: ٥٨٩
الإخراج الفني: آراس أكرم
الغلاف: حميد رضا آزمودة
التصحيح: أوميد البناء + شاخوان كركوكي
الطبعة الأولى: اربيل – ٢٠٠٧
رقم الإيداع في المكتبة المركزية العامة بأربيل: ٢٠٠٧/٥٣١

المقدمة

في أواخر ١٩٦٤ انتقلت العائلة من بلدة كويسنجق، اربيل، إلى بغداد ولم أكن بلغت من العمر الا بضعة شهور. من تأريخه وحتى خريف ١٩٩٣، عندما تركت دجلة عائدا لينابيعها، بغداد هي المدينة التي قضيت فيها أطول السنين، نشأت ودرست وكبرت في بغداد. الثقافة العربية الراقية بين الثقافات والإنتماء البغدادي (الذي هو ليس بذلك الرقي) أصبحا جزءً مهما من تكويني.

سكنّا في حي الشرطة، نفق الشرطة كما يقال، ذلك النفق الذي طالت عملية بنائه في السبعينات حتى اصبح أسطورة لأهل الحي. ويرتبط ذكرى بنائه عندي بأيام (أبو طبر) لعلها بسبب تلك العائلة التي أبادها في شارع الربيع في فترة مقاربة من بناء ذلك النفق إذا لم أكن مخطئا. لم تكن شوارع حي الشرطة مبلطة بعد وكانت في وقتها تعتبر من ضواحي بغداد حتى اني كنت أرى زقورة عقرقوف (إحدى عواصم مملكة كاردونياش) في الأفق الغربي من سطح بيتنا.

نسبة كبيرة من سكان الحي كانوا ضباط شرطة متقاعدين والكثير منهم كانوا أصلا من شمال دجلة والفرات بألقاب متنوعة وكان هناك بعض الأكراد ايضا. ظاهرة لمستها بعد حرب ١٩٧٤-١٩٧٥ ان الكثير من اكراد المنطقة بدأوا يتكلمون التركمانية في بيوتهم، ثم تعربوا. ولفترة ما اعتقدت بسذاجة ان اللغة التركية لغة إنتقالية بين الكردية والعربية!. اما عائلتنا بالعكس، بل حتى بعض اصدقاء صبانا اصبحوا يتحسسون الكردية لكثرة ما كنّا نستعملها وكذلك لشدة اختلاطنا بصبيان المحلة ونادرا ما احسست بتمييز عنصري او ما شابه. بالعكس، التمييز كان يبدر من قبل غير العرب. مثلا، عائلة باكستانية الأصل كانت اول من تبعَّث وقد يكونون معذورين.

موقف لا انساه ابدا حصل معي في الصف الثاني المتوسط حين بدأت حملات تبعيث المدارس. الاستاذ فليح مدرس الرياضة البدنية كان ينفذ احد الاحصاءات الروتينية التي كانت ترهب الطلبة باسئلتها المخابراتية: الاسم، القومية، الاتجاه الحزبي، هل

لديك اقارب معادين للحزب والثورة؟... دقات القلب كانت تتزايد مع اقتراب الدور، وكان الجواب دائما وابدا:

اسمك؟ م م م. قوميتك؟ كردي. اتجاهك السياسي؟ مستقل... من هنا كان يبدأ نقاش طويل حتى ان زملائي تعودوا على ذلك (النشيد) المتكرر. في تلك المرة جاء دور زميلي، كردي منقلب لم يعرف اللغة الكردية اصلا، فأخذ يتفذلك "استاذ، شنو الفرق بين كردي وعربي؟ اكتب بكيفك" يدي ولساني الطويلان تحركا "ولك جبان، گول آني كردي" كأنها معركة بين القطط، والاستاذ فليح يتفرج علينا حتى صاح بنا بصوته الضخم ولاحظت ابتسامة لئيمة من ذلك الزميل. لكن المفاجأة كانت ان صياح الاستاذ كان موجها إليه فقط "ولك شبيك يولد. ليش تنكر اصلك؟" وكأن ماء مثلجا انهمر على قلبي في وسط الجحيم.

الآن وبعد تلك العقود المؤلة، استنتج ان لا انا ولا ذلك الزميل، الذي أحن لذكراه واعجب بسرعة البديهة عنده، كنّا على صواب. مواقفنا كانت مجرد إنعكاسات لما سمعناه في البيت من تراكمات الأجيال وكنا أطفالا لاندرك ما نقول والنضج لا يأتي إلاّ بعد تجرد الإنسان من تراكمات انتمائه العائلي... اما بالنسبة لموضوع الاحتكاك العربي الكردي، فإن الإنتماء الكردي العراقي والإنتماء العربي العراقي، كل على حدة، له مشاكل بجذور عميقة. لايمكن إنكار حزازيات قومية حادة بين الأكراد والعرب خاصة بعد تجارب العقود الماضية، لكن اعتقد ان مشاكل الإثنين بحد ذاتها نواقص داخلية خاصة بهم، فليس العربي مسؤولا عن هزائم الكردي ولا العكس...

اهيب بالقاريء ان لايستعجل في الحكم. الكردي الذي اعتاد ان يقرأ نفسه كأكثر الناس تظلما واستحقاقا عليه ان لايزيح وجهه عن حقائق في ثقافتنا وطبيعة انتمائنا هي المسؤول الأول عن التعاسة وقد يصادف هنا انتقادات ألذع مما قد يقوله أعداؤه... اعتقد ان الكثير سيتحيرون في تفسير (مع من يقف هذا الكاتب وضد من؟) فقد اعتاد الناس على شق الوجود الى قسمين، ملائكة بيضاء يمتدحونها وشياطين سوداء يذمونها والقليل يدرك مدى قوة وأهمية (الوسط والاعتدال) وعادة ما يكون المعتدلون أكبر الخاسرين وأول الضحايا...

هذه السطور كتبت في التسعينات حيث كان بقاء البعث في السلطة يعطي غطاء

لتكرار تلك الحجج الزائفة التي تلقي بكل التبعات على الشوفينية والاستعمار والشياطين الوهمية... كذلك العربي، انا تنفست ذلك الإنتماء، خبزته وعجنته، فكفانا ذلك النفاق الذي يلحق بالمؤامرات والطناطل الغيبية كل الأخطاء. لقد كتبت كي أنتقد وانتقد فقط تاركا المديح الفارغ لجيوش المادحين.

الجو خارج البيت كان جوا من التبعيث والهزائم المتلاحقة للإنتماء الكردي. أما داخل البيت فكنا عائلة أبوية المرجع ودينية الجذور. في كنف والدي وأصدقائه من سياسيين وكتبة ومؤرخين ولغويين عربا وكردا، كان سؤال واحد يدور في الأذهان "نحن الأكراد من نكون؟ ولماذا كل تلك الهزائم؟ أهو الماء، الأرض، الهواء، أم القدر والمؤامرات؟".

قد تكون تلك الأجواء الكئيبة سببا اني بعكس أكثر الناس لا أحن لأيام الطفولة، بل أحمد الله أنها ولت واحلى ما في الأمر انها لن تعود. من جهة أخرى، الجو الاجتماعي والسياسي كان كئيبا. كنت اعاني من التهاب مزمن في اللوزتين وروماتزم قوي في الركبة. كنت طفلا (مربع) من كثرة الملابس الصوفية التي فرضتها ثقافة العائلة الصحية وكانت تنفذ بأوامر أبوية اشبه بالأوامر الإلهية بأن على الطفل ان يلف او بالاحرى ان (يعلب). حتى أن الدكتور عبدالحميد البستاني (رحمه الله) حذّر اهلي أني قد لا اعيش طويلا. عيادته كانت في ساحة النصر، منطلق الباص رقم ٢١ المتجه الى حي الشرطة، ومكافأتي على الذهاب الى الطبيب بدون معارضة وبكاء كانت كأسا من عصير البرتقال الطبيعي أتجرعه كأنه خنجر يشق البلعوم الملتهب لكني لم أكن اقاوم طعمه اللذيذ. كان هناك بائع عصير تحت العيادة طبع وجهه في مخيلتي. وجهه اسمر حليق وجامد بقميص أبيض و(عرقچين). حركات يده على ماكنة عصر البرتقال كانت أشبه بحركات الراقصات الصينيات، بينما ابتسامته التي لم أرها مطلقا والجامدة كانت تذكيرا دائميا أنه بغدادي قح جفت ابتسامته منذ توقف تدفق الجواري على بغداد مع نهاية عصر هارون الرشيد. كنت أتعمق في تلك العينين انه يختلس النظر ولكنه يتجنب المصادمة، ما ألذي كان سيفقده لو قال "أشلونك ابني" او شيئا كهذا؟

على مر السنين والزيارات المتكررة كنت اقيس زيادة تدريجية في نموي حيث ان الدكتور ايضا حذر من احتمال تأثير المرض على طول القامة. الطول تغير ونموي كان طبيعيا والحمد لله لكن لا المرض تغيّر ولا بائع العصير تغيّر. كل شيء كان جامدا في الحياة، لكن الديمقراطية كانت ملموسة فكلما بحث اجراء العملية معي، طبعا كنت

ارفض، فيقوم مجلس العائلة الموقر بالموافقة، او بالاحرى بالتملص من مسؤوليته. ليتني كنت من دين يلزم بقلع اللوزتين قبل الختان، فإن جراحة بسيطة كانت ستنهي العذاب. فأما الصحة والعافية، وإما نومة أبدية لا يطالها أغنى أغنياء الأرض في الشيراتون وبرج العرب!.

من أهم تجارب الطفولة الكئيبة هي زيارة لمعرض بغداد الدولي. كانت فرقة سيرك تعرض هناك وكانت "أول وآخر" مرة أرى فيها السيرك على الطبيعة، ويا لهول ما رآه الطفل المعلب الذي يعاني العذاب مع كل مرة يبتلع فيها ريقه، دعك من الحركات العجيبة والحواري ذوات القوام الأكثر من الفاضح فالميول الجنسية عندي جاءت في وقت متأخر جدا. بلوتي كانت في رؤية اطفال في سني يشعون بياضا كالمصابيح ويلبسون قميصا واحدا أو لا يلبسون ثم يؤدون حركات بهلوانية بتشجيع من اهلهم. شعرت ان هناك كوكبا آخر ضمن كوكبنا، كوكب اشقر تجمع فيه الإنطلاق والحرية والثقة بالنفس اما في كوكبنا فقد تجمع الخجل والتقيّد والخوف من كل ما هو جميل وحر ومفرح ومنفتح. دعنا من امراض الجسد بل انها أمراض العقل والثقافة ففي تقاليدنا كل شيء كان عيبا وان عقلي الباطن كان قد استسلم، حتى قبل ان اتذكر، الى [حقائق ملفقة كما يقول العقاد] بأني أقل من الناس. الحركة تعتبر عيبا ومضرة صحيا واجتماعيا كل شيء عيب وخطأ وجريمة، خلقنا لنتعذب وفي الحياة الأخرى سنلاقي ماهو افضل.

لقد كان احتكاكا عجيبا بين اطفال سيرك أوروبي وطفل من عائلة كردية دينية محافظة قد هزمت دينيا وقوميا وكانت في حالة احتضار دينيا، كان العصر عصر المد الأحمر والماركسية التي كانت في أكثر أوجهها تمردا على الآباء التقليديين كأبي؟ أما قوميا فحدث ولا حرج عن وضع الكرد. على كل حال لو أحصينا إختلافات المراحل والبحور الواسعة التي فّرقت بين ذاك الطفل الجالس في أحد الصفوف وذاك الطفل البهلوان على بعد أمتار منه، المسافة الحقيقية كانت عدة سنوات ضوئية،

لكن صبرا يا سپارتاكوز الإنطلاق هو ذلك التحدي الذي دفع ذلك الطفل المريض الى اللعب وبتفوق في النادي الفلسطيني للقتال الأعزل أحد اعنف الأندية في بغداد كي يثبت انه ليس مريضا بل في السنوات اللاحقة اصبحت مشكلتي هي في تهدئة النفس بأن كفاني انطلاقا وتحديا وإثباتا للنفس، لقد هزمت واهمة الخوف والنقص ومع اول

فرصة نلتها باستحقاق سافرت وحدي إلى أوروبا بالباص والقطار والأوتوستوب، في السابعة عشرة، هناك كسرت حواجز الخجل والتردد بقوة الدينار العراقي رحمه الله وقبضت على شقراوات من شعورهن وعدت الى بغداد مبجلا كالفاتحين. تلك ايام الجاهلية ومن لم يتجاوزها فعليه بها.

قد يظن البعض ان الكاتب احد المنقلبين على السلطة الأبوية وما إلى ذلك، لكن مهلا، الأمر ليس بتلك البساطة قد اكون اعنف على دكتاتوريات الأنوثة والنَزاكة والتصنع منها على السلطة التقليدية للآباء حتى اني لا أرى تصرفات والدي من تراكمات سلطة الرجال، بالعكس ان روح الخجل والعيب كانت من ترسبات الأنوثة والشيخوخة المتراكمة عبر اجيال طويلة لمجتمع كهل إنطوائي خجول، لاحقا ادركت ان والدي وبدون ان يشعر كان مُسيَّرا من قبل جيش من نساء عائلته، جيش أسود اللون، استهلك أكبر كميات من الاقمشة السوداء من الأسواق وكان يبجل فيه الغضب والتسلط والأنانية فكلما زاد من قائمة المحرمات ثبت لهن انه هو الرجل الذي من المفروض ان يكون كذلك والا كيف يحترمونه؟ اشهد انه حاول التحرر بل هو قاومهم لكنه في النهاية ساير واستلطف تلك العقلية التي تؤله الابن البكر للجيل الثاني عشر من علماء الدين نصفهم الأخير حمل لقب جلي زاده.

حادث عرضي

الرغبة في دراسة التاريخ تعود لحادثة معينة. كان عندنا قصة قديمة أو ملحمة شعرية باللغة الفارسية تسمى الإسكندرنامة، قصة الإسكندر شبيهة بقصص أبي زيد الهلالي من مبارزات بين ابطال ومعارك بين جيوش ومكائد بين العيارين والشطار، والدي كان يقرأها لنا بترجمة فورية من الفارسية إلى الكردية لدرجة اننا مع اخوتي واقربائنا كنا نعتقد انها مكتوبة بالكردية وكانت إحدى اهم وسائل التسلية لعائلتنا قبل الإدمان على التلفزيون.

القصة كانت تصور الإسكندر على انه ملك فارسي مسلم يجاهد الكفار لنشر الإسلام، انها فذلكة عجيبة. على كل حال كنت في الصف الثالث او الرابع الإبتدائي حين اصطحبونا لأول مرة إلى مكتبة المدرسة لتعلم استعارة الكتب فإذا بعيني تقع على كتاب صغير كتب عليه الإسكندر الأكبر. صرخت بأعلى صوت اسكندر! دهشة المعلمة

واستهزاء الطلاب كانا احن وطأً من صدمة الكتاب نفسه فالإسكندر هناك إختلف كل الإختلاف عن اسكندر البيت، لم يكن شيخا وقورا بلحية بل كان شابا وسيما ونصف عار، فأين الحشمة والوقار؟ أليس من المفروض ان يكونوا معلبين بالأقمشة والا أغضبوا الله؟ ثم إنه لم يكن فارسيا او مسلما او اي شيء من هذا القبيل بل كان ألد اعداء كل ما يسمى الفرس والشرق وما إلى ذلك، وهو أصلا عاش ومات قبل الإسلام.

في البيت كنت متحضرا (لمحاكمة) والدي أو على الأقل لطلب النجدة منه كي يقول لي ان ما قيل لنا في البيت لم يكن كذبا. بدأت الأسئلة: بابا اي منهما الصحيح اسكندر البيت ام اسكندر المدرسة؟ كتاب المدرسة هو الصحيح يا بني فالإسكندرنامة مجرد قصة للتسلية، قالها مبتسما وكأن شيئا لم يكن. يعني أسكندر ليس مسلما ولا فارسيا ولا اي شيء فكيف تجرأوا على الادعاء أنه ملكهم وانه مسلم وكيف ولماذا وعلى اي اساس لجوج وكثير الأسئلة كما كنت دائما، فقال: يا بني هناك الكثير من التزوير في التاريخ وهذا شيء بسيط.

انتهى ذلك التحقيق مع والدي أما بيني وبين نفسي فهو لم ولن ينتهي ما دمت حيا لقد كانت بداية طريق طويلة من قراءة كتب التاريخ، لقد التهمت الكتب وتنفست الأمم لسنين طويلة ليس بقراءة فحسب بل قراءة مابين السطور فهي اهم مما يسطر، فإذا بي اكتشف فذلكات وتشويهات وادعاءات ليس في القصص الخيالية فقط بل في الكتب الموثقة والأديان والمناهج والبرامج الدولية ومسلمات عامة، بالمناسبة آخر ما اكتشفته ان ريتشارد قلب الأسد لم يتكلم الإنكليزية[1] بل الفرنسية وانه قبل توليه العرش تحالف مع الفرنسيين ضد والده الذي كان ملك إنكلترا وان تحديه الأكبر هو الأنثى التي طاردها اكثر ايامه وحارب المسلمين من اجلها ثم قتل على اعتابها في الحقيقة كانت باريس وليس لندن، ثم انه لم يكن ورعا تقيا كما نتصور بل كان عسكريا متحررا وصريحا لسانه طويل ويده أطول وأكثر ما كره هو نفاق رجال الدين. زيادة في الإيضاح فان ريتشارد كان من احد بيوت النورمان ثايكنگ، آخر موجة قبلية تجتاح أوروبا الغربية غزوا الكثير من البلدان ولكن كانوا مستَقطَبين بدرجة رئيسية إلى باريس. على القاريء ان لايتسرع برد الفعل فما قصة روبن هود وريتشارد إلا

(1) Barlow- Frank THE FEUDAL KINGDOM OF ENGLAND1042-1216. Fifth edition. Chpter.10 (the Angevin Despotiosm 1189 - 1216)

اسكندرنامة اخرى ابتدعتها المجتمعات الأنثوية المستقطِبة، بكسر الطاء، في سبيل تقوية انتمائها الوطني ويبدو ان الإثنين، الفرس والإنكليز، نجحا في وضعا الوطن فوق الدين والمذهب والآيديولوجيا والاحزاب وفوق كل شيء فتشطر انت وافعل مثلهم لأجيالك القادمة تلك هي لعبة الأجيال.

فذلكة أخرى، خط العرض ٣٦ الذي كان الإعلام العالمي يصوره ويتحدث عنه كأنه سور الصين العظيم يفصل الأكراد عن العرب، ألم يتساءَل احد مع نفسه ان الموصل (قمة تعصب المدينة على النسق العربي) تقع شمال ذلك الخط وان السليمانية (قمة تعصب المدينة على النسق الكردي) تقع جنوبه فما كل تلك الدعاية في UN ونشرات الأخبار؟ مثال آخر ترى ما الذي يتخيله القاريء عندما يسمع باسم ساطع الحصري؟ نظرا لتناغم الكلمتين (حصري وحصير) كنت أتخيله شيخا ملتحيا يجلس على حصيرة ماسكا بيده مسبحة تتكون من ١٠٠٠٠ خرزة. فإذا بالاستاذ حسن العلوي ينبهنا بأن الموما اليه تكلم التركية والإيطالية والفرنسية ولم يتكلم العربية إلا بمساعدة مترجم عسى ان لا يعتقد احد اني ضد ذلك النوع من رجال الدولة العراقية الفتية، المهم في الموضوع هو إزالة الوهم والوجل عن اعيننا في تصورنا عن الماضي.

قد يتساءل البعض هل ان الكاتب يشبه أباه، جاء يردد ما تعلمه منه؟ اعتقد ان التجرد والحيادية المطلقة قد تكون للملائكة فقط لكن قبل كل شيء عليَّ ايضاح حقيقة مهمة: والدي نفسه ولد عندي عقدة كبيرة بسبب تلك المقاسات الصعبة جدا في تقييم الكتبة والشعراء والمفكرين وحتى الفنانين، مثلا في مقابلة تلفزيونية مع السيدة ابتسام عبدالله في برنامج سيرة وذكريات، المقابلة سجلت في ١٩٨٤ لكن عرضت في ١٩٨٥، هناك كرر ما كان يكرره في مجالسه وقال (العقاد في النثر والمتنبي في الشعر يبدأون من حيث انتهى باقي الناس أي انهم والقليل من أولئك الفطاحلة فقط يستحقون ان يقرأ لهم وكان يستخف بالكتابة في اي موضوع مكرر، فيقول الأمر قد بحث فلم التكرار وعليه عندما بدأت الكتابة في ١٩٩٥ فان الرقيب الأول كان شبح والدي. على كل حال سأترك المطلعين يقررون مدى تشبه الابن بأبيه ولن اهمل في الأشارة الى المصادر التي اعتمدت عليها ان كانت سماعية من والدي وأصدقائه ام كانت مقتبسة من مصادر اخرى، على الأقل كي لا أتحمل وزرها اذا كانت آراؤهم لاتلائم توجهات القاريء.

في ١٩٩٣ تركت بغداد نهائيا عائدا لكردستان المحررة. وإذا بي اسمع عن صِدامات ومعارك بين الأكراد حتى كان ربيع ١٩٩٤ أزيحت الأقنعة عن حقيقة انتمائنا الإنقسامي المتناحر بحرب اهلية مجنونة. الأمر في البداية لم يصل حد انفصال مدن وأقاليم عن بعضها وفي أواخر ذلك العام بدا ان جهود الوساطة قد آتت ثمارها وما كاد الجو يهدأ حتى اندلع القتال بإصرار اقوى لإقصاء وإفناء الآخر، هذه المرة اصبحت هناك خطوط وحدود جديدة تفصل الدويلات والإنتماءات والعصبيات القبلية والمدينية. فلاسفة الحرب اكتسحوا ساحات الإعلام وسمموا العقول المدمنة أصلا على السموم. مشكلتي لم تكن معهم بل كانت مع دعاة المصالحة فعشرات من محطات الإذاعة والتلفزيون دأبت على عقد لقاءات وندوات لوقف الحرب وبحث أسباب الحرب، وهنا كانت فاجعتي، الكلام كان يتمحور حول نقطتين أولا المؤامرات وثانيا صراع الطبقات. الطبقات هي الخطوط الأفقية للمجتمع بينما الدافع الرئيسي للحرب والإنقسام الأبدي للأكراد وغيرهم من المجتمعات هي الخطوط العمودية التي تقسم الشعوب الى مدن وقبائل ومناطق ومذاهب ومرجعيات، كلها وحدات إنتمائية مستقلة وضيّقة تعتبر كل إنسان من خارج ذلك النطاق كرديا كان ام عربيا او هنديا تعتبره اجنبيا وهي بحد ذاتها مراتع نمو نظريات المؤامرة لدفن الرؤوس في الرمال، للّه أقول اني سمعت مراسلا للـ BBC قال ان الحرب الكردية صراع مناطق أو أقاليم، تلك كانت الإشارة الوحيدة.

الحالة المعيشية في شتاء ١٩٩٤–١٩٩٥ كانت على اسوأ ما يكون زوجة وطفلان في بيت بُنيَ من البلوكات الكونكرتية التي هي احد أعداء البشر جسميا ونفسيا وبقليل القليل من الماء والكهرباء والوقود والطعام والأمل في ليال سوداء متجمدة بدأ بعض الأجوبة يتبلور على اقدم الأسئلة مرارة، التراشق بالشتائم العلنية ثم تلك المؤتمرات والسيمينارات والفذلكات وتنميق العقائد ماركسية او دينية كانت تخلق عواصف فكرية تستحوذني فبدأ مخزون قراءات الماضي ينضح بأفكار ومقارنات وإثباتات تتسارع لتكمل بعضها. الفقر والبطالة دفعاني للاستغراق في الكتابة والملاحظات المدونة تحولت الى دفتر يلازمني طول الوقت. الشخص الوحيد الذي عرضت عليه كتاباتي في التسعينات كان الاستاذ عبدالخالق علاءالدين كاتب معتبر من بلدتنا كويسنجق وهو صديق للوالد والأهم انه من بلدتنا كوي وبما أنه كويي اذن فهو (خۆیی) كما نقول

بالكردية اي انه منا تلك التنغيمة اللغوية هي مصدر كلمة (خۆییاتی) وستكون أحد محاور حديثنا. على كل حال كان تشجيع الاستاذ الفاضل عبدالخالق علاءالدين دافعا مهما لزيادة وتطوير الكتاب الذي كبر وتضخم وتفرع الى عدة كتب عبر السنين اللاحقة حتى بدأت احس ان في جيبي رسالة يجب ان تصل القراء ويجب استخلاص الأبواب والأفكار حسب التاريخ واللغة والسياسة لكنها كلها تدور حول بؤرة فكرية بسيطة وهي نوعية شعور الإنسان بالإنتماء.

كنت قد عرفت الحالة المادية المزرية لوالدي ومعظم أرباب القلم في العراق وعليه اني استبعدت فكرت إمتهان الكتابة في بغداد. لكن لكوننا عائلة معروفة في كردستان قلما نظر الي الناس بأني محمد فقط حتى أكثر الناس ادعاء بالتقدمية وروح العصر شئت أم أبيت كنت في نظرهم ابن فلان ثم يقال أنه، (الابن الذي لم يشبه أباه مع الأسف، لقد انتهى عصر الرجال آه يا للحظ العاثر) فتبدأ مناحة تغذي عبودية لذيذة واستسلاما مريحا للقدر وعليه نفس التحدي والعنف الذي دفع الطفل المريض الى مغامرات، دفعته لمحاولة إثبات ذاته في ميدان الكتابة متحديا التعليب الجديد أهو تحد جديد؟ فليكن كذلك ويا أهلا بالمعارك.

في ١٩٩٨ سكنت الجبهات الكردية الكردية لآخر مرة لا أعادها الله ثم سرى النفط وتدفقت الأموال وتحسنت الأمور فسنحت فرصة لنشر جزء من الكتاب في سلسلة مقالات في مجلة (شانَدَر) التي كانت تصدر عن مديرية الآثار في اربيل عن الشرائع والأديان العراقية القديمة وعلاقتها بالتعصب المديني في العراق القديم. كما كان متوقعا بدأت الاعتراضات والتخوفات من قول أي شيء حقيقي وخارج عن الأناشيد المعتادة، ففضلت الإنكفاء وتجنب وجع الرأس. من الصعوبة بمكان ان يتقبل المجتمع شيئا جديدا وان سوق الثقافة الكردية كان يتكون من شارعين عقائديين لا ثالث لهما الماركسية والإسلام، عليك ان تكون احد دراويشهم، أما أن تكون مثقفا حرا غير آيديولوجي عند ذاك لن يبقى لك غير التحزب وليس للوسط الا هامش يسير من فتات الموائد هذا وأن معظم المثقفين الكرد ككل العراقيين يتبعون نظرية المؤامرة فالشعب دائما مظلوم ولم يخطيء ابدا على نسق ما كان عزيز كريم يغني مرة يقول "دكتور دخل الله ودخلك ما تداوينا الداء اللي بينا منا وبينا" ممتاز، تلك هي الحقيقة بعينها لكنه نفسه يرجع ويغني "منه منه كلها منه، مصايبنا وطلايبنا كلها منه" المونولوج الأخير هو

أحسن سلوى للنعامة التي تغرز رأسها في الأرض، فتسمعهم يتكلمون عن نواقص المجمتع وتخلفه ونزوعه للاقتتال (وكيفما كنتم يول عليكم) الخ لكنهم في آخر لحظة يبدلون "الگير" ويقولون طبعا هي كلها خطط امريكية. وقبل سقوط النظام كان الأكراد يقتلون بعضهم ثم يقولون طبعا هي (كلها خطط صدام حسين) يا لقوة الذكاء وبعد النظر.

في عام ١٩٩٩ كان والدي قد بلغ الثمانين واشتدت عليه اعراض مرض الزيهايمر من فقدان للذاكرة وأوهام وموجات عصبية. لم يطلع على مقالاتي مع انها كانت تحت يده فهناك حاجة في نفس يعقوب منعته من الخوض فيها اضافة لعامل السن الذي منعه حتى من كتابة أسطر بسيطة في مناسبات العزاء وما شابه مع انه في الماضي ماكان يضع قلمه على الورق إلا وأنتج ٢٠-٣٠ صحيفة بدون توقف وبدون اي مسودة او مراجعة، هكذا كان اكثر حياته ككاتب. اليوم اعرف ان شخصا مثل رونالد ريگن قد أخفي عن الأنظار لمدة عشر سنوات لكي لا يراه احد بالحالة المزرية التي تنتج عن ذلك مرض العضال، اما عائلتنا التي تعتبر من العوائل المثقفة نسبيا فقد تعاملوا مع الموقف تماما بعكس المطلوب، تصرفاته تحولت إلى تصرفات صبي في العشرين تتنازل سنه مع الوقت حتى وصل مرحلة طفل يصرخ من أجل آيس كريم او جولة بالسيارة. مع ذلك فالمجتمع والعائلة دأبت على تمثيلية متعبة ومكلفة جسديا واجتماعيا على انه هو الفيلسوف الذي لا يخطأ أبدا، أول ما بدأ به كان اتهامات حول اناس يريدون قتله وقد كنت من اوائل المتهَمين ثم ازدادت لائحة الإتهامات حتى طالت مسؤولين واحزابا، سبحان الله هو الذي شارك في اكثر الوساطات السلمية بين الاحزاب الكردية وبغداد وبين الاحزاب الكردية نفسها، هذه المرة كان على شفى ان يؤجج حربا اعلامية قد تتطور إلى جولة إقتتال بين الأكراد لولا تدارك العقلاء من الطرفين.

السنوات الثلاث كانت كابوسا حتى وافاه الأجل في ٢٠٠٢/٤/١ وخير ما قيل بصدد موته جاء من صديقه الشخصي الاستاذ عبدالله حسن زاده سكرتير الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني حيث شهد سنوات تدهوره عن قرب فقال لي في مجلس العزاء (والدك كان يتمنى لو أن موت لينين تأخر عشر سنوات وأن موت ماو تسي تونگ تقدم عشر سنوات، فياليت لو ان موته هو ايضا كان قد تقدم بعض سنوات). كلامه يبدو خشنا غير انه في الواقع ينم عن وفاء ومحبة قلَّ نظيرها.

بعد المراسيم الطويلة تلبدت الآفاق بسحب الحرب. الحاجة دفعتني للموافقة على اول وظيفة تعرض علي، مترجم مع تلفزيون CNN في فترة الحرب، كانت تجربة مثيرة ومجازفة خطيرة في نفس الوقت. بعد الحرب لاحت فرصة اخرى. هذه المرة عملت مع المفوضية السامية للاجئين UNHCR لأكثر من عامين في مدينة كركوك... تلك التجارب جعلتني أغير الكثير من وجهات نظري بتلك المسميات التي تبدأ بحرف :U، فال UN و US ليست بالشر والتآمر كما يعتقد البعض، لكنها عوالم تسيّرها الأنوثة والتصنع، وهي ليست بذلك الخير المطلق حسب ما كان يتوهم والدي، المناهض اللدود للماركسية. رحمك الله يا أبي، لو انك رأيت ما رأيت لعلمت ما الذي دفع ملايين البشر لمستنقعات الشيوعية.

خلال عملي مع الإعلاميين ثم إطلاعي على كتب وبرامج ثقافية غربية، احسست بنقطة جوهرية يختلفون فيها عنّا. هم لايهتمون كثيرا بما (تدرخ) انت من كلام منمق بقدر اهتمامهم برأيك الشخصي والكلمة الصادرة من العمق. تلك النقطة هي التي تدفعني الآن لإطالة الحديث عن خلفياتي الشخصية، فعلى القاريء ان يعرف الكاتب أولا، ثم بعدها يقرأ كتاباته وان اهتمامنا يجب ان ينصب على الإنسان الطبيعي وليس الأبطال والعمالقة الوهميين... من جهة اخرى، العمل في كركوك اوضح الكثير من الخلفيات التاريخية والاجتماعية لتلك المدينة التي ينتمي اليها أخوالي من بيت (الخانقا) من كركوك. كركوك هي إحدى اكبر عقد وذنوب العراق، وهي مع غيرها من مدن سهول زاگروس من اكبر المعاضل التي اثبتت مدى ضعف الإنتماء الذي انبتته تلك الجبال على مدى التاريخ. تكفي اشارة بسيطة هنا أن ما كنت قد كتبته في التسعينات عن تلك النواقص، عاودت الاحتكاك بها بعد ٢٠٠٣ وصدقت توقعاتي ان الأمر يعود للعنصر النسوي الكردي نفسه. لقد كنَّ عبر القرون ينفرن من لهجات اهل الريف منقلبات الى السريانية ثم التركية. اما الآن فهن يفضلن العربية مع ان بعضهن لم يفرقن بين المذكر والمؤنث في اللغة، سيعرف القصد لاحقا.

في فترة ما بعد سقوط النظام صادفت تجارب جديرة بالذكر تخص نظرية المؤامرة ومسألة (هل نحن مُسَيرون أم مُخَيرون) والتي تدخل في صلب بحثنا. منها ما اختبرته خلال انتخابات بداية ٢٠٠٥ حيث توجه العراقيون الى صناديق الاقتراع. الانتخابات بالنسبة للأكراد كانت بشقين، أحدهما كأي عراقي لإنتخاب (قائمة) للتمثيل في البرلمان

العراقي والآخر كان لإنتخاب (قائمة) للبرلمان الكردستاني وكلها (قوائم) وقلما يعرف المواطن من سيجلس في البرلمان ليصرخ ويدافع عنه!.. الحزبان الكرديان الرئيسان كانا قد وحدا قوائمهما وكان حصولهما على أكثر من الثلثين يعني امتلاكهما حرية كاملة في القرار وبالتالي إدامة نفس حالة الجمود وتجدد خطر الحرب الأهلية حال زوال الأخطار الخارجية... شخصيا وافقت على أول عرض بالاشتراك مع (قائمة) من المستقلين منضوية مع (قائمة) لحزب صغير متواجد على الساحة. الشرط الهام عندي انهم كانوا مستقلين دون الاكتراث الى الخلفيات.. لكن ما يهمنا في الموضوع هو الرأي العام وتوجهات الشارع وما تسوده من ثقافة هزيلة، فقبل وأثناء الانتخابات دخلت في الكثير من المناقشات مع أناس كانوا يتذمرون من الأوضاع غير المستقرة والجمود والتخلف، هناك كانت صدمة أخرى. الأكثرية قالت مايلي: أخي انت لا تعلم حقيقة ما يجري. انها خطة أمريكية (سرية!) وكل شيء قد تم ترتيبه بأن يستمر الحزبان في السلطة... حسنا يا اخي، إذا كنت متأكدا من تلك (الخطط السرية!!) وانت تتذمر من سياسات الحزبين وانفصال الإدارات الكردية، فصوت لأي قائمة مستقلة لعلك ستوصل ولو صوتا واحدا من خارج النطاق التقليدي الى البرلمان، ولن تخسر شيئا. لكن الجواب كان دائما وأبدا وبإصرار: لا يا اخي لا. أنا أعرف ما يدور. انه قرار أمريكي (سري) لايعرف به أحد سواي!.. لايسعني هنا الا التذكي بمسلسلة مصرية للفنان عادل إمام (دموع في عيون وقحة) حيث يركب احد الباصات فيتوقف السائق في محطة ما مناديا على الركاب (القاعدة السرية)!!!. يا لسرية تلك المسميات التي لا يعلم بها سوى أمم محمد وعيسى وموسى! فهل من إزدواجية وتغفل أكثر من هذا؟

الحقيقة ان ما حصل من تخلف وانقياد وراء الأوهام في تلك الانتخابات كان خيبة كبيرة تذكرت فيها آخر ايامي في بغداد حين ألغى صدام حسين ورقة نقد عراقية من فئة ٢٥ دينارا ومنع التجار الأكراد والأجانب من ابدال مدخراتهم في البنوك العراقية فخسروا البلايين. في وقتها استهزأ بي بعض المعارف في بغداد متفاخرين ان (صدام حسين ذكي لا احد يقدر عليه) كان جوابي لهم ان عمله هذا كأنه يعلن للبشرية (يا سكان الكرة الأرضية إياكم ان تثقوا بأي شيء عراقي والى الأبد). وبالفعل، ما مرت اشهر حتى بدأ العد التنازلي المميت للدينار العراقي... اما ما فعلناه نحن الأكراد في انتخابات ٢٠٠٥ فكأننا أخبرنا العالم باعلان (سري) أننا أميون ندرخ أناشيد عن

الديمقراطية لكن لانعرف كلماتها، وأننا خبطة كونكريت كانت قد جفت حتى قبل ان تصب في الانتخابات السابقة في ١٩٩٢ وما من ديكورات تخفي التشققات.

بعد اشهر قليلة من انتخابات ٢٠٠٥/١/٣١، تدهور الوضع الأمني تصاعديا في كركوك، تكفي الإشارة الى ان الحزبين الرئيسين فشلا في تعيين محافظ جديد ولمدة ستة اشهر حتى استقر الرأي على الإبقاء على الأوضاع (كما كانت) مع حصولهم على اكثرية مقاعد مجلس المحافظة فما بالك ببرلمان كردستان وبرلمان العراق اللذين ملئا (بموظفي القوائم الحزبية)؟.. ثم ان العمل مع ذلك الروتين الجامد لمنظمة UNHCR والوضع الداخلي الأعقد للمدينة، اصبح لايطاق. من جهة اخرى، الروماتيزم المذكور من ايام الطفولة كان قد ترك آثاره فكان لابد من اجراء عملية جراحية تضع حدا للسوفان الحاصل في الركبة. العملية أجريت في ٢٠٠٥/٨/٢٢ وقد اقعدتني في الفراش أربعة اشهر.

تلتها أشهر اخرى من التنقل بالكرسي والعكاز، فكانت فترة مثالية للمراجعة والكتابة. قامت (دار آراس للنشر) مشكورة بطبع الكتاب، وكان باللغة الكردية، إلا اني حين قرأت ما كتبت تعرفت على مقدار الأخطاء. فالكومبيوتر وان كان يسهل الكثير، فإن كثرة انقطاع الكهرباء وعمليات الـ(copy–paste) تركت اثارا سلبية قد لايعرفها إلا كاتبها. قد يتخيّل الناس ان الكتبة أناس يجلسون في ابراج عاجية، اما خادمكم فقد جمع بين الكتابة والميكانيك. ساعة اكتب وساعة اعرج بعكازي على مولدات الكهرباء لأرى حال الطوافة والفلتر والبلكات... الخ. ازدادت لعناتي على الثقافة الإتكالية، ثقافة سرقة الكهرباء والتفاخر بنصب اكبر عدد من (السبلت) حتى في المطابخ والتواليت! يا لقوة الوعي وقوة الإنتماء، ويا لشدة التماسك والولاء!. ألا لعن اللّه كل ما تحمل كلمة Split من معاني، والحليم تكفيه الإشارة.

الطبعة الأولى كانت باللغة الكردية بعنوان (ولآتى بى پايتەخت) أي (بلدان بدون عواصم) وحملت نفس التوجهات، لكن هنا وباللغة العربية أجريت تعديلات كبيرة وتصحيحات لأخطاء وإضافات جوهرية.. السبب الذي دفعني الى اعادة صياغته باللغة العربية ان في الثمانينات كانت المطبوعات الكردية قليلة وتقرأ من الألف إلى الياء، أما جيل مابعد الإنتفاضة فالساتالايت والـ(بلي ستيشن) تزاحم عقولهم. والذين يقرأون شكلت اللغة العربية اساسا من ثقافتهم. هناك ايضا مشكلة تعدد اللهجات الكردية

التي أجبرت سكان بلاد زاگروس على مر العصور الى الجوء للعربية والتركية والفارسية من أجل التواصل. أخيرا وليس آخرا، هناك ذاك البحر من القراء العرب.

ملاحظة: بعض العناوين التي كان من المحتمل ان تتصدر الكتاب هي العناوين التالية:(عصبية المدن) لعبة الأجيال.. العواصم المصطنعة.. تعصب الحضر.. نعرات المدن.. العصبية والأممية. الإنتماءات وأجيال.. أخيرا استقر الرأي على العنوان الحالي، وعليه توكلت.

مدخل وتمهيد

اللغة الكردية رغم فقرها النسبي، تنفرد بين اللغات التي اعرفها بكلمة خوييـاتي[1] Khoiaty المشار اليها آنفا. مرادفاتها في العربية قد تكون النعرة، العصبية، التحزب او حتى (التزمّر) اذا جاز التعبير. إلا ان ليس منها واحد يجسدها بالضبط. فمصطلح العصبية التي استعملها ابن خلدون توحي لدرجة ما إلى ثارات القبائل. اما (النعرة) فهي وان كانت قريبة جدا إلا أنها أكثر ما تدل على الفروقات المذهبية. اذن، ليس في احدها التطابق التام كما التطابق بين الكلمات (واحد، يَك، One).. الخوييـاتي في الكردية اسم وفعل في نفس الوقت. هي اسم لحالة من المشاعر وهي في نفس الوقت فعل لاإرادي يترجم به الفرد شعوره بالإنتماء. فقد يجتمع شخصان عراقيان في الخارج ويحصل إنجذاب وتعاون طبيعي بينهما، فهل نعتبر تلك التصرفات (نعرة عراقية)؟ لا ادري، قد تكون كذلك بوجهة نظر البلد المضيف!.. ليت العرب يتبنون تلك الكلمة الكردية. فالإنكليز مثلا تجاوزوا العقدة وتبنوا عشرات الكلمات مثل Sahara، Safari، Gazal، Peshmerga، Kamikazi الخ. سأحاول التنطط بين كلمتي (نعرة وعصبية) معتبرا ان العصبية تحزب عنيف. اما النعرة، فسوف استعملها للدلالة العامة على الانكماش والانشقاق والتقوقع ضد الآخرين.

الإنتماء والخوييـاتي وجهان لعملة واحدة فالأول هو نوع من الشعور، أما الثاني فترجمة ذلك الشعور وما يتبعه من مواقف. في برنامج تلفزيوني يتحدث عن عصابات المافيا ذكروا ان افراد المافيا، عوائل إيطالية تعيش في امريكا، اذا جلب احدهم صديقه الى البيت، عليه ان يخبرهم مدى ثقته بهذا الغريب. فإن قال "انه صديقي" يعني

(١) الكلمة تتكون من شقين (خۆ) بمعنى النفس أو الضمير (Self) و(خۆيي) بمعنى (الأقرباء والمعارف) ثم الاحقة (تي) الملتصقة بها. فكلمة خوياتي ليست على وزن (ساعاتي) او ماشابه. بل هي نفسها في Sexuality Humanity Nationality مثلا الحاقها بكلمة عرب تصبح عربايتي (عروبة) وألحاقها بكرد تصبح كردايتي أي الحركة الكردية، وأذا ألحقت بكلمة خۆيي Khoiy تتشكل كلمة خۆياتي khoiaty.

ان لا علاقة له بالمافيا. اما اذا قال "انه صديقنا"! ذلك يعني انه موثوق ويمكن ان ينضم الى المافيا.

حين رأيت ذلك البرنامج قلت في نفسي: ولم كل هذا التضخيم والتهويل؟ فأصغر كردي بدون نظارات سوداء وحقائب الدولارات والهيروين يعرف ماذا تعني عبارة (له خومانه) اي (انه منا) أو (من جماعتنا). اعتقد ان تلك الإشارة البسيطة هي نفسها صنعت (دولة المنظمة السرية) التي يشير اليها الاستاذ حسن العلوي والتي سادت على العراق ٣٥ عاما. وحتى بدون سياسة واسلحة ونفط، فإن غمزة عين بين الاصدقاء في بغداد عن شخص غريب، كانت تكفي أن يعرف الجميع ان فلان "من جماعتنا" او "احذروه انه غريب" فنستوعب خارطة التصرفات اللاحقة عن ظهر القلب. أذكر ان تلك النزعة التزمرية في بغداد كانت تطال نطاق المحلة والزقاق. لذلك أسأل عن مدى تأثيرها بالوضع الذي آلت اليه بغداد اليوم في مسألة القتل على الهوية وما شابه؟.

عند ذكر الإنتماء تنسحب بنا الذاكرة الى كولن ولسن وسوف استعين بأسلوبه في سرد الروايات والأفلام بين الحين والآخر لتوصيل الأفكار. مثلا في كتابه (اللامنتمي) يتحدث ولسن عن شخص تطارده الذئاب فيصعد على شجرة ويرى خلية للنحل بجانبه، فيبدا بأكل العسل غير مبال بالذئاب، انها فكرة مبينة عن حالات اللامنتمي. كذلك يتحدث عن شاب لاينقصه شيء، مع ذلك يظل يبحث عن (تعويض ما).. فاذا كانت تلك الرغبة الدائمة بطلب التعويض هي من اعراض ظاهرة عدم الإنتماء، فمابالك بمجتمعات بكاملها ينتابها ذلك الشعور بأن ينقصها شيء ما وانها دائما وابدا مستحقة اكثر من الغير، وما يجتمع شخصان حتى يتذمرا (اخ يا حظي) ويتذاكرون مدى استحقاقاتهم حتى ولو لم توجد. ان هذا مرض يجتاح المجتمعات ذات الإنتماء الضعيف ونحن العراقيون نأتي في الطليعة.

في هذا الكتاب سنرى (الإنتماء) كعنصر اجتماعي مستقل ومحسوس يتصرف بمصائر الشعوب. فكما كان جان جاك روسو يصور الشعوب ككائنات بشرية، تولد وتشب ثم تشيب وتموت. كذلك هو الإنتماء، يتفاعل ويحدد الطبائع والإنعكاسات.. أنا وانت قد نكون ما نكون، لكن ما ان نجتمع ببعض الأشخاص، سيتكون مجتمع ولو صغير تحكمه ثقافة وتوجهات متعارف عليها فننتمي او ندخل فيها فور تماسنا مع ذلك الجمع، ذلك هو الشعور العام بنوعية الإنتماء.. سيتم هنا التركيز على نوعين من

النعرات: اولا، الذكورية والتي طالما بحثت باسم (العصبية القبلية). ثانيهما الذي قلما ذكر، هو تعصب اهل المدن لمدنهم.

الذكر والأنثى

سنتناول العنصرين أعلاه كعناصر وقوى مجردة. أي اننا قد نتكلم عن العنف، هو عنصر ذكوري في الإنسان حتى ولو قامت به أنثى. كذلك البخل فهو عنصر أنثوي حتى إذا كان البخيل رجلا ما، فالكل يعرف أن كل ذكر فيه نسبة معينة من الأنوثة وكل أنثى فيها نسبة ما من الفحولة زادت أم نقصت.. اعتقد ان العنصرين أعلاه هما العناصر الأساسية في هذا الكون. الأنوثة والفحولة، المانح والمستقبل، بكسر الباء. الفعال العنيف والساكن الهادىء، وان تفاعلهما هو الذي يولد الحياة.

مستخدم التلسكوب يجول بنظره في الفضاء فيرى نجوما نارية تتفجر وتمنح الطاقة، لكنها تدور حول أجرام اخرى تكاثفت واصبحت (ثقوبا سوداء) لاتعطي اي شيء بل تبتلع كل شيء وتمنع حتى الضوء من الانطلاق.. كذلك مستخدم المجهر، سيرى الحيوانات المنوية (أدبا، سنستعمل كلمة بذور) تدور حول بويضة. تجاهد وتناطح وتشق طريقها عنوة وبعنف، فتصل وتذوب وتتولد حياة جديدة.. نفس العملية تكررت عبر التاريخ حيث الذكر هجم على الأنثى فألزمها والتزم هو بحياة جديدة. كذلك المجتمعات البشرية، فالقبيلة البدوية (المجتمع الفحل) هجمت على القرية الزراعية او المدينة (المجتمع الأنثوي) فجرى العنف والإكراه وسال الدم، إلا انه أنتج إخصابا ما على شكل حياة جديدة او مجتمع جديد ذي علاقات وثقافة ولغة وروح جديدة. باختصار، انه إنتماء جديد.

المجتمعات التي تعيش في ظل طبيعة اقتصادية تتطلب العمل الشاق والعضلات والعنف، شئنا ام أبينا فان شأن الأنوثة فيها يتناقص. هناك نماذج لا حصر لها لمجتمعات يتدنى فيها شأن المرأة إلى الحضيض وقد تعامل معاملة الأنعام، فتضرب وتقتل لأبسط الأسباب. بعكس ما سبق، في المدن حيث تتجمع الثروات البشرية والمادية، القوة العضلية تفقد تلك القيمة ويصبح التفوق رهنا باللسان والحكمة وحتى المكر والدهاء والتصنع، ولطالما تفوقت المرأة في بعض المجتمعات لدرجة انها سادت وعبدت وتم التقزز والنفور من كل ما يعرف بـ(فحولة، عضلات، عنف...الخ) فهاهي

المجتمعات الغربية اليوم شاهدة حية على سيطرة الأنوثة (الأنوثة وليس بالضرورة المرأة). الثقافة والرغبات العامة والتيارات الاجتماعية والأعراف هناك يكون اكثرها لصالح الأنوثة. اعتقد انها حركة لاتقف عند حد الأنوثة بل تتجاوزها الى سلطة الطفولة وكل عنصر ناعم في الحياة ماديا كان أم معنويا. عندها يكون تسلسل الأفضلية في البيت كما يلي: الطفل اولا، ثم المرأة، ثم كلب العائلة لأنه مسكين ووفي وو الخ، في النهاية يأتي دور الرجل كالثور المربوط على الناعور، يضخ الدولارات وما من طائل.

اعتقد ان المناخ يؤثر على مكانة المرأة والأنوثة بشكل عام. فالنساء في البلاد الحارة ينضجون ثم يشيبون بصورة أسرع من نظيراتهن في البلاد المعتدلة والباردة. وفي نفس الوقت فان الرغبة الجنسية في الجو الحار اقوى بكثير منه في الجو البارد.. بعكس ما سبق ففي البلاد الباردة والمعتدلة لاتكون الرغبة الجنسية بتلك الصورة الجنونية. وحتى بعد الجماع، فان الجو المعتدل والبارد لايسبب ذلك النفور القوي والتقزز الناتج عن العرق والروائح المنبعثة عن جسم المرأة، والتي تزيدها الأتربة والحرارة والرطوبة نتانة تدفع بعض الرجال للنفور والتقيؤ حتى من التحدث عن المرأة والجنس.. اعتقد ان الحقائق السابقة، ابتداء من البعد الإقتصادي وصولا إلى ما ذكر من نوعية الرغبة الجنسية وردود الأفعال، هي مسببات رئيسية لظهور ثقافات وأمم مختلفة تتباين فيها مراكز الفحولة والأنوثة تباعد السماء عن الأرض. يمكن لنا إجراء مقارنة بسيطة بين توجه عائلة تسكن في موسكو وعائلة تسكن صحارى العراق اللاهبة. الأنوثة هناك لاتناقش. اما هنا، فالفحولة هي التي لا شريك لها.

ان أشياء وعناصر بسيطة، مثل ما سبق، قد فصلت ما بين البشر حتى اصبحوا يعيشون في عوالم كأنهم من كواكب مختلفة ولا عجب. إذ ان كل الأشياء الكبيرة ينتج عن اشياء صغيرة وان (كبارها تأتي من صغارها) ولا حل لكبار المشاكل دون معرفة صغائر ما في النفوس.. لنأخذ مثالا، الذهب عماد إقتصاد البشر. هو ليس بديلا عن الغذاء والماء والهواء لكن له قيمة اصبحت تسير مصائرنا، إلا ان قيمته لاتكمن فيه بل تكمن فيما منحناه من قيمة. لعل أحدا ما يرفض ويقول "كيف يكون الذهب بدون قيمة"؟ ولكن مهلا، لنناقش الموضوع من خلال التعرف على خصائص الذهب:

١- الذهب احسن موصل للكهرباء.

٢- الذهب مادة قوية ومتينة (قابلة للطرق والسحب) اي يمكن ان نعمل منه اشكالا وادوات حسب الرغبة.

٣- لونه لايتغير لانه لا يصدأ.

فهل هي قابليته للتوصيل الكهربائي أعطته قيمته العالية؟ الجواب لا، لأن الذهب اكتسب قيمته قبل اكتشاف الكهرباء بآلاف السنين.. فهل ان قيمته تكمن في متانته؟ ايضا لا، لأن هناك الكثير من المعادن أقوى وأمتن.. اذن لابد من ان تكون مقاومته للصدأ وعدم تغير لونه البراق الجميل. ينتج عن ذلك اهم نقطة، ألا وهي قدرة الذهب في إبهار عيون المرأة!. فاذا كانت المرأة لها قدرة جذب الرجل، فالذي ملك الذهب اصبح قادرا على جذب المرأة.. لعل السائل يتعجب من وجود علاقة بين اشياء عظيمة ومهولة مثل بنوك سويسرا والطاقة الذرية واشعة الليزر وسعر النفط وستراتيجيات امريكا واسرائيل والخ، مقابل شيء بسيط كعيون المرأة!. لا عجب ابدا، فإن كل ما نعتبره ضخما ومهولا وجبارا انما اكتسب قيمته مني ومنك ومن زاوية بسيطة من زوايا نفسنا البشرية الموحدة. العيب يكمن في من يهول الأمور الخارجية بينما يصغر من قيمة نفسه التي هي الأهم وهي الأصل وهي المنبع. وان التوازن والاندماج بين الذكر والأنثى أفرادا وتيارات هو الأساس.

لكن مشكلتنا تكمن في أننا نستصغر أنفسنا ونعظم اشياء قد لاتكون بحاجة الى كل ذلك التهويل.. اسأل عن أهرام مصر. ستسمع بعضهم يتوجل معتقدا بان الذين بنوها كانوا عمالقة يلعبون بالكتل الحجرية (چقة وشبر) كما في العامية. لكن الحقيقة هي ان الذين بنوا الأهرام كانوا أناسا عاديين عملوا كالنمل تحت شرفة تطل منها عليهم سيدة بيضاء تلهب خيالهم البسيط فتسابقوا على إثبات انفسهم لنساء الملك حتى حققوا ذلك المستحيل وما فرقنا عنهم إلا وحدة الولاء.. اسأل عن امريكا. العيون الواجلة ستقول لك "اووو، امريكا دولة ضخمة وقوتها تكمن في الأسلحة الضخمة وخططها وعقولها الضخمة وكل شيء فيها ضخم والخ" لكن الحقيقة تقول ان تلك القوة (الضخمة) تكمن في اشياء (صغيرة) جدا كالقمح والذرة والرز والهامبركر وكوكاكولا والمايكروچپس. تلك الأشياء الصغيرة هي التي خلقت ما نعتقده اشياء من الضخامة اكثر مما نتصور عن امريكا.. اسأل عن إمبراطوريات الروم والعثمانيين وما شابه. سيعتقد البعض انهم من الجبابرة المجالدين Gladiators على شاكلة عدنان القيسي ومحمد علي كلي. اما

في الواقع فان هؤلاء المجالدين كانوا (عبيدا) بينما الجنود الحقيقيون الذين بنوا تلك إلإمبراطوريات كانوا ذوي بنية عادية مثلي ومثلك. حتى انهم كانوا يرتعدون خوفا عند وصول ادنى خبر عن أبسط قرية في أقاصي الأرض فيها بضعة مسلحين قادرين على ايذاء ابسط تركي او روماني. تلك هي الروح التي اسست وادامت تلك إلإمبراطوريات كما سنرى. أي أنه الخوف الأنثوي وواهمة الرهبة (الأنوثية) التي ولدت تماسكا وولاء وإصرارا على تنفيذ قرارات عنيفة (فحلة) في نفوس أولئك الجنود. اما عنتر بن شداد وعدنان القيسي وهوگن فلم يضعوا حجراً على حجر.

الاحتكاك بين المجتمعات الذكورية والأنثوية على طول التاريخ كان يحدث فعلا ورد فعل. مرة يحدث اندماج واخصاب ينتج عنه ظهور حضارة على شكل شعب فتي حيوي موحد ومتماسك.. وفي بعض الحالات كان الإخصاب يفشل او ان الجنين يجهض. قد تكون البويضة رفضت البذرة وأماتتها (اي ان المدينة رفضت القبيلة) او بالعكس قد تكون القبائل دمرت الحضارة.. حتى ان في بعض الحالات، قد تعيش المدينة جنبا الى جنب مع القبيلة ولكن دون اخصاب او اندماج او ألفة او اي شيء. فالبيضة المتكبرة تبقى في موقعها ساكنة وميّتة ومتعنتة. والبذور تبقى هوجاء غير منتمية ولاتعترف بأي إلتزام. في تلك الحالات الجنين الناتج يكون شيئا لايمكن ان يطلق عليه كلمة (شعب) او أمة، في الواقع انهم ليس إلا (أناسا) او كما قال الملك فيصل الأول عن العراق (كتلا بشرية).

ذلك هو الفرق بين نجاح او عدم نجاح الإخصاب بين القبيلة والمدينة، انه يكمن في احد تلك الأشياء (البسيطة جدا) في الشعور بالحب والإنتماء. سنرى الفرق الهائل بين الذين يحبون بعضهم بعضا (منتمين) وبين الذين لايطيقون حتى انفسهم، الفارق هو وحدة الإنتماء.

الفصل الأول

مقارنة بين أوطان

في الحرب العالمية الثانية اكتسح الألمان معظم أوروبا وكان لهم اعداء وحلفاء. في البداية قاومهم الجيش الفرنسي قدر ما استطاع وتكبدوا الكثير من الخسائر، إلا انه ما إن تم للألمان الاستيلاء على باريس في ١٩٤٠ حتى استكان معظم الفرنسيين تحت ظل السلطة الجديدة.. في فترة الاحتلال، ١٩٤٠-١٩٤٤ الجيش الفرنسي اعتبر رسميا كحليف للنازية واضطر الحلفاء لإغراق قطعات كثيرة من الأسطول الفرنسي والخ.. المجاميع الصغيرة من المقاومة كالشيوعيين او انصار الجنرال ديكول لم يكونوا إلاّ النسبة الأقل بين الجموع. حتى ان اعدادا مقاربة منهم انضوت تحت لواء النازية وحاربت جنبا لجنب ضد الحلفاء. مثلا، عدة مئات من المسلحين الفرنسيين ظلوا يقاتلون الروس داخل برلين لعدة ايام بعد انتحار هتلر وبعد توقف الالمان أنفسهم عن القتال.. في المقابل، كانت هناك نماذج مغايرة تماما للنموذج السابق. المقاومة في اليونان ويوغوسلافيا لم تتوقفوا لحظة. فتكبدت وكبدت الخسائر وسالت الدماء انهارا حمراء.

ترى اي موقف كان احسن، موقف الاستكانة في فرنسا، ام موقف المقاومة في البلقان؟. وسيكون الجواب متسرعا وساخنا على لسان معظم العراقيين، عربا كانوا ام كردا، بأن: طبعا الموقف الفرنسي وحكومة المارشال بيتان موقف مشين.. العراقي العربي سيقارن الموضوع بالاحتلال الأمريكي وسوف يسب ويلعن. والكردي سيتذكر استباحة البعثيين لكردستان العراق فيثور ويلعن.. اما عن موقف يوغوسلافيا واليونانيين، طبعا ستكون هناك عبارات للتبجيل والمديح، ولكن صبرا. أيعلم القارىء انه لم تمر اربع وعشرون ساعة على انسحاب الألمان من اثينا إلا وكان اليونانيون انفسهم يتذابحون داخل العاصمة ومن اقصى اليونان إلى أقصاه؟.. أما في يوغوسلافيا، فإنهم وان لم يقتتلوا فورا كاليونانيين مباشرة بعد انسحاب الألمان. ذلك لانهم لجموا مباشرة بسلطة تيتو والحزب الشيوعي (أي ان حرية القرار صودرت لصالح دكتاتورية الفرد

ودكتاتورية العقيدة). لكن بعد زوال الدكتاتورية، كان ما كان من إبادة ونحر وأنهار دم شهدناها بأعيننا في اواسط التسعينات عبر شاشات التلفزيون).. انا شخصيا في تلك الفترة كنت اتابع حربين اهليتين، احداها تدور في الشارع الذي اسكن فيه اربيل، حيث اقتتل الناس في اول فرصة بعد زوال قبضة الدكتاتورية. الأخرى كنت أراها في التلفزيون عن مذابح الصرب والبوسنيين والكروات والألبان الذين تذابحوا جميعا في اول فرصة من حرية القرار. طبعا كنت أرى شبها كبيرا بين الحالتين.

طبعاً ستتكون مئات الأسئلة وآلاف الأجوبة، لكن الحقائق المجردة تقول ان عباد الله في فرنسا لم يقتلوا بعضهم بعضا، لا قبل الغزو ولا بعده. اما عباد الله في البلقان (يوغوسلافيا واليونان) فقد قاتلوا واقتتلوا قبل واثناء وبعد الغزو. تلك كانت الحقيقة لا مناص منها.. الآن لنعد توجيه نفس السؤال: ايهما احسن، الموقف الفرنسي ام الموقف اليوناني؟.. من المؤكد ان الجواب لم يعد بالسهولة السابقة، بل ان الأمر فيه أبعاد وأطياف والوان تتداخل في لوحة مضطربة.

الكاتب الإيطالي ماكيافيللي يعتبر مدرسة للسياسة توّجه بكتابه المعنون (الأمير) يمكننا استشفاف رأي يطرحه بمعنى ان هناك نوعين من الدول:

١- دولة ذات جيش نظامي. احتلالها لن يكون بالأمر السهل في البداية، لكن بعد احتلالها تسهل السيطرة عليها.

٢- دولة ذات قوى من ميليشيات ومقاتلين مرتزقة وأقطاعيات. من الممكن احتلال تلك الدولة بصورة ابسط، إلا ان السيطرة عليها وادامة الاحتلال تكون اصعب. ففي كل فترة سيرى المحتل ان هناك قوة ما سكنت واخرى تمردت. وما هدأ نزاع، حتى بدأ نزاع آخر.. هذا ما قاله ماكيافيللي ولا فض فاه...

لنقارن الآن بين فرنسا واليونان، هل ان الفرق بينهما يعود لنوعية جيوشهم ومركزية دولتهم؟. رأي ماكيافيللي هنا يصدق وينطبق عليهما. اما في العراق فإن القاريء قد يعتقد بداية ان نظرية ماكيافيللي قد أُدمغت. فها هو العراق بنظامه الأكثر مركزية في العالم وجيشه الموحد، كان من المفروض أن يقاوم الغزو الأمريكي مدة طويلة. فإن هزم، سهل على المحتل ادارة البلد.

ان ما رأيناه ونراه الآن في العراق صورة مغايرة تماما للطرح السابق. فالعراق هزم في اسابيع غير ان السيطرة عليه تبدو مستحيلة.. في الواقع، ان صدام نفسه لم

يسيطر كليا على العراق وقد تبيّنت تلك الحقيقة واضحة في العقد الأخير من حكمه حين انفصلت المنطقة الكردية ولم تبق عراقية إلا بالاسم. والجيش بدل ان ينم عن روح نظامية، تفرق واخذ طابع حرب العصابات داخل المدن. اذن، فهل ان نظرية ماكيافيللي خاطئة ام ان نظريته تنطبق على البعض دون البعض؟.. جوابا على هذا التساؤل اقول ان ماكيافيللي لم يخطيء، حيث انه اساسا لايوجد قانون واحد في العالم يسري على كل البشر. لكن هناك عوامل اخرى يجب اخذها في الحسبان. فلكل وحدة جغرافية طبيعة معينة تنبع من رحم تأريخه وديموگرافيته. لنجر مقارنة بين تلك الدولتين فرنسا واليونان.

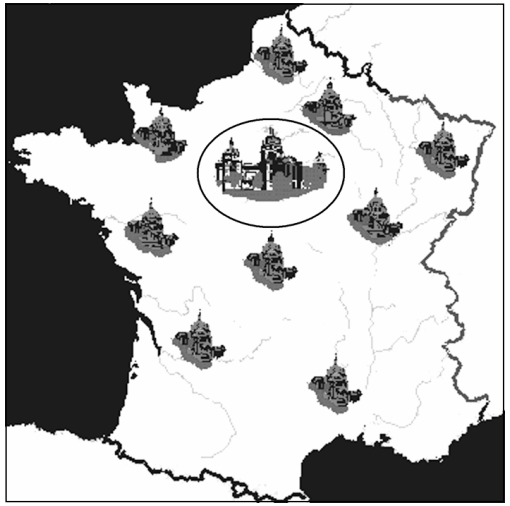

لعل هذا الشكل التوضيحي يوصل الفكرة، فبنظرة بسيطة يمكن ان نميّز موقع العاصمة الوسطي داخل البلد والذي تحيطه مدن اصغر لا مجال لمقارنتها بپاريس.. في العهد الروماني سكنتها قبائل الغال Gaul وكانت پاريس احد مراكز سلطة الرومان عليهم. في ٢٥٠م دخلتها المسيحية وأثناء تحرك القبائل الجرمانية وبعد سقوط روما في ٤١٠م، احتلتها قبائل الفرانك (الإفرنجة كما يقال) في ٥٠٨ للميلاد. زعيمهم الشهير (كلوڤيس) تزوج من نبلاء المدينة وتنصر على يدها وفرض المسيحية مع الثقافة اللاتينية على قبائل الفرانك. هذه دلالات قوية على استعدادهم للتطور ونزع الإنتماء القبلي الضيق. المدينة هنا قبلت بالقبيلة، والقبيلة تخلت عن ماضيها المتخلف الذي لايعترف إلا بصلة الدم والرحم، هذا هو (الإخصاب) وهو على عكس ما قامت به قبائل القوط (گوث Goth) من إصرار اعمى على الإنتماء القبلي وتدمير واقتتال داخلي استمر معهم حتى قضي على آخر بقاياهم.. القوة العسكرية للفرانكيين والقوة الدينية والمعنوية لپاريس نمتا على مرّ القرون حتى اصبحت في ٩٨٧م العاصمة التي لا تنازع. بل انها لحد ما ورثت إلإمبراطورية

الرومانية واصبحت حامية البابوية وكادت ان تقتلعها من روما. وبرأيي، فرنسا كانت أهم قوة أوروبية حتى هزيمة نابوليون في واترلو ١٨١٥م.

لفرنسا حدود طبيعية كالجبال والبحار التي تحدد هويتهم الوطنية. اما پاريس فهي القِبلة، بكسر القاف، ولا قبلة لهم سواها. لا انفصام بين فرنسا والعاصمة، هذا وان الحدود الدولية لفرنسا قد توسعت وتقلصت عبر التاريخ لكن لم نسمع يوما ما ان فرنسا قسمت. كانت هناك حروب وثورات طبقية اسالت انهارا من الدم ولكنها لم تقسم ابدا، حيث ان پاريس عاصمة طبيعية ١٠٠٪ لتلك الوحدة الجغرافية وان اي قوة تسيطر عليها إما ان تذوب وتتحد معها، او تذوب هي فيه ومرة اخرى ينجح الاندماج والذوبان والـ Integration .

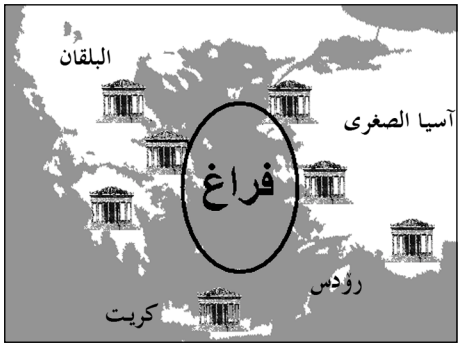

على عكس ما رأيناه في فرنسا، فإن عشرات المدن اليونانية نشأت حول بحر ايجة في البر اليوناني واسيا الصغرى اضافة لجزر كريت وقبرص ورودس ومئات اخرى من الجزر.. لايوجد مركز ثقل جغرافي لتلك البحار والجزر والأراضي التي نشأت فيها تلك الأمة.. اما عن وجود او عدم وجود عاصمة (فكل يغني على ليلاه). العشرات من العواصم الأقليمية تبعثرت حول ذلك البحر. ثم انه لاتوجد أية حدود طبيعية تفصلهم عن احد.. الإغريق لم يعترفوا ببعضهم البعض طوعا ولم يتحدوا يوما إلا ضد عدو موحد. ماعدا ذلك، فإن التحالفات الهشة كانت تزول حال زوال الخطر الخارجي. ان نظام دويلات المدن يعود أصلا لهذا السبب، فكل مدينة كانت تتصرف وتتفاعل كأنها شعب مستقل بلغة او لهجة مستقلة مع شعور قوي بإنتماء يتجسد في إله المدينة. وهو في نفس الوقت السبب الأصلي لظاهرة تعدد الآلهة. ستكون لنا عودة لبحث اكثر تفصيلا في تاريخ اليونان ولكن بنظرة غير تقليدية.

ان الإختلاف الجوهري بين فرنسا وبلاد الأغريق هو وجود او عدم وجود منطقة ما (مدينة، طريق تجاري، ممر مائي أو بري، الخ) اذا تمت السيطرة عليه، تمت السيطرة على سائر تلك الوحدة الجغرافية.. هنا قد وصلنا الى لب الموضوع في التمييز بين

نوعين من البلدان. ماكيافيللي كان قد سلط الضوء على نوعية السلطة والجيش. لكن الأجدر هو ان نبحث عن الأسباب الأعمق التي جعلت بلدا ما يمتلك جيشا نظاميا وسلطة مركزية، وجعلت البلد الآخر ذا ميليشيا وأقاليم وإقطاعيات. انه وجود العاصمة والحدود الطبيعيتين.. الآن فلنصنف النوعين.

النوع الأول: بلد ذو حدود طبيعية واقليم رئيسي يسيطر على باقي الأقاليم. عاصمة ذلك الأقليم تجسد وحدة إنتماء أهل البلد، ويتبع ذلك شعور بوحدة الولاء. اذا تمت السيطرة على تلك العاصمة، ولو بصعوبة في البداية، فستتم السيطرة على تلك الوحدة الجغرافية قاطبة وتستقر الأمور. وهي غير قابلة للتجزئة.. الأمثلة على هذا النوع من البلدان وعواصمها هي القاهرة لمصر، طهران لإيران، باريس لفرنسا، تونس لتونس، لندن لإنكلترا، وارسو لبولندا.

النوع الثاني: بلد لايمتلك حدودا طبيعية ولا اقليما رئيسيا ينشيء تلك العاصمة الطبيعية التي تفرض وحدة الإنتماء. بل تنشأ عدة عواصم ووحدات اصغر ويكون البلد اكثر قابلية للتجزئة ويسهل إحتلاله في البداية ولكن تصعب ادارته فيما بعد.. الأمثلة على هذا النوع من البلدان والوحدات الجغرافية هي المانيا، اليمن، إيطاليا، البلقان (اليونان ويوغوسلافيا السابقة وألبانيا الخ)، ايبيريا (اسبانيا والبرتغال)، زاگروس او كردستان، افغانستان، السودان، شبه الجزيرة إلاسكندينافية كوحدة جغرافية مجزّأة إلى ثلاث دول، منغوليا، فيتنام، كمبوديا، كوريا الخ. كلها اما مجزّأة او قابلة للتجزئة.

ملاحظات عامة:

١- نلاحظ ان نوعية إنتماء الدول لايرتبط ذاك الإرتباط بالتقدم الإقتصادي والتكنولوجي، فأين الألمان والإيطاليون من اليمن او الأفغان؟ إلا ان كلا منهم يعاني من نفس تلك اللعنة، لعنة عصبية المدينة وامكانية تجزئة البلد.

٢- هناك العشرات من الشعوب والبلدان والدول تقف في منتصف الطريق ما بين النوعين فتجمع بين الإثنين. اي ان التصنيف ليس بذاك الإختلاف المطلق بين الأبيض والأسود. فهناك دائما درجات متباينة وألوان وسطية.

٣- التصنيف المشار اليه اعلاه لايشمل الشعوب الفتية مثل الترك (في ايران والعراق وتركيا والقفقاس)، شعوب الأمريكيتين الشمالية والجنوبية، اوستراليا ونيوزيلندة

الخ. تلك الشعوب الفتية لها عناصر مختلفة في نوعية انتمائها. اننا نبحث في العالم القديم والشعوب التي تجاوز عمرها الألف عام.

٤- الكتاب موجه الى من يريد ان يعيش هو وعائلته في العراق والشرق الأوسط عموما. أي انه ليس موجها الى شريحتين من البشر. اولا، شخص يأمل أن يلاقي حياة افضل خارج المنطقة مثلا أوروبا.. ثانيا، شخص لايهتم بالحياة الدنيا ووضع كل أمله في الميتافيزيك والحياة الأخرى.. الإثنان تجمعهما حقيقة واحدة أن اهتمامهم منصب على الحياة في مكان آخر، لذا أنصحهم ان لايُدوِّخوا رؤوسهم بهذا الكتاب لأنه موجه لسياسيين وأدباء ومثقفين يفكرون في تحسين حياتهم وحياة الأجيال القادمة على هذه البقعة فقط من كوكبنا وليس في مكان آخر. والآن لنبدأ الرحلة.

الفصل الثاني

البلدان المركزية

بلدان بعواصم طبيعية

١- مصر

لو ان توحدالإنتماء كان رهناً بنسبة المثقفين ومدى نزاكة المجمتع وعدد النساء المتحررات، كان من المفروض ان تكون لبنان على اعلى مستوى من التوحد حيث أن نسبة ومستوى مثقفيها هي اضعاف ما في مصر. إلا ان مصر رغم تفشي الفقر والأميةفقد ملكت اقوى عنصر في لعبة الأوطان، عنصر وحدة الإنتماء والروح الوطنية..

في هذه الخريطة نجد آلاف المدن والقرى تنتشر على آلاف الكيلومترات من ضفتي النيل، إلا ان هناك بقعة واحدة فقط لها القدرة على السيطرة على خطوط المواصلات، هي إقليم القاهرة فقط لا غير. لا الشمال يتصل بالجنوب ولا الشرق يتصل بالغرب دون المرور بمنطقة القاهرة.

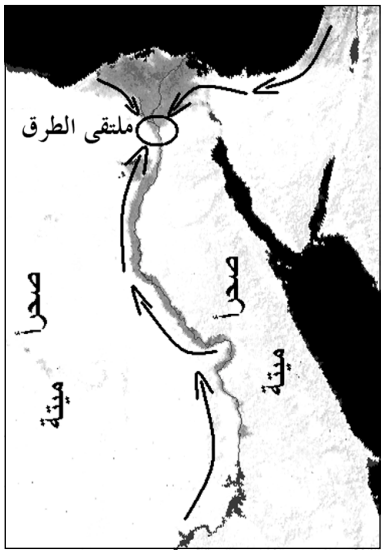

الصحارى الشرقية والغربية ميتة ومعزولة تماما ولم نسمع يوما ان جيشا او قبيلة جاءت من تلك الصحارى لغزو مدن النيل. وذلك هو عكس ما كان يحدث في العراق، حيث ان الأراضي المحيطة كانت موطنا لقبائل طالما اغارت على الحضر وقهرتهم.. البراري الأفريقية متصلة بوادي النيل من الجنوب، إلا ان قبيلة من البدو او المحاربين اذا دخلت ذلك الدهليز الزراعي الطويل (من اسوان إلى القاهرة) ستصادف عشرات العقبات والمراحل التي

تجبرها، او بالاحرى تغريها، لنبذ البداوة والتحول إلى الزراعة والاستقرار.. هناك ايضا المحور الساحلي غرب الإسكندرية. يقول السير هارولد ادريس أن على طول التاريخ المعروف كانت هناك ثلاث محاولات فقط لغزو مصر من هذا المحور. اقدمها كان في العصر الهيليني حين اجتاز جيش إغريقي الصحراء من ليبيا بمحاذاة الساحل ولم تكن ذات تأثير يذكر. ثانيها كان الفتح الفاطمي من تونس (القرن العاشر الميلادي) وهي حالة فريدة دام حكمهم زهاء القرنين. وأخيرا كانت المحاولة الإيطالية الالمانية بقيادة رومل اثناء الحرب العالمية الثانية، لكنه صُدّ في العلمين واجهضت المحاولة كأنها لم تكن[١].

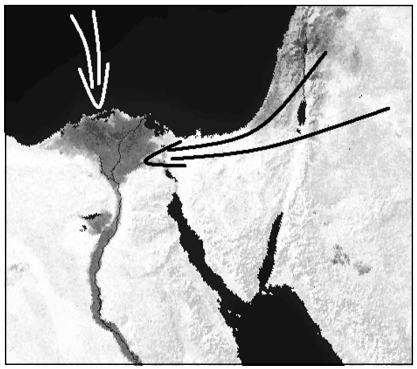

هناك جهتان فقط في حدود مصر شكلتا تهديدا لسكانها. اولا البحر المتوسط. رغم انها حدودا طبيعية تحفظ الهوية، إلا انها لم تكن آمنة كليا، الأغريق والرومان قبل الميلاد، ثم الفرنسيون والإنكليز في العصر الحديث دخلوها من ذلك الباب.. ثانيا وهي الأهم، الطريق الشمالي الشرقي عبر سيناء التي هي بوابة مصر على الشرق الأوسط والبراري الآسيوية. هذه بوابة دخل منها الغزاة والفاتحون على مر التاريخ كأمواج قبلية او جيوش منظمة. والملاحظ ان اكثرها دخل ولم يخرج! حيث ان قدرة الاستقطاب واذابة المحتل كانت احدى سمات تلك الوحدات الجغرافية ذوات العاصمة والحدود الطبيعيتين (اراضي انثوية مستقبلة). وفي كل الحالات، ما ان تم لأحدها السيطرة على موقع القاهرة، حتى دان له كل البلد بالولاء كما حصل في باريس.

العاصمة: الأهرام التي تنتصب فيها منذ ٥٠٠٠ سنة دليل على كونها اقدم منطقة ضمت عاصمة بلد ما بصورة متصلة. ممفيس، الفسطاط، العسكر، مصر (اسم مدينة او ضاحية طغت على البلد كله)، واخيرا القاهرة المعزية نسبة للمعز لدين الله الفاطمي، كلها اسماء مدن لم يبعد موقع احداها عن الأخرى سوى بضع كيلومترات. وفي النهاية اصبحت كلها ضواحي لمدينة كبرى تستقطب الثروة المادية والبشرية من كل اطراف

(١) سير هارولد ادريس بل – الهيلينية في مصر، من الإسكندر الى الفتح العربي.

البلد ومن خارجه. والفترات القلقة في تاريخها هي الفترات التي لم تستقر السلطة فيها في منطقة القاهرة. ففي القرن السابع عشر ق.م جاءت غزوات الهكسوس من سوريا. إلا انهم ما استقروا في العاصمة بل اسسوا عاصمة نائية في الشمال الشرقي للقاهرة ولم تدم، فَقُهِروا وتركوا مصر.

لفترة ما نافستها الإسكندرية التي جعلها البطالمة عاصمتهم. إلا ان النتيجة كانت، كما يشير سير هارولد بل ان مصر تحولت لأربعة اقاليم فدرالية. اعتقد ان مسألة تحول مصر إلى اقاليم فدرالية لايعود لطبيعتها الذاتية بل لطبيعة الهيلينيين أنفسهم حيث حاولوا تطبيق نظام دولة المدينة في بلد لايلائمه التقسيم واللامركزية. الخلاصة انه باستثناء فترات ومراحل متفرقة وقصيرة نسبيا، منطقة القاهرة كانت في اغلب العصور الموقع الرئيس للحكم والقبلة الرئيسة. وإن التعصب المديني، ان وجد، سيتحول إلى روح وطنية عامة كون العاصمة هناك تضم كل شرائح البلد وكل ثقافاته التي تتوحد وتتجسد فيها.

هنا اود الإشارة إلى موضوع طالما اسهب البحث فيه في الكتب والبرامج التلفزيونية حول حركة التوحيد الديني التي ظهرت واختفت ايام نفرتيتي وأخناتون في الربع الأخير من الالفية الثانية قبل الميلاد. ان توحيد او تعدد الآلهة لم يكن موضوعا لاهوتيا بحتا في ايامها. الآلهة في حينها كانت تجسيدا لشعور الناس بانتمائهم لمدينة او قبيلة معينة، لكن في مراحل متأخرة طغت عليها اللاهوتية والغيب وحتى الشعوذة. ففيما عدا الطوطمية (تجسيد إنتماء مجموعة بشر برمز، عادة ما كان احد الحيوانات) فان الإله في العصور القديمة مَثّل ترجمة لشعور الإنتماء لمدن أو قبائل ليس إلا.. وإن حركة اخناتون التوحيدية، برأيي، كانت محاولة لإجهاض المنافسة بين تعصبين لمدينتين.

(صورة رقم ٥) نحن قد تأثرنا كثيرا بالروايات اليهودية ثم تلك المسلسلات الدينية المصرية التي تصور لنا الناس كأن لا شغل لديهم ولا شاغل سوى احصاء عدد الآلهة، واحد يقول هناك خمسة آلهة، والآخر يقول ثلاثة ورأينا (حنظلة) يصنع إلها من تمر ثم يأكله! كما في أحد الأفلام المصرية. ذلك المفهوم بجانب مفهوم آخر يتردد كثيرا عن طقوس الخصوبة، اعتقد إنهما اكبر الأخطاء الشائعة. ان ما حصل في تل العمرنة كانت محاولة فرض عاصمة جديدة وذلك لإذابة الإنتماءين. نفس المحاولة قام بها الحجاج مثلا بتأسيسه مدينة واسط لاخماد ذلك التعصب المديني المستفحل بين الكوفة والبصرة. كذلك تل العمرنة الذي انشيء بالضبط في منتصف المسافة بين العاصمتين بهدف استقطاب وتوحيد الإنتماء الوطني الذي عانى في تلك الفترة المبكرة من صراع بين المدينتين متعصبتين.. تل العمرنة لم يمتلك امتيازا جيوبوليتيكيا يفوق ممفيس او حتى طيبة. لذا، زالت العاصمة حال زوال القوة التي فرضتها وكانت ردة الفعل الوطنية ضد طبقة من ارستقراطيي تلك العاصمة المفبركة من القوة بمكان.

الجنوب المصري ذو مناخ حار والغالبية السمراء فيها تميل للنزوح نحو منطقة الدلتا ذات الأراضي الأوسع والأكثر خصوبة وذات المناخ الأكثر اعتدالا وبالغالبية ذات البشرة الأنصع قليلا. هذا الكلام لايعني التأييد لغلبة الأبيض على الأسود او ماشابه من افكار عنصرية لاسمح الله، فالأمر واقع وإنها ظاهرة ترتبط بالمزاج العام وقد تنقلب في البلاد الأسكندنافية مثلا حيث تكون الرغبة العامة باتجاه كل ما ندر من سمرة في لون البشرة. وعلى سبيل المثال لا الحصر، يقول محمد حسنين هيكل في (خريف الغضب) بمجمل عرضه الإنتقادي لحياة الرئيس الراحل انور السادات بأنه كان من عائلة سوداء من الجنوب وكان همه ان يتزوج إمرأة بيضاء. وها هو انبهار الفرعون بالأميرة الميتانية (تادوخيبا) واطلاقه اسم نفرتيتي عليها (اي الحلوة وصلت). كذلك ما حصل (لزوجة العزيز) وانبهارها بيوسف الأبيض النازح من بلاد الشام.. دونما الحاجة لكتب ومصادر، ذلك الأمر يتضح لكل من خالط المصريين، وبرأيي فان حقيقة (صغيرة!) كهذه كانت إحدى النقاط الإضافية لتفوق الشمال على الجنوب. أما لو كان في أفريقيا حضارة راقية واقتصاد مزدهر لكان من الممكن ان تكون طيبة هي العاصمة الطبيعية (اي ان تكون المستقطب الأكبر للثروة البشرية في البلاد).

ان قوة استقطاب تلك المدينة التي جاوزت العشرة ملايين اليوم هي قوة موحدة للبلد.

الإنتماء القاهري انتماء يكتسح كل التيارات الأممية (انتماءات واسعة كالشيوعية والدينية وحتى ظواهر التشبه بالأوروبيين) ناهيك عن كونها البوتقة التي تذيب كل الإنتماءات الضيقة، قبلية ام مدينية ام طائفية.. لهجة القاهرة الآن تنافس العربية الفصحى وان مصلحة القاهرة هي مصلحة وطنية والى حد ما اصبحت تقرأ كأنها مصلحة العرب جميعا. فالاستقطاب الذي ينشأ عن تلك الحاضرة لايكتسح مصر لوحدها بل يتجاوزها آلاف الكيلومترات إلى الخارج.

متابعة النفوذ الجغرافي لبعض الدول المصرية قد يوضح بعدا جديدا للقاريء العراقي فالنفوذ ليس بالضرورة ان يكون احتلالا عسكريا. سأشرح القصد، الدولة الفاطمية كانت دعوة شيعية ادعت الخلافة وحكمت مصر زهاء قرنين. تأثيرها طغى على الشام ووصل الموصل ولفترة ما رفعت الراية الفاطمية داخل بغداد مقر الخلافة العباسية. لو نظرنا الى منطقة نفوذ تلك الدعوة لوجدناها تطابق منطقة نفوذ الحركة الناصرية في القرن العشرين.. بالمناسبة، احد أشهر ملوك الفاطميين كان الحاكم بأمر الله، ولد في ٩٨٥/٨/٥ ميلادية من ام مسيحية وعرف اختصارا بالحاكم. المذكور كان حاد الطبع وهامت حول تعطشه للدم قصص كثيرة. ثوراته الهستيرية كانت تزداد مع تقدمه في العمر وفي كل مرة كان يصب جام غضبه على قطاع معين داخل وخارج مصر. اخيرا، ضاقت به عائلته وحاشيته حتى قتل بمؤامرة من اخته (ست الملك) وبعض الوزراء ثم أخفيت جثته.. مصر تجاوزت المرحلة وتوجهت إلى مشاكل وتحديات أخرى لكننا نسمع بطائفة الدروز في بلاد الشام مازالوا يصرون على ان (الحاكم) هو المهدي المنتظر!

حسنا، في القرن الماضي ظهرت في مصر دعوة العروبة واجتاح تأثيرها اول ما اجتاح بلاد الشام وكأنها سلكت نفس الطريق السابقة للدعوة الفاطمية من الشام إلى الموصل ونزولا إلى بغداد فأصبحت تنازع الحكومات البغدادية، ملكية كانت ام جمهورية، على سلطتهم داخل العراق. الأغرب من ذلك ان مصر نفسها صادقت اعداء الماضي، اسرائيل والغرب، إلا أن المستقطبين، بفتح الطاء، في العراق واليمن والشام وليبيا مازالوا يدقون تلك الطبول الناصرية.. برأيي، ان الشخص غير المصري الذي قدس الحاكم في يومها وترك ذلك التقديس ارثا في انتمائه، هو نفس الشخص غير المصري الذي مازال يبكي على عبدالناصر ويتمنى عودته. فالإثنان مستقطَبان من قبل مصر.

لنركز على الفعل ورد الفعل السياسي لمصر بوجه التغيرات السياسية. انظروا هذا التسلسل من (استقطاب فمد قبلي، فإخصاب، فدولة وسلطة مصرية تنمو وتزدهر). بعد الفاطميين جاءت العائلة الأيوبية بقواتهم المختلطة وسيطروا عليها بمجرد سيطرتهم على القاهرة. ثم اعادوا السلطة المصرية على الشام ووصل تأثيرهم إلى الموصل وحتى أربيل، أي نفس الخط. الكثير من الأكراد مازالوا يناقشون ظاهرة صلاح الدين الكردي الأصل، كذلك القوميون من عرب وأتراك، الكل يريدون مصادرة ذلك الإرث التاريخي إلا انها ليست اكثر من إحدى الحركات المتكررة من انجذاب البذور (القبائل) لتلقيح البيض.. الجركس خلفوا الأيوبيين في (تلقيح) القاهرة، فازدهرت دولتهم ومرة اخرى اعادوا سلطة مصر إلى الشام ونازعوا التركمان والمغول على ميسوبوتاميا وجنوب غرب زاگروس، وهو نفس خط الاستقطاب تقريبا، أما يرى القاريء ما يجري؟

دون الخوض في التفاصيل، الأمر عبارة عن استقطاب القاهرة للثروة البشرية. تدخل تلك الثروة البشرية إلى مصر على شكل فاتحين او محتلين او أي اسم آخر، وفي النهاية يستقرون فيها ويذوبون. اكبر مثال على ذلك حملة محمد على باشا الكبير على مصر لطرد الفرنسيين. ان كل من دخلها من تلك الحملة انفصل عن ماضيه واستقر فيها ونشأت قوة جديدة كانت مفتاح الشرق الأوسط على العصر الحديث.. طبعا لا داعي للتذكير بأن كلا من ناپوليون والإنگليز ومحمد علي باشا سيطروا على كل مصر بمجرد احتلال القاهرة.

الذين احتلوا مصر

الاستاذ محمد حسنين هيكل، في المصدر السابق ذكره، يقارن بين مصر وبلد كاليابان مشيرا الى نوعيات احتلال كل منهما ويقول ان الاحتلال الأمريكي لليابان مثلا، افادهم ونهض بالبلد ثم انسحبوا بسلام، غير ان ما كان يجري في مصر مع قوى الاحتلال انهم كانوا يستقرون، ويبين ما يبين انها كانت سببا في تخلف او ضعف او ماشابه.. اعتقد ان كلامه صحيح لحد ما إلا ان المقارنة لو كانت بين مصر والبلدان المجاورة لها لتبين في حينها الفرق الهائل والتفوق الجيوبوليتيكى المصري الذي لا ينافَس. شتان مابين قوة أجنبية تحتل بلدا وتسيره من خارج حدودها، وبين قوة محتلة تستقر في البلد وتتخذ مدينة فيها كعاصمة. ان المحتلين الحقيقيين لمصر على طول التاريخ كانوا

كما يلي: الآشوريون، الفرس، الروم، العثمانيون، واخيرا الإنكليز. فهذه المجموعة من الدول كانت عواصمها خارج مصر. اما الهيلينيون (أغريق ومقدونيين) مثلا فانهم استقروا فيها واتخذوها وطنا وطوروها إلى أعلى المراتب. كذلك العرب، فانهم استقروا فيها وأذابوا وذابوا. طبعا في البداية خضعت مصر لدمشق والكوفة وبغداد ودفعت الجزية، إلا اننا لم نسمع يوما عن مصري سحب من قميصه أو ذهب طوعا ليقاتل من أجل دمشق والكوفة وبغداد. وماهي إلا فترة قصيرة نسبيا حتى انفصلت مصر عن بغداد تحت ظل الدولة الطولونية ثم الأخشيدية ثم الفاطمية وإلى آخره. كلهم عاشوا وماتوا داخل مصر ومن أجل مصر التي أحبوها.

هناك مثل ظريف يمكن سرده في مقارنة بين حاكم أجنبي يعيش داخل بلدك ويموت فيه مع حاكم أجنبي يتأمر بمصير بلدك من بلد آخر ولأجل بلد آخر ينتمي ويخلص له. السير هارولد في المصدر أعلاه يجرى مقارنة بين عريضتين. الأولى كتبت مباشرة إلى بطليموس الثالث ٢٤٣ ق.م (حفيد بطليموس الأول رفيق الإسكندر الذي انفصل عن باقي المقدونيين في مصر) تقول العريضة : (إلى بطليموس. انا انتيكونوس لقد ظلمت من قبل پاترون مسؤول الشرطة في مدينة توبارك السفلى) وتنتهي العريضة. كما نرى انها لا تنم عن نفاق او تمسكن او إطالة وتذلل، بل صراحة وثقة.. العريضة الثانية رفعت من قبل ملاك أراض في جنوب مصر الى موظف بيزنطي في ٥٦٧م اي بعد سبعة قرون من الأولى وقبل قرن واحد من الفتح العربي، يوم تحولت مصر الى ولاية بيزنطية، اي ان العاصمة لاتقع داخل مصر نفسها. وعلى الرغم من كونهم جميعا مسيحيين لكن لننظر الى نص العريضة:

الى فلافيوس تيرادويوس ماريانوس ميخائيل جبرائيل كونستانتين تيودور ماتينوس جوليانوس ئاتاناسيوس، القائد الشهير والبطريارك القدير المعظم الذي اذن له من قبل جوستين الحاكم العام والدوقية الأوغسطية في اقليم (طيبة) للسنة الثانية. هذه العريضة والرجاء موجهة اليك من قبل عبيدك الذين يستحقون كل الرأفة. هؤلاء هم صغار الملاك والتعساء من قرية أفروديتي التي تقع ضمن ملككم المقدس وفي حدود سلطتكم المهابة... الخ.. العريضة طويلة جدا حتى انها لاتنم عن طلب معين بل التذلل فقط لا غير. اذن، شتان مابين ان تكون العاصمة والحكومة من داخل البلد على ان تكون خارجه.

لا يسعني انهاء الموضوع دون اشارة لحادثة معينة ابان تأسيس مدينة القاهرة على يد جوهر الصقلي، قائد الحملة الفاطمية في القرن العاشر الميلادي. المذكور خرج بجيش من تونس وهزم المنافسين ممهدا لاستقبال الخليفة الفاطمي المعز لدين الله وبنى المدينة التي اطلق اسمه عليها. عند وصول المعز، كان هناك البعض ممن شكك في نسب الفاطميين إلى السيدة فاطمة الزهراء، فقام المعز بجمع أولئك الأشراف مجيبا عن تساؤلاتهم عن حسبه ونسبه. يروي المؤرخون ذلك المشهد التاريخي حيث قام المعز بسحب نصف سيفه قائلا "هذا حَسبي" ثم ذر عليهم قطع الذهب قائلا "وهذا نَسبي" فأجابه أشراف القاهرة "سمعا وطاعة". لو قارنا هذا الموقف بموقف الكوفيين والبصريين من حكم الإمام علي عليه السلام او والي كالحجاج لعرفنا الفرق الهائل بين شعب حضري موحد الإنتماء، وبين شعب تحكمه أنواع العصبيات ويفتقد للحد الأدنى من الأنوثة.

هذا ما كان من تفاعل مصر مع التغيرات السياسية في عاصمتها عبر التاريخ، فبالنسبة للشرق، القاهرة كانت اكثر من پاريس استكانة وتمسكا بالنظام. إلا اذا كان البعض يعتبره نوعا من الذل فالآخرون يعتبرون الاستقرار أهم شرط للحياة وليكن ما يكون.

٢- إيران

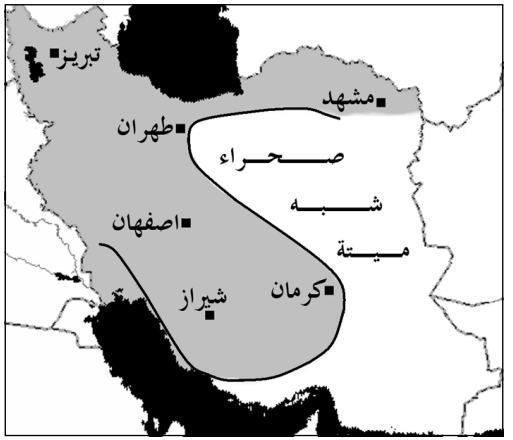

أن نظرجة سطحية لأحد خرائط الدولة الإيرانية لن تبين للقلرىء أي سر مهم. لكن إذا ميّزنا المناطق المأهولة من إيران عن المناطق الصحراوية عندها ستتكون صورة مختلفة تمام الإختلاف عن ما تعودنا أن نراه. عواصم الدول التي نشأت على الهضبة الإيرانية لم تكن في موقع ثابت كما في مصر. بل كان لها عدد كبير من العواصم ومواقعها ابتعدت الواحدة عن الأخرى مسافات شاسعة. مثلا عيلام ثم اكبتانة (همدان) في الغرب، ثم بيروسوبوليس بالقرب من شيراز، ولفترة ما كانت العاصمة الفارسية تقع في المدائن قرب بغداد، اي انها لم تكن في اراض فارسية أصلا. تبريز في الشمال كانت عاصمة للعديد من الإمبراطوريات الضخمة كالسلاجقة وباقي الدول التركمانية والصفويين. ثم اصفهان لقرنين ثم شيراز مرة أخرى واخيرا طهران في القرون الثلاثة المنصرمة. فما سر هذا الموضوع؟

أول امتياز للهضبة الإيرانية وخاصة منطقة طهران لاتبيّنه الخرائط الاعتيادية هو سيطرتها على طريق التجارة المعروف بخط الحرير. ففي القرون التي سبقت استحداث طرق شمال بحر قزوين، وقبل ايجاد الطريق البحري جنوب القارة الأفريقية بين أوروبا مع الهند والصين، خط الحرير كان الطريق البري الأوحد بين الشرق والغرب.. اهمية منطقة طهران لن تظهر الا إذا ميّزنا الأراضي

المسكونة عن الصحارى الميتة التي لم تصلح في وقتها حتى لعبور القوافل. يكفي ان اسمها القديم كان ريكا (بمعنى الطريق) وهي تسيطر على الشريط الضيق بين بحر قزوين والصحارى الميتة شرق فارس.

مع ذلك فان عمر طهران كعاصمة لايتجاوز الثلاثة قرون إلا بقليل. فما السر وراء تلك القوة والتوحد الذي نشأ منذ آلاف السنين على تلك الهضبة وما سر عدم تفتتها؟.. اعتقد ان السر يكمن وراء الصحارى نفسها التي منحت امتيازا جيوبوليتيكيا لفارس. فلقد وفَّرت عمقا ستراتيجيا آمنا لمجموعة كبيرة من المدن ذات حدود مصونة من ثلاث جهات. الإسكندر مثلا، سلك طريق الحرير عبر طهران إلى خراسان ثم السند. إلا انه في العودة سلك الطريق المحاذي للبحر، بلوجستان الحالية، وكاد ان يهلك مع جيشه في تلك الصحراء الميتة. ذلك دليل على مدى مناعة تلك الحدود.. المرة الوحيدة التي سجل فيها التاريخ ان جيشا ما هاجم المدن الفارسية مباشرة من الصحراء الشرقية دون المرور عبر منطقة طهران كانت في عام ١٧٢٢م عندما قام جيش من الأفغان الجاغتاي (من أصول مغولية) بعبور تلك الصحراء وانهوا الحكم الصفوي الذي دام أكثر من قرنين.

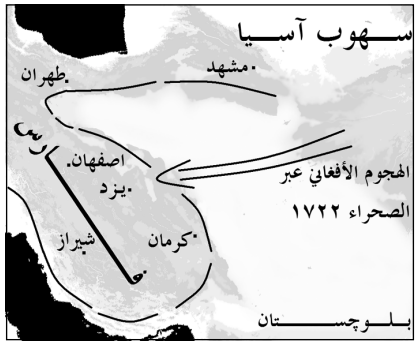

تلك الهجمة طالت العمق الفارسي وحولته إلى ساحات اقتتال ومذابح وهي حالات متعددة لكنها تعد على رؤوس اصابع اليد الواحدة لا أكثر.. من تلك الحملات (التي طالت مدن العمق الفارسي) كانت الحملة المقدونية، ٣٣٠ ق.م وحملات المغول المتقطعة من هولاكو إلى تيمور لنك، ابتداء من القرن الثالث عشر. حتى نصل إلى اخر حملة آسيوية من نوعها التي بدأت في ١٧٢٢ واستمرت تبعاتها بظهور نادر شاه الأفشاري ثم الأكراد الزندية حتى نهاية القرن الثامن عشر حيث اتخذ القاجار من طهران عاصمة، فنلاحظ ان من يومها وحتى الآن لم يشهد الشرق الأوسط أمواج قبائل آسيوية كالمغول والترك. التفسير بسيط، إذ أن البويضة قد وضعت مباشرة على طريق البذور والإخصاب سيكون موضعيا وفوريا.

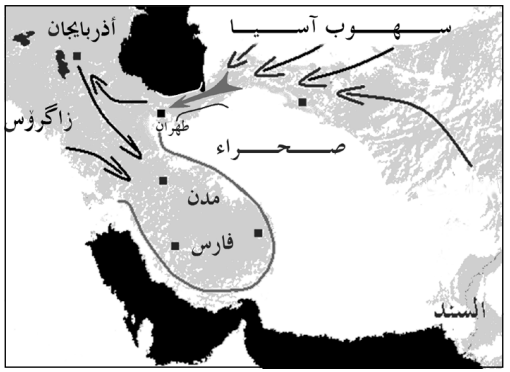

ان الذي يتابع الأمور بدقة ويميز طبائع الدول والجيوش، يجد ان طبيعة الدولة الإيرانية ومنذ اتخاذ طهران كعاصمة بدأت تتخذ شكلا مغايرا للسابق. حدودها تقلصت ولم تعد كما كانت في عهد السلاجقة مثلا الذين امتد سلطانهم من البحر الأبيض المتوسط إلى تركستان الصينية. أو مثل الإمبراطورية الأخمينية التي امتدت من اليونان ومصر إلى الهند. فمنذ استتباب طهران كعاصمة، بدأت الدولة الإيرانية تتكاثف إلى (ثقب اسود) ففقدت آلاف الكيلومترات من مناطق نفوذها على محاور القفقاس وزاگروس والعراق ومحاور الشرق (آسيا الوسطى وافغانستان والسند). فاتخذت صبغة اكثر وطنية وحدودا اقل مساحة لكن اكثر تماسكا واستقرارا أشبه بمصر منها بالإمبراطوريات الروسية والعثمانية مثلا.

تقسيمات الإنتماء

إيران فيها ثلاثة اجزاء رئيسية، اولا: بلاد فارس في مثلث شيراز كرمان اصفهان في فوهة الجرة. هذا هو العمق الستراتيجي الرئيسي وسلة القمح ومنبع السجاد والحرير ومركز الحضارة الفارسية بصورة عامة. ما سمعنا يوما ان انفصلت شيراز عن اصفهان او كرمان عن يزد. ان ردود أفعالها أمام التغيرات السياسية كانت على طول التاريخ اكثر تماسكا وتوحدا بالمقارنة مع الوحدات الجغرافية المجاورة وأشبه بمصر وفرنسا. مثلا اذبان الفتح العربي لم يهزم الساسانيون إلا بعد معارك طاحنة، لكن بعد موت يزدجرد وسيطرة العرب على خط الحرير، لم نسمع بثورة او تمرد يحصل في

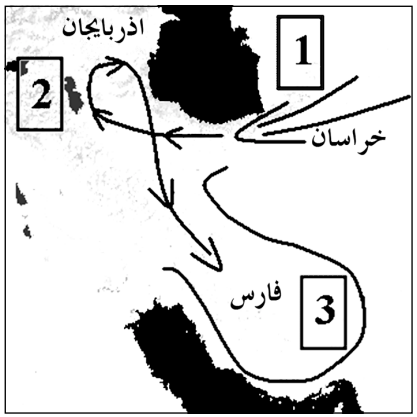

بلاد فارس!. كانت هناك ثورات ومعارك في اذربيجان وخراسان، والعراق مثلا لم يهدأ ليوم واحد، بينما فارس كانت ساكنة تتفاعل بتوحد ومركزية. فإما يقاتلون جميعا أو يستسلمون جميعا.

ثانيا: خراسان، هي بوابة آسيا ومنبع الأمواج القبلية (آرية كانت ام تركية) أي منبع البذور الذكورية المخصبة للبيضة الفارسية.

ثالثا: اذربيجان، المستقر الأول للأموج القبلية الآسيوية وكأنها (مركز تأهيل) البذور للتزاوج مع البيضة. أذربيجان احد أهم الوحدات الجغرافية في التركيبة الإيرانية. هي كالعراق والشام، بلد نصف مركزي، فنلاحظ وجود تعدد لغوي فيه لحد ما وعاصمتها تبريز كانت حاضرة الكثير من الإمبراطوريات. غير ان ما ينقصها هو الحدود المعزولة مثل ما تتمتع به فارس ومصر. وهي بحد ذاتها تقع تحت تأثير استقطاب الجرة الفارسية.. الامواج القبلية كانت اول ما تعبر، تستقر في اذربيجان. فاذا قامت بامتزاج مع فارس، كتب لها العمر. اما الكتل التي لم تلتزم بتزاوج مع العمق الفارسي، كانت تزول في فترات اقصر رغم كبر مساحاتها في البداية.

انواع الإمبراطوريات الإيرانية:

يمكن تقسيم الإمبراطوريات الإيرانية إلى نوعين رئيسيين..

الف– الامواج القبلية التي احدثت اخصابا غير متكامل (كما فعل الميديون مثلا)..

باء– الامواج القبلية التي امتزجت كليا بمدن فارس (كما الأخمينيون مثلا).

لطالما شحن المثقفون عقول شبابنا بأمجاد الإمبراطورية الميدية، لكن في نفس الوقت تفاخرنا بكاوه الحداد الذي قتل الضحاك!. انه أمر عجيب!، هذا الكلام المعسول يزيد الأعمى عماء، فالإمبراطورية الميدية في القرن السابع قبل الميلاد هي أولى تلك الإمواج القبلية مثلها مثل الآق قوينلو والقرة قوينلو والجلاير والايلخانية كانت اشبه بطوفانات قوية صالت وجالت، لكنها لم تندمج او تخصب ايا من المدنيات المذكورة فظلت تتقاتل فيما بينها حتى ابتلعتها قوة اخرى أخصبت البيضة الفارسية.. على خلاف النوع السابق نرى القبيلة الاخمينية امتزجت بالمجتمعات الحضرية في العمق الفارسي، وبالمناسبة، ذلك الاخصاب ولد أول إنتماء توحيدي واول إمبراطورية عالمية في التاريخ حكمت الجزء الأكبر من العالم القديم لمدة قرنين، ولولا الإسكندر، كان من الممكن ان يدوم حكمهم أطول بكثير.

ان قورش أو (كورش، Cyrus) الفارسي برأي الكثير من باحثي التاريخ هو نفسه (كاوه) الذي هزم خاله ازتياك (ازدهاك بمعنى التنين) اخر ملوك الميديين. وسنرى لاحقا ان قصة الحاكم الكردي الذي يظلم الأكراد (بسبب تلك النعرات القبلية والعائلية والمدينية) وتهافت باقي الأكراد، او لنقل الزاگروسيين، على اللجوء للأجنبي هي حالة متكررة وقد تظل تتكرر طالما كان الإنتماء الزاگروسي لم يتغيّر. فلا داعي للوم الجيران والاستعمار على كل شيء. لنرجع لموضوع إيران.

هناك ثلاث إمبراطوريات رئيسية في التاريخ كانت ذات صفة فارسية صرفة، اي قبائل إندمجت مع مدن فارس وإلتزمت بها كليا:

١. إلاخمينيون (حوالي ٥٥٠–٣٣٠ ق.م) كانت موجة من قبائل آسيوية اجتاحت خط الحرير وتزعمها الميديون في البداية. لكن الميديين انتشروا بين اذربايجان وغرب زاگروس حيث لم تتواجد مدينة ذات وزن وكثافة او حدود طبيعية تحفظ ظهورهم. بينما الجزء الذي توجه إلى فارس قام بعملية إخصاب واندماج، فنشأت قوة من داخل الرحم الفارسي ابتلعت باقي القبائل وتوطدت ركائز إمبراطورية قوية.

٢. الساسانيون (حوالي ٢٢٠–٦٤٠م) قبائل آسيوية تجتاح خط الحرير وتؤسس الإمبراطوريات (الفرثية او الأشكانية) تستهلك قواها في الحروب حتى تنهض حركة من داخل الرحم الفارسي (العائلة الساسانية) فتبتلع الأولى!!

٣. الإمبراطورية الصفوية (حوالي١٥٢٠–١٧٢٠م). تاريخها كان عبارة عن تكرار لنفس العملية. أولا تأتي موجات قبلية من آسيا، في السابق كانت قبائل آرية هذه المرة قبائل تركية. اجتاحوا خط الحرير وأسسوا دولا واسعة كالدول التركمانية والمغولية لكنها كانت غير مستقرة حتى تأثر بعضها بالاستقطاب الفارسي فنشأت مشيخة دينية تطورت الى دولة غير قبلية (الصفويين) في أذربيجان كمرحلة أولى. المرحلة الثانية كان الاندماج الكلي مع مدن العمق الفارسي عند نقل العاصمة من تبريز الى اصفهان (فوهة الجرة الفارسية) في عهد الشاه عباس الصفوي. اي ان هذه المرة لم تنشأ قوة من داخل الرحم الفارسي تبتلع تلك التي استقرت في اذربيجان. بل ان القوة نفسها تراجعت من اذربيجان وذابت في الرحم الفارسي وآخر تلقيح جاء مع عائلة رضا المازندراني وإبنه الشاه الراحل. لقد إستعانوا بالقوزاق ثم

بالقوى الأجنبية لإدامة والملك لكن ما أزاحهم هو توجههم الى أنوثة أخرى غير وطنية فلغظتهم البويضة الفارسية خارجاً على الفور. لن أسهب في الموضوع ولكن لعل الصورة الحركية أو Motion قد وضحت الآن.

القبائل الإيرانية

تجدر الإشارة هنا لطبيعة الأمواج القبلية الآسيوية (شرق–إيرانية) بغض النظر عن كونها آرية أم تركية. تلك الأمواج كانت اتحادات قبلية ذوات إنتماء توحيدي (توحيد سياسي وعسكري بالدرجة الأولى) وهي بعكس طبيعة دويلات المدن التي تختلف حتى في لهجاتها ومذاهبها وآلهتها. السلاجقة مثلا لم يكونوا قبيلة بل كانوا عائلة عسكرية وحدت عددا من القبائل. وكانوا مسلمين، لكنهم احتفلوا داخل بغداد بحرق الكتب والتفاسير الدينية والمذهبية قبل ان يفعل المغول[١] ذلك. التوحيد عندهم كان سياسيا وعسكريا اكثر منه دينيا، فتيمور لنك مثلا اعجب بقول مأثور لجنكيزخان بأن "كل هذه الدنيا اصغر من أن تحكم بأكثر من رجل واحد".

ملاحظة نهائية..

على القاريء ان يميِّز تمام التمييز بين معنى كلمة (فارسي) الحالية عن معناها القديم. الفارسي اليوم هو حائك السجاد الكاشاني والتاجر الأصفهاني والمجتهد الديني في قم والفلاح والموظف الهاديء الطبع. اما جموع الفرسان والبدو والقبائل الذين رافقوا قورش وأرشاك في فتوحاتهم، كانوا ذوي طبيعة عسكرية تشبه الأتراك العثمانيين والصفويين (جنود القزلباش بالمناسبة كانوا اتراكا ايضا).

(١) حسن العلوي– التأثيرات التركية في المشروع القومي العربي في العراق.

مقارنة بين مصر وإيران

مصر وفارس نماذج ممتازة للوحدات الجغرافية موحدة الإنتماء، والمقارنة بينهما قد توصلنا الى استشفاف عناصر أساسية لذلك النوع من البلدان التي يصعب احتلالها لكن تسهل السيطرة عليها بعد الإحتلال. كما ادناه.

- لهما كتل من مناطق زراعية ومدن محمية بحدود طبيعية. اليوم مثلا لكل من مصر وإيران مجاميع من المدن والأرياف من حوالي عشرين مليون نسمة او أكثر (أقاليم جنوب القاهرة على النيل في مصر وأقاليم العمق الفارسي في إيران) محمية تماما من التهديدات الخارجية بسبب الصحارى التي تحيط بتلك المناطق الزراعية والحضرية الشاسعة.
- البلدان فيهما أقاليم معيّنة اذا تمت السيطرة عليها، سهلت السيطرة على معظم البلد (منطقة القاهرة في مصر وخط الحرير في إيران).
- أكثرية السكان تتكون من المزارعين والحضر، ولهما الغلبة على الحياة الرعوية. في مصر مثلا، هناك النيل يجري فيها بسبب انخفاض منسوب الأرض. اما في الهضبة الإيرانية فإن ارتفاع منسوب الأرض بمعدل ١٠٠٠م عن سطح البحر يخلق حالة فريدة من نوعها. يكفينا ان نشير إلى ان مستوى سطح بحيرة اورمية يبلغ ١٢٧٠م عن البحر، اي بمستوى قمة سري رش المصيف الجبلي المطل على سهل اربيل.. هذا الارتفاع يضمن لها المطر والرطوبة ويبقي انهارا ذات تصريف داخلي على طول ايام السنة. حتى ان الكثير من أراضيها تزرع بدون سواقي وانظمة ري.
- مناخ العواصم والمدن الكبرى مناخ بحري فلا ترتفع الحرارة إلى درجات مستحيلة كما في العراق. ذلك يزيد من هدوء الطبع وتمسك الإنسان بالأرض.
- للمرأة مركز مرموق داخل العائلة، او على الأقل ان الأنوثة بحد ذاتها لاتحتقر ولايتقزز منها الرجال وليست عارا كما في بعض الثقافات.

من جانب آخر، هناك اوجه إختلاف ايضا. على سبيل المثال لا الحصر، مصر مستقرة سياسيا ومذهبيا واثنيا اكثر من إيران. فالثانية ذات حدود أطول وترتيبها الديموگرافي من مدن واقاليم اكثر تشتتا. وقد يتساءل القاريء أليس في تلك البلدان نواقص أو مشاكل. طبعا لا، هناك الكثير منها فهناك مشاكل الطبقات (الخطوط

العمودية للتمييز في مثل تلك البلدان تتحول الى تمييز افقي بين الطبقات الاجتماعية) كذلك البيروقراطية والفقر والتهافت على المال والكثير من النواقص ومشاكل لاتحصى ويمكن ان ننتقد حتى طبائع الإنسان فيهما لكن اعتقد اننا لسنا بصدد مناقشة مشاكل تلك البلدان كي ننتقدها ونبرز عيوبها.

الفصل الثالث

بلدان بدون عواصم طبيعية

١- البلدان الألمانية

نقصد الأمة الألمانية بشكل عام المنتشرين على عدة دول. ان تحديد كلمة (ألماني) تاريخيا تعد مشكلة بحد ذاتها. هناك من كان ألمانيا بالأصل ثم انفصل بإقليمه عن باقي الأقاليم الألمانية كما في لوكسمبورك وهولندا وبلجيكا التي يمكن اعتبارها دويلات مدن.. ثم هناك الذي لم يكن ألمانيا لكنه حكم من قبل الألمان فاكتسب تلك الهوية كما في النمسا. وهناك الذي حكم من قبل الألمان لكنه احتفظ بهوية عاصمته غير الألمانية كما في براغ (شعب الجيك). وكم هي الجاليات الألمانية التي لم تذب مع الروس والجيك والبولنديين.. الخ. كل هذا اضافة الى دولة ألمانيا الفدرالية وسويسرا الكونفدرالية.

انه موضوع شائك جدا وإثارته قد تجر لحرب أوروبية جديدة كما الحربين السابقتين وعشرات قبلها حدثت في قلب أوروبا احداها دامت ٣٠ عاما والأخرى دامت ١٠٠عام. ان عملية تغيير الدول والحدود والانفصال والاندماج التي جرت بين (اناس ألمان) هي عمليات لاتحصى. خير ما فعلته حكومة ألمانيا الأتحادية في آخر عملية من نوعها (اندماج ألمانيا الشرقية بالغربية عام ١٩٩٠) انهم سدوا الموضوع من الأساس ولم يدعوا اي مجال لمناقشة باقي الأقليات الألمانية المنتشرة خارج الحدود وإلا الله اعلم ما كانت تخبئه تلك التوزيعات الجيوبوليتيكية والعصبيات المدينية والقومية (مع وضد) الألمان داخليا وخارجيا.

دون الدخول في تلك المتاهة، نظرة بسيطة لنوعية التوزيع الديموگرافي يمكن ان يلخص لنا الموضوع برمته. هذه خارطة تبيّن الدول الألمانية أو التي اعتبرت في يوم ما جزء من الأمة الألمانية.. لاتوجد حدود طبيعية عازلة على الإطلاق. اما المركز فشبه فارغ (مثلث الحدود بين اقاليم بافاريا وسكسونيا مع الجيك).. بالنسبة للدول المتحدثة

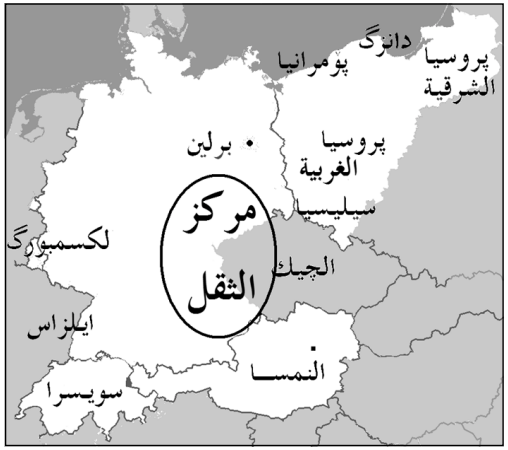

بالألمانية كألمانيا والنمسا وسويسرا، نرى العواصم تتوزع على أقاصي الأطراف. هناك مجموعة من الدول التي اندفعت اليها القبائل الجرمانية والتي تبعت الاباطرة الألمان لقرون عديدة في الغرب كلوكسمبورك وبلجيكا وهولندا. يمكن اعتبارهم بقايا دويلات المدن الألمانية كما كان في بلاد سومر واليونان القديمتين. بعضهم فضل فرض لهجته المحلية وجعلها لغته القومية كما في هولندا. وآخرون تجاوزوا الحاجز وفضلوا استعمال اللغة الفرنسية لكنهم لم يخضعوا لفرنسا حفاظا على انتمائهم لعواصمهم كما في بلجيكا ولوكسمبورك.

لنركز الآن على دولة المانيا الفدرالية. الشكل يبين المدن التي يزيد عدد سكانها عن النصف مليون. الميتروپوليسات تتوزع بشكل أقواس مبتعدة عن مركز شبه فارغ كأن قوة ما تدفعها بعيدا. والمركز نفسه هو نفس المركز الذي فرق الأمة منذ العصور المبكرة وهي عبارة عن أرياف ومدن صغيرة تتقاسمها أقاليم سكسونيا وبافاريا وبلاد الجيك. هذا ويمكن ملاحظة كثافة المتروبوليسات في الجهة الغربية من البلد، حوض الراين، حيث احدى المدن تدعي كونها العاصمة الثقافية، والأخرى عاصمة اقتصادية وهكذا.

توحيد ألمانيا جاء بأيد حديدية من الأرستقراطية العسكرية من بروسيا، اقليم برلين، ومازال بعض مقاطعاتها فيها تيارات تنادي بالانفصال وفي النهاية فان المدن الألمانية اتحدت فدراليا وهو حلها الوحيد. اما سويسرا فكان اتحادها اصعب وما تم الا

بكونفدرالية بين ٢٨ مدينة كل منها يعتبر نفسه شعبا مستقلا، كما في المدينة التي انتمي اليها (كويسنجق). هذا وان مدن سويسرا انقسمت الى ثلاث مجاميع، قسمان فضلاً استعمال الفرنسية والإيطالية على استعمال لهجة ألمانية اخرى غير لهجتهم المحلية. نفس الشيء كاد ان يحصل في مدن بهدينان (محافظة دهوك) تقريبا اذ فضلوا الدراسة العربية على الدراسة بلهجة كردية غير لهجتهم. ولو ان الدراسة كانت بلهجتهم فأغلب الظن ان باقي الاكراد (السورانيين في اربيل والسليمانية) فعلوا نفس الشيء. هذا التقزز والتنابز باللهجات من احد اكبر لعنات الجغرافيا في البلدان غير المركزية. ولعل احدا ما يناقش بأن كل العالم فيه لهجات مختلفة. الكلام صحيح لكن يجب ان لانغض البصر عن اسباب تلك الفوارق الكبيرة في لهجات البلدان غير المركزية التي تصل حد الإختلاف القومي.. اما النمسا وعاصمتها فيينا فهي، كمدينة، أكثر المدن استقطابا بين المدن الألمانية قياسا بأقاليمها. اذ ان أقليمها اصبح احد اعرق الدول الأوروبية، وهي الدولة الوحيدة التي لا هي دويلة مدينة ولا هي دولة اتحادية (اتحاد مدن). في الماضي فان استقطاب عاصمتها ضم آلاف الأميال المربعة خارج حدودها الحالية وجعلها عاصمة لعدة شعوب وأقاليم ألمانية وغير المانية كالهنغار والصرب حتى بداية القرن العشرين.

الملاحظ ان اكثر الملوك الألمان عبر التاريخ كانوا يسمون أباطرة حتى ولو كانت املاكهم اقل من بريطانيا وفرنسا، ذلك لان حكمهم كان يجري على أقاليم ومجاميع بشرية متنوعة.

٢- إيطاليا

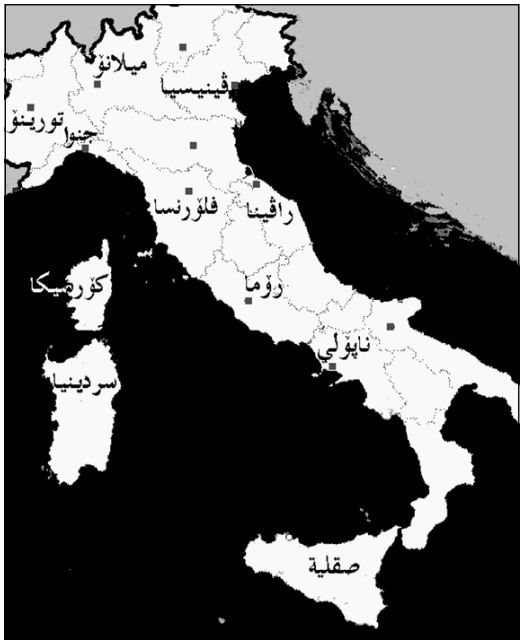

ان مصطلحات مثل جرمانيا، الجيش الألماني، إمبراطور ألمانيا الخ، قد عرفت منذ اكثر من ألف عام. اما بالنسبة لإيطاليا فحتى القرن التاسع عشر لم يكن يوجد شيء يسميه الناس جيش إيطاليا أو حكومة إيطاليا او شعب إيطاليا، حيث ان التاريخ لايتحدث الا عن مسميات مثل جمهورية فينيسيا، اسطول جنوا، مملكة صقلية، جمهورية الفاتيكان، ادباء فلورنسا، الخ.. الخريطة تنطق، فمع ان ليس فيها فراغ ما، الا انه ليس هناك تميز جيوبوليتيكي لأي أقليم على الآخر. لنتساءل، اي من المدن او الممرات او السهول او الأقاليم يشكل ذاك المركز الذي اذا تمت السيطرة عليه يسطَر على البلاد كلها؟ الجواب أنه لايوجد شيء من ذلك القبيل.

إيطاليا تتفوق على ألمانيا بنقطة واحدة وهي وجود حدود طبيعية. جبال الألب والبحر فرضت وحدة لغوية ومنعت ظهور طوائف دينية وعرقية مختلفة ومنحتها هوية متميزة عن كل أوروبا. مع ذلك، فان عدم وجود عاصمة طبيعية سمح بتقوية التعصب للمدينة والقرية والعائلة. اي ان الخوييات والنعرات فعلت فعلها ومازالت تفعل.. اول نوع من النعرات نلمسه عند الإيطاليين هو تكبر اهل الشمال على اهل الجنوب. ولكن دائما وأبداً فالإنتماء الحقيقي هو للمدينة، ثم تتبعها الروح الإنقسامية لأجزاء أصغر فأصغر الى قرية ومحلة وعائلة. في أيامنا هذه بعض المدن الإيطالية يقيم سباقات عنيفة للخيل والمبارزة أو نوع من كرة القدم نراه في التلفزيون أشبه مايكون (معركة) وليست كرة

قدم. كل مدينة او محلة ترفع شعارا خاصا وترى المتنافسين مستعدين للتضحية بالروح من اجل إنتماءاتهم الضيّقة.

انها نفس الحالة النفسية لابن المافيا، يفتك بالعشرات من البشر (من الذين هم ليسوا منا) كما يقولون، ويضحي بروحه من اجل الكل (الكل هنا تعني مجموعة المافيا وليس الوطن). حتى ولو اعتبر شرا فهو شجاعة وإصرار وتفان لايمكن انكاره، غير اننا نسمع انهم اذاقوا الأمرين لرومل والضباط الإيطاليين في الصحراء الليبية أثناء الحرب العالمية الثانية. فما كانت المعركة تبدأ حتى كانوا يتراكضون للاستسلام. اعتقد انهم كانوا يقولون لأنفسهم (لمن اقاتل؟) واحدهم لايشعر بولاء أو إنتماء للآخر وللضابط الذي يأمره بالتضحية. لو كان جيش موسوليني قسم الى فيالق جنوا وميلانو وفينيسيا الخ، لكان من الممكن ان تتنافس تلك الفيالق وتحتل القاهرة دون الحاجة لرومل!!. كذلك هي الحالة لدى اللبناني، ابن الجنوب مثلا يقاتل بقوة عشرة جنود اسرائيليين كونه يقاتل تحت لواء انتمائه الطبيعي. غير انه لو قاتل تحت أمرة ضابط من بلدة أخرى أو طائفة أخرى، عندها كنا سنرى مدى ولائه. كذلك هو البيشمركه ومشكلته الإنتمائية حسب التكتلات المدينية والعشائرية واللهجوية التي لاتحصى. فهو لايشعر بألفة وإنتماء الى الكردي الآخر من عشيرة أخرى أو مدينة اخرى، فلماذا يقاتل ويأتمر له. نستدل مما سبق ان وجود أو عدم وجود قانون يحدد سلطات الجيش النظامي سيكون بدون فائدة مادامت طبيعة البشر إنقسامية تحن الى الميليشيات والتكتلات.

هناك ظاهرة انتمائية ملازمة للحالة السابقة يمكن تسميتها (قفزة الإنتماء). المقصود بها أشخاص نراهم يوميا، كما اعلاه، لا يألفون احدا إلا الأقرباء او أولاد القرية او المدينة والعشيرة وينفرون من كل شخص لاينتمي لتلك الحلقات الضيّقة. لكن في نفس الوقت ينادون، مثلا، بأخوة بين (المسلمين في العالم قاطبة) او (الأخوة بين الطبقات العاملة في كل اصقاع الأرض) وما الى ذلك. عجيب هذا الإنسان، فهو غير مستعد ان يصاهر ابن القرية المجاورة لقريته كونه يعتبرهم غرباء. لكنه يتفاخر بأنه يدعو للأخوة مع الطبقة العاملة في (موزنبيق!) مثلا، او الأخوة الدينية مع ابن الهند!. تلك هي (القفزة) وهي حالة شائعة جدا في المجتمعات مجزأة الإنتماء. وسنرى لاحقا هذه الحالة في إيطاليا بالذات مما حصل من إزدواجية في الإنتماء و(القفزة الإنتمائية) من

نطاق العائلة والمدينة مباشرة الى الاممية. فالشخص الإيطالي المفترض لعائلة (جولييت!)، لايطيق رؤية (روميو) لمجرد كونه من عائلة أخرى، فيقول (انه ليس منا). غير انه يتحدث عن اخوة دينية او حتى شيوعية (أخوة عقائدية) تجمع البشر على هذا الكوكب قاطبة، أفلا من مراجعة لما يسطر من أناشيد الوحدة والأخوة والتوحيد؟. لطالما كتب عن العصبية القبلية. لكن هذا النوع من العصبية هو الحالة الذكورية للنعرة، اما الحالة الأنثوية فهي التي نادرا ما بحثت او انتقدت. على العكس، اذ يعتقد البعض انها تطور وحضارة وما شابه.

الشرح السابق يعطي القاريء دلالات عامة لكنه لن يوضح مدى خطورة عصبية المدن والمصائب التي تجرها ومدى تأثيرها العميق في مسار البشرية. الآن سندخل في تفاصيل اكثر من خلال شرح جديد للتاريخ، على طريقة محمد حسنين هيكل حين اختار اسما لكتاب (زيارة جديدة للتاريخ) سنفعل نفس الشيء في عرض جديد لحقائق بسيطة في التاريخ والجغرافيا والديموگرافيا والجيوبوليتيك حتى انها لن تتطلب مصادر دقيقة فهي نفس "الألفابيت" والمعلومات العامة التي طالما سمعنا عنها. كل ما في الأمر اننا سنتناولها من زوايا جديدة. الحوادث والكروب هي نفسها تبحث إنما بدون غض نظر عن آثام واخطاء لايريد المتحضرون الاعتراف بها.

سنزور بلدين من اهم البلدان في العالم القديم، اليونان والعراق في بحث دقيق ينقلب فيه الكثير من القيم والحقائق والفذلكات المسلّم بها. وأخيرا سنعود لجبال زاگروس، وللكل الخيار بما يؤمنون.

الباب الأول

الفصل الأول

اليونان

ملاحظات: موضوع اليونان لن يقتصر عليها لوحدها بل سيمتد الى حيث امتد تأثيرهم في بلدان الشرق الأوسط وأوروبا وستكون لنا ايضا وقفات طويلة مع حضارات وشعوب أخرى ذات علاقة مباشرة باليونان.. سيتم استعمال بعض العبارات في إطارات معينة.

– (إغريق، Greek) تدل عليهم كعنصر قومي انتشروا في اليونان وكريت وقبرص وايجة والجزء الغربي من تركيا الحالية، انقسموا الى ثلاث لهجات رئيسية، الآيونيين والدوريين (في اليونان) والآيوليين في آيوليا (غربي تركيا).

– (الهيلينيين) عبارة تشمل الإغريق زائدا الشعوب التي اندمجت بالثقافة الإغريقية خاصة بعد الفتح المقدوني حيث طرأت حالة من الإختلاط بين الإغريق والمقدونيين وسكان آسيا الصغرى وحتى سوريا ومصر.

منذ القرن السابع ق.م حتى ظهور المسيحية كانت اليونان من اكثر الحضارات ثقافة وتفاعلا مع الفرد والطبيعة والحياة. اذا شبهنا الشعوب بالأفراد، فالأغريقي تميّز بوعي وتحرر وقدرة على الخلق. لكن المبالغة في حب مدنهم والتعصب لها ادّت الى فشل كل طاقاتهم العقلية والفلسفية على إدراك أن التعصب المديني هو نوع من الأدمان المميت سيجر بالنتيجة الى هزيمة مذلة ثم الى اكتساح العقول الحرة من قبل ديكتاتوريات العقيدة، عادة ما تكون عقيدة دينية.

السومريون سبقوهم بآلاف السنين واعتقدوا ان مدنهم وحضارتهم قد انزلت من السماء وقالوا ان الآلهة منحتهم نظام دولة المدينة. على نفس النسق ادعى ارسطو (٣٨٤–٣٢٢ ق.م) بأن: السماء منحت الأغريق نظام دولة المدينة وان كل ماهو خارج اسوار المدن ليس ببشر، فإما ان يكونوا حيوانات او آلهة.. حسنا يا شيخنا، لطالما

تفاخر المثقفون عموما بمقولات من هذا القبيل واعتبروها نموذجا لحب التطور والحضارة، الا اني ارى في قوله انعكاسا لتعصب الأغريق للمدينة قبل ان يكون تعصبا للتمدن والمدنية. شيخنا هنا يلمح الى ان القرويين والقبائل وكل من عاش خارج سور المدينة (ليسوا ببشر). إذا كان هذا رأي عقلائهم، فكيف بعامة الناس؟.. اذن، لا عجب انهم أثاروا ردود أفعال ضدهم وانتهى بهم المصير الى العبودية فإنقلبوا من الفلسفة وحب الحياة الى معاداة الحرية والسعادة نزولا الى افيون الماسوشية وتعشق الحزن والحسرة على المجد الغابر، وانهم في الحالتين كانوا اكثر البشر عنادا كأن لا رأي الا رأيهم وان كل البشر المحيطين بهم هم برابرة.. بالمناسبة، كلمة بربري جاءت من استهزاء الأغريق بلغات الشعوب الأخرى كانوا يقلدونهم (بر بر بر) كما نفعل نحن الأكراد مع الكثير من الأكراد وغير الأكراد من غير مدننا.

المسيحية في بدايتها كانت حركة انشقاق عبري أو آرامي ضد أهل القدس وشريعتهم اليهودية، وكان في سبيل الاندماج مع باقي رعايا الإمبراطورية الرومانية. الا ان كل ما تلا ذلك من جوهر المسيحية كان اغريقيا، او بالاحرى هيلينيا، بدء بكلمة (انجيل) ولغة الأنجيل ومفرداته ومدونيه كلها هيلينية، وصولا الى الذين آمنوا به ومزّقوا اجسادهم تحت سياط الروم وتحت براثن وانياب السباع في ملاعب روما، وصولا للذين أنزلوا القياصرة من مرتبتهم الإلهية الى مرتبة حامي او تابع للبابوية وحتى الذين نشروا المسيحية في أوروبا وجعلوها اهم (فيزا) لمن يود الدخول الى (نادي الشعوب الأوروبية المتحضرة) وبعد وبعد، كل ذلك يعود الى بذرة إنتماء هيليني منقلب من التعصب المديني الى إنتماء أممي.

هذا ومن الجدير بالذكر انه ما بين الإنتماء للمدينة وللأمة، ضاعت الروح القومية والوطنية اليونانية ونسيت، فما بقي لهم غير الكنيسة الأرثودوكسية التي امتصت انتماءهم.

الجغرافيا:

المخطط يبين مدناً اغريقية قبل العصر الهيليني وهي تهتف بما تخبئه تلك الأراضي لكل شعب سكنها. ماعدا المضيقين على طرفي بحر مرمرة مثلا، ليس هناك اي موقع آخر يمكن ان يُسيطر على خطوط المواصلات.

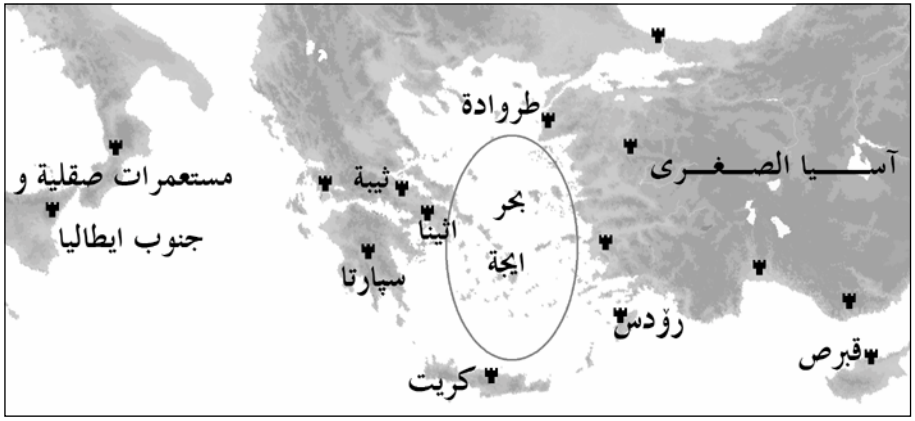

مذكرات زينوفون تحدثنا ان بيزنطة كانت مستعمرة تجارية نائية عن اليونان الحالية. اي ان موقع بيزنطة كان تقريبا كموقع بغداد (الفوهة العراقية) بالنسبة للمدن السومرية في اول ايامها، حيث ان التركيز العمراني في البداية كان في الناصرية والفرات الأوسط فقط. ثم ان أوروبا في وقتها كانت غابات موحشة. اي ان بيزنطة لم تتحول الى مركز وعاصمة الا بعد الف عام من تقولب الهوية القومية للأغريق في تعصب لعشرات المدن.

الجزء الآسيوي من بلاد الأغريق (غرب تركيا حالياً) هو ايضا بلاد غير مركزية. مثلا الحالة السياسية للحيثيين دليل واضح على تلك الحقيقة حيث ان جدالا يدور هل ان الحيثيين كانوا شعبا واحدا ام عدة شعوب (سبعة شعوب حسب بعض الآراء). السبب برأيي يعود لعدم وجود عاصمة وحدود طبيعية عازلة، فحتى اذا كانوا شعبا ولغة واحدة، الدارس لتاريخهم سيواجه مشكلة في تحديد الهوية القومية لسبع دويلات حيثية دائمة التقاتل فيما بينها وكل منها تمتلك، كالأكراد في زاگروس، لهجة وثقافة تكاد تكون منفصلة عن الباقي.. الدليل الأقوى هو مذكرات زينوفون الذي مَّر عبر الأنضول وساحل البحر الأسود وبحر مرمرة فيذكر عشرات الشعوب والقبائل والدويلات لايفصل

الواحدة عن الأخرى سوى مسيرة يوم او يومين لكن كلا منها كان يتصرف كأنه شعب مستقل.

بالنسبة للبر اليوناني، فهو أيضا عانى من لعنة الجغرافيا. الخارطة تظهر الأقاليم اليونانية. في كل فترة تكتلت مجموعة ضد مجموعة اخرى وتمّزت بينها كتلتان رئيسيتان. اثينا في اقليم اتيكا يتكلمون اللهجة الأيونية وسپارتا في شبه جزيرة البيلوبونيز يتكلمون اللهجة الدورية. الأمر شديد الشبه بما جرى ويجري حتى الآن في كردستان العراق بين PUK وKDP. ولا يتعجب القاريء فأن قضية الحزبين الكرديين الشهيرين أعمق بكثير من مشكلة زعامة بين (البارزاني والطالباني) كما يسود الاعتقاد، ليتها كانت بتلك البساطة!

التاريخ

تاريخ اليونان بصورة عامة عبارة عن سلسلة من حروب داخلية وخارجية، لاتنتهي واحدة حتى تبدأ أخرى، ما عدا فترتين. فترة إستقرار تبدأ بعد جعل ميناء بيزنطة الصغير عاصمة جديدة باسم Constantinople في ٣٢٠ ميلادية وتستمر الفترة الى سقوطها بيد الأتراك في ١٤٥٤م والى قرنين ايضا بعد ذلك التاريخ. في تلك الفترة انقطعت النزاعات الداخلية فقط، أما النزاعات الخارجية فحدث ولا حرج. الفترة الثانية بدأت منذ توقف آخر حرب اهلية يونانية في ١٩٤٩ وتمتد حتى يومنا هذا، سيتم شرحه لاحقا.

تعود نشأة الحضارة اليونانية الى حوالي ١٥٠٠ ق.م، اول نهضة كانت في كريت ثم بدايات دويلات المدن في اليونان التي تسمى الفترة الميسينية. القبائل انشأت مستعمرات ومراكز تجارية ووجهت ضربات قوية على شكل غزوات ضد الحيثين في آسيا الصغرى وضد المصريين. الفلسطينيون مثلا كانوا قبيلة أغريقية انحدروا جنوبا واصطبغ اسم المنطقة باسمهم حتى اليوم.

حوالي ١٢٥٠ ق.م وقعة حرب طروادة، المدن الأغريقية في اليونان تحالفت ضد طروادة في البر الآسيوي.. قصة هرب زوجة أحد الملوك مع امير طروادي وقصة الحصان الخشبي أساطير لاتشكل دلائل على شيء. الإهتمام يجب ان ينصب في البحث عن سبب أقوى لتجمع جيوش كل تلك المدن بكل هذا الإصرار ضد طروادة؟. لا

شك ان كل المدن الأغريقية دأب على فرض نفسه على باقي المدن، وان موقع طروادة له بعض التمييز في القدرة على السيطرة على مضيق الدردنيل. ان صح ذلك، ستكون حرب طروادة اول رفض أغريقي لتوحيد السلطة في عاصمة دون الباقي. والاحداث التالية تثبت التفرق والتناحر بين المدن والأقاليم حتى انه منذ حوالي ١٠٠٠ ق.م الأغريق نسوا الكتابة والتدوين، ثم تحولت بلادهم خرابا الى ان اجتاحتها القبائل الدورية ثم الأيونية، وبها تنتهي الحقبة الميسينية.

العصر الكلاسيكي

هي الحقبة الرئيسية من تاريخ الأغريق تبدأ من حوالي ٨٠٠ ق.م. القبائل المذكورة استقرت وتعلمت "الألفابيت" من الفينيقيين (كنعانيين). زاد عدد السكان وظهرت مدن فيها طبقات من ملاك الأراضي. بعدها ٦٨٠ ق.م تظهر مسكوكات نقدية ودلائل قوية على نمو طبقات من التجار داخل المدن.. طابعهم العام هذه المرة كان اكثر تمدنا وتنظيما لكن اشد تمسكا وتعصبا للمدينة. انهم رفضوا الملكية الوراثية قبل عراقيي ١٩٥٨ بآلاف السنين، وتياراتهم الاجتماعية والسياسية تبلورت في اتجاهين تجسدا في مدينتين:

أولا: سپارتا في البيلوبونيز: اكبر مدينة في شبه جزيرة البيلوبونيز، استتب فيها نظام أوليغاركي (اداري عسكري) منذ ٦٥٠ ق.م بما عرف بدستور ليكوركوس. ملاك الأرض شكّلوا ارستقراطية عسكرية ورفضوا الملكية الوراثية بأن فرضوا نظام الملكين (رجلين منتخبين من قبل مجلس الشيوخ ويستبدلان دوريا).. اهل سپارتا كانوا ذوي تربية عسكرية صرفة لكن ليس مثل الآشوريين والروم لأن انتماءهم شمل (اهل المدينة) فقط لا غير. حتى سكان اقليم شبه جزيرة البيلوبونيز، والتي توسطتها سپارتا، اعتبروا غرباء عن المدينة. فكيف نتوقع لها ان تتحول الى عاصمة؟

ثانيا: اثينا في أتيكا: كان لها نفس الجذور التاريخية في نمو أرستقراطية من ملاك الأرض إلاّ ان الطفرة جاءت من نمو طبقة التجار الأثرياء وسيطرتهم في اثينا اكثر من باقي المدن الإغريقية.. الأثينيون اعتمدوا على أسطولهم البحري في توسيع واحتكار التجارة. الملكية رفضت ودحرت منذ ٦٨٠ ق.م. تبعتها اصلاحات

صولون في ٦٣٠ ق.م التي فرضت حكومة ارستقراطية من الأثينيين فقط، ملاكا كانوا ام تجارا. وهكذا.

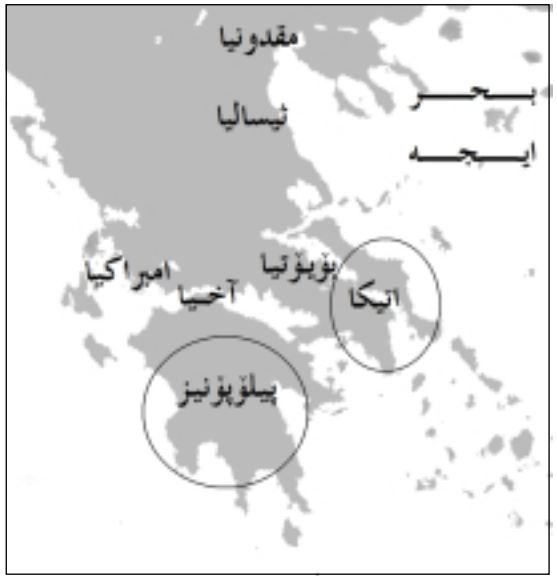

أعتقد أن أثينا تعتبر أحد اعلام العصبية المدينية في تاريخ البشر فلم يغلفوها بطابع ديني أو ما شابه بل أثينا وأثينا بكل صراحة وحتى العظم. منذ بدايتهم تميّزوا بداينامية اكثر لكن مع رفض اكبر للسلطات الانفرادية وقلما استتب الحكم فيها على منوال، كأنهم حاروا بين الإنفتاح على الآخرين وبين حبهم الشديد لمدينتهم. تلك الطبيعة انعكست على تقلباتهم في السياسة، فما ان اوجدوا نظاما لسلطة مدينتهم حتى وقعوا تحت ديكتاتورية بيستراتوس واولاده ابتداء من ٥٤٦ الى ٥١٠ ق.م. رغم انهم اسسوا إمبراطورية بحرية للأثينيين لكن الجيش الأثيني ازاحهم.. بعدها يقال ان اول ديمقراطية في التاريخ تأسست هناك في ٥٠٠ ق.م على يد كليسنيثيس من مجلس لرجال المدينة يدير شؤونها. لكن لابد لنا من وقفة.

الرينيسانس الأوروبي والثقافة الغربية عموما عشقت الثقافة الأثينية ومازال السياسيون ينظرون بأعجاب لفكرهم (التحرري) ونظرتهم لمفهوم المواطنة واطاحتهم بالعوائل المالكة (ان وجدت اصلا بالمفهوم السائد) وما الى ذلك من ظواهر التحرر. إني أستغرب ان نسمع بمواطني دول ملكية عريقة مثل بريطانيا يتفاخرون بشئ كهذا إذ ان هناك نقطتين يجب ان تضافا لقاموسنا الثقافي:

اولا، ان كل المؤرخين والفلاسفة من امثال هيرودوت وثوسيديس وزينوفون وديموسنيث وسقراط وافلاطون وارسطو الخ، اما انهم كانوا اثينيين او كما يقال Pro-Athenians اي محابين لأثينا. أي ان هناك انحيازا واضحا لروحية اثينا.

ثانيا، هناك نقص اساسي فيما نفهمه اليوم من صدى تلك الكلمات الرنانة من ديمقراطية وحقوق المواطنة، لا ادري لماذا يتم التغاضي عنها؟ ذلك ان كل ما يقال عن حقوق ومواطنة كان ينبع من اهل المدينة (بينهم وبين انفسهم) ثم ينصب ايضا على اهل المدينة (بينهم وبين انفسهم فقط) دون اقل التفاتة الى ذلك القروي الذي يسكن مسافة كيلومتر واحد خارج سور المدينة. فما بالك بأابن المدينة الأخرى واي مواطنة هذه؟ انها (الخوبياتي) والتمييز والتكبر ممثلة بعصبية مدينية عمياء جسّدوها في آلهة تلك المدن التي ما جمعتها الا شعرة معاوية المتمثلة في الإله زيوس ومعبد دلفي (شبيه بمجمع الآلهة البابلي والكعبة عند العرب في الجاهلية) وبعض الرموز الوطنية والقومية الواهنة. والا، فكل يغني على اثيناه!.

نظرة القاريء هنا ستتغير رأسا على عقب. الكردي المتعصب لمدينته هو حر في الإصرار على (فلتخرب الدنيا كلها المهم هو مدينتنا فقط). اما الإنكليزي والفرنسي والمصري والإيراني والتركي والى اخره من بلدان ذات انتماء وطني فيجب ان تراجع الفكرة مراجعة تامة. الموضوع اخطر من لعبة اطفال يتجمع فيها بعض مراهقي السياسة لمجرد ان يثبتوا حاجة في نفس يعقوب. فالفلسفة الأثينية دخلت القواميس السياسية كحقائق مطلقة لا تناقش.

على كل حال، حب الأثينيين لمدينتهم وتطلعاتهم العجولة قد جرت ومنذ نهاية القرن السادس قبل الميلاد سلسلة عجيبة من الحوادث والتطورات كما سنرى ونحكم هل كانت روحا وطنية ومواطنة أم كانت مسابقة لاتنتهي في التمييز ضد كل من هب ودب من خارج سور المدينة.

الاحتلال الفارسي ٤٩٠-٤٧٩ ق.م

الإمبراطورية الفارسية (الأخمينية) كانت تتوسع. في بداية الأمر حاول الأثينيون ان يتحالفوا مع الفرس ضد سپارتا ذات الموقع الأبعد عن الفرس والأكثر منعة في شبه جزيرة البيلوبونيز. غير ان الموقف تبدّل رأسا على عقب في ٥٠٠ ق.م حين سيطر داريوس الأول على مضائق الدردنيل. لقد هدد طرق تجارة الأثينيين مع اوكرانيا، وهي مصدر الحبوب ومصدر ثروة أثينا. فبدأ الأثينيون بإثارة إغريق آسيا الصغرى ضد الفرس واندلعت بعدها ثورة آيوليا (مدن ميليتوس وهاليكارناسوس) في ٤٩٩ ق.م.

طبعا، الفرس لم يقفوا مكتوفي الأيدي، فكانت حملات داريوس المتتالية على اليونان.. نلاحظ ان الميديين حتى هنا لم يكونوا محظوظين. قائد الجيش الفارسي كان رجلا ميديا باسم فراورتيس ويبدو ان طبعه العنيد جعله يرتكب خطأً كبيراً بأن هاجم كل مدن الأغريق بدون تمييز بين عدو وحليف محتمل وقد تكون تلك السياسة وراء ايقاظ الشعور بوحدة القضية عند الأغريق لأول مرة منذ ايام طروادة. نفس الخطأ ارتكبه النازيون في غزوهم للإتحاد السوفييتي. في البداية رحب الروس بالألمان أملا في الخلاص من ستالين، غير ان عنصرية النازيين وابادتهم لكل من هو غير الماني ولدت ردة فعل مضاعفة في التكاتف والاستماتة في الثأر.

هذا الخطأ الستراتيجي صبَّ في صالح الأثينيين الذين اصبحوا يمثلون رمز التحرير والروح الوطنية. فهزموا الفرس في مواقع ماراثون وپلاتي وسالاميس ذوات الصدى في التاريخ والتي يعتبرها الغربيون كأنها انتصاراتهم التراثية مع انهم اليوم يمثلون حالات انتمائية اشبه بفرس ذلك الزمان ولا مجال بينهم لمدينة منفردة تحاول فرض مصالحها على البقية.. الحرب طالت وتضافر الإغريق وراء أثينا حتى طردوا الفرس فتجلى نصر أثينا باستيلائهم على بيزنطة والمضائق البحرية في ٤٧٨ ق.م.

من الجدير بالذكر انه اثناء حرب التحرير نشأ تحالف بقيادة اثينا سمي بعصبة ديلوس Delos نسبة الى جزيرة كانت تحفظ فيها التبرعات والأموال المخصصة لحرب الفرس. كان لذلك الحلف وتلك الأموال تأثير قوي على مجريات الأحداث اللاحقة.

إمبراطورية أثينا:

اثينا سيطرت على التجارة والموارد وفرضت ثقافتها ولهجتها الأتيكية (نسبة لأتيكا أقليم اثينا). فنلاحظ ان اقرب المدن والأقاليم لأثينا، الكورنثيين والبويوتيين جيران الأثينيين، كانوا اول الرافضين للتمييز والتكبر الأثيني واول من تحالف مع سپارتا وحتى مع الفرس ضد اثينا، ليس حبا في سواد عيون السبارطيين او الفرس، بل نكاية بالأثينيين. ان مجرد اسم (الإمبراطورية الأثينية) يدل على طابع مديني وليس وطني، فلم يقل احد انها إمبراطورية اغريقية او حتى آيونية. نفس المشكلة يعانى منها الكرد وعرب العراق. فأي مجموعة تسيطر، مدينة كانت أم عشيرة، لن تشعر باقي الكتل بألفة مع الحاكم، الإنتماء المجزأ يجعل الفرد لايألف أحدا غير حلقة ضيقة من الناس. اما

باقي البشر، عراقيين كانوا أم لم يكونوا، أغريقا كانوا أم فرسا، فكلهم أغراب[1].

قمة ازدهار اثينا كانت في فترة حكم بيركليس (٤٦١- ٤٣٠ ق.م) باني معبد البارثينون في اثينا. الأموال التي كانت تجمع في جزيرة ديلوس، والتي كان من المفروض انها مخصصة لتحالف وطني، نقلت الى المعبد في ٤٥٤ ق.م وصرفت على اثينا فقط. يعد المؤرخون تلك الحادثة اعلانا أثينيا بأن الأمر أكثر من تحالف بل هي امبراطورية مدينة مسيطرة على باقي المدن. موارد اليونان والمشاركات الجبرية كان يصرفها الأثينيون على مدينتهم مثيرين حفيظة باقي المدن فلا عجب ان فترة السيطرة الأثينية لم تستمر (من ٤٧٩ الى ٤٣١ ق.م).

لم تعترف كل المدن اليونانية بسلطة اثينا كعاصمة وطنية لهم، فشتان ما بين عاصمة غير طبيعية كأثينا وعاصمة طبيعية كممفيس وحتى عواصم شبه طبيعية كبابل ونينوى. الفرق الجوهري بين عاصمة طبيعية فرضتها ديموگرافية البلاد، وبين عاصمة مصطنعة فرضها بعض الظروف السياسية يكمن في ان العواصم الطبيعية ومنذ باكورة وجودها تتجمع فيها الجاليات من اكثر مناطق واقاليم البلد. ثم على مر القرون تندمج وتكون نواة لثقافة وإنتماء وطني. اما اثينا، فكانت عاصمة للأثينيين او الأتكيين على أقصى تقدير. المدن الأخرى التي تحالفت معها، كان في سبيل مصلحة ما او تحت ضغط او (على عناد) جهة ما.. هذا ويجب القول ان الأمر لم يكن منوطا ببيركليس وتيّاره السياسي الأثيني لوحدهم، فهم ليسوا الا نموذجا تقليديا من اي تيار مديني وان اي مدينة اغريقية اخرى تسنى لها نفس الظروف، لفعلت نفس ما فعلته اثينا وكما اثبت في الفترات اللاحقة.

(١) فترة السيطرة الأثينية على اليونان تشبه في طبيعتها فترة سيطرة ال ـPUK في اربيل العاصمة أثناء الحرب الأهلية الكردية. الحقيقة اني بدأت كتابي هذا كنوع من التحذير من (الأخطاء الأثينية!) التي كررها الـ PUK المنتمين الى السليمانية بالدرجة الأولى فكردستان ليست بالبلد الذي يحتوي أي عاصمة طبيعية وما اسهل ان ينفصل عنها او يسطر عليها احد. لكن الآن وبعد عقد من السنوات لا مناص بالقول ان تغيرات معتبرة طرأت على توجهات PUK.. بالنسبة لليونان، لا مناص من الاعتراف بوجود نقص جوهري في العقلية الأغريقية، مع الاعتراف بوجود ديناميكية وذكاء. فها هي اثينا، قمة التطور ومعاداة المحتلين والخ، فما المشكلة ولماذا انقلب عليهم باقي الإغريق؟. مسألة اللهجات ايضا يمكن التعرف على حالة قدماء الأغريق من التعرف على حساسية اكراد اليوم للهجات بعضهم البعض فكل صوت يعطي طابع انتمائي مُميّز.

يعد بيركليس بنظر اكثر المؤرخين، خصوصا الغربيين، شخصية خلاقة بنى ذلك الأثر التاريخي العظيم لأثينا. بيركليس وحزبه اصروا على بناء البارثينون وبالغوا في الإكبار من شأن اثينا بقوة وعناد. لكن هذه المبالغة ادت الى حرب وهزيمة ونتائج كانت بالعكس مما ناضلوا من أجله فكل شيء زاد عن حده انقلب الى عكسه. ارنولد توينبي يقول ان اثينا بعد الهزيمة انعزلت عن العالم الأغريقي مدة ٢٥٠ عام. اما برأيي الشخصي فأعتقد ان ذلك التعصب المديني (من كل المدن وليس اثينا لوحدها) كلفهم حربا أهلية لمدة ٢٧ عاما وأدت في النهاية الى فقدان حرية واستقلال كل مدن اليونان لمدة الفي عام وحتى القرن التاسع عشر الميلادي حين تحررت اليونان بمساعدة الإنگليز والفرنسيين. وسنرى صحة هذا الرأي.

حرب البيلوبونيز (٤٣١-٤٠٤ ق.م)

الحرب الأهلية الأغريقية أطلق عليها هذا الاسم نسبة الى شبه جزيرة البيلوبونيز. تلك الحرب لم تكن كالحرب الأهلية الأمريكية مثلا حيث الشمال الصناعي الفدرالي يحارب الجنوب الزراعي الكونفدرالي. بل كانت عبارة عن مدينة ضد مدينة والجار ضد الجار. هذه الخريطة تبين تحالفات بداية الحرب، الفدرالية الأثينية في اللون الفاتح والكونفدرالية السبارطية في اللون الغامق. نرى كل المدن المجاورة لأثينا تحالفت مع سپارتا. والعكس صحيح أيضا فكل المدن المجاورة لسپارتا تحالفت مع اثينا. انها نسخة تقريبية لما حصل في كردستان العراق عام ١٩٩٤ حين اصطفت قرية ضد قرية، مدينة ضد أخرى وعشيرة ضد أخرى.. في اليونان، التحالفات والاحقاد جعلت منها برميل بارود وما كان ينقصهم الا شرارة واحدة انطلقت من مشكلة (صغيرة) بين الأثينيين والكورنثيين، فأشعلت الحرب.

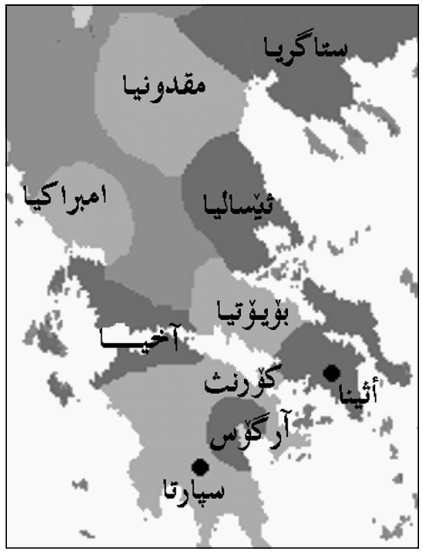

خطة اثينا اعتمدت على حصار بحري لكونفدرالية سپارتا وان يتحصن الأثينيون

وحلفاؤهم داخل اسوار مدنهم، إلا انها كانت تكلف حلفاء اثينا الكثير. إذ كان عليهم من جهة الدفاع عن مدنهم ومن جهة اخرى توجب عليهم المساهمة المادية والبشرية لإدامة الأسطول الأثيني.. في الجهة الأخرى، سپارتا وحلفاؤها دأبوا على تدمير اطراف اثينا واجتاحوا البر اليوناني. هذا وشاء القدر ان يتفشى وباء في اثينا قضى على الكثير من اهلها من ضمنهم بيركليس نفسه بعد سنة فقط من بداية الحرب. مع ذلك ظلت اثينا تسيطر على البحار.

مدينة سيراكوزا في صقلية الإيطالية كانوا يتكلمون اللهجة الدورية وحلفاء لسپارتا، كونهم دوريين أيضا. الأثينيون قاموا بتجريد حملة بحرية ضد سيراكوزا لقطع الإمدادات عن السبارطيين الا ان القوة السبارطية في سيراكوزا صمدت مما نتج عنه كارثة عسكرية للأثينيين.. الضربة الثانية جاءت من الفرس، اعداء الأثينيين القدامى إذ قاموا بوضع كل ملّاحيهم وصانعي السفن، الذين هم اغريق ايضا، في خدمة السبارطيين لبناء اسطول بحري. وعليه، فقدت اثينا كل اوراقها في اللعبة العسكرية ماعدا اسوارها الدفاعية. مع ذلك، ظلت اثينا عويصة لمدة عشر سنوات اضافية لاتعترف بفشلها وهزيمتها حتى عام ٤٠٤ ق.م عندما اذعنت لشروط سپارتا وحليفاتها. ازيحت الحكومة الأثينية ونصبت حكومة أوليغاركية مؤيدة لسپارتا.

الآن وقد امتلأت الأمزجة الثقافية في العراق، كردا وعربا، بنظريات المؤامرة والخيانة الأبدية، من المؤكد ان البعض سيؤول هزيمة اثينا الى تواطؤ سپارتا مع الفرس. لكن اذا كان الأمر لعبة مؤامرات، لماذا لم يقدر الأغريق على اصطناع فتنة بين الفرس ولم يتآمر أي فارسي مهما صغر شأنه ضد دولته وقومه؟ بينما الإغريق كانوا مستعدين بمناسبة او بدون مناسبة للنزاعات والتحالفات مع القريب والغريب؟. حتى الأغريق في اسيا الصغرى وقفوا دون اكتراث لما يجري في اليونان ولم يتمردوا ضد الفرس. لنضع انفسنا في مكان احد اغريق اسيا الصغرى، قد يكون بعضهم قد تأثر بالدعاية الأثينية عن القومية والحرية ومعاداة الفرس وما الى ذلك. الا ان سحر تلك الدعاية كان يزول من اولإحتكاك مباشر بين هذا الشخص مع الأثينيين كونه سيشعر على الفور بتمييز يمارسه الأثينيون ضده كونه (ليس أثينيا).

لنسأل ما كل هؤلاء الأعداء الذين تحالفوا ضد اثينا، اغريقا كانوا ام فرسا، ولماذا لم تكسب اثينا ثقة باقي المدن حتى جيرانها كمدينة كورنث ومدينة ثيبة Thibs عاصمة

بويوتيا مثلا لولا احتقار الأثينيين لهم وللهجتهم. ايعقل ان يكون أكثر من نصف الشعب الأغريقي خونة محبين للخيانة والعبودية وان تكون اثينا وحدها فقط صاحبة (الشرف والإخلاص والعفة). هذا كلام غير معقول وسؤال كهذا يجب ان يوجهه كل كردي وكل عراقي متحزب لنفسه فيقول: ايعقل ان يكون هو وحلقة إنتمائه الضيق المخلصون الوحيدون وان يكون باقي الناس خونة على الإطلاق؟ لو كان كذلك فلابد من أن قومه كلهم متطبعون بالخيانة ومقدسون لها وكما يقال "العذر اكبر من الذنب".

إمبراطورية سپارتا:

نصر سپارتا كان نصرا لكل العقليات التقليدية والمحافظة في اليونان. وها هي سپارتا اعرق واقوى مدينة اغريقية تأخذ بزمام السلطة. حتى اثينا بدأت فيها تيّارات فلسفية، من اشهرها تيار سقراط، كانوا ينظرون بعين الأعجاب لسپارتا وقوتها ونظامها. فما المشكلة اذن وما سبب كل ذلك التخبط وتراجع السبارطي ثم الهزيمة النكراء على يد حلفاء الأمس؟

ان الهاجس الأول للسبارطيين ومنذ بداية اجتياحهم للمدن الميسينية المتقاتلة في بداية الألف الأول قبل الميلاد، كان القضاء على كل ظواهر الأنوثة والميوعة والتكبر التي تنمو في المدن الأخرى. نظامهم وتربيتهم العسكرية الصارمة مع معاداتهم المستميتة لكل منافسة اوقعهم في شرك معنوي لم يستطيعوا التخلص منه فيصفهم أرنولد توينبي (ان الغزو اسر الغزاة)!! هناك شبه كبير بين طبيعة السبارطيين مقارنة بالآشوريين والروم من حيث كرههم وردة فعلهم العنيفة ضد تزمر اهل المدن المتعصبين. لكن السبارطيين انفسهم وقعوا في نفس النوع من التزمر والنعرة المدينية على العكس من الآشوريين والروم الذين، على الأقل، لم يفرقوا بين سكان داخل المدينة وخارجها.. مذكرات زينوفون تبين لنا الكثير من الحقائق عن تلك الفترة. ان ممارسات الكثير من القادة والضباط السبارطيين تبين مدى إنحيازهم الأعمى للسبارطيين دون اقل اعتبار لشعور وطني يجمع الأغريق. كالتكريتي في عهد صدام، كان يجوز للسبارطي ما لايجوز لغيره وان المصلحة الضيقة لاهل المدينة كانت فوق وفوق الوطن وفوق الكل، لم يتوان السبارطيون على التحالف مع اي جهة، اغريقا كانوا ام فرسا ام قبائل تراقيا والأنضول في سبيل مصالحهم ورغباتهم الشخصية الضيقة. اي ان نفس التمييز

والتعصب المديني الذي مارسه الأثينيون تكرر بأسلوب سبارطي بارد وجاف.

من ينظر لما جرى بين اثينا وسپارتا يرى فيها شبها مما جرى ويجري بين الحزبين الكرديين KDP في اربيل ودهوك وPUK في السليمانية. في البداية كان للإتحاد الوطني الكردستاني الفخر في أنتفاضة ١٩٩١. مستواهم الثقافي المتمّيز جعلهم يتطورون ويستبقون كل الأحزاب الأخرى في الكثير من المجالات. غير انهم وقعوا في المطب الأثيني، فأذا بين ليلة وضحاها تنقلب عليهم مدن وقرى وعشائر وتتكاثر عليهم ردود الأفعال حتى ممن اعتبروا انفسهم PUK فأنقبلت الآية. اخيرا فأن الشعور الضيق بالإنتماء جعل كل الأكراد من كل حزب ومدينة وقبيلة لايفكرون الا في كلمة واحدة ضيقة ضيق انتمائهم (خومان، نحن او جماعتنا) PUK كانوا ام PDK ام باقي الأحزاب.. لن اخوض اكثر في الموضوع لأن، بصراحة، لم نصل لذلك النضج والوعي لكن الحليم تكفيه الأشارة فمازال خطر تكرار أخطاء السبارطيين يهدد تركيبة KDP.

حلفاء سپارتا تذمروا من عقليتهم الضيّقة الجامدة، فنسمع ان هذه الهالة الرهيبة التي احاطت اسم سپارتا كقوة لاتقهر تتهاوى مع هزيمة الجيش السبارطي على يد البويوتيين. وصل عندها اليونان الى دوامة من تدهور إقتصادي وسياسي حتى كرر التاريخ نفسه باجتياح قبلي جديد لبلاد اليونان في ٣٦٩ ق.م. هذه المرة من قبل المقدونيين بقيادة زعيمهم الداهية فيليب الثاني.

قبل الخوض في الفترة الهيلينية، يجدر بنا ان نركز على رحلة العشرة آلاف اغريقي التي سبق ان تكررت الإشارة اليها ووقعت اثناء فترة سيطرة السبارطيين على اليونان، ذلك كي نتعرف على نفسية احد الشباب الأغريق الذي يمثل أقرانه خير تمثيل.

رحلة العشرة آلاف أغريقي

الحادثة تعود تقريبا لعام ٤٠٠ أو ٣٩٥ ق م، أي بعد فترة قصيرة من هزيمة اثينا. الشباب اليوناني عامة كانوا محبطين والكثير منهم لم يعرف غير الحياة العسكرية بسبب حرب البيلوبونيز التي دامت ٢٧ عاما، فأصبح اكثرهم عاطلا عن العمل.

في هذه الفترة يتوفى داريوس الثاني إمبراطور الفرس مخلفا ولدين، الابن البكر ارتكسركيس Artexerxis خلف والده على العرش، اما قورش فكان يدير آسيا الصغرى. والدتهم بريزاد فضلت قورش وحثته ان يخلع اخاه، فقام قورش سريا

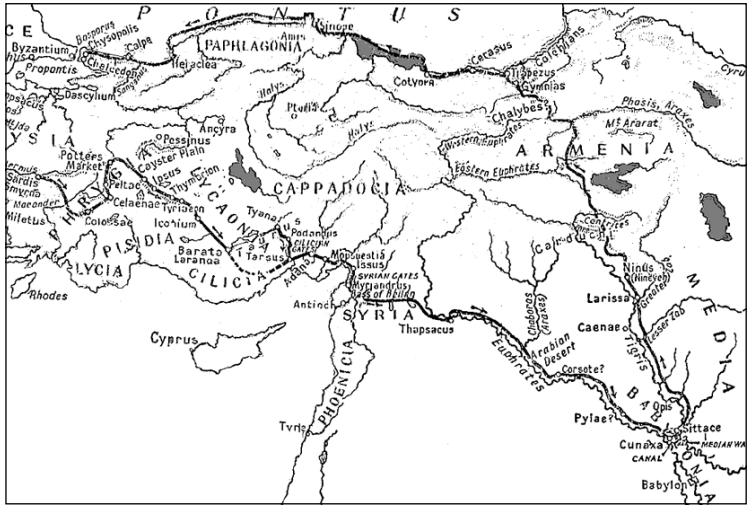

بالتحضير لحملة كبرى ضد أخيه وجمع مقاتلين أغريق خصوصا الأركاديين والآخايين من جزيرة البيلوبونيز ومجاميع أخرى كقوة من ١٥٠٠ من البويوتيين بقيادة پروكسينوس (وهو الذي دعا شابا أثينيا باسم Xenophon الى تلك الرحلة) ثم مجاميع من أصغر من سبارطيين وتراكيين كريتيين الخ. العدد الإجمالي بلغ ١٣٠٠٠ مرتزق اغريقي من المشاة مع عدد مماثل من الفرس اكثرهم خيالة.

تمتد رحلة الذهاب شهرين، يبدأون من مدينة ساردیس في الزاوية الجنوبية الغربية لتركيا شرقا الى كيليكيا ثم الإسكندرونة، ثم الى سوريا. يتجهون بعدها شرقا الى الفرات ويسيرون بمحاذاة النهر نزولا حتى يصلون الى بلاد بابل. هناك تقع معركة كوناكسا Cunaxa على ما يبدو في منطقة ما جنوب الفلوجة على الضفة الشرقية لنهر الفرات.. يتحدث زينوفون عن معركة كوناكسا حيث ان صبيحة ذلك اليوم يصل فرسان الاستطلاع مسرعين يصرخون بالفارسية والأغريقية بأن جيش الإمبراطور يقترب. يتراكض الجنود الى أسلحتهم ومواقعهم وينتظم المرتزقة الأغريق تحت امرة كليرخوس السبارطي واضعين شاطيء الفرات على جناحهم الأيمن. ثم يظهر الجيش الفارسي في الأفق ويقترب.. هنا يذكر اسمه الشخصي لأول مرة ولايتحدث زينوفون عن نفسه بصفة الراوي بل دائما بصيغة الشخص الثالث، فيقول:

جاء قورش بصحبة بعض الفرسان ومترجمه ليتحدثوا الى كليرخوس السبارطي

أخبروه بأن عليه مهاجمة وسط الجيش الفارسي لأن الإمبراطور هناك، وإذا هزمت تلك الصفوف فأن المعركة ستحسم بسرعة.. ثم يقول زينوفون: تفقد قورش صفوف الأغريق كان هناك شخص اثيني يدعى زينوفون اقبل على قورش ليعلم منه ما يقول. قال له قورش ان النبوءات جيدة جدا ويأمل ان تكون نتائج المعركة جيدة. في هذه الأثناء سمعت جلبة بين صفوف الإغريق فسأل قورش عن مصدر ذلك الصوت. اجابه زينوفون انهم ينشرون الاسم السري بينهم للمرة الثانية. فسأل عن الاسم قال له زينوفون الاسم هو (زيوس موصل النصر) فقال قورش (حسنا، اقبل بهذا الاسم. ليكن كذلك) ثم رجع الى وسط جيشه..

تلك كانت اولى وآخر مرة يتسنى لزينوفون رؤية قورش. خلال حديثه يتبين انه حاول التقرب منه واظهار نفسه له وهي طبيعة لايملك اهالي بعض المدن الا ان يمارسوها.

استبسل المشاة الأغريق في المعركة وهزموا القوات التي جابهت صفوفهم من فرس وميديين وحتى من مشاة مصريين ذوي دروع خشبية ويتحدث عن المعركة كما يلي:

اقتربت صفوف الفرس ٦٠٠ او ٨٠٠ ياردة. الإغريق انشدوا الس (پايين Paean) وتقدموا الى الأمام. الصفوف اليسرى تقدمت اكثر فسارعت الصفوف الأخرى الى اللحاق بهم وهلهلوا (Eleleu) لإله الحرب. يقول البعض ان الصفوف الأمامية قرقعوا برماحهم على الدروع كي يرهبوا جياد العدو، لكن العدو وقبل ان يصلوا الى مدى السهام تفرقوا. تراكض الأغريق للّحاق بهم غير انهم صاحوا على بعض ان يتماسكوا وان لايتركوا الصفوف. العربات الفارسية المسننة ارتدت الى صفوف الفرس والبعض منها كان بدون سواق مهرولة باتجاه صفوف الأغريق. لما رآهم الإغريق فتحوا صفوفهم كي لايصطدموا بهم. غير واحد من الجنود داست عليه العربات. مع ذلك، يقال انه خرج سالما. في هذه المعركة لم يخسر الإغريق سوى رجل واحد اصابه سهم.

ثم يتحدث زينوفون عن ملاحقة فلول الفرس ثم التفاف وصِدام ثان وثالث يثبت فيه الأغريق ثباتا عظيما. لكن قورش يقتل في مكان بعيد وهم لايعلمون بموته. في اليوم الثاني يأتيهم الخبر الحزين ويعلمون ان بقايا القوة الفارسية المرافقة لقورش بقيادة آرياوس تنوي العودة الى آسيا الصغرى. ثم تبدأ هدنة ومفاوضات مع مندوبي الإمبراطور حول السماح لهم بالعودة سالمين.

من هنا تبدأ رحلة شمالا على طول دجلة. الرحلة يشوبها التوجس لعدة اسابيع وتدريجيا يتصالح آرياوس مع الإمبراطور فينعزل الإغريق اكثر فأكثر حتى يصلون نهر زاباتاس Zpatas (يبدو انه مصب الزاب الصغير على دجلة اي قرب منطقة الفتحة) هناك يقوم تيسافرنيس، قائد جيش الفرس، بتنفيذ مؤامرة إذ يدعو جنرالات الأغريق لمأدبة غداء وحال وصولهم يقبض على الجنرالات الخمسة ويبيد الباقي عن بكرة ابيهم، عشرون كاپتن مع حوالي ٢٠٠ جندي. كان من بينهم الجنرال كليرخوس السبارطي قائد الأغريق والجنرال بروكسينوس البويوتي مضيف زينوفون. كليرخوس قتل على الفور اما الباقي فأرسلوا اسرى الى الإمبراطور وذبحوا هناك ما عدا الجنرال مينون الذي يصفه زينوفون بالوصولي وبالساقط جنسيا وخلقيا وكان متعاونا مع الفرس، الإمبراطور يبقيه سنة كاملة في ذل الأسر والتعذيب ثم يقتله هو الآخر.

المهم، في تلك الليلة يطغى عليهم اليأس والكل يجلس في حالة انهيار. يبدأ زينوفون التحدث عن نفسه قائلا ان شابا اثينيا يسمى زينوفون رافق بروكسينوس في الرحلة، نام قليلا فرأى حلما ففسر الحلم على انه اشارة سماوية من زيوس، اله الأغريق.. ما كتب هنا هو لب الموضوع. اذ يحاور نفسه بأن لا طريق للخلاص الا بالتكاتف والعمل والقتال وما الى ذلك ثم يقول لنفسه "لماذا نبقى هكذا حتى يقضي علينا الفرس واحدا تلو الآخر" يستطرد قائلا "ترى اي مدينة ستقدم ذلك القائد الذي سيتخذ القرار الصائب. احتم علي ان انتظر حتى اكبر في العمر؟ لو انتظرت اكثر لن اصل ابدا الى عمر اطول".

زينوفون هنا لايخفي حبه للقيادة فقط بل ان اهتمامه الغريزي منصب على اثبات ان (اثينا) أولى بالقيادة. هذا دليل اوضح من الشمس قد لايفهمه الشخص العادي انما يفهمه الكردي عن ظهر قلب فما اجتمع بعض الناس من مدن او عشائر مختلفة حتى بدأت منافسات على كل شيء واي شيء في سبيل إثبات ما أراد اثباته زينوفون قبل ٢٤٠٠ عام.. بعد هذا، يقوم زينوفون بجمع البويوتيين ويبدأ خطبة طويلة عريضة من عدة صفحات وفي النهاية يقول "اثبتوا لهم انكم اولى بالقيادة من هؤلاء الناس الذين يتولون قيادتكم الآن. ان رضيتم فإني مستعد ان اسير وراءكم. والا فإني مستعد ان اقودكم والأمر لا علاقة له بسني، فإني قد بلغت السن المناسبة".

من المهم ملاحظة الفروقات العمودية التي كانت تقسم الأغريق. حين يقول (اثبتوا

لهم) هذا ببساطة يعني باقي الإغريق، أي انه ركز على احد الخطوط العمودية التي كانت تشق تكتلات الأغريق أينما وجدوا.. من ناحية اخرى، ان مقولة زينوفون اعلاه ليس استغلالا للتزمر والتحزب فحسب، بل هو تحريض ضد الآخرين. اعتقد انه هو وامثاله في كل مكان وزمان يحرضون اناسا ضد اناس فلايشعر المرء إلاّ وقد بدأت الأنشقاقات هنا وهناك فتسمع مثلا ان امريكا ذات الثلاثمائة مليون نفس يقودها حزبان، بينما الأكراد والفلسطينيون والعراقيون والأغريق في ذلك العصر فيهم أحزاب لاتحصى.. ثم يقول زينوفون "ان كل البويوتيين وافقوا ما عدا شخص واحد كان يسمى ابولونيديس الذي كان يتكلم بلهجة بويوتية" يا أخي هل تريده ان يتكلم بلهجة اوكسفورد؟!. نلاحظ هنا ظاهرة التنابز والاستخفاف باللهجات. الأكراد مازالوا نموذجا حيا لهذه الظاهرة. في السبعينات والثمانينات بلغت هذه الظاهرة قمتها واعتقد انها نفس ما قامت به اثينا قبل ٢٥٠٠ سنة حين فرضت اللهجة الأتيكية على الباقي. السليمانية قامت بنفس الشيء واستعمال باقي اللهجات اصبح ضربا من العيب، لكن حمدا لله المثقفون عامة حتى السليمانية نفسها تداركوا تلك الظاهرة المدمرة.

ارنولد توينبي يذكر ان اللهجة البويوتية كانت لهجة قرويين ومتخلفين في أعين الأثينيين. طبعا اذا تنابز اهل القاهرة على لهجة اهل الصعيد لن يؤثر على توحد إنتماء المصريين، أما في البلدان غير المركزية فقد يؤدي الى انشقاق وطني مباشرة وهو ماحصل هناك وحصل في كردستان العراق في القرن الماضي.. من جهة أخرى، الأمر يبدو غريبا، فزينوفون كان ضيفا على البويوتيين مع العلم انهم في حرب البيلوبونيز تحالفوا مع سپارتا كرها للأثينيين. مع ذلك ينبري له زينوفون بلسانه الطويل مهينا اياه حتى العظم قائلا "هذا الرجل يجب ان ينحى من مرتبة كاپتن ويحمل كالمطايا" فهل يعقل انهم سكتوا على الأهانة؟، مع ذلك يقول زينوفون بأن كل البويوتيين وافقوه الرأي وابعدوا ابولونيديس المذكور وعينوه قائدا عليهم.

من هنا يستطرد زينوفون بادعاءات يصعب تصديقها. فهو يقول انهم أقاموا مجلس الحرب لكل الجيش بناء على طلبه وجمعوا من تبقى من الجنرالات حسب طلب زينوفون. ثم يبدأ بخطاب طويل عريض مليء بالنصائح والأوامر مثلا (علينا ان نفعل كذا وكذا، وعلى الجنرالات ان يفعلوا كذا وكذا، من يوافقني الرأي يرفع يده) والكل يرفعون ايديهم مرة واثنتين وثلاثة واربعة كأنه يخاطب تلاميذا وليس مقاتلين عتاولة من

اركاديين وآخيين وسبارطيين بوجود عدد قليل جدا من الأثينيين، فهل يعقل ذلك؟

العجيب ان زينوفون كان من اتباع سقراط الذين اشتهروا بأعجابهم بسپارتا وكانوا منقلبين ضد تيار بيركليس المتعصب، وهو شخصيا كان قد صاحب بروكسينوس مع مقاتليه البويوتيين، اعداء اثينا السابقين. ثم ان الجيش بالكامل كان مأجورا من قبل أمير فارسي ألد اعداء الأثينيين. رغم ذلك تراه لا يتمالك نفسه وفي مناسبات عديدة من الإنحياز لإنتمائه الطبيعي كما يقول ركس وارنر مترجم المذكرات: ان زينوفون رغم ميله لسپارتا المنتصرة، إلا انه في داخله أثيني صميمي".(١)

مذكرات زينوفون تحوي الكثير من حقائق عن تفشي العصبيات بين الأغريق. في أوقات الضيق تراهم يتكاتفون ضد الغرباء، حتى اذا يزول الخطر فتبدأ الإنقسامات على الفور. مثلا، عند اقترابهم من بيزنطة ينشق الأركاديون والآخيون قائلين نصا "لماذا يتولى سبارطيون واثينيون قيادتنا في حين اننا أكثرية ولولانا لماتوا".. في مكان اخر يتجادل زينوفون مع جنرال سبارطي. تعليقاتهم لا توجه لذات الشخص ابدا، بل كل واحد منهم ينتقد مدينة الآخر. زينوفون يقول له (ان السبارطيين يتعلمون السرقة منذ الصغر). فيجيبه الجنرال مستهزء (بل ان لا احد يضاهي الأثينيين في سرقة المال العام) لعل هذا التعليق اشارة الى ايام بيركليس عندما كان معظم واردات اليونان يصرف على اثينا واهلها. اعتقد ان المبالغة وحب الظهور واثبات التفوق الفارغ صفة ترافق التعصب المديني اغلب الاحيان. وليس عندي ادنى شك ان زينوفون بعد سنين من انتهاء الرحلة حين جلس في بيته المريح ليكتب مذكراته، قد اطلق العنان لرغبته ونوازعه الغريزية في حب الظهور والمبالغة.

من جهة اخرى يمكن ملاحظة مدى تخلف السبارطيين في القيادة وسبب انقلاب باقي اليونانيين عليهم لاحقا. فعلى الرغم من روحهم العسكرية، الا ان الكثير من ضباطهم كانوا في منتهى الأنانية والتمييز ضد كل الأغريق. كالتكريتي في العهد البعثي، كان يجوز للسبارطي ما لايجوز لغيره وكانوا يلاحقون كل الضباط المتميزين. مثلا، كاپتن سبارطي يسمى ديكسيپوس قام بسرقة اول سفينة تقع في ايدي الجيش وترك رفاقه لمصيرهم. ثم انه لم يعاقب من قبل الأدميرالات والقادة السبارطيين بل ظل

(١) مقدمة المترجم Rex Warner- The Persian Expedition -Penguin Classics.

معززا مكرما (لأنه سبارطي أصيل!) رغم شكوى الجيش عليه والمشاحنات معه.

دعنا لانتحامل على زينوفون، نحن هنا نركز على جانب معين من كتاباته لكن يجب تقدير صراحته وعدم تغييب الجوانب المشرقة من تطلعاته الوطنية والقومية وحتى الأخلاقية منها. هو بشر تكلم بذكاء وصراحة ودقة عجيبة. لكن اقول لمن يريد دراسة تاريخ اليونان القديم ان يتفضل ويعايش الأكراد. سيرى مئات النماذج من زينوفون واصدقائه ومنافسيه واثينيين متمثلين في PUK وسبارطيين متمثلين في KDP.

وأخيراً فأن زينوفون وعلى طول مذكراته لم يخطر بباله ان يذكر، ولو بتصنع، ان (فلانا انحاز لأخيه والآخر انحاز لابن عمه) بمعنى ان الأغريق لم يلتفتوا الى الإنتماءات العائلية أصلا. ليتهم تجاوزوا العصبية المدينية والإقليمية واللهجات كما فعل الروم من بعدهم. لو كانوا تجاوزوها لما كان تدهور مصيرهم بتلك الصورة التراجيدية.

الفصل الثاني

العصر الهيليني

من الإسكندر الى كليوباترا

دورة الزمان دارت والمدن المتعصبة انهكت بعضها حتى كان الاجتياح المقدوني المذل لليونان. والعصر اللاحق يدعي بالعصر الهيليني. بدون الألتفات للتفاصيل، اود ان اركز على احدى الفذلكات التي شاع استعمالها في كتب التاريخ عن تفسير الاجتياح المقدوني لليونان، اذ يتم التركيز على تنظيم كراديس المشاة المقدونيين التي ابتدعها فيليب الثاني والد الإسكندر من تدجيج المسلحين بالرماح الطويلة وما الى ذلك من تفاسير. أعتقد أن الهزيمة الحقيقية جاءت من داخل اليونان نفسه بعد أكثر من قرن كله حروب ونزاعات ما ان تنتهي واحدة حتى تبدأ الأخرى. الهزائم وهذا الفراغ الاجتماعي، السياسي للفرد كان بداية للحركات الفلسفية والتفسيرية لفهم ما يجري. فلسفتهم مازالت تغني التراث الإنساني من منابعها التي لاتنضب، غير اني اتساءل لم تنشأ الفلسفات والأديان بتلك الشدة في المجتمعات موحدة الإنتماء؟. العجيب ان كل ما دار في اليونان لم يثن فلاسفتهم عن رفض ابسط عوامل الاستقرار السياسي. فلم اسمع بواحد منهم يقترح او يفكر ان تكون (الدولة الوطنية) هي مرجعية الإنتماء كما في مصر او (عائلة مالكة) تكون مرجعية الولاء كما كان عند جيرانهم الفرس. حتى اهل سپارتا كانوا يعارضون الملكية الوراثية بكل قوة مع انها برأيي كانت حلهم الوحيد، ان وجد حل أصلاً!

توحيد فيليب المقدوني لليونان فيه شبه لما قام به سرجون الأكدي للمدن السومرية.. سرجون نشأ يتيما عند ملك كيش وفيليب قضى شبابه اسيرا مذلولا في اليونان مع انه ابن شيخ قبائل المقدونيين. هذا يدل على وجود حرقة وتجربة مرة مع الأغريق لايمكن انكارها وفي نفس الوقت يفسر مدى حنكته ومعرفته الدقيقة لطبيعة الأغريق الإنقسامية. فقبل ان يضربهم بقواته، ضرب بعضهم ببعض، وما اسهل تنازع متعشقي

المدن كما في اللغة الكردية (شاربرست) أو حتى الاسم الفارسي المشهور (شهريار) اي عاشق المدينة (وشهرزاد) أي بنت المدينة!

الإسكندر كان مكملا للمد الذي اصطبغت به فترة حكم والده فيليب الذي اغتيل في ٣٣٦ ق.م. اول الأمر اثبت قوته بأن سحق التمرد البويوتي فدانت له باقي المدن. ثم كان ماكان من حملته قاطعا ١٧٦٠٠ كيلومتر من نصر الى نصر.. الناظر للصورة يمكن ان يتخيل الإسكندر وجيشه المقدو-اغريقي كالبذرة التي تبحث عن مستقرها في بويضة دون ان تجدها فتظل تبحث وتبحث. هكذا ارى الإسكندر على شاشة التاريخ، كأنه كان هاربا الى الأمام باحثا عن إنتماء ما وجده الا في اعدائه الفرس. التكاتف، الإلتزام، الطاعة والولاء للجيش والدولة، عدم التفرقة بين هذا وذاك، كل ما حلم به الإسكندر وقبله زينوفون كان يتوفر في الفرس. طبعا الإسكندر وجد حافزا اضافيا في ميله للفرس هو تأليههم لملوكهم وهو ما يرفضه الأغريقي رفضا قاطعا.

يمكن القول اختصارا ان ما حلم به زينوفون وفيليب وابنه الإسكندر وسقراط وافلاطون وكل اغريقي سأم التحزب والفرقة، لم يتجسد ويتحقق لا عند الأثينيين ولا عند السبارطيين ولا حتى المقدونيين بل تحقق في عنصرين ذكوريين نفرت منهما الأنوثة الأغريقية وكرهتهما كره العمى، أولا الفرس ثم الروم.

الأغريق والملكية والعشائرية

قبل كل شيء يجب ان ننسى الصورة التي علقت بأذهاننا التي تصور الإسكندر كأنه جنتلمان إنگليزي! بل هو كان أبن عشيرة مؤصل، والعلاقة الجيوبوليتيكية والاجتماعية بين مقدونيا الجبلية ومدن اليونان مشابهة لعلاقة العراق القديم بزاگروس. اولا تأثير أديان المدن على قبائل الجبل الذي هو احد اوجه ممارسة الاستقطاب. ثم الفارق الاجتماعي بين ذاك الحضري المتعصب لمدينته وذاك القبلي المتعصب لصلة الدم.. طبيعتهم لم تكن احسن كثيرا من الأغريق ولكنهم تميزوا عنهم بنقطة جوهرية، أنهم التزموا بعوائل مالكة تميزت بعد وفاة الإسكندر في ثلاث عوائل وهو ما ضمن لنظمهم السياسية البقاء لعدة قرون. اي ان اليونان في العهد الكلاسيكي كانت كل مدينة تعتبر دولة مستقلة لاتجمعها الا تحالفات واهنة وروابط دينية. اما في العهد الهيليني فظهرت ثلاث دول ملكية ضمت اتحادات فدرالية لمدن واقاليم عديدة تمتد عبر البلقان والشرق

الأوسط. وكما نعرف العوائل المالكة كانت من نسل القواد الثلاثة خلفاء الإسكندر:

انتيكونوس (٣٨٢–٣٠١ ق.م) في اليونان واسيا الصغرى.

سلوكس (٣٥٨–٢٨١ ق.م) في العراق والاناضول والشام.

بطليموس (٣٦٧–٢٨٣ ق.م) في مصر وجزء من الشام.

المقدونيون شكلوا الطبقات الملكية والعسكرية لكنهم لم يكونوا منفصلين كليا عن الأغريق بل اندمجوا بهم تدريجيا لاسيما في الجزء الآسيوي بوجود الكثير من غير الهيلينيين، هذا جعل التقارب بين المقدونيين والأغريق سهلا. بينما داخل اليونان كان هناك انفصال بين الأغريق والمقدونيين (حيث لايوجد عنصر ثالث يعتبرونه غريبا فيتوحدون ضده). هذا وفي اليونان شكلت المدن الأغريقية تحالفات فيما بينها ضد المقدونيين. ولاحقا لما وقع الجميع في قبضة الروم نرى كتلا تتحالف ضد الروم وكتلا اخرى تتفرج. هذا هو جوهر طبيعة الإنتماءات الإنقسامية، تتحد بوجود الغريب وتنفصل مع اول انفراد كما يقال عند العشائر العربية (انا واخي على اولاد العم، وانا واولاد العم على العشيرة) الخ.

اذن، المقدونيون تميّزوا قليلا عن الأغريق لكنهم لم يصلوا لمستوى منافسيهم كالأمواج الفرثية التي وفدت من الشرق والقوة الرومية الناشئة في الغرب. فقد أنقسموا فورا الى ثلاثة قوى ولم يكفوا، لا هم ولا الإغريق، عن الإقتتال والتناحر.. اليونان نفسها في ظل الحكم العشائري المقدوني انقسمت الى كتلتين رئيسيتين: الحلف الآخايي League Achaean، والحلف الأيتولي Aetolian League أي وجه آخر من التحالفات القديمة لأثينا وسپارتا. فنسمع اثناء الحرب بين قرطاج وروما ان الملك المقدوني يتحالف مع هانيبال لكن التحالف الأيتولي يقف مع الروم ويستقبلون قوة رومية تساندهم ضد المقدونيين.. كذلك رودس وبيثينيا وبيركاموم لم تعترف بالسلطة السلوقية وطلبت الحماية الرومانية. الأنكى من ذلك كان موقف البطالمة في مصر اذ تحالفوا مع الروم نكاية بكل أولاد عمومتهم في سوريا ومقدونيا[1]. الأمر كله اشبه بلعبة قط وفأر يلعبونها ضد بعضهم البعض حتى آخر نفس.

قد يناقش البعض ان العهد الهيليني دام ثلاثة قرون وهو ليس بقليل وان هذه الحقيقة تفحم الرأي القائل بأن الإنتماء الهيليني كان ضعيفا. الجواب هو أنهم في مقدونيا

(1) William C. Morey- Outlines of Roman istory. American Book Company(1901). CHAPTER XVI

واليونان مثلا لم يعمروا اكثر من جيلين من وفاة الإسكندر في ٣٢٣ ق.م الى حوالي ١٨٠ ق.م وهو الستاندارد الذي ميّزه ابن خلدون للدول القبلية.[1] اما الإمبراطورية السلوقية فقاومت لثلاثة أجيال (١٢٠سنة). الدولة الهيلنية الوحيدة التي عمرت ثلاثة قرون كانوا البطالمة في مصر. وبرأيي، الفضل يعود بدرجة كبيرة الى طبيعة مصر نفسها المحمية طبيعيا، والى المشاكل الداخلية التي مر بها الروم انفسهم داخل إيطاليا.. وحتى في مصر ذات الطبيعة المركزية ومع التزام الهيلينيين بعائلة ملكية واحدة، فأنهم طبقوا نظام دولة المدينة والتي، كما يقول السير هارولد ادريس بل، ادت الى تقسيم مصر الى اربعة اقاليم فدرالية. السبب واضح، أولا طبيعة نظام دولة المدينة الإنقسامية ثم اتخاذهم الإسكندرية عاصمة كأنهم يشمئزون من باقي البلد.

بأختصار، يمكن القول ان العهد الهيلني يشبه انفجارا هائلا لجرم سماوي لكنه يتجزء ويبدأ بالانكماش مباشرة بعد موت الإسكندر.. السؤال هنا هو لم لم تنفعهم كل تلك المدارس الفلسفية والسفطائية؟

اعتقد ان ثقافة الإغريق مرت بإنقلابين رئيسيين. الانقلاب الأول بدأ بعد هزيمة أثينا في ٤٠٤ ق.م. الهزيمة مثلت هزيمة لكل ما إدعى به الحضر من تفوق عسكري وذكاء إداري، وكان إنقلابا نحو الفلسفة والسفسطة مع الإبقاء على طموحاتهم في التفوق والترقي.. الانقلاب الثاني جاء تدريجيا مع تنامي السلطة الجديدة للروم عليهم فكان انقلابا من الفلسفة والسفسطة الى الدين. وتجلى بقوة وبلغ قمته في قهر كليوباترا سليلة البطالمة، وهم آخر عائلة ملكية من المتحدثين بلغة يونانية، اذ انه كشف لهم بأن كل ما فكروا فيه وتكبروا به على باقي البشر وتأملوا وقوعه جاء بالعكس تماما وانهم بدل ان يحكموا البشر، اصبحوا عبيدا. فكان الانقلاب نحو الدين والماسوشية ومعاداة أكثر ظواهر العقل وحرية التفكير وإرادة القرار.

هنا سنتوقف عن سرد تاريخ الإغريق لنتحول الى إيطاليا مهد الروم لنستكشف سر القوة التي قهرت الأغريق واوجه الإختلافات، ثم نعود لاحقا لتكملة الموضوع من نفس النقطة.

(١) الجيل حدده ابن خلدون بأربعين عام لكن قد يكون أقصر من ذلك. مملكة مقدونيا دامت من وفاة الإسكندر ربع القرن الثاني ق م اي اقل من ثمانين عام لكن بعدد أكبر من الملوك.

الفصل الثالث

الروم

لنتهيء للمفاجأة في الفرق الهائل بين الإغريق والروم. يوم كان الإنتماء الروماني يخطو خطواته الأولى في المجمعات السكانية المحيطة بمركز روما الحالي في سوق الفوريوم Forium. هناك تَجَّمع اناس من قبائل ومدن مختلفة وفرضوا لهجة مشتركة على انفسهم وأنتخبوا إلها يمثلهم جميعا وقاموا بتعليق لوح في وسط الفوريوم كتب عليه:

"لا إستثناءات - لا تعاطف - لا رحمة".(١)

انا شخصياً لو كنت هناك على فرض المستحيل، لقلت لهم ان يختصروا كل ذلك في مقولة واحدة (لا خوبياتي بعد اليوم) فأذا لم يفهموها، كنت سأقول لهم: اقصد تصرفات الإغريق!! اعتقد انهم كانوا سيفهمون على الفور ويصنعون صنما للرجم باسم (خوبيتر) يعتبرونه العدو الأساسي لدولتهم وتوحدهم ومعاكسا لفكرة (جوبيتر)!!!

البدايات:

الجزء الوسطي من شبه الجزيرة الإيطالية كان مسكونا من قبل ثلاث مجاميع بشرية: اولا- قرى اللاتين جنوب نهر التيبر.. ثانيا- مدن الأتروسكانيين شمال التيبر.. ثالثا- قبائل السابين الجبلية الى الشرق من روما.. الى الجنوب من هؤلاء السابين كانت قبائل السمنيين في الجبال الوسط-جنوبية وسهل كامبانيا الساحلي جنوب لاتينيوم.. أما صقلية والشريط الساحلي في الجنوب الغربي (سهل كامبانيا قرب نابولي الحالية) كانت تحت السيطرة الإغريقية وسميت بماكنا كريكيا(٢)، توزعت فيها مستعمرات أغريقية ودويلات مدن إيطالية تطبّعت بطبائع الإغريق مثل كاپوا Capua التي سنشير الى معاكستها لطبيعة الروم على طول الخط.

(١) Little History of the World E. H. Combrich صفحة ٧٣.

(2) William C. Morey - Outlines of Roman History. American Book Company (1901). Chapter I.

إيطاليا بلاد غير مركزية وروما لم يكن لها امتياز جيوبوليتيكي يماثل أسطنبول وبغداد والقاهرة وطهران. لكن القوة كمنت في ولادة إنتماء قومي يتجاوز نطاق المدينة والقبيلة.. موقع روما تكون من سبع تلال كانت محل نزاع المجاميع القبلية بين السابينيين واللاتينيين.. غير أن الطفرة النوعية جاءت من اتحاد او ذوبان أجزاء من المجموعتين في تحالف وتحت لغة أو لهجة جديدة مشتركة وإله مشترك.

قدماء الروم، كما يقول البروفيسور وليم سي موري: انتخبوا جوبيتر من بينهم ليكون الاههم الموحد(١) هذه الولادة جاءت من تحول نقطة حدود تتنازع عليها عشائر أتروريا ولاتينيوم وسابينيس (نهر التيبر الذي كان الحدود) الى مدينة بإسم روما. أكرر، انها عملية تحول حدود التماس بين سكان مختلفي الإنتماء الى بودقة اذابة. قد يقول البعض: ما العجب في ذلك؟ لكن مهلا. اني اتحدى اهلي الأكراد من ان ينجزوا (او يزرعوا) في عقول اولادهم ربع ما زرعه الروم قبل ٢٧٠٠ سنة.. ان الإنسان اللامنتمي عليه ان يتصور عظمة ما حصل هناك في القرن الثامن قبل الميلاد والا فلا حل له. عملية الاندماج هذه كانت بذرة انبتت تلك الإمبراطورية العالمية التي أثمرت بعد ثلاثة قرون واعتقد ان كل انتصارات الروم اللاحقة على الأمم الأخرى كان قد احرز مقدما منذ ذلك اليوم.. إذا كانت السياسة لعبة اشهر وسنوات، فإن الإنتماء لعبة اجيال.

نحن الكرد لدينا فروقات لهجوية ولغوية تعصف بأدمغتنا. كل حرف وكل صوت وكل اشارة لغوية تدل على هوية انتمائية لايتنازل عنها احد الى آخر يوم من حياته. قد ينقلب الكردي ويبدأ بالتكلم بأية لغة أخرى، لكنه عند مقابلة غيره من الأكراد، يصر على حذافير لهجته حتى آخر نفس. ومن الممكن ان يتحمل (ذل) تغيير بعض الأصوات

(١) المصدر السابق Chapter III

اللغوية مراعاة لظرف ما، لكنه مهما فعل سيظل هناك حاجز الإنتماء يفصل بينه وبين اصحاب اللهجة الأخرى.. كذلك عند الزواج بين شخصين من مدينتين مختلفتين، لوجدت ان صراعا يجري على لهجة وإنتماء العائلة. فأما ان ينقلب الإثنان الى لغة جديدة (مؤخرا بدأ البعض يتحدث حتى الإنكليزية داخل البيت ناهيك عن اللغات التقليدية كالعربية والتركية) أو في أهون الحالات يستمر كل زوج على حذافير لهجته بدون أي نوع من الترويض والتقريب والاندماج. والأحتمال الأخير هو ان تطغى احدى اللهجات بحذافيرها حسب نوعية المجتمع (لهجة الزوج اذا كان المجتمع عشائريا ولهجة الزوجة اذا كان المجتمع حضريا)[1] فهل نستمر بالعناد قائلين ان الحرب الأهلية كانت من خطط البارزاني والطالباني وامريكا وصدام حسين والخ؟.. لنرجع الى روما.

ميدان Forum الذي توسط التلال المسكونة اصبح شيئا كالسوق المشتركة مارسوا فيه (عدم التمييز) الذي رفع هناك كشعار وقانون، ثم اتخذوا من مكان قريب مقرا لاجتماعاتهم سمي (كوميتيوم Comitium) واحتفلوا سنويا بذلك الأتحاد ثم بدأت تلك النواة بأذابة وامتصاص مجاميع بشرية جديدة كالكابليين واللوكريين المنفصلين عن السابين والاتين والأتروسكانيين.. يقول البروفيسور موري ان هذا الإتحاد كان له أهمية عظيمة كأول خطوة اندماج جعلت من روما اقوى مدينة[2].. اتفق كل الأتفاق مع

(١) احد المعلومات التي سمعتها من مسعود محمد قال ان الگاتات الزردشتية القديمة تذكر إثنان من الجن رجل وامرأة يدعيان (سورڤه وتورڤى) كانا كثير التخاصم وكان يربط ما بين تلك المسميات وبين مصطلح كردي حديث (سورة وتورة) تستعمل للدلالة على وجود حزازيات بين اهل العروس واهل العريس.. بصورة عامة الزواج المختلط عند الكرد كما عند العرب واليهود قليل نسبيا وهو احد اكبر عيوبنا. وان مسألة الإصرار المستميت على حذافير اللهجات. هذه النقطة وان بدت لنا كأنها تافهة، هي في الحقيقة جوهر تخلفنا وضعفنا.

(٢) المصدر السابق Chapter II .. الكردي الذي ينقلب على أصله رغبة في التطور او إتقاء لشر أحد ما عادة ما يكره ماضيه ولا شك ان اقرباءهُ لن يستسيغوه ببساطة. طبعا في كردستان هو لن يلاقي لغة او لهجة كردية وسطية يتكلم بها بل سينقلب الى العربية والفارسية وخاصة التركية التي في حد ذاتها نشأة من اندماج لغات ولهجات كثيرة على خط الحرير، فنسمع فيها آلاف المفردات اللغوية غير التركية.. اتراك اليوم حالة قومية مقربة من الروم ولهم قدرة على اذابة أكبر قوميات الشرق الوسط (العرب والفرس) فما بالك بالأكراد. يكفي الأشارة الى ان عدد كبير من منظري القومية التركية والحركة الكمالية ينحدرون من اصول كردية وكانوا اشد الناس على الأكراد. يبدو ان الروم كانوا اناس استعملوا لغة هجينة من كل اللهجات الإيطالية المحيطة بهم =

رأيه القيم، لكن مع الأسف لا هو ولا احد ممن قرأت لهم يبيّن سبب عظمة اتحاد من هذا النوع، واعتقد انهم لو عرفوا الأكراد عن قرب لوصلوا الى الجوهر، فالكردي المنقلب يكره ماضيه وكل شيء يذكره بأنه ليس أصيلا فتراه يجاهد في سبيل اثبات الهوية الجديدة.

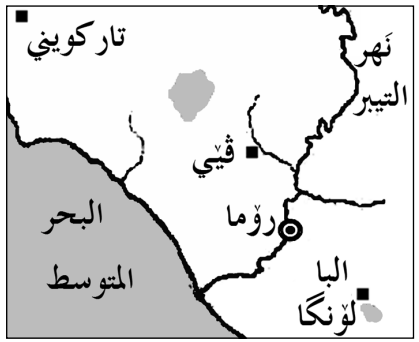

بالنسبة للروم، تلك الحقيقة أظهرت صراعا مزمنا ضد (اصولهم) كمدن الأتروسكانيين واللاتين الأصليين (اي الذين بقوا على فطرتهم النافرة من كل غريب).. مثلا عاصمة اللاتين الأصلية حتى القرن الثامن ق.م كانت البا لونكا Alba Longa التي لم تعد ان تكون واحدة من مئات مدن التقليدية ذات التعصب لهجتها وسكانها (الأصليين!). الروم، اي اللهجة الجديدة، دمروا البا لونكا في القرن الثامن ق.م. وبعد عدة قرون حين سيطر الروم على إيطاليا والمتوسط، تنقلب الأمور ونسمع بمدن اللاتين (ثلاثين مدينة) تطالب بحق المواطنة الرومانية ولاتعطى لها الا بشق الأنفس.

فلنسأل أنفسنا نحن الأكراد هل كان في روما دائرة خاصة بمنح (شهادة الجنسية الرومانية؟) ام ان الأمر كان يعود للطبيعة الغريزية في اكشاف نوعية اللهجة والتصرف و(الخوييياتي) التي اصر عليها اللاتين (الأصليون) وانقلب عليها الروم.. نفس الحالة تقريبا جرت مع الأتروسكانيين (الأصليين) فنسمع عن صراعات دائمية مع مدن اتروريا مثل فيبيي وتاركويني الى الشمال من روما.

تاركويني هذه تقودنا لذكر تاركوينيوس سوبيربوس احد اوائل ملوك روما المسمى نسبة الى مدينته تاركويني. ذكر الموما اليه في التاريخ على انه كان طاغية تمرد عليه

= فكانت اللهجات الأخرى تتقزز منهم كونهم لا يمثلون أصالة معينة بل شيء مصطنعا. هذا مع العلم ان الرومي لم ينقلب الى لغة خارجية بل استعملوا لغة سوق مشتركة بين القبائل الإيطالية. قد يكون ذلك اصعب، لأن الكردي سينقلب وينكر اصله اما الروماني فكان على احتكاك دائمي مع أصوله اللغوية والقبلية.. اعتقد ان الأكراد يجب ان يمروا بمرحلة اندماج ونضج لغوي و(انتمائي) قبل كل شيء والا لن تكون هناك حلول لمشاكلهم الداخلية والخارجية.

الروم فاستعان بأهل تاركويني لأخضاع روما لكنه لم ينجح في قتل تلك الروح الناتجة عن ذوبان مستمر للإنتماءات المختلفة في بوتقة جديدة.

نواة الروم كانت في نشأة شريحة او مجموعة البيليبيين (پيليب، Pilibians) حملوا نواة الهوية الرومانية ذات النطاق الأوسع. هذا التفوق البسيط كان يعني قابلية على تقبل الغير والاندماج التذويب. لكن هل كان البيليب طبقة ام قبيلة ام شعبا مستقلا عن ما حوله؟.. البروفيسور موري في الفصل الثالث من كتابه يشرح نشأة شريحة البيليب. في البداية يشرح الطبيعة التقليدية (عشائر تعيش في مدن وقرى، بسلطة أبوية وإنتماء للفخذ (Genes) ثم العشيرة (Tribes) ثم تقسيمات القرى والأقاليم ويقول انهم كونوا اتحادا ارستقراطيا من كبار رجالات القبائل كانوا يدعون طبقة الباتريك Patricians. ثم نشأ البيليب Pilibians، فنافسوا الباتريك.

هنا نصل الى مفترق للطرق في كيفية النظر الى الأمور، هل ان الحواجز الاجتماعية بين الباتريك والبيليب كانت أفقية (نظام طبقات)، أم حواجز عمودية (نعرات)؟.. الكردي سيفهم التقسيمات العمودية عن ظهر قلب، لكن كي نوضح الأمر للقاريء العربي، الأمر فيه شبه بمجاميع (البدون) في الكويت حيث مازال الكويتيون (الأصليون) يرفضونهم. قد يكون أحد البدون اغنى من أحد الكويتيين الأصليين لكنه مهما فعل سيظل (بدون) والآخرون يظلون (كويتيين اصليين من صلب الكويت!) ذلك هو (التقسيم العمودي) للمجتمعات ذات التعصب المديني.

البيليب ضمّوا أسرى الحروب والنازحين بالإضافة الى كل من انقلب على الإنتماء الضيق لأولاد العم واولاد الخال. لم تعد رابطة الدم والنسب واللهجة تعني الكثير. اعتقد سبب نمو شريحة البيليب انه كان يمكن للباتريكي (اذا خسر ثروته او هزم في تحد ما مثلا) ان يندمج مع البيليبيين. بينما لا احد من كل هؤلاء يمكنه ان يندمج مع الباتريكيين حتى الباتريك من قبيلة ونسب آخر لن يمكنهم ان ينتموا لقبيلة اخرى من الباتريك. نفس المشكلة يواجهها الأكراد اذ ان الكردي يمكن أن ينقلب الى تركي وعربي وفارسي حيث انها كلها مجتمعات مذيبة ومستقبلة وذات إنتماءات اكبر، لكن من الصعب ان يتقبل الأكراد شخصا غريبا.

البيليب كانوا نواة إنتماء قومي مشابه للآشوريين مقارنة بالبابليين والسومريين

المنتمين لمدنهم كما سنرى لاحقا، فالآشوريون اعتمدوا على اللغة القومية والإله القومي والولاء للجيش وليس صلة الدم وما شابه.. بالنسبة للروم (البيليبيين بالذات) في البداية كانت الإنتماءات التقليدية من عشائر ومدن تقاومهم وتحط من شأنهم وحتى داخل روما، فان التكتلات الهرمية للباتريك كانت هي مرجع الإنتماء والأصالة وما الى ذلك. لكن ملوك روما القدامى اضطروا للاعتماد على البيليب في الجيش، فهجمات القبائل الشمالية (الغال مثلا) كانت تجتاح روما بين الحين والآخر. بذلك تنامى حجمهم وموقعهم لكن ببطء شديد. ففي القرن السادس ق.م في عهد الملك تاركوينيوس بريسكوس، وهو جد تاركوينيوس المذكور، حاز الجيش لأول مرة على حق التصويت داخل مجلس الشيوخ[1] أي أصبح للجيش صوت واحد كأنه احد القبائل الرومانية مع العلم انهم لم يكونوا قبيلة. وفي القرن الخامس قبل الميلاد كان الانقلاب المذكور ضد الملك تاركوينوس سوبيربوس الى النظام الجمهوري، الأمر برأيي كان ضربة للملوك الطوائف والأنساب المتكبرة اذا جاز التعبير.

الأساطير تتحدث عن انتهاك لعرض امرأة أقترفه ولي عهده، غير ان لايوجد دليل علمي يثبت ما جرى. كل ما هو ثابت تاريخيا انه بعد تلك الثورة ازداد تمثيل البيليب والجيش في المجالس السياسية وتم تحديد الكثير من صلاحيات الباتريكيين ووجهاء الطوائف، اما الملوك (الجمهوريون) فأصبحوا يولون مزدوجين لسنة واحدة كما فعلت سپارتا في اليونان.

يمكن استنباط معادلة بسيطة لكيفية نشوء تلك النوعية من الإنتماءات (القومية–العسكرية) الخاصة بالروم ومن قبلهم الآشوريين ومن بعدهم الترك. الروح العسكرية الرومانية كانت إنتماء عاما كمنطقة حياد بين العصبيات القبلية والعصبيات المدينية. كانت تمثل إنتماء ابن القرية او ابن القبيلة الذي تطور لكنه لم يقع في مستنقعات العصبية المدينية، بل تجاوزها بسرعة الى الدولة والجيش والقانون العام الذي كان هيكل إنتمائهم ومحور ولائهم. بينما باقي الشعوب كانت تتمحور إنتماءاتها على القبيلة والمدينة.. طبعا لا حاجة ان نذكر انه مع وجود تشابه بين الروم والآشوريين والترك، لا شك ان هناك إختلافات كبيرة ايضا. كل ما في الأمر انه اذا كان الفرس والترك قد

(١) المصدر السابق chapter V.

نشأوا في طريق الحرير، واذا كان الآشوريون قد نشأوا على خط تجاري معين، فالروم لم يحتاجوا اكثر من كيلومتر مربع هو الفوريوم Forium.[1]

(١) حالات مشابهة حدثت في نهاية القرن التاسع عشر على درجات أقل في المجتمع الكردي بعد سقوط الأمارات الكردية الواحدة تلو الأخرى. الإمارات تفككت حسب العشائر والمدن تحت سلطة الآغاوات وملاكي الأرض، تبعها نمو سلطة المشايخ الدينية التي سحبت البساط من تحت الآغاوات وورثت الأمارات الكردية. الاستاذ پي رش في كتابه (بارزان والحركة التحررية الكردية) يشير الى استفحال السلطة الآغاوات صاحبتها حركة انقلاب في ولاء الفقراء والفلاحين والأقليات المسيحية واليهودية من الآغا (الذي لا يمثل الا النسب العشائري) الى شيخ الطريقة الدينية. ويشير الى ان شيوخ بارزان النقشبنديين قهروا أغاوات العشائر في النهاية مما جعلهم يلجؤون للسلطات التركية في الموصل.. هذا الانقلاب كان نموذجا مصغرا لما جرى في روما واعتقد انه قد تعرض الى نفس التخثر والركود خاصة بعد أعدام الشيخ عبد السلام بارزاني في ١٩١٤. ثم تلاه توسع أقوى على يد الزعيم مصطفى البارزاني ذو التطلعات القومية التي تجاوز الطابع الأقليمي (الطابع البارزاني والبهديني) لمشيخة بارزان ذات اللهجة الخاصة والزي الخاص. ثم تلاه تخثر ثم توسع وهو مازال يراوح بين التوسع والتقوقع ويعاني من نفس مشاكل الشعور بالإنتماء لدى الأكراد عموما في مدى الإنفتاح وتقبل الآخر والاندماج. أبسط نقطة منها (او قد تكون أصعب نقطة) عدم وجود تطور لغوي كما فعل الروم مع اللهجات المحيطة بهم. على سبيل المثال لا الحصر، هناك حاجز قوي يفصل اللهجة الشمالية عن الجنوبية.. مخطىء من يعتقد ان الأمر منوط بشيوخ بارزان وحدهم أو حتى بمنافسيهم في الـ PUK الذين يمثلون إنتماء المدينة أو غيرهم من المنافسين. بل الأمر يعود الى الفقير الكردي نفسه بارزانيا كان أم غير بارزاني في مدى تقبله للفقير الأخر. أي ان السؤال هو كما يلي: هل أن الفقير البارزاني يعتبر الفقير الكركوكي وزاخولي جزء منه بلا أي فرق (و العكس بالعكس)؟ ام ان الفلاح البارزاني أبدل ولاءه من الآغا الزيباري مثلا الى الشيخ البارزاني كي ينتهي الى ان يجعل من مشيخة بارزان النقشبندية تتصرف كأنها مجرد قبيلة من القبائل؟ يبدو ان هذا الذي حصل والأمر وصل الى ان الكثير من الناس يعتقدون ان بارزان مجرد قبيلة ليس إلا. الجواب صعب والأمر مازال طور الأمتحان وهناك دائما خطر كبير في نكسات وتيارات قوقعية.. اعتقد ان حركة بارزان ومدينة السليمانية ولو إنهما لا يمثلان كل أكراد العراق، لكن يمثلان قمم نوعية في الإنتماء الكردي وليس لأي منها القدرة على النجاح دون اندماجات وأجيال ذات توجه يختلف كما ونوعا.

توسع وتخثر:

منذ بدايات الروم حوالي ٧٥٠ ق.م وحتى سقوط روما ٤١٠م يمكن ملاحظة مد وجزر في مساحة الشرائح التي اعتبروا انفسهم رومان. في البداية كان هناك التعصب التقليدي متجسدا في الباتريك ثم نشأة البيليب وثورتهم التي ادت الى توسع في الإنتماء الروماني تجاوز المدينة. كان هذا هو المد الأول والنواة الأهم، حيث استقر على ان يضم ٣٥ عشيرة اربع منها فقط من داخل روما والباقي موزع حولها لا فرق بينهم. لكن الانتماءات ليست بحالات ستاتيكية بل تبع ذلك (تخثر في الإنتماء) اذا جاز التعبير، ظهر في تركيبة مجلس الشيوخ الجديد الذي منع حق المواطنة الرومانية عن أقاليم مثل مدن لاتينيوم.

الأقاليم الإيطالية بدأت تطالب وتنازع، وبعد الحروب والتوسعات في القرن الثاني ق.م تظهر حركات تمرد قوية اصرت على احد الأمرين، اما ان يعتبروا رومان دون تمييز وإستثناءات واما الانفصال. المواجهة وصلت ذروتها في الحرب الأهلية عامي ٨٩ و٨٨ ق.م كلفت إيطاليا ثلاثمائة ألف قتيل.

قد تفسر الحرب الأهلية على أنها مجرد صراع بين انصار سولا ودروسوس. بينما يؤكد موري انها كانت لأجل المساواة وحق المواطنة ويقول نصا: تم إحياء سياسة الدمج التي كانت قد أهملت منذ مدة طويلة.[1] الدليل يكمن في النتائج النهائية التي ظهرت بعد جيل واحد من تلك الحرب الأهلية في طفرة هائلة للإنتماء الروماني جاءت مع يوليوس قيصر[2] حوالي ٥٠ ق.م. أول قيصر روماني وهو أول من كسر آخر العقبات على طريق الاندماج الوطني. لم يكتف بذلك فحسب، بل منح حق المواطنة

(١) المصدر السابق CHAPTER. XX. The Social War. من الجدير بالملاحظة موري يطلق عليها حرب (اجتماعية) وليست (أهلية).

(٢) اول من استعمل كلمة Emprator كان الجيش الروماني الذي تعود على تسميت القادة الكبار بهذا الاسم. مجلس الشيوخ عرض على يوليوس قيصر لقب (ملك) فرفضه باستخفاف. فاللقب كان يشير الى ملوك دويلات المدن المحتقرة لدى الروم. ثم عرض عليه لقب (دكتاتور) حيث ان الدكتاتور كان وظيفة رسمية تسلم لبعض الأشخاص في حالات الطوارىء. قيصر رفض كل الألقاب وفضل اللقب العسكري (إمبراطور) فأصبح من يومها منصبا رسميا.

الرومانية لأناس من خارج إيطاليا ايضا. اي اننا قبل ان نفكر في يوليوس قيصر كفاتح، يجب ان نفكر فيه كمحرر كسر حواجز الخوبياتي الفولاذية بين الإيطاليين.[٣]

المهم هنا ان نفهم ان الأمر كان حالة داينامكية من مدّ وجزر وحركة مستمرة من تدفق للثروة البشرية على روما، فيطفح منه إنتماء عام يغمر أقاليم وشرائح اكبر لكن تصاحبه حالة من التخثر متمثلة في بيروقراطية وإنكماش الشرائح الأقدم التي لاتستسيغ الغرباء.. المدن الأغريقية مثلا ختمت الموضوع من أساسه بأن حصرتْ المواطنة على اهل المدينة الأصليين فقط. بينما روما تجاوزتها الى آفاق أوسع وأوسع لأن انتماءهم ومنذ نشأته لم ينطو صلة الدم (كما في العصبية القبلية) او على اللهجة والثقافة والإله (كما في عصبية المدن). حتى نرى الروح الرومانية في العصور المتأخرة تكاد تصل حد العولمة بمقياس ذلك الزمان، فتضم كل من ساند السلطة والقانون يهوديا كان ام إغريقيا ام بريطانيا. فهل يفهم منظرو الاحزاب الكردية ما الذي ميّز روما عن أثينا وسپارتا؟. انه الشعار العسكري الروماني المتجسد في كلمة واحدة لا أكثر (No Exceptions).

اعتقد ان الشرح السابق قد بيّن جوهر الإنتماء الروماني وسر تلك القوة. اما التفاصيل وأسماء الساسة والأباطرة وطبائعهم وانجازاتهم والمعارك الداخلية (سياسية كانت أم عسكرية) فهي ليست في صلب موضوعنا.

(٣) قيصر رفع عدد مجلس الشيوخ من ٣٠٠ الى ٩٠٠، اي تقريبا ٣٠٠ للرومان و٣٠٠ لباقي الإيطاليين و٣٠٠ لمن انتماء لروما عسكريا حتى وإن كان من خارج إيطاليا. تلك الحركة كانت طفرة كبيرة ولايمكن تخيل المجموعة التي اغتالت قيصر دون ادراك عصبية رومانية (نسبة لروما كمدينة) ولا ادري مدى ادراك شيكسپير لحقائق العصبيات والإنتماء حين وصف اغتيال قيصر كأنه مجرد حسد.. هذه الطفرة كانت كبيرة جدا تراجع عنها خلفه أوكتاڤيوس وقلص مجلس الشيوخ من ٩٠٠ الى ٦٠٠. التقليص كان بسيط وهو دالة من دلالات المد والجزر وهو ايضا اشارة الا ان النتيجة النهائية كانت باتجاه التوسع وليس التقلص والإنكماش في الإنتماء واستيعاب المنتمين الجدد.

الفصل الرابع

الاحتكاك الدموي بين الروم والإغريق

الروم كانوا يعتقدون انهم احفاد الأمير الطروادي الوحيد الذي نجا من الإبادة على يد الأغـريق في حـرب طروادة. إن صـدقت الرواية ام لم تصـدق، فـأن مـثل هذا الإرث الثقافي يدل على وجود نفرة قوية ضد المدن الإغريقية التي مسحت طروادة عن وجه الأرض[1] ولله نقول انهم ثأروا لطروادة بمئات الأضعاف.

لا يمكن لمثقفي اليوم الذين يتحدثون عن (حقوق المواطنة) ان يحتذوا بالإغريق والروم معا كأن يكونا منطلقا واحدا بلا فرق. بالعكس، يجب ان نختار بينهما فالروم كانوا بعكس الإغريق وألد أعدائهم وهم الذين مرّغوا انفتهم مع دمائهم في التراب. كان هناك تأثيـر لغـوي وديني للإغـريق على الروم لايمكن نكرانه، لكن نوعي الإنتـمـاء كـانا متـعاكسين.. ان النعرات هي طبائع انطوائية وعنصـرية رثّة اثارت على طول التـاريخ ردود أفعال عنيفة، وإن احتكاك الروم بالإغريق كان احد المستفزات التي جعلتهم اكثر تطرفا وعنفا ضد دويلات المدن.

اول صِدام حصل في القرن الثالث ق.م. كـان الروم في وقـتـهـا بقـدرة هائلة على الاجـتـيـاح والإذابة لكن طـمـوحـهم لم يتـجـاوز البـر الإيطالي. الصـدام حـصـل مع المستعمرات الأغريقية على الشواطيء الجنوبية لإيطاليا واكبرها مدينة تارينتوم. كانت مركزا حضاريا اغريقيا للعلم والأدب. لكن طبعاً في نفس الوقت، كانت مركزا للعصبية المدينية والتمييز.

(١) (هناك) ظاهرة أخرى قريبة من الموضوع. الروم في بداية تأسيس مدينة روما كانت لها عادات مشابهة للزردشتيين في إدامة نيران معبدهم، أنا متأكد أن هناك كتبة أكراد سيتسابقون للإدعاء بوجود تأثير زردشتي على الروح التوحيدية للروم لكني شـخصياً لا أنظر الى المظاهر من ذلك القبيل، لو فرضنا إقتباسهم تلك العادة من الميديين أو الفرس، فأنه لن يكون أكثر من ردة فعل ضد الأغريق كأن أحبوا شيئاً كرهه الأغريق وهي ستكون مماثلة لإعتقادهم بأنهم أحفاد طراودة نكاية بالأغريق، لا أكثر ولا أقل.

كانت هناك اتفاقات تجارية بين تارينتوم وروما احتكروا بموجبها البحر وتركوا البر الداخلي للروم وكانت المدن الإغريقية جميعا تحتمي بالروم درء لخطر قبائل لوكانيا، فكان للروم حاميـات عسكرية تحـمي تلك المدن.. صـادف مرّة مـا ان يضطر اسطول رومي في طريقه الى البحر الادرياتيكي أن يرسو في ميناء تارنتوم. اهل المدينة تملكهم الغضب وكأنهم هتفوا بالهوسة العراقية (اللي يوصل حدنا نقص ايده!). اغرقوا خمسة سفن على الفور وقتلوا أكثر البحارة، ثم باعوا من تبقى منهم في سوق العبيد وتم توزيع ريعـهم (ديمقراطيا!) لصـالح (اهل المدينة الأصليين!) ثم أهانوا الوفد الروماني المفاوض شر إهانات واعلنوا الحرب وطلبوا المساعدة من اليونان. فكانت اول حرب بين الإغريق والروم (٢٨٠–٢٧٥ ق.م). بيرهوس ملك إپروس كان قائدا مقدونيا طموحا استغل استغاثة الأغريق وجلب جيشا من ٢٥٠٠٠ من المرتزقة بالأضافة للأفيال. انتصاراته على الروم في معـركتي هيـراكليا ٢٨٠ ق.م واسكولوم ٢٧٩ ق.م كانتا مضربا للأمثال من قبيل كثرة خسائر المنتصر. الخسائر الفادحة جعلته يتخلى عن فكرة احتلال روما رغم انتصاراته فمواجهة الروم كانت شيئا مختلفا عن باقي العناصر. نستذكر هنا ما شاهده رومل عام ١٩٤٠ عند التوغل الخاطف لمدرعاته داخل الأراضي الفرنسية واول صِدام له مع الوحدات البريطانية حيث احسَّ فورا بفرق نوعي بين الإنكليز والفرنسيين من حيث الصلابة والعناد البارد.

توجه بعدها بيرهوس لإنتزاع صقلية من القرطاجيين ونجح في إجتياح أراضي صقلية، الا انه فشل في اقتحام تحصينات مدنهم. رجع كرة اخرى يجرب حظه مع الروم في البر الإيطالي، لكن هذه المرة ثبت الروم في ساحة المعركة وفتحوا خطوط المشاة على شكل طوابير كي تخترقها الأفيال دون أضرار تذكر، فكانت اول هزيمة، ولو صغيرة، للتشكيلات العسكرية المقدونية، تلك التشكيلات التي اجتاح الإسكندر بواسطتها العالم القديم.. الهزيمة جعلت بيرهوس يتخلى عن كل احلامه في غرب المتوسط، فعاد الى اليونان تاركا قوة صغيرة لحماية تارنتوم. هي الأخرى لم تصمد طويلا امام المد الروماني، فخضعت تارنتوم لشروط روما القاسية. والنتيجة النهائية كانت ان روما اصبحت عاصمة دون منازع لمدن البر الإيطالي[1]، اغريقية كانت ام إيطالية، اما البحر فكان بيد الإغريق والقرطاجيين.

(١) المصدر السابق chapter XII.

بداية التوجهات الاستعمارية للروم كانت مع نهاية الحرب مع تارنتوم اذ وجّهوا انظارهم مباشرة الى المستعمرات الإغريقية والقرطاجية في صقلية فكانت الحروب القرطاجية الأولى ٢٦٤–٢٤١ ق.م. بنهايتها المذلة للقرطاجيين استولى الروم على صقلية ثم على سردينيا وكورسيكا على التوالي.. أما الاستفزاز والهيجان الأكبر كان في الحرب القرطاجية الثانية التي شنها القرطاجيون انتقاما للحرب الأولى. الفينيقيون في قرطاجة والإغريق على حد سواء كانوا قد احسوا بنشأة خطر داهم يختلف عنهم نوعيا. هملقار والجناح العسكري للدولة القرطاجية فكروا في اجهاض القوة الرومانية في مهدها.. هنا تعرض الروم لخوف اعظم بكثير مما سبق. عدوهم الرهيب هانيبال، ابن هملقار، اجتاح إيطاليا ودمر الأرياف والمدن ووصل الى ابواب روما. على سبيل المثال قتل في معركة كاناي وحدها ٧٠٠٠٠جندي من مجموع ٨٦٠٠٠ مقاتل تعداد ذلك الجيش الروماني الذي واجهه، حيث كان هذا الرقم أكبر جيش روماني يتم جمعه الى ذلك اليوم.

الفرق الجوهري بين الروم والقرطاجيين ظهر في تلك الحرب كأنها مواجهة بين Superman مع Superpeople أو مارادونا يواجه لوحده فريق البرازيل.. قوة القرطاجيين كانت تعتمد على عبقرية هانيبال العسكرية والتعبوية لوحده. بينما الروم كانوا كتلة من الروح التعبوية والإلتزام العسكري. هانيبال لم يتبع سياسة فراورتيس الميدي بل امتلك نظرة سياسية اضافة لقدراته العسكرية فتحالف مع كل اعداء الروم داخل وخارج إيطاليا.

الروم رغم ذلك ظلوا متكاتفين ولم يتنازلوا لهانيبال حتى في أصعب المراحل. اهم نقطة في الموضوع ان اكثر المدن والأقاليم الإيطالية ظل على ولاء لايهتز لروما. هذا دليل أضافي على الفرق النوعي بين الإنتماء المديني والإنتماء القومي. هانيبال كان قوة لاتقاوم لكن النصر برأيي كان قد حسم قبل ثلاثمائة عام حين تطور الروم الى إنتماء اكبر من المدينة. بينما هانيبال كان لايمثل الا الجناح العسكري من (مدينة) لاتعترف بأحد غير قرطاجي. حتى انهم بعد حين فكّروا بتسليم هانيبال نفسه الى الروم إتقاء لشرهم فكيف تثق الدول والعشائر بتجار لا هم لهم الا الأرباح. قبائل النوميديين (جزائر الحالية) تحالف بعضهم مع هانيبال في البداية لكن ما هي الا فترة وظهر جناح آخر منهم تحالف مع الروم ضد الجناح الأول وضد قرطاج. ترى لماذا تتحالف

قبائل إيطاليا وافريقيا مع الروم بينما لم يتحالف أحد مع قرطاج، طبعا انها مسألة العصبية الأنثوية للمدن؟

بينما القرطاجيون يتلكأون ويناورون ويتركون هانيبال وحيدا معزولا داخل ارض الأعداء وينفض عنهم حلفائهم، الروم وتقريبا كل الإيطاليين بدأوا يهاجمون ويدمرون كل شيء قرطاجي اينما كان. وكما اتبع هانيبال تكتيك الذراع الطويلة ومهاجمة العدو في عقر داره، الأذرع الرومانية أمتدت كخطوط النمل المحارب الى داخل بيت هانيبال (قرطاج في تونس وقرطاجنة في جنوب اسبانيا). حتى في اليونان، الروم قدموا الاسناد العسكري لمدن التحالف الأيتولي في اليونان League Aetolian ضد فيليب الخامس، ملك مقدونيا المتحالف مع هانيبال.. كان من الطبيعي ان تقوم تارنتوم باقي المستعمرات الإغريقية في جنوب إيطاليا بالتحالف مع هانيبال، لكن موقف كاپوا Capua ثاني مدينة إيطاليا، ضد الإيطاليين يدعونا لوقفة.

مدينة كاپوا كانت حالة معاكسة لروما على طول الخط وأصرّوا على العصبية المدينية بكل قوة. توينبي يعزو فشل هانيبال لأختلاطه بأهل كاپوا وشتاء ٢١٧–٢١٦ ق.م الذي قضاه هناك ويقول توينبي ما معناه ان الجيش القرطاجي انغمس في الجنس لدرجة انه في الربيع التالي فقد روحه القتالية[١] الدليل هو اول هزيمة يتلقاها جيش هانيبال في سهل كامبانيا قرب كاپوا مباشرة بعد ذلك الشتاء[٢].

(١) ارنولد توينبي. بحث في التاريخ، موجز المجادات السبعة، ترجمة فؤاد جميل ص ١٤١.

(٢) ينحدر اهل كاپوا اصلا من قبائل السمنيين Samnets يبدو انهم كالأكراد الذين يتركون الجبل فيتحولون من العصبية القبلية الى العصبية المدينية. السمنيين ايضا مروا بنفس المرحلة، من بقي منهم في الجبل ضلوا يتعصبون لعشيرة، اما في مدن فقد تعصبوا للمدينة.. اهل كاپوا لجؤا الى سلسلة عجيبة من المراوغة وتبديل حليف بحليف آخر. أول الأمر طلبوا الحماية من الروم ضد اولاد عمومتهم الجبليين. فوضع الرومان حامية عسكرية فيها. هذه الحامية انغمست مع اهل كابوا وتمردوا على روما نفسها. اي ان الروم ايضا ابتلعوا ذلك الطعم قبل جيش هانيبال.. بعد التمرد المشار اليه ساءت العلاقات مع روما فقاموا بطلب الحماية من قبائل اللاتين ضد الروم والسمنيين. بعدها تتكر تلك الظاهرة حتى كانت حملة هانيبال فتحالفوا معه ومع المدن الأغريقية ضد الروم والسمنيين واللاتين وكل الإيطاليين. تدمير قرطاجة تعد جريمة ارتكبها الرومان ولا يمكن ان يضل الغربيين يبرروها. القرطاجيون التزموا بشروط السلام مع الرومان ونمت تجارتهم من جديد لكننا نسمع عن الروم لا يتركوها تعيش. السناتور الروماني كاتو Cato رأى قرطاج=

التصميم الروماني على الثأر من كاپوا تجلى في معارك عجيبة كأنها مشهد مسرحي للعبة (خناق). الروم حاصروا كاپوا، وهانيبال كعادته فكر ان الهجوم خير وسيلة للدفاع، فقام بحصار روما املا ان يفك الروم حصارهم عن كاپوا.. الروم كانوا كالزوج الذي يخنق زوجة خائنة ماسكا إياها على فراش الأثم وما رفعوا ايديهم عن تلك الرقبة حتى ولو كلفتهم امهم وابوهم (روما). لعبة الخناق المتبادل وصلت نهايتها بأن زهقت

= وشعر بحسد وخطر كبيرين ويقال انه ما تكلم في مجلس الشيوخ الا وختم كلامه بمقولة (يجب ان ندمر قرطاج). في ١٤٦ ق.م دمر الروم قرطاج بعد حصار دام ثلاث سنوات وهي نفس سنة تدمير مدينة كورنث في اليونان. موري على سبيل المثال يعزوا تدمير قرطاج كون الروم لم يبلغوا مستوى حضاريا عاليا في ذلك الوقت (المصدر السابق chapter XVI). لايمكن أن نعزوا الطبيعة الدموية للروم كونهم قبائل كأن الجرائم الجماعية في التاريخ لم ترتكب إلا بيد المجتمعات القبلية. كذلك الكاتب (E. H Combrich) في كتابه (Little History of the World) صفحة (٧٣) أراد وصف الفرق بين الروم والإغريق فقال (إختلاف الروم عن الإغريق انهم اذا ارادوا شيئا نفذوه حتى ولو طال الأمر ٢٠٠ عام ويقول ذلك لكون الروم كانوا قرويين)؟! كأنها حجة أخرى تبرر عنفهم أو كأن الحضر معصومون من النواقص. اما ما نراه في الأفلام الغربية فهي تصور الرومان كأنهم مثقفي لندن ونيويورك.. اعتقد ان شخصية الإنسان الروماني لم تكن لا هذا ولا ذاك وسأعطي مثالا حيا حول كيف كان الرومان يفكرون.. قل لكردي عراقي أن هناك هجوم وشيك من العرب والأتراك، وقل لعربي عراقي ان هناك هجوم امريكي وشيك. ستراهم يستخفون بالمخاطر. لكن قل لتركي ان هناك ثلاث مقاتلين PKK يختبئون في (القطب الجنوبي!!) ستراه يحذر. أو اسأله عن مذابح الأرمن. سيقول لك شيء من هذا قبيل: انت لاتعرف ما حصل، الأرمن كانوا سيمحوننا من الوجود. تمردوا على الدولة وكادوا ان يقتلوا الملايين من الترك كنا سنموت ونمحى من على وجه الأرض.. ستراه يكاد يرتجف من الخوف كأن الموتى سيقومون من قبورهم. ذلك هو (الخوف الدائمي) الذي تم الأشارة اليه في بداية كتابنا عن طبيعة الروم.. انا لست بصدد تبرير اي عمل ولا بصدد اثارة ضغائن. كل ما الأمر هو سبر اغوار الإنتماء.. ان محاولة نكران ارتكاب مذابح بأيدي اناس حضر هو بحد ذاته انحياز وتعصب، ليس لمدينة بل الانحياز للمدنية بشكل عام. الحضارة انوثة اجتماعية بحد ذاتها، يجب ان يعترفوا بطبيعة هدّامة مازجت المدن والأنوثة منذ الأزل الا وهي الغيرة. لا شك ان الجوانب السلبية للرجولة ان فيها (حقد) عنيف والجيوش هي الشرائح الذكورية لكل مجتمع. لكن الأنوثة ايضا فيها حسد جوانب سلبية فتاكة فهي الدافع والمحرك للجيوش (للأذرع الذكورية).. هذا واني لست الوحيد في هذا الاعتقاد، ارنولد توينبي يشبه الهجمات القبلية بهجوم الفرسان. يكسرون ويدمرون ثم يرحلون. بينما هجوم (الجيوش المتحضرة) يشبه هجوم المشاة حيث يأتون ببطء لكنهم لا يدعون حيا الا وقتلوه.

كاپوا وكان الأنتقام الدموي من أهلها بيانا للعالم بأسره أنهم يلعبون على حصان خاسر. اما روما فكانت أقوى من أن تخنق بيد هانيبال، فاليد الواحدة لا تصفق ولا تخنق.. يقول توينبي في صدد الحرب القرطاجية الثانية: الضربة التي لا تقتل، تقوي. بذلك كانت نهضة الروم هذه المرة نهضة نهائية انطلق منها المارد الى خلف البحار وهزموا هانيبال في تونس وخلال الجيل اللاحق دمرت قرطاج واذلت بشكل عجيب وانتصبت الإمبراطورية الرومانية من النيل الى بريطانيا ومن جبل طارق الى الفرات لفترة ناهزت ٥٠٠عام.

الفصل الخامس

الهيلينيين في ظل الروم

مرة أخرى نرجع الى اليونان.. ما ان هزم هانيبال حتى التفت الروم لتصفية حساباتهم مع من تحالفوا معه، ملك السلوقيين كان قد استقبل هانيبال كلاجئ وملك مقدونيا كان قد ساندە. من الجانب الآخر مدن اليونان إستغاثت بالروم ففي مثل تلك المجتمعات كل ممنوع يكون مرغوب، وكل بعيد جميل وكل شيء قريب ومنظور يكون مكروها كواقعهم. بعض الإغريق انبهر بمبدأ پاكس رومانا Pax Romana اي (العدالة الرومانية) كان يعني ان اي مجموعة تعترف بالسلطة الرومية عليهم، فأنهم يتمتعون بحكم ذاتي وحرية العبادة وما شابه. لكن ماهي إلا فترة حتى انقلبت الآية.. بين اعوام٢٠٠ و١٩٧ ق.م هزم الروم مقدونيا بالتعاو مع بعض المدن الإغريقية. وفي ١٩٦ ق.م اعلن استقلال اليونان وهلل الإغريق للروم على انهم (حماة الحرية والذين تكفلوا بجهدهم ونفقتهم الخاصة الإغريق تخليص اليونان من العبودية والدكتاتورية).. لكن بعد سنوات قليلة ملّوا من الروم وقام الحلف الأيتيولي هذه المرة بطلب المساعدة من السلوقيين للتخلص من الروم وتبدّلت التحالفات السابقة رأسا على عقب. في الجهة الأخرى مقدونيا وبيركاموم ورودس تحالفوا مع الروم ضد السلوقيين ومدن اليونان (التحالف الإيتولي). انطونيخوس الثالث (السلوقي) عبر إلى اليونان لينضم إلى حلفائه. لكن الروم سحقوهم جميعا في ثيرموثولي ١٩١ ق.م ولم يتركوا انطونيخوس بل لاحقوه إلى اسيا الصغرى، فهزموه في ساردیس ٩٠ ق.م. على الأثر تنازل انطونيخوس عن كل املاك السلوقيين في آسيا الصغرى لبيركاموم ورودس ووافق صاغرا على ان يسلِّم لهم هانيبال الذي فضل الإنتحار لاحقا في ١٨٣ ق.م. اما المدن اليونانية فكانت كما يقول موري (من الغباء ان استمروا بالثورة) فاستدار لهم الرومان مرة اخرى وكانت مذبحة في امبراكيا. هذا بينما مدن التحالف الآخيي يتفرجون على (اخوانهم) مدن التحالف الأيتولي وهي تسحق.

اما بين السلوقيين في سوريا والبطالمة في مصر في مصر فبعد فترة وعندما كان الروم يستبيحون مقدونيا واليونان، يقوم انطونيخوس الخامس عام ١٦٨ ق.م بالهجوم على البطالمة في مصر. هذه المرة لم يتدخل الروم عسكريا بل ان سفيرا وبضع جنود كانوا اكثر من كفاية لدرأ شر الهيلينيين عن الهيلينيين. مواجهة غريبة تمت بين السفير الروماني مع انطونيخوس. السفير الروماني يخبره ان ينسحب من مصر بينما الملك (المنتصر) يبدأ بالمراوغة. لكن السفير الروماني يصر بصلافة ويطالب بجواب فوري فينسحب انطونيخوس على الفور إلى سوريا.[١]

بعد فترة ظهر ثائر في مقدونيا ادعى كونه فيليب ابن پيرسوس ابن فيليب الخامس[٢] وقامت ثورة كبيرة حققت انتصارات قصيرة ثم هزمت. لكن العجيب ان تنتشر تلك الروح بين مدن التحالف الآخيي بالإعتقاد بظهور مخلص (كلمة المسيح تعني المخلص) فتبدأ المشاكل والمناقشات والإنشقاقات. سپارتا ارادت ان تنسحب من التحالف والروم تدخلوا لمصالحتهم مع بعضهم لكن الجناح (الوطني) خونوا الباقي واهانوا الوفد الروماني وكانت ثورة ما توقفت حتى كان عام ١٤٦ ق.م حين سويت مدينة كورنث بالأرض وبيع من بقي حيا من أهلها كعبيد في روما.[٣]

---

(١) الهيلينية في مصر. ص ٨٥.

(٢) ان هذه الحالة هي نفس ما حصل في بابل بعد ان طردوا نبونائيد ورحبوا بالفرس، لكنهم بعد فترة ثاروا على الفرس بقيادة شخص ادعى انه حفيد نبونائيد (حوالي ٥٠٠ ق.م).

C. Morey- Outlines Roman History. American Book Company. chapter XVII William

(٣) لا ادري ما هذا الميل لتصوير ما جرى بين كيليوپاترا ومارك انطونيو وقضية (تأثير انف كيليوپاترا على مجرى التاريخ) وهذا الكلام الركيك. البعض وصفها بشهيدة الحب والبعض نعتها بالعاهرة وهي برأيي لا تنمي لأي من المجموعتين. لو استعننا بأسلوب كولن ولسن في التعبير لأمكن رؤية شبيهتها في فلم (ذهب مع الريح). البطلة هناك تنتمي لأحد العوائل الثرية من مدينة اتلنتا عاصمة الجنوب الأمريكي لا تتورع عن اي فعل في سبيل احياء مجد عائلتها الذي زال مع انتصار الشماليين. الغريب ان نفس الممثلة لعبة دور كليوپاترا في فلم آخر ايضا من انتاج هوليوود. نموذج آخر لهذا النوع من النساء نراه في (رواية تاريخية) كتبها على ما اذكر ڤاسيلي يان، تتناول حياة تيمور لنك ويذكر بتكرار واسهاب احد الأميرات الفارسيات من وسط اسيا يأسرها تيمور ويزوجها عنوة بأبنه جهانگير الشاب. الموما اليها لا تتورع عن ممارست كل ما في قدرتها للإنتقام من التتر. زوجها الشاب يموت في ظروف بما يوحي انها هي التي تقتله بطريقة=

البطالمة كانوا آخر قوة هيلينية لم تُذلْ من قبل الروم حيث ان الروم كانوا يهضمون ما ألتهموه في القرن السابق وكانوا يمرون بمرحلة إندماج داخلي ايضا كما أسلفنا. الهيلينيين قاطبة في هذه الفترة التي تمتد لقرن (من ١٤٦ إلى٣١ ق.م) مروا إنقلابهم الثاني. الانقلاب الأول بدأ في ٤٠٤ ق.م مع هزيمة اثينا. الانقلاب الثاني جاء بصورة تدريجية مع كل مدينة واقليم هيليني يسقط في قبضة الروم ومع كل وجبة جديدة من آلاف الهيلينيين الاحرار يساقون كعبيد إلى إيطاليا. في إيطاليا مثلا كانت بوادر الروح الماسوشية، ولو بصورة مخفّفة، تنشأ في جيل من الكتبة والشعراء كثيري الشبه بشعراء المهجر من فلسطينيين واكراد وكل شعب تعرض لذل التهجير. من جهة اخرى الأقاليم الهيلينية المحتلة والممتدة من جبال البلقان حتى حدود مصر كانت تشهد صراع نفسي وفلسفي وسياسي وعلى كل الأصعدة والكثير منهم مازال يخدع نفسه بأن مازالت هناك دولة هيلينية مستقلة سوف تنهض وتهزم الروم وهم البطالمة في مصر التي تأخر احتلالها فترة فكانت ملاذا اخيرا للهلينيين. هي ايضا شهدت نمواً لأدب وشعر فيه نوع من الغيبيات والتنبؤات بأن السماء ستنتقم يوما من الروم وما شاكل.

أخيرا، الواقع بين عكس ما تأملوه ففي عام ٣١.م سحقت جيوش كليوپاترا وانطونيو وفشلت كل انواع المراوغات والأغراءات التي قامت بها مع الروم.. اعتقد ان كليوپاترا جسدت كل ما تبقى من حضارة وسلطة متهاوية وآمال واهية للهلينيين. لحظة انتحارها كانت لحظة الإفلاس والسقوط النهائي لأحد اكبر الإنتماءات والثقافات في العالم، فجُرِدوا من اخر الحجج التي خدعوا بها أنفسهم على أنهم أحسن وأقوى البشر وحكام العالم ومسيِّري الكون او كما يقول ارسطو في مطلع كتابه (السياسة) بأن البرابرة والعبيد من معدن واحد وقد خلقوا لكي يحكموا من قبل الإغريق فما قول تلامذته بعد ان اثبت لهم الأيام بأن (البرابرة المقدونيون) ثم (البرابرة الروم) هم اصبحوا السادة وان الهيلينيين اصبحواعبيدهم؟

اعتقد ان هنا بالتحديد يتجلى لنا سبب ظهور احد اهم مبادىء المسيحية بين الهيلينيين (مبدأ الخطيئة الأصلية) التي يردها اليوم علماء اللاهوت إلى خطيئة آدم او

= ما. ثم لا تتورع عن معاشرة تيمور لنك نفسه في سبيل انقاذ من تبقي من ذويها والحصول على اي فرصة للتمرد على التتر ونيل الحرية فيتمد بها النضال الى آخر الرواية وهي في تتمرد وتتآمر سري وعلني ضد تيمور والتتر. لكنها لا تنتحر أبدا.

في الكثير من الاحيان إلى خطايا الجنس كأن لا مشكلة في الوجود غير الجنس. اعتقد ان المبدأ المشار اليه يعود للحالة التي وجد الهيلينيون انفسهم فيها. انها حالة تطابق المقولة العراقية المشهورة (صوچنا كلها من ايدينا) اي نحن السبب فيما نعانيه وهو بالضبط ما توصلت اليه الثقافة الهيلينية على انها هي في حد ذاتها سبب كل ما اصابها. فإذا كانت كليوپاترا قد انتحرت بأفعى، فان ثقافة شعبها كله سلك طريق الإنتحار. انتحارهم لم يكن بالكوبرا وما الى ذلك بل انتحار بطيء شمل قتل كل ما يمت للفكر والتمتع بالحياة والسعي للحرية

العبريين والآراميين في نفس الفترة كانوا يمرّون بنكسات متكررة تحت ظل الهيلينيين والروم وانقلبوا ضد دويلة القدس ودينها الحدي الى المسيحية كدعوة أمميمة. هؤلاء عاشوا مع الهيلينيين وكان لهم جاليات كبيرة تعيش في العواصم الإقليمية كأنطاكية ودمشق والإسكندرية كانوا خير نموذج يحتذي بهم الهيلينيين الذين وصولوا حدا تجاوز اليأس، فكان ذلك الهجوم الهستيري نحو المسيحية على حد قول ارنولد توينبي "العنف الانتحاري لم يكن الاستجابة الوحيدة التي بدت من البروليتاريا الداخلية الهيلينية، فقد وجدت اسمى تعبير لها في المسيحية"(١)

قبل الدخول في تفاصيل تشرّب للإنتماء الهيليني بالعقيدة المسيحية وتقمصها، لابد من إلتفاتة مهمة إلى جذور تلك العقيدة. الجذور تعود لفكرة عراقية قديمة انتقلت منذ ايام حمورابي والدولة البالية الأولى ١٧٥٠ ق.م إلى غرب العراق واستقرت في مدينة هي نسخة من بابل وأثينا معا، مدينة القدس.

(١) ارنولد توينبي، بحث في التاريخ. ترجمة طه باقر – صفحة ٣٠.

الفصل السادس

القدس

حسب أكثر التقديرات ان العبريين تركوا العراق حوالي ١٧٥٠ ق.م[١] في عصر حمورابي إلى بلاد الشام ثم مصر، ومنهم من يعتقد انها حدثت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. الوقت لا يهمنا بقدر ما يهمنا طبيعة انتمائهم كونهم كانوا حضر هاجروا حاملين التراث العراقي القديم عبر عدة دورات طويلة من التحول إلى البداوة ثم شبه استقرار في مصر ثم هجرة عكسية إلى خارج مصر ثم التحضر وإستقرار من جديد. انهم حالة غير اعتيادية كونهم هاجروا بعكس الاتجاه المتعارف عليه من جنوب الفرات إلى شماله ومن داخل مصر إلى خارجه بعكس أكثر الأقوام.

في نفس الفترة يتحدث قدماء المصريين عن امواج الهكسوس و(الملوك الرعاة) الذين سيطروا على الشمال الشرقي من البلد، فيعتقد البعض ان العبريين إنضوّا تحت تلك الموجة البشرية المسماة هكسوس لأن المعطيات عن العبريين تنمّ عن طبيعة سياسية وتجارية اكثر من كونها طبيعة عسكرية.

قصّة سيّدنا يوسف على سبيل المثال وتمكينه المصريين من مقاومة الغزاة (الذين قد يكون هؤلاء الهكسوس) تعد اشارة لما نقول وحتى قصة الهرب الى سيناء لا تعطي اي دلالة على تنظيم عسكري أو قتال تراجعي.

هناك حالة خاصة من الإنتماء تمر بها بعض القبائل الرحل التي يمكن ان نسميها (قبائل مزدوجة المراحل) العبريين وبعض الترك وبعض مكونات الألمان والإنكليز وحتى

(١) من الجدير بالذكر انه مع طغيان الدولة البابلية الأولى في عهد حمورابي ١٨٠٠–١٧٥٠ ق.م وفرض سلطته على باقي المدن العراقية تختفي آخر الدويلات والمجتمعات المتكلمة بالسومرية. من جهة اخرى، اكثر المصادر تجمع على تقدير هجرة ابراهيم الخليل (ع) لنفس الفترة ١٧٥٠ ق.م. هاري زاكس يقول ان هجرة سيدنا ابراهيم حدث في تزامن مع هجرة قبائل الفلسطينيين الأغريقية الى فلسطين . لكني أميل الى الرأي الأول.

الغجر[١] كانوا في الأصل يمارسون حياة مستقرة لكنهم ولِسبب ما تحولوا إلى التنقل، وبعد عدة اجيال من التنقل استقروا مجددا.. كي يتبيَّن للقاريء العراقي موقعه من تلك الخريطة، العرب والأكراد (و ليس السريان والتركمان كونهم تجاوزوا الإنتماءات العشائرية) نحن نمثل نهاية المرحلة الأولى فقط من تلك الدورة. اي اننا عشائر وقرويين تحول اكثرنا في القرن الماضي إلى الحضارة بدرجات متفاوتة حتى إن بعضنا يرتد باتجاه معاكس للحضارة!. اما الشعوب المذكورة فقد أتمت الدورة المذكورة اعلاه، مع دورة اضافية من تنقل ثم الإستقرار النهائي. بعبارة أوضح انهم مروا ببداوة ثم حضارة ثم بداوة وأخيرا استقرار جديد. طبعا كل من تلك المراحل يستغرق بضع اجيال.

هذا النوع الإنتماءات (اثناء دورتها الثانية في الاستقرار) يكون لهم تركيبة مختلفة عن القبائل التقليدية مثل العرب، اكراد، بلوش، پشتون، مغول، طوارق.ماساي وكل الشعوب القبلية التقليدية التي تتجنب المدينة والزراعة ولها نفور من مظاهر الأنوثة الاجتماعية. بينما القبائل التي مرت بمرحلتين او أكثر يمكن ان تقاد من قبل النساء مثلا، وتكون لهم طبائع داينميكية وبراگماتية اكثر من غيرهم.. يمكن تلمس ذلك النوع من الإنتماء بين العبريين في حقيقة قدرتهم الهائلة على البقاء وعدم الذوبان وفرض ثقافتهم على الآخرين رغم ضعفهم العسكري.

حسب تفسيرات التوراة انهم طردوا من مصر حوالي ١٢٥٠ ق.م. اي ان هناك حوالي خمسة قرون من تاريخ تركهم العراق عبر بلاد الشام واستقرارهم في مصر ثم طردهم منها.. بعد طردهم من مصر نسمع عن ملكهم داود في حدود ١٠٠٠ ق.م يستولي على القدس من الكنعانيين (الفينيقيين). دولتهم كانت نسخة منقولة من دويلات المدن السومرية بإله ومعبد وشريعة لأهل المدينة.

بالنسبة لفترة الالف عام التي سكنوا فيها فلسطين يمكن تلمس الأثر السلبي الذي تركته طبيعة فلسطين الجيوبوليتيكية فبلاد الشام بلاد غير مركزية وهي صعبة التوحد سياسيا كونها تحت تأثير مركزين للاستقطاب، مصر وهي المستقطبة الرئيسية، ثم

(١) رغم حساسية المواضيع المثارة دعنا لا نستغل كلمة (الغجر) ومقارنتهم باليهود للاستخفاف بأحد وليس القصد من كتابنا الاستخفاف او الطعن بأي عنصر قومي او اجتماعي لا سمح الله.

الأقطاب العسكرية القوية إلى الشمال كالحيثيين وميتانيين وآشور الخ. وهناك ايضا الضغط البدوي الدائمي.. اعتقد ان إلههم يهوة شهد تمدد وتقلص كبير في الحجم والمفهوم. مثلا توسعت دولة القدس في عهد ملكهم الثاني سليمان غير ان الفترة اللاحقة، نظرا إلى (لامركزية) فلسطين، نسمع عن إنقسامهم إلى اقليمين يهودا والسامرة. احدهم تحالف مع مصر والأخرى مع آشور، وما اشهر المقولة التوراتية التي تروي عن الناطق الآشوري مخاطبا المدافعين عن اسوار القدس المحاصرة (المصريين كعود القصب اذا اتكأتم عليه سينغرز في ايديكم).. فنلاحظ كره وحسد شديدين ضد الآشوريين.. كلدان بابل خلّفوا الآشوريين حين استولوا على القدس في ٥٧٦ ق.م وكان السبي البابلي لليهود.

في فترة الهجرة من العراق إلى مصر والرجوع إلى فلسطين كان يهوة تعبيرا عن إتحاد عشائري وقومي اكثر منه مديني. بعدها يمكن ان يكون انتمائهم قد انكمش الى حدود إقليم يهودا وأنكمش معها معنى يهودا من اله قومي الى اله مدينة كما المدن السومرية والأغريقية.. دعنا نتأمل فكرة معينة، احد الفلاسفة الإغريق لاحظ ان قبائل شمال اليونان يقولون ان الله رجل اشقر ضخم وقوي بينما قبائل جنوب مصر يخالونه رجل اسود ضخم رهيب. تلك الأفكار هي ترجمة لما اعتقده البشر. وبذلك يمكن ان نكتشف نوعية كل مجتمع من خلال فكرتهم واعتقادهم بإلاههم. فالقبيلة المقاتلة تبجل محاربا رهيبا من جنسهم ولونهم. وعليه، يمكن التعرف على ثقافة قدامى اليهود من خلال إلاههم. اعتقد ان الكتب اليهودية تصور توجهاتهم كمجتمع ضيق الإنتماء ينفر من كل الإغراب ويتخايل قوى غيبية تساندهم وتنتقم لإنتكاساتهم من كل من حولهم ويمكن ان نتلمس انها انعكاس نفسي لواقعهم. العجيب ان البشرية اليوم تتقبل صاغرة بأن الله أهلك كل الأطفال البكور من كل عائلة مصرية كأنهم ليس ببشر ولم يخلقوا من قبله شخصيا!. كذلك تصب اللعنات بتكرار ممل على كل المدن والشعوب المحيطة بالقدس من يبوسيين وعموريين وكنعانيين (سكان مدن لبنان) ناهيك عن المحتلين مثل آشور وبابل.. ان ظاهرة الزينوفوبيا Xenophbia (الخوف من الأغراب) وعدم استساغة اصناف لا تعد وتحصى من الأطعمة منها لحم الخنزير، ثم ظاهرة الزواج من بنات العم والخال، الخ، كل تلك مظاهر للتقوقع ودليل على غلبة العنصر المعمر والعنصر النسوي كالحموات والجدات).

في العصر الأخميني كان اليهود اول المهللين لقورش وتسامحه المشهود، فيصفونه عدة مرات بالمسيح كما في سفر اشعيا، الاصحاح٤٠-٥٥ "هكذا يقول الرب لمسيحه، لكورش الذي امسكت بيمينه لادوس امامه اماما"[١]. هذا ويعتقد توينبي وكذلك عباس محمود العقاد ان بوادر فكرة الإله الواحد ظهرت بسبب اختلاطهم بالفرس[٢].. اعتقد ان لايمكن ان يكون اليهود وانتمائهم المتقوقع اول من طرح فكرة الإله الواحد لأن إنتماءهم لا ينم ذلك ابدا ولا يحمل توجه أممي على الإطلاق. مثلا، فيما عدا فترة وجيزة جدا من التبشير وضم قوميات اخرى[٣] فهم الإنتماء الوحيد الذي جسد القومية والدين دون تفريق بينهما. بتعبير ابسط، انك يجب ان يكون فيك دم عبري وإلاّ لن تدخل الجنة؟! لكن يبدو انهم اول من تبنى فكرة التوحيد الدينية (اي وجود خالق واحد) متأثرين بالأمواج القبلية الآسيوية التي صادف ان يكونوا عدوا لأعدائهم. ليس غريبا ان تكون الإنطوائية مصدرا لردّات فعل ولدت اكبر الاديان الأممية، المسيحية والإسلام. لكن في نفس الوقت اعتقد ان سّر تفوق معتقداتهم أنهم راهنوا على بعض العناصر الإنسانية البسيطة التي قلما التفت اليها قداما العراقيين. كذلك أن دينهم دين كتاب امكن نقله معهم اينما ذهبوا وليس كما بابليين مثلا الذي ارتبط دينهم ببابل نفسها وكان عمره من عمر بابل نفسها كما سيُناقش الأمر لاحقا.

المستشرقون وعلماء التاريخ في القرون الحديثة صُدِموا في إكتشاف التشابه الكبير بين التراث السومري بشكل عام، مع المعتقدات اليهودية. هناك تشابه بين قصة آدم وقصة آدابا السومري. كان صياد سمك مسالم وتقي تمت الوشاية به فاستدعي من قبل إله المدينة. هناك أثبت براءَتهُ وأراد الملك تكريمه بالخلود لكن آدابا غادر ولا يريد من المدينة وإلهها إلا ان يتركوه يعيش حرا. كأنه كره مغريات وتعقيدات المدينة

(١) هاري زاكس- عظمة بابل- صفحة ٢٨٧.

(٢) ارنولد توينبى – بحث في التاريخ – ترجمة طه باقر ص ١٦٩.. كذلك مسعود محمد – لسان الكرد – بغداد ١٩٨٧ ص ٨١.

(٣) التبشير اليهودي وضم اعراق اخرى حصل مثلا في اسيا الوسطى. كذلك في شمال العراق (في العهد البيزنطي – دولة اديابين في اربيل) وايضا في العهد المغولي في شبه جزيرة القرم حيث انهم (كما يقول بارتولد- تاريخ الترك في اسيا الوسطى) المجتمع الوحيد حاليا الذن ينحدرون من اصول اورالية (مغولية) ويدينون باليهودية.

والسياسة.. هذا ويقول هاري زاكس أن في اللغة العبرية القديمة تطابق بين كلمتي (ضلع) و(مرأة) تلفظان (حوا) لعلها تفسير لما قيل عن خلق حواء من ضلع آدم وما الى ذلك.. الصراع بين قابيل وهابيل كان وجه آخر من الصراع المزمن بين السومريين (الفلاحين) مع رعاة غنم وقبائل كانت تتغلغل في المناطق الحضرية للعراق. الأفلام الكارتونية في التلفزيون تصور سفينة نوح كأنها سفينة عادية مقعرة الشكل لكن قد تكون المفاجأة لو قيل ان شكلها كان مستوي فالطوفان كان حدثا سنويا ويحدث حتى الآن في أهوار العراق حيث البشر والماشية والدواجن كلها تطفو فوق (الچبايش) المصنوعة من القصب. ويقول هاري زاكس إن قصة الطوفان اليهودية إقتباس مما ورد ملحمة گلگامش.. سرجون الأكدي وهو احد أشهر ملوك العراق (حوالي ٢٣٥٠ ق.م) كتب مسلّة خاصة به يقول (أنا سرجون ملك الجهات الأربعة... لم يكن لي أب. أمي كانت كاهنة في المعبد وضعتني في الماء والتقطني أكي الطحان و... الخ) لاحقا علم أن سرجون كان من القبائل السامية وتربى في بيت ملوك أحد المدن كما سنرى. المهم ان قصته هذه قد تكررت في قصص حياة عيسى وموسى معا.. ثم هناك ظاهرة إدراج كل اجداهم في جداول انبياء تولى واحدهم بعد الآخر يعزوها هاري زاكس الى جداول الملوك السومريين كما كان يقال عندهم ان السماء انزلت الملكية في المدينة الفلانية وأثناء الطوفان رفعت الى السماء ثم اعيدت الى خمسة مدن بعد الطوفان والخ.. أخيرا وليس آخرا، مسلات الشرائع التي دونها السومريون. تلك الشرائع برأيي كانت أول (روبوت) كما نرى في أفلام الخيال العلمي، تسأله فيجيب (اذا وقع كذا يجب فعل كذا) ثم تطورت حتى سيطرت على الذين صنعوها. لقد تبناه اليهود وبرعوا في تطوير الروبوتات الى درجة وصلت كل مسالك الحياة وأصبحت تنوب عن عقول البشر، بل وتمنعها من التفكير وسنرى التمرد الذي قاده فدائيي أسمه يسوع الناصري ضد تلك الروبوتات التي احتكرها يهود القدس.

اليهود في العهد الرومي

في العهد الهيليني فقد اليهود منزلتهم التي تمتعوا بها أيام الفرس، فوقعوا في المراتب الدنيا بعد المقدونيين والإغريق.. في ١٦٨ ق.م انطونيخوس الخامس دمّر القدس، ثم احتل مصر، فلما أُجبر على الأنسحاب، تحررت القدس على يد يهودا المكابي في ١٦٥ ق.م وضمّت جزءا كبيرا من إقليم يهودا وتحولت لقبلة لليهود.. في ٦٣ ق.م ضمّت القدس للإمبراطورية الرومانية وشهدت بعض الإزدهار في ايام هيرود الكبير لكن تبعتها تدهور سريع كما اسلفنا وتعاقب الحكام الروم على القدس فكان من بينهم پونتوس پيلات (٢٦إلى٣٦م) حيث شهد حركة السيد المسيح.

حركة الجليليين كانت في الواقع تمرد ضد عصبية وشريعة اهل القدس بالدرجة الأولى. هي لم تكن كثورة دموية تدمر فيها مدن او ماشابه ولم تحدث إنقلاب جذري في يهود فلسطين والقدس بالذات لأن الأكثرية الساحقة من العبريين ظلوا على انتمائهم المديني والنضال بقي كما هو (في سبيل القدس). مثلا اليهود يُصرّون على بعض الإمتيازات ويطالبون الروم بتخصيصات مالية لبناء هيكلهم فيوافق الروم حتى يتم بنائه في عام ٦٤م ويؤدي إلى بطالة عامة، فتنشب ثورة في القدس تستمر أربعة سنوات ثم تسحق[1].. اخر حركاتهم المدينية حصلت ١٣٢–١٣٥م. هذه المرة دمّر الهيكل والمدينة كلها فتفرق اكثر اهلها في بلدان المهجر.. الآن، لنرجع قليلا ونركّز على القرن الأول من الاحتلال الروماني ولنقول من ٥٠ ق.م إلى٥٠م.

ترى ماذا كانت الأعباء التي رزح تحتها مواطن من خارج القدس كالسيد المسيح وصحبه. اولا، هناك التقسيمات العمودية في البلدان غير المكزية، فالتعصب المديني يجعل فقير المدينة يحتقر الغريب عن المدينة حتى لو كان اغنى الأغنياء واوفى الأوفياء، بكل بساطة لأنه (ليس منهم!). هناك ايضا تسلط واحتكارات شرائح التجار والموظفين الهيلينيين. وأخيراً وليس آخراً هناك ركلات الضباط الروم الذين كانوا بالمرصاد ينتظرون أول بادرة ضجر وتمرد كي يصيحوا برفاقهم العسكريين: (انه تمرد، انها ثورة، سيمحونا من الوجود، اقتلوهم جميعا). فيعملوا فيهم السيف.

اهل القدس كانوا دولة داخل دولة ويبدو مما يذكر في الإنجيل ان الفريسين كانوا

(1) Bruce . L. Shelley- Church history in plain language-2nd edition ص ٢٣.

شريحة واسعة من علماء الشريعة طاردوا الناس من المهد إلى اللحد "ايه يا رجل، مالي اراك تتهرب مني، هل تريد ان تنقلب على اصلك وشعبك شعب اللّه. هل أنت من شعب الله ام اصبحت كافرا توالي الغرباء والمحتلين؟ ان كنت (مِنّا) فلماذا لا تساهم بمالك في سبيل معبد مدينتنا والاهنا الذي خلقنا. الا تخاف ما سيحصل لك يوم القيامة، ستتمزق وتحرق و و و... الخ.

المجتمعات المتقوقعة عادة تتجه بكل قواها إلى تعقيد وتهويل في أبسط الأمور الشرعية إلى درجة ان يصبح من المستحيل على احد ان يطبق تلك الشريعة. ثم ان اية بادرة تذمر ستقابل بوابل من نظرات التهويل الأنثوي الكهل المشوب بخليط من الخوف والإزدراء، سيقولون (اووو انت كفرت. كيف تقول كذا وكذا وتتذمر وتشكك وتتمرد، الا تؤمن بالله؟ كيف خلق كل تراه من حولك وكيف وكيف؟) يجيب الرجل المغلوب على امره (حسنا، اني اؤمن بالله وبالخير وبالعفة وبالـ) يقاطعونه (هوسسسس، ولا كلمة والا حل بك الغضب السماوي. لا تتكلم وأطع شريعة نفذ واعمل كذا وادفع كذا من المال... الخ). السيد المسيح كان نجاراً من بلدة الناصرة، اي انه كان حضري من الطبقة الوسطى وانه ليس من القدس، طفح به الكيل فحثّ اهل الجليل (اقليم مدينته التي تتكلم بلغة او لهجة تختلف عن القدس) على ان يتمردوا على عبدة الكتب والشرائع المحتكرة من قبل اهل القدس. حركته بالدرجة اولى كانت اعلان تمرد على سلطة القدس المتجسدة في الشريعة. كان انتحاريا لكن لم يكن من الذين يقتلون عشرات الأشخاص بحزام ناسف بل انتحاري يقدم حياته كي يبعد الأذى عن الآخرين. لنسمع ما تفضل به هذا الفدائي الطاهر:الكتبة والفريسيين قد ورثوا عرش موسى. اطيعوهم، لكن شرط ان تطبقوا ما يقولون وليس كما يفعلون فهم يقولون لكن لا يفعلون. هؤلاء يلقون بأعباء ثقيلة على ظهور الناس بينما هم لا يتحركون. كل ما يقومون به هو انهم يحتلون عقول الناس وفي مجالس يتقدمون الجميع والكل ينادونهم ب ـ يامعلم يا معلم– لا معلم لكم الا معلم واحد وكلكم اخوان.[1]

لو قرأنا مابين السطور متجاوزين تأثيرات الترجمة الحرفية من لغته الأصلية (عبرية او آرامية، لست متأكد) إلى اليونانية ومن ثم إلى العربية، اعتقد ان مايقصده انه يقول شيء كالتالي: اذا كنتم ماتزالون تصدقون ان الشريعة منزلة من السماء فاعتقدوا ما

(1) Arabic/ English Bibl, International Bible Society 1999 .ص ١٤٦٤.

شئتم شرط ان تطبقوا الشريعة بحذافيرها وليس كما يفعل الفريسيين، فهم يقولون فقط دون ان يفعلوا. هم يزايدون بمضاعفة الأثقال على كاهل الناس بقوانين مستحيلة التطبيق لكن يستثنون انفسهم منها. يفرضون احترامهم عليكم من لاشيء ويتقدمون اشراف القوم والكل مجبرون على مناداتهم بـ(يا حضرة الاستاذ يا حضرة الاستاذ). فأعلموا ان لا اساتذة بعد اليوم إلا الله وحده وهو رب الجميع ولا يحتكره احد واننا كلنا اخوان لا فرق بين هذا وذاك. الشرائع نشأَت في المدن السومرية وكما سيتم شرحه في حينه كانت مثل الكومپيوترات والروبوتات (الإنسان الآلي) صنعه السومريون اهل المدن لتنظيم الحياة. لكن صانعوه ماتوا فبقيت تلك الأجهزة تلقي بثقلها على ارادة الناس. اعتقد ان المسيح قد حاول تدمير الروبوتات، فقامت هي بتدمير جسده إلى ان روحه في محاربة الروبوتات والعودة بالبشر إلى الاعتماد على (الضمير الإنساني) قد انتصر بالمسيحية.. انها مسألة فلسفية وسياسية واجتماعية شبيهة بموضوع (المسير والمُخيّر) وعقدة الشك الأبدي عن [هل ان الإنسان قابل ان يعيش بالاعتماد على ضميره، ام ان الضمير لايعتمد عليه ويجب ان توضع قوائم طويلة عريضة من (يجوز، لا يجوز–حرام،حلال) كي تسيره؟].. السيد المسيح اعطى صوته لضمير الإنسان ولنصرة ضمير الإنسان كي يكون هو المرجع في تحديد الخطأ والصواب. وبرأيي انه قد اصاب لاسيما في تلك الفترة من إنحسار التحركات القبلية.

كان هناك بعد اقتصادي– سياسي ايضا لحركة السيد المسيح. الإمبراطورية الرومانية ولدت شرائح هرمية كبيرة من جناة الضرائب من متنفذين محليين اشبه بمقاولين ينشرون جيشا من الجباة كالجراد على كل باب رزق.. اهل القدس كأي برجوازية[1] برعوا في تلك اللعبة ولنا ان نتصور بشاعة استغلالهم لباقي الناس خاصة

(١) برجواز تصريف فرنسي لكلمة بيرگ Berg اي (بلدة او مدينة) هذا التصريف اللغوي يقابله في الإنكليزية كلمة بيرگر Berger اي (ابن المدينة) على وزن Londoner وNew Yorker . اي انها لم تعني في الأصل مقدار ثروة شخص. العجيب هو الذي رأيته في المجتمع العراقي بصورة عامة وكردستان بصورة خاصة ان اكثر اولاد المدن ومن الطبقة الوسطى كانوا ينتقدون البرجوازية دون علمهم انهم هم البرجوازيين. كان الكثير منهم يحتقر اهل الريف والعشائر واصفا اياهم بالبرجوازية!! هم في الحقيقة كانوا يكرهون العصبية القبلية لكنهم دون ادراك كانوا يمارسون عصبية مدينية فكرروا الخطأ الذي ارتكب منذ ايام السومريين في استفزاز القرى والعشائر ضد المدن وضد المدنية بصورة عامة.

غير القدسيين. ويبدو ان القدسيين حاولوا منافسة الروم بأن حثوا الناس على عدم دفع الضرائب للروم بل للمدينة فقط او على الأقل عن طريقهم.. فما الحل؟

تمرّد السيد المسيح على سلطة القدس الإقتصادية كان تجاوزا لأهم الخطوط الحمراء. لما واجهوه بتلك المشكلة قام بأبراز قطعة نقدية وسأل ما عليها فقالوا صورة قيصر فردَّ (ما لقيصر لقيصر وما لله فهو لله) لا ادري ماذا يستشف مثقفو اليوم من تلك المقولة؟ لكني اعتقد جازما بأن ليس في الأمر أكثر من إعتراف واقعي وحكيم بأحتلال اجنبي لايمكن معالجته بالقوة بل يجب الإنصياع للأمر الواقع كأنه يقول لأهل العاصمة: لو كنا مستقلين واحرار لدفعنا الضرائب لحكومة وطنية. لكن إلى متى هذا التمثيل والتصنع كوننا مستقلين؟ نحن لسنا مستقلين على الإطلاق ومجبرون على دفع الضرائب وإلاّ سنقتل، فإلى متى التغاضي عن الواقع. ادفعوا الضرائب للروم وليذهب من ادعى الوطنية والأصالة المصطنعة إلى الجحيم. هذه ليست خيانة، بل انه اعتراف بالواقع.. لقد ازاح بذلك أعباء مادية ونفسية ضخمة عن كاهل الفقراء.

طبعا اهل القدس لم يحتملوا كل ذلك فتراكضوا على الروم يخبرونهم انه كافر وحسب الإتفاقات يجب ان تصلبوه وكان ماكان.. لا أدري كيف يفسر القاريء تسارع اهل القدس لدفع الروم إلى ضرب الجيليين. الصورة التي تروى في الأنجيل تتحدث بصراحة صارخة عن تعصب مديني ضد جماعة (جليليين) أتوا يتحدون القدس. اللهجة كانت احد الدالات التي تحسسها اهل القدس للتعرف على الجليليين. مثلا يستنطقون احد مرافقيه واول ما يتكلم يهبون قائلين: هذا يتكلم بلهجتهم، اقبضوا عليه.

يقول شيللي أن أهمية حركة السيد المسيح جاءت في توقيتها، كانت هناك جاليات يهودية ضخمة في الإسكندرية وانطاكية ودمشق لم تعد تحتمل رغبات وتسلط اهل القدس. مئات الآلاف من اليهود والآراميين وحتى العرب كانوا يتقاسمون حياتهم مع الهيلينيين ويتوقون إلى الاندماج بهم كونهم مجتمع ارقى واكثر تحررا[1]. اليهود خارج

(١)اليهود كانوا على حال مشابه لما عشته انا شخصيا والأكراد من أمثالي في بغداد وكل العواصم التي يعيش فيها أكراد بعيدا عن كردستان. فكل مغترب يحن بشكل ما إلى اصله ويتعرض لخوف وارهاب او تمييز لحد ما (اكثر ام اقل). ثم هناك المغريات إلى الذوبان. فكم سنة وكم جيل ستقاوم؟.. من جهة اخرى هناك اللوائح الطويلة من المحرمات الدينية التي لفلفت إنتماءَهم الكهل. الانقلاب إلى المسيحية بالنسبة لليهود كان خلاصا من كل تلك التراكمات مثلهم مثل الذي بقي يرفض توقيع ورقة الأنضمام إلى حزب البعث التي كانت تزيل عنك التهم والأخطار وتفتح لك (ظاهرا) ابواب النعيم.

فلسطين كانوا قد ملوا من الشريعة وإلتزامات انتمائهم الثقيلة فوقعوا على وثيقة النصرنة، او بالأحرى (الهلينة) اي التحول إلى الهيلينية لغة وعيشا، بكل اندفاع قائلين "كفى، لأمر فوق طاقتنا".

اليهود المتهلينين بدؤا بمواجهة المؤتمرات الدينية في القدس. عام ٣٦م، اي في غضون ثلاث سنوات من صلب سيدنا عيسى وصل الأمر لحد الإنفجار حين قام استيفان (وباللغة اليونانية) امام المؤتمر اليهودي بإدانة شريعة موسى وهم بالهجوم على الهيكل. لم يصبر اليهود القدس هذه المرة حتى يقتله الروم، بل اقتادوا (الخائن العميل المتخاذل!) ركلا إلى خارج المدينة ورجموه حتى الموت[1].

شهيد إضافي للحركة عنى ان هناك قوة مضاعفة وصلتها ولم يعد الأمر حادثة عابرة. وقد بقي للمسيحيين تواجد بسيط داخل القدس بعد طرد الكثير منهم إلى خارج المدينة لكنهم لم يجرأو ان يخالفوا الشريعة، اما خارج القدس فكانت بين اليهود كالنار في الهشيم اذ (لا شريعة بعد اليوم ولا ضرائب تدفع لإله القدس) حاجتهم لإنتماء اممي يدمجهم بالغير كانت أكثر، وبقرار نهائي ارادوا ان يكونوا كباقي البشر من رعايا روما في الشرق. اما الحيازة على حق المواطنة الرومانية فكان حلم صعب المنال. شاؤول الطرطوسي مثلا، المسمى في أوروبا (پول Paul) كان من احد قلائل اليهود الذين حازوا على المواطنة الرومانية كونه من كبار التجار والملتزم بحذافير اللوائح والمصالح الرومانية إلى يوم انقلابه إلى المسيحية. فإذا كان الإنتماء للروم بتلك الصعوبة، فأن الإنتماء للمجتمع الهيليني كان اسهل بكثير.

استشهاد استيفان لم يكن أقل تأثيرا من استشهاد المسيح بدليل ما قاله شاوول الطرطوسي الذي شارك في رجم استيفان. الموما اليه ومن اسمه لم يكن من اهل القدس بل كان نموذجا للإنسان الإزدواجي، من جهة يصر على الدين والشريعة ويقتل كل مرتد عن الأعراف. ومن جهة أخرى كان ملتزما بالقوانين الرومانية حتى حاز على المواطنة الرومانية، فما هذا وما ذاك؟ شاوول اكتشف قيمة ما كان ينادي به استيفان قائلا "اذن فاستيفان كان محقا. الشريعة كانت لأيام مضت اما الآن فلم يعد لها لزوم" ثم يخاطب نفسه كأنه يجد حيلة شرعية بينه وبين نفسه ولعلها اكبر لحظات مصارحة

(١) المصدر السابق– ص ١٧

النفس قائلا "الشريعة تلعن الناس الذين لا يلتزمون بها، لكن حمداً للّه فقد ترك لنا مَخرجاً كي نتخلص منها، هاهو قد بعث المسيح يفتدينا كي نتخلص من الشريعة. المسيح افتدانا جميعا وانقذنا من لعنة الشريعة"[1] أعتقد انه وجد جسرا يربط شقي نفسه المزدوجة، فبدل من ان يكون ذا وجهين احدهما يهودي يحرم على نفسه تقريبا كل ما طاب للنفس ووجه آخر روماني لا يصبر لحظة على الإنطلاق في الحياة، اختار الهيلينية كجسر وسطي معقول يهيء للأجيال اللاحقة الربط والتوازن، وكما يقول بروس شيللي (ظلَّ شاؤول إلى آخر ايامه يدعو للمسيحية ويمانع في نفس الوقت إدخال أي شكل من اشكال النصوص الشرعية إلى الدين الجديد).

(١) المصدر السابق، ص، ٤٩- ,١٩

الفصل السابع

الانقلاب الهيليني إلى المسيحية

صحوة دينية. كلمة عجيبة أخترعت لوصف حالة يتلقى فيها المجتمع هزيمة أو أزمة إقتصادية حادة فيلجأ الى خليط من الأمل والوهم الى الماسوشية، مع ذلك يقال عنها (صحوة).. الصحوة هي مقاومة الوهم وتحكيم العقل والاحسن هو منع المظالم التي سببت تلك الماسوشية واللاعقلانية. أما ان نسمّي موجات التطرف الديني عنيفة كانت ام سلمية، بصحوة، فلا يجوز على الأقل لغويا.

اعتقد أن المسيحية كانت تمردا ضد عصبيات عشرات المدن والعواصم غير الطبيعة والتي كانت كلها قد خسرت معاركها مع الروم. اليهود المتنصرين كانوا يصرون على التحدث بأحد اللهجات الأغريقية كما فعل استيفان، أما الهيلينيين انفسهم فلقد اصرّوا على فرض اللهجة الدورية وازاحة اللهجة الأتيكية (لهجة أثينا المتكبرة) فاستعملوه في ترجمة التوراة وكتابة الإنجيل. توينبي يصف تلك اللهجة أن الأثينيين كانوا يعتبروها لهجة متخلفة[1] اي انه كما العبريين ارتدوا ضد عصبية اهل القدس، الهيلينيين كانوا في ردة فعل انتقامية ضد كل من استعمل اللهجة الأتيكية. بمعنى أوضح، ان العصبية المدينية كانت وراء ذلك الانقلاب الهائل. ليس كل البلدان تعرف خطورة اللهجات ومدى تداخلها مع الإنتماءات المدينية والعشائرية. ففي كردستان مثلا هي تقريبا البديل عن الهوية الشخصية.

من زاوية اخرى، كان هناك تباين في القصد. فإذا كان هدف اليهود هو التخلص من أعباء ولائهم المرهق الكريه للقدس وشريعتها، اي انه كان حركة تحررية. فأن هدف الهيلينيين كان معاكس تماما لمعاني الحرية. الهيلينيين كانوا في حالة ردة فعل ضد كل اشكال (الحرية الفكرية) التي دعت اليها المدن الإغريقية وعلى رأسها اثينا طوال القرون الماضية والتي لم تجلب لهم سوى الحروب الأهلية ومن ثم الذل تحت سياط

(١) ارنولد توينبي– بحث في التاريخ– ترجمة طه باقر– ص ١٥٩

الروم.. اليهودي والهيليني كأنهما إثنان من الحمالين، اليهودي يتخلص من اثقاله اسفل السلم لكي (يترقى) إلى الطوابق العليا.

بينما الهيليني كان يريد ان ينزل الى الطوابق السفلى فأنزل اليهودي معه إلى الأسفل.. لقد سبق ان ذكرنا ان اليهود المتنصرين كانوا كالأكراد الذين انتموا إلى حزب البعث (العربي) في السبعينات أملا في التخلص من الأعباء. لكنهم خلال بضع سنوات وجدوا انفسهم مع باقي البعثيين يموتون في حروب لاتنتهي ضد كردستان وإيران والكويت وضد العالم بأسره!. لنرى المشهد.

الهيلينيين ومنذ اندثار الدولة البطليمية كانوا في حالة يأس وردة فعل ضد ماضيهم كما اسلفنا وكانت بوادر التخيلات والنبؤات قد بدأت تظهر في أدبياتهم، وكان الانقلاب من الفلسفة والتفكير الى (اللاتفكير). في نفس الوقت كان اليهود الهيلينيين (المسيحيين) يحققون تقدم ورفاه في ظل الروم، حيث ان الروم تقبلوا روح المسالمة التي انقلب اليها اليهود حتى انهم في البداية شجعوا المسيحية وقبلها شجعوا الميثرائية (التي كما يبدو كانت روافد المسيحية) لما انطوت عليه من مسالمة وتجنب للمشاكل. كانوا يلقبون المسيحيين (بالجليليين) معتقدين انهم يهود منشقين عن دويلة القدس ويناصرون الروم، لا اكثر ولا اقل. لكن دوائر القدس سارعت بإخبار الروم ان المسيحيين لم يعودوا يهودا بل اصبحوا هيلينيين والهيلينيين انفسهم اصبحوا مسيحيين. بذلك تنبّهت روما لما يدور وانقلب موقفها المتسامح إلى تشدد تصاعد مع السنين. فالمسيحيين العبريين ماكانوا يبغون الا كف الأذى، يدفعون الضرائب فرحين بخلاصهم من دينهم القديم. اما الهيلينيين فأول ما فعلوه انهم كفروا كل من اعترف بالقيصر كرب (اي انه سلطة مطلقة ومرجع لولاء).

تلك كانت احدى اكثر الخطوط الحمراء حساسية عند الرومان لم يصبر الهيلينيين لحظة في تحدِّيها وبصورة انتحارية.

ردّ فعل الهيلينيين لم يكن ضد الروم فقط بل ضد كل من احتقرهم سابقا وعلى رأسهم اهالي المدن (الأصيلة). يقول البروفيسور بروس شيلي ان المسيحية انتشرت في سوريا واسيا الصغرى بين الهيلينيين القروين اسرع بكثير مما حصل بين سكان المدن. مثلا، رسالة وجهت إلى الإمبراطور تراجان من پيليني، الحاكم الروماني لأقليم

بيلَهينيا الزراعي في اسيا الصغرى، عام ١١٢م يقول فيها ان الدين الجديد ينتشر بسرعة بين القرويين وان المعابد القديمة تكاد تخلو نهائيا[١].

يبدو ان القرويين والعامة[٢] كانوا اكثر استجابة للأحتكاك مع المعتقدات الشرقية التي رفضها اهل المدن كونها تنطوي على خشوع وتقشف ومساوات اعتبرها ابناء المدن كأنها تكتيكات يمارسها الشرقيون في سبيل ان يتساووا مع الهيلينيين (المتحضرين الأغنياء). لكن الطغيان الروماني جعلهم تدريجيا في خندق واحد مع الريفيين والشرقيين معا والكل اصبح في الحضيض.

في القرن الثاني الميلادي اصبحت المسيحية دولة داخل دولة الروم[٣] اذ اصبح هناك كتلتان حضريتان رئيسيتان:

اولا- كتلة رومانية (عسكرية ذكورية) تتكلم اللاتينية وتؤله قيصر: ثانيا- كتلة مسيحية (دينية انثوية) تتكلم باليونانية حتى وان لم يكونوا إغريق، ويولهون المسيح الشهيد ويقدسون الاستشهاد بحد ذاته متجسدا بعلامة الصليب رمز العقوبات الدموية الرومانية. أعتقد أن القاسم المشترك الذي جمع المسيحيين عبريين كانوا ام هيلينيين او حتى قرطاجيين[٤]، انهم كانوا جميعا ذوي (إنتماء مديني مهزوم) وكانوا يمرون بإنقلاب يقوده اهل الريف والطبقات العامة ضد أهل المدن ونعراتها التي أدّت بهم الى العبودية للروم.

لنتصور احد مجالس الفلسفة والمساجلات التي ادمنت عليها الأجيال المخضرمة التي

(١) Bruce. L. Shelley-history.2 nd edition ص ٢٩

(٢) توينبي يستعمل تعبير (البروليتاريا الداخلية) الحقيقة اني لست متأكد من معناها حيث ان كل ما قرأته له كان تراجم عربية ومن المؤكد ان لاتوجد ترجمة في العالم تطابق الأصل. فهل يقصد الطبقات الفقيرة داخل المدن ام يقصد عامة الناس داخل وخارج المدن الهيلينية؟ قد يكون الإثنان معا وقفوا مع غير الهيلينين ضد برجوازية وارستقراطية المدن. على أن لا ننسى المعنى الأصلي لكلمة (برجوان).

(٣) المصدر السابق، الصفحات ٣٢، ٤٤.

(٤) تونس والجزائر لم يكونوا هيلينيين او عبريين، لكنهم مثلوا نفس الحالة السوسيوپوليتيكية لكل المسيحيين (قرى وعشائر كانت تحكم من قبل مدينة واحدة هزمها الروم فأنقلبوا الى المسيحية). لذلك نسمع ان من بداية القرن الثاني الميلادي اصبح لكل قرية في شمال افريقيا كنيسة خاصة بها كأن القرية استقلت عن المدينة.

عاشت ايام الحرية ثم وجدوا انفسهم عبيدا للروم. جماعات من السفسطائيين واصحاب المدارس الفلسفية متعصبين لمدنهم ومتكبرين على البشر يتنابزون بالتعليقات على كل من هبّ ودبّ: انظروا إلى ذلك الضابط الرومي، ان جده كان فلاح لم نكن نسمح له حتى بالدخول الى المدينة والان اصبح حاكما للمدينة. انهم كالحيوانات يقادون من ضباطهم لكن ماذا نقول؟ حظهم من السماء. آه يا زمن، مشكلتنا اننا اذكياء وحكماء بالأخص نحن اهل مدينة (س) لا احد أذكى منّا، شعراءنا هم الاحسن، فلاسفتنا افحموا كل المنافسين، اله مدينتنا احسن من كل الرموز... الخ.. في مجلس كهذا اذا صادف وتواجد فيه مسيحي شرقي فمن الجائز جدا ان يرد على هذا الادعاء قائلا: نحن ايضا كنا مثلكم لكن لم نجني سوى الخراب. لقد آمننا بإله واحد الذي تجسد في المسيح وكان خلاصنا فيه و... الخ.

لو دار هذا النقاش على مسمع من فلاح هيليني يرى بأم عينيه ان فلسفة وتكبر اهل المدينة لا يقاوم أصغر جندي روماني، من الطبيعي ان يثور على هؤلاء المتفلسفين قائلا: كفاكم تكبراً ايها الفارغين. الهة مدنكم وهذه المدينة الفاضلة التي تتفاخرون بها على لسان افلاطون وكل كلامكم لا يساوي عندي شيئا. منذ الآن فصاعدا سوف لن أسمح لكم ايضا بان تتحكموا بمصيرنا.. هي كلمة واحدة كما قالها هذا الأخ الشرقي، سيكون هناك إله واحد ارسل الكثير من الأنبياء وكان آخرهم المسيح تجسد فيه، فمن آمن به فهو منّا ولن نقبل بأي مخالف.

إنقلاب الهيلينيين كأنه اندفاع معاكس قوي لا للمسيحية فحسب بل كان هناك من نادى بالتحول إلى اليهودية والختان، والإلتزام بشريعة تحرم كل مظاهر الحرية[١]. لقد كرهوا حتى الزواج لكن الأمر استقر في توازن بين ماضيهم المشبع بالحرية وحاضرهم الحزين فصار يعرف بالمسيحية الأرثودوكسية (أي الأصلية) التي تتشح بلون اسود يشبه كثيرا الروح السومرية التي سبقتهم إلى حب الموت بآلاف السنين.

أعتقد أن هناك دلائل واضحة جدا في كيفية تبنّي ذلك المد الهستيري المنتشر في الأرياف وفي المدن المهزومة من قبل شريحة معينة من كتبة ومثقفين هيلينيين على أعلى درجات الذكاء والجدية والتناغم في السليقة ووحدة الهدف في امتصاص خلطة من

(١) المصدر السابق ص ٢٩.

الفلسفات الدينية التي سبقتهم. يبدو انهم إقتبسوا أفكاراً عن طبائع الآلهة السائدة في وقتها فهناك ميثرا من الأنضول[١]، ايزيس من مصر، يهوت اليهودي، بالإضافة إلى الآلهة الأغريقية التقليدية، دمجت كلها بأتقان في الثالوث المسيحي وتبعه ذلك حركة محو لكل ما يمت إلى الماضي المزري بصلة. لم يبقوا على كتاب واحد لعظماء كتّابهم وفلاسفتهم دون ان يحاولوا تدميره. حتى لو لم تصل ايديهم إلى كل الكتب القديمة فأنهم حاربوا حتى الكلام عنها وما كرهوا شيئا أكثر من الروم إلا الفلسفة والعقل. بأختصار، انه فيما عدا كتب اليهود التي اعتبرت اساس دعوتهم الجديدة، لم يبقي الهيلينيين المتنصرين على حرف واحد يربطهم بالماضي المخجل.. لقد كرهوا الروم وكرهوا الحرية وكرهوا العقل وكرهوا الحياة وكان كل همهم ان يتوحدوا في عقيدة واحدة تنقذهم من الروم أو توالمهم مع العبودية للروم. حتى في فترات متأخرة من العصر الروماني والبيزنطي، نسمع عن بعض المفكرين المسيحيين لا يرون مانعا لعودة بسيطة إلى الفلسفة والعقل والشعر، لكن الكنائس كانت دائما بالمرصاد.

مع ذلك، العقائد اذا كانت دينية ام مادية فهي لم ولن تكون بديلا لإنتماء قومي وهو ما افتقده الإغريق على طول تاريخهم. لذا نرى الهيلينين ما ان تم لهم اكتساح المعتقدات الأخرى حتى بدأت الإنقسامات تتجسد في مذاهب داخل الإسكندرية وفي انطاكية ولاحقا في بيزنطة. فنسمع انهم إلى اليوم يتناقشون، هل ان المسيح هو الله ام ابنه ام روحه؟. هل أنه قتل ام سحب إلى السماء. من هو الأهم المسيح ام مريم، (طبعا في المجتمعات الأكثر انوثة يزداد الإهتمام بمريم).

من كان له الفضل الأكبر في نشر الدين متي ام بطرس او شاوول ام... الخ.. ثم ظهور تيارات مثل الغنوصية Gnosticism الذين برأيي كانوا تكرارا للسفسطائيين لكن بأسلوب مسيحي. لقد شكلت الغنوصية خطرا على الكنيسة حتى نهاية القرن الثاني الميلادي[٢] واعتقد انها هددت روحية (منع المناقشات). ثم كانت

(١) تاريخ الكرد القديم. ٩٦-٩٧. الأساتذة جمال رشيد وفوزى رشيد يبينون ان يوم مولد المسيح ٢٥ من كانون الأول كان عيد سنوي ميثرائي باسم يوم ولادة الشمس التي لا تقهر. هذا بالإضافة الى مسألة يُتم المسيح وموته وبعثه من جديد كلها مكررة من اديان سبقت المسيحة وفي الواقع اكثرها يعود الى التراث الديني العراقي القديم.

(٢) Church history in plaine Bruce. L. Shelley، – ص ٥٠

هناك حركات جديدة بشرت بظهور مسيح ثاني مابين ١٥٠-١٧٠م وشككوا في الأناجيل المكتوبة فتسارعت الكنائس لمنعهم[١]. المقصود مما سبق هو بيان ان المجتمعات ذوات الروح الإنقسامية تنشىء الاديان بنفسها ولكن هيهات ان يكون الدين حلها النهائي دون ادراك لأهمية الأوطان (الوحدات الجغرافية التي تصلح ان تكون اثبت اسس الكتل البشرية)، بالإضافة الى الوحدات اللغوية (أهم علامات وحدة الفكر والإنتماء).

(١) المصدر السابق- ص ٦٥.

الفصل الثامن

الروم والمسيحة

المواجهة بين الروم والهيلينيين فيها روايات ومشاهد تقشعر لها الأبدان. كلنا سمعنا عن سيدنا عمر بن الخطاب حين علم بإسلام اخته وزوجها.

لحظات الرهبة التي مرت عليهم خوفا من غضب عمر كانت قصيرة، اذ ان بُعد نظره اوصله ان يسلم حال ان قرأ الآيات. اما الروم، فأن غضبهم لم يهادن خلال قرنين أو ثلاثة. حتى بعد انقلابهم إلى المسيحية، فلم يكونوا كما اراد لهم الهيلينيين.. هذا من الجانب الروماني، اما من الجانب الهيليني فإن ما فعله الهنود بتوجيه من المهاتما غاندي في مقاومة بلا عنف ضد البريطانيين، كان نسخة مصغرة مما فعله الهيلينيين ضد الروم.

في القرن الأول الميلادي كان العبيد والأسرى الهيلينيين من الكثرة لدرجة ان لغتهم اصبحت لغة طبقة العبيد قاطبة داخل إيطاليا[١]. بعبارة اخرى، ان كل من استعبده الروم اندمجوا في الإنتماء الهيليني. تلك الحقيقة حملت المسيحية إلى ابعد من إيطاليا بكثير.. هذا وان المواجهات العسكرية كانت دائما لصالح الروم اما ثقافيا، فأن الروم الذين ظلوا يجلدون المسيحين لأكثر من قرنين، في النهاية وجدوا ان لا مناص من الركوع للصليب الهيليني لكن مع تغيرات وشروط ادخلوها إلى العقيدة. الإنتماء الروماني الصلب فرض شيئا شبيهاً بالعولمة مقارنة بذلك الزمان. اذ فرضوا ان روما هي العاصمة العامة او الوحيدة Universal[٢] والذي من الجائز انه كان الشرط الأول المبطن الذين رفضة الهيلينيين. وان ذلك لم يحصل إلى بعد ان ابعدوا الهيلينيين عنهم بإنشاء (بيزنطة–اسطنبول) وكأن الروم يقولون للإغريق "كفّوا عنّا عنادكم الإنتحاري

(١) –HISTORY HURCH– الصفحات ٢٢– ٣١.

(٢) اورثودوكس تعني (أصلي) بينما كاثوليك بمعنى الوحدانية والعالمية، مرادفة لكلمة Unioversal العالمي والوحد وهو ما اطلقه الكاثوليك على عاصمتهم روما (المصدر السابق صفحة ٩٧) لاحقا استعانوا بتلك العبارة وطوروا الكلمة لـ Universe بمعنى الكون.

وعيشوا بعيدا عنا". هو نفس ما فعله صدام حسين تقريبا مع الكرد عند انسحابه من كردستان في صيف عام ١٩٩١ كأنه يقول لنا "كفوا عني لا اريد منكم شيئا نفط كركوك".

اول مذبحة جرت ضد المسيحيين في روما كانت في عام ٦٤م اي بعد ثلاثة عقود فقط من مقتل استيفان في القدس، غير ان الأمر لم يطل فزاد عدد العبيد داخل روما على الرومان انفسهم ذلك من كثرة ما نقل اليها من اسرى وعبيد. ثم تبعتها مواجهات اعنف لمدة قرنين على شكل مد وجزرْ.

لا داعي للخوض في احصاءات وتفاصيل دموية. كل ما اود قوله في هذا المضمار انها كانت حالة من الدروشة كأنهم امرأة خسرت حبيبها وشبابها فقررت تحريم كل انواع المباهج على نفسها والآخرين. الحالة هذه لم تقتصر على الهيلينيين بل ان شعوبا كثيرة قبلهم وبعدهم مرة بنفس الحالة لكن لأهداف متباينة وبدرجات متفاوتة.. ما يحصل اللآن في العراق وفلسطين حالات مشابهة. اما جنوب العراق فله تاريخ أطول لا يضاهيه أحد.[١]

بوادر احساس الروم بركاكة خطابهم السياسي والديني كانت واضحة. نفس المشكلة واجهتها فرنسا النابوليونية التي اشهرت بالإنتماء الوطني، غير انها وجدت نفسها تحكم اوطان وقوميات اخرى، فكان من الطبيعي ان تقلدهم الأمم المحكومة وان يتذكّروا أوطانهم وبالتالي ان يقاوموا الفرنسيين.. الكثير من الأباطرة الروم تبنّوا اديان شرقية لغنى تراثهم الديني، على سبيل المثال ايلوس جبلوس[٢]، هذا الإله عُبد في مدينة حمص واستطاع احدهم ايصاله إلى قمة المقدسات الرومانية، لكنه اغتيل في

(١) في الثمانينات اختبرت بوادر مشابهة في بعض الشرائح الاجتماعية في كردستان العراق. شباب من نفس جيلي كانوا ماركسي الشعار لكن في الواقع ذوي إنتماء مديني متعصب، اصبحوا يتنافسون في مديح انفسهم بمقدار الخسائر المادية والبشرية التي منيت بها مدينتهم او أهلهم في سبيل كردستان. ثم تطور الأمر إلى التباهي بعدد السياط واشكال التعذيب الذي ذاقوه على يد البعثيين وصلت عند البعض إلى حالة من الماسوشية لذيذة لديهم خاصة اذا نالت إعجاب و تشجيع (العنصر النسوي)!؟

(٢) اله الجبل الحمصي أرنولد توينبى، مختصر المجلدات السبعة، الجزء الاول. ترجمة فؤاد جميل صفحة ١٩١.. الكلمة تبدو سامية بوضوح اذ تعني–إلاه الجبل–مع لاحقة إغريقية.

٢١٨م واختفى دينه على الفور[١].. قبل ذلك اهتم الأباطرة الروم ولمدة طويلة بالميثرائية المنتشرة في الأنضول غير ان لا احد انجز ما انجزه الهيلينيين من خلال المسيحية التي تمكنت من امتصاص زخم اكثر الأديان الشرق متوسطية. الدين واللغة الهيلينية كانت تغزو شرائح العبيد في أقبية ومطابخ وحمامات الملوك والأغنياء داخل روما وتحول شكلها الإثني والأقليمي إلى صراع شبه طبقي مع العسكريين والملاكين الروم كأنها مسألة البيليب والباتريك تتكرر.

يقول بروس شيلي ان تغلغل المسيحية في المجتمع الروماني نجح بسبب بعض المسائل البسيطة مثل العناية بالمرضى ومراسيم الدفن والعزاء. يبدو ان ثقافة الروم المفعمة بروح الشباب والعسكرية كانت تستنكف من مراسيم العزاء والاعتراف بالخوف من الفقر والمرض والموت وما شابه[٢]، بينما تلك النقاط كانت هي التي يراهن عليها الدين عبر التاريخ. في مراحل الفقر، اي مواطن روماني يفقد ثروته، كانوا خير جليس، وأثناء المرض كانوا خير معين، وفي مراسيم العزاء كانوا خير سلوى إذ أن تاريخ التلذذ من الحزن في العراق مثلا يعود الى فترات أقدم. شيلي يقول ان الروم لم يعرفوا شيئا عن مراسم العزاء فتعلموها مع المسيحيين.. النقطة الأهم من كل ذلك هي ماسوشية الهيلينيين خصوصا النساء يسلمن إجسادهن واطفالهن لأنياب السباع في ملاعب الرومان برضى وإصرار. القول الفلسفي المأثور (أنا افكفر فأنا موجود) يبدو

(١) محاولات فرض اي دين من الأعلى نادرا ما نجحت في الإنتشار، الدين كان في اغلب الأوقات شيئا معارضا للسلطة الدنيوية (العسكرية والملكية في اغلب العصور). نسمع مثلا عبادة ايزيريس فرضت في مصر لإيجاد ربط بين المصريين والهيلينيين لكنها لم تلقي ذلك النجاح. كذلك المانوية والمسيحية والبوذية إنتشرتا اكثر من الزردشتية في وسط اسيا في العصر الساساني كما يشير المستشرق الروسي بارتولد في (تاريخ الترك في اسيا الوسطى) اعتقد ان السبب يعود لكون الزردشتية في العهد الساساني اصبح لها طابع رسمي للدولة فارسية اما المانوية والمسيحية والبوذية فكانت اممية اكثر منها وطنية أو قومية.

(٢) اذا كانت للحرارة مقياس فأن مراسيم العزاء مقياس لدرجة شباب وشيخوخة المجتمع. إدعاءات الحزبيين والآيديولوجيين ومختلف قوات البيشمركه بالشباب والتجدد كلها تسقط في مراسيم العزاء حيث يتوقف الزمن وتظهر الروح الحقيقية للمجتمع. اعتقد اننا لا نمت الى روحية الشباب والعسكرية بصلة حتى الآن وان استهانتنا بالموت لاتصنف ضمن الروح العسكرية للرومان مثلا بل تصنف مع النوع الهيليني المعروض اعلاه.

انه يتحول في الحالات الماسوشية الى قول آخر (أنا مظلوم ومستحق فأنا أحسن).

العسكرية الرومانية نفسها اصبحت عبأ ثقيلا على كواهلهم بصراع لا يتنهي. النظام الروماني لم يكن كالأنظمة الوراثية المعتادة بل كان مزيجا من نظام وراثي او ان الجيش نفسه ينصب الإمبراطور.. يقول شيلي ان الإمبراطور ديوكليتيان (عسكري ينحدر من شمال البلقان تولى في ٢٨٤ إلى ٣٠٥م) انه في فترة الـ ٨٤ عام منذ بداية ذلك القرن فقط كان قد سبقه إلى منصبه ٣٠ من الأباطرة[١] مما يعني ان انقلابا عسكريا دمويا كان يحصل كل سنتين او ثلاث سنوات ولمدة قرن تقريبا!؟. نساء الإمبراطور الموما اليه انقلبن إلى المسيحية وكاد هو ايضا ان يتنصر حتى انه فكر في انشاء عاصمة للهيلينيين في المضيق الغربي لبحر مرمرة (مضيق الدردنيل موقع قريب من طروادة القديمة) كي تكون عاصمة تضم هؤلاء الملايين من الهيلينيين المتمردين. لكن طرأ عليه رد فعل في السنتين الأخيرتين من حياته فأمر بمذابح فظيعة كانت اقسى ما تعرض له المسيحيين على الإطلاق. كانه كان آخر ومضات جوبيتر النارية.

بعدها بدأت جولة جديدة من الصراع على السلطة اضطر خلالها احد الجنرالات المتنافسين (اسمه قسطنطين ينحدر من جنوب فرنسا) ان يطلب مساعدة المسيحيين من داخل روما في ٣١٢م. هذا الرجل كان وراء احد اكبر التحولات في مجرى التاريخ بعد توليه العرش. هو الذي فرض المسيحية كدين للدولة وهو الذي بنى القسطنطينية (بيزنطة) كعاصمة للجزء الشرقي (المتحدث باليونانية) من الإمبراطورية وفصلها عن الجزء الغربي (الناطق باللاتينية)[٢]. الأمر جاء على مراحل كنتيجة لضغط وتحديات ودراسة ومساومة فقسطنطين كان عسكري قح والجيش كله كان بالمرصاد وما اعترفوا بهم بدون شروط وتعديلات جوهرية.. في ٣٢١م فرض يوم الاحد كعطلة رسمية وقبل

(١) Church history، ص، ٩٧ .

(٢) من الجدير بالذكر ان سلفه ديوكليتيان كان قد فكر بنفس الشيء وأختار موقعا على مضيق الدردنيل (اي الفتحة الغربية من بحر مرمرة). هذه دلائل اضافية لوجود الطابع القومي في نشأة المسيحية.. من جهة أخرى، ديوكليتيان ينحدر من البلقان ومن المؤكد انه كان ذو حساسية من الإغريق كما كان فيليب المقدوني وكل سكان شمال اليونان الذين دأب الأغريق على تحقيرهم. وعليه، من الممكن ان يكونه انقلابه العنيف بسبب تلك الذكريات. بينما قسطنطين كان من جنوب فرنسا اي انه اكثر حيادية.

مماته تنصر، لكنه بالمقابل طلب ولاءا مطلقا من الكنائس[1] أي انه تخلى عن كونه (الرب) إذ لم يعد معقولا اقناع الناس ان انسان ما يدعي انه هو (الخالق) لاسيما بعد اختلاط المعنى الاهوتي مع معناه السياسي. لكنه اختار حلا وسطا بأن اعلن نفسه كقدامى ملوك العراق بأنه المتحدث باسم الرب. اي انه عرف كيف يتعامل مع قواعد اقدم لعبة بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية وكيف يدمج ويساوم ويمتص ولاء الدين إلى الدولة كما فعل العثمانيون مع مسألة خلافة المسلمين.

في هذا المنقلب التاريخي الهيلينيين كأنهم يدفعون پاپا موصدا واذا به لحظة واحدة ينفتح على مصراعيه. في السابق كانوا منبوذين ومطاردين فإذا بهم يتحولون إلى احد اسس الدولة يتسارع الناس إلى التقرب منهم. كأنه شخص اعتاد طوال عمره ان يحمل الأثقال لكنه في لحظة ما يظهر له جناحان فيطير. كيف له ان يستسيغ الطيران والحرية بعد اربعة قرون من حمل الأثقال؟.. الهيلينيون كانوا قد تعودوا على رفض ومقاومة كل ما هو حكومي وعسكري ومركزي. لكن ماذا بعد ان تتحول انت إلى دولة وموظف وشرطي يلقي القبض على من خالف الدولة. هذا وان طبقة العبيد والمسيحيين لم تعد كما كانت في القرن الأول والثاني الميلادي من اغلبية من الهيلينيين. الأمر اخذ طابعا طبقيا ودينيا داخل إيطاليا وروما بالذات.

بقيت نقطة واحدة لم تحسم بين القوتين الا وهي (من هو المتحدث باسم الرب) بعبارة أصح (من له حق الأمر والنهي). هذه المسألة حُسمت عام ٣٩٠م. مدينة بيزنطة كانت حديثة العهد بالسلطة وأن إنتماءات المدن والقرى كان مُتجسدا بكنائسها. اتهم قس من مدينة سالونيك بالشذوذ الجنسي وتم اعتقاله، فهبّت المدينة وقتلوا الحاكم العسكري الروماني . الإمبراطور تيودوسيوس كان قد نقل مقر حكمه إلى مدينة ميلانو شمال إيطاليا[2] أمر الجيش ومرة أخرى حصلت مذبحة حصدت هذه المرة ٧٠٠٠

(١) المصدر السابق – ص ٩٤ .

(٢) لا يمكن انكار وجود تعصب مديني في روما لكنه لم يكن قط بتلك الدرجة التي كانت عليها لدى الإغريق فتحول العاصمة الى مدينة اخرى يثبت ان الروم لم ينتموا بالدرجة الأولى الى مدينة معينة، بل إنتماءهم كان يتوزع على عدة عناصر من (ارض) و(انسان) كما يلي.. الإنتماء الروماني كانوا (حالة) من تجرد ابن القبيلة والقرية من إنتمائه الضيق الى إنتماء اكبر وأكثر عمومية. روما ولفترة طويلة كانت قدر التذويب لذلك (التفاعل الاجتماعي) كأنها بحيرة مالحة =

أغريقي[1].. المواجهة مع الكنيسة لم تمر بسهولة، قيصر اعتذر وساوم كثيرا وكان ذلك مؤشرا واضحا ان الأمر انقلب لصالح الكنيسة وان الجيش الروماني من الآن فصاعدا اصبح يستمد سلطته كحامي للكنيسة وليس سيدها. واستمرت تلك العلاقة حتى بعد سقوط آخر الأباطرة الروم وطغت على الملوك والدول الأوروبية قاطبة التي اصبحت تتنافس في نيل رضا الپاپا القابع في روما.

=تصب فيها عدة انهار. بمرور الزمن ازدادت مياه البحيرة متجاوزة روما الى الشمال حتى استقر (موضوع التفاعل والإمتزاج) في المدن الأخرى خصوصا بيزنطة ثم في أواخر الألفية الأولى وجدت نفس الحالة في باريس والى حد ما في بعض المدن الألمانية.

(١) المصدر السابق ص ٩٧ .

الفصل التاسع

بيزنطة اول عاصمة للإغريق

موضوعنا الأصلي هو أهمية وجود او عدم وجود العواصم الطبيعية بالنسبة لأي شعب، وبالتالي إظهار خطورة التعصب المديني الذي خالط مفهوم الحضارة عندنا دون ان نشعر.

منذ تسمية بيزنطة[١] كعاصمة الشرق، بدأت تظهر تاثيراتها كعاصمة طبيعية ولمدة تزيد على الألف عام. الحالة السياسية للهيلينيين كافة واليونان بصورة خاصة استقرت اكثر من كل الحقب السابقة. طبعا كانت هناك حروب وتحديات خارجية لا تنقطع، فالإمبراطوريات الفارسية كانت في الشرق، والأمواج القبلية تتدفق من الشمال والموجة العربية من الجنوب اذابت الوجود الهيليني من سوريا وشمال افريقيا قاطبة. ثم الموجة التركية إقتلعتهم من البر الآسيوي. ثم هناك المنافسة مع كنيسة روما التي شكلت وجه آخر للصراع القومي بين الناطقين باللاتينية والناطقين بالإغريقية. فمثلا، ما عانته مدينة بيزنطة من تدمير بسبب احد الحملات الصليبية كان اكثر بكثير مما عاناه المسلمين.. هذا كله يوضع في كفة ميزان، فكلها حروب وتحديات خارجية، المهم هنا أن نلاحظ الوضع الداخلي. لكن المهم ان لا حروب اهلية تحصد مدنا واقاليم. كانت هناك خلافات بين كنائس بيزنطة مع كناس انطاكية ودمشق والإسكندرية ونقاشات مذهبية لا تنتهي بين الهيلينيين والأمر كان شبيه بما حصل بين الكوفة والبصرة بعد إنشاء بغداد حيث تحولت المنافسة السياسية بينهما منافسات أدبية ولغوية تجسّدت في مدارس الكوفة ومدارس البصرة. لكن لا نسمع عن ثورة وحرب أهلية وما شاكل بالأخص في

(١) اسطنبول، كونتانتينوپول، القسطنطينية، بيزنطة، كلها أسماء مدينة واحدة. من المفضل استعمال الاسماء حسب المراحل. بيزنطة تشمل الفترة الإغريقية والهيلينية اما اسطنبول فتشمل ما بعد الفتح التركي. أما كونتانتينوپول فقد استعملت لفترة قصيرة في البداية ثم طغى الاسم الأغريي القديم (بيزنطة) مرة أخرى.

الكوفة.. نفس الوضع حدث في البلدان الهيلينية، فمنذ سيادة بيزنطة وحتى بعد قرنين من الفتح التركي، قلما نسمع بحروب أهلية والثورات بالشكل السابق. تفسير ذلك بسيط جدا، هو ان تعصب المدن وتكبرها أدمغ بعاصمة واحدة، وان الإنتماء اصبح شبيه بمصر وفرنسا من حيث وجود سيدة وحيدة لا تنازعها باقي السيدات.

موضوع انقلاب الإغريق إلى اللغة التركية والدين الإسلامي موضوع طويل. في الواقع كان اسلامهم جزء من عملية تتركّهم حيث ان الإسلام والتتريك كانا يعنيان نفس الشيء بالنسبة للشعوب السلافية والإغريق وما اكثرية سكان تركيا الحالية إلا احفاد هؤلاء الهيلينيين، وإلا فكم منهم يمتلك عيونا مغولية وانف فاطس؟.. البحث يطول وقد اقدم كتابا خاصا بذلك في المستقبل. لكن سأكتفي بإشارة بسيطة مذكراً القاريء بمواقف زينوفون ثم الإسكندر من الفرس. كل منهما في زمانه ومكانه كرها الفرس كأعدى الأعداء لكن موقفهما تغيّر تدرجياً إلى إعجاب ثم إدراك لقيمة علاقاتهم وإنتماءهم السياسي والاجتماعي.. اعتقد ان نفس الحالة مر بها الهيلينيون عند احتكاكهم بالأتراك السلاجقة ثم العثمانيين.. سنتغاضى قليلا عن الفترة المذكورة ولنركّز الآن على اهمية مدينة بيزنطة قوتها الجيوبوليتيكية الهائلة مقارنة بمدينة روما نفسها في أشد الفترات حرجاً.

بيزنطة والقوط: مدينة روما كانت عاصمة وصلت لحد الأسطورة من حيث سطوتها وغناها وعمرها المديد. لكن كما اشرنا ان قوتها لم تكمن في موقعها الجغرافي بل في نوعية الإنتماء الذي ولد هناك ثم اخذ مركز ثقلها يتحرك شمالا مع القرون تاركا روما نفسها كمركز للإرث الديني. بينما بيزنطة كان لها القدرة على السيطرة وامتياز جيوپوليتيكي هائل حيث سنلاحظ فرق كبير في قدرة بيزنطة على الثبات مقارنة بروما فالجيوش البيزنطية كانت تدافع عن نفسها وعن روما في وقت واحد.

لم يمر قرن واحد على استقرار الحكم في بيزنطة حتى بدأت أمواج قبلية ضخمة تعبر الدانوب وتقتحم البلدان المتحضرة. في ٩/آب/٣٧٨ قتل الإمبراطور فالانس وأبيد ثلثا الجيش البيزنطي[١] بيد قبائل القوط (Goth). بيزنطة صمدت وبعد ثلاث عقود من الزمن نسمع عن الإمبراطور ستيلكو Stilcho يسد الطريق بجيشه البيزنطي

(١) Peter Heather, THE GOTHS صفحة ٢٥٢.

أمام زحف القوط من البلقان عبر شمال إيطاليا دفاعا عن روما. غير ان تمرد الجيش الروماني (و ليس البيزنطي) ادى الى هزيمته وموته مع ابنه على يد القوط في ٤٠٧. فكان ما كان من زحف القوط بقيادة ألَريك Alaric لحصار روما في ٤٠٩ وسقوطها في ٤١٠م.[١] لكن في القرن التالي نسمع ان البيزنطيين كانوا وراء تحرير روما نفسها ووراء الدحر النهائي لقبائل القوط. فروما لم تعد كما كانت عاصمة قومية ومركزا لتحول ابناء القبائل الى جنود وضباط.. مركز ثقل هذه الحالة (حالة التحول من القبلية الى العسكرية النظامية) زحف جزء منه الى بيزنطة وجزء آخر زحف شمالا عبر الألپ، اما روما فتحولت الى مركز ديني يتنافس لنيل مرضاتها نوعين من الشباب ١- (ابن القبيلة التقليدي) كقبائل القوط.٢- (ابن القبيلة المنقلب الى إنتماء قومي ملتزم بالجيش) أي الروماني التقليدي كما فعلوا خلال القرون الماضية.

لنركز على القوط قليلا لأنهم حالة مشابهة لماضي الأكراد والعرب. القوط اجتاحوا إيطاليا ومعظم أوروبا لكن تمسكهم بالقبلية والتنازع الدائم بينهم يدل على وجود نفس الإنتماء الإنقسامي للقبائل التقليدية، وإن تكاتف وتعايش القوط كان يحصل فقط في عدائهم للروم واثناء الغزوات والنهب. وإلا، فأنهم كانوا يتقاتلون عند اول حالة هدوء. سنراهم يتسابقون للتحالف مع بيزنطة ومع اي غريب ضد ابناء جلدتهم فالكل بالنسبة لهم اغراب ماعدا القبيله.

زعيمهم ألَريك ظل يضغط على روما كي تمنحه رتبة جنرال في الجيش، لكن روما ظلت ترفضه حتى بعد احتلاله ونهبه روما في ٤١٠م[٢].. العلاقة بين القوط وروما لاتبدو أبدا كتزاوج واندماج بين قبيلة ومدينة. الأمر كان اشبه بكره متبادل بين رجل همجي يطمح في إمرأة متكبرة أخصت زوجها السابق (الجيش الروماني) ولم تتخذ من الرجل الجديد زوجا كأنها نفرت من كل رجال. رجل وإمرأة (القوط وروما) عشقا السلطة والإثنان أصرا على عقليتهما بدون اي تنازل، فتطور الأمر الى ضرب وإغتصاب.. القوط اجتاحوا روما لكن لم يستقروا فيها بل انتشروا وراء الغنائم المغرية

(١) Peter Heather, THE GOTHS صفحة ١٤٧.

(٢) المصدر السابق، صفحة ١٤٣.. من الجدير بالذكر ان الكنيسة فقط سلَمت من النهب والتدمير على يد القوط. اعتقد ان ذلك دليل على وجود علاقة عكسية بين مقدار ثقافة القبائل مع سهولة او صعوبة سقوطهم في سلطة الدين.

في إيطاليا. لاحقا اتخذوا من راڤينا (قرب فينيسيا حالياً) عاصمة لهم، وهي كباقي مدن إيطاليا لا تمتلك اي إمتياز جيوبوليتيكي. هذا وإن القبيلة المذكورة لم يكونوا الوحيدين، القبائل الجرمانية والقوط خاصة كانوا يأتون على شكل موجات، ما استقرت واحدة حتى تبعتها الأخرى فقضت على سابقتها حتى يأتي دورها فالإبادة.

في القرن التالي كانت هناك موجة جديدة من القوط بقيادة تيودوريك زعيم الأمال Amal (احد قبائل القوط). تحركوا من البلقان واقنعهم البيزنطيين بالتحول الى شمال إيطاليا، فإجتاحوا شمال إيطاليا وابادوا القوط في راڤينا الذين سبقوهم اليها. قصة قبيلة أمال، Amal لها علاقة مباشرة ببيزنطة وبيان قوتها مقارنة بروما. وفي نفس الوقت فيها عبرة كبيرة لكل الشعوب المتمسكة بالقبلية. اذ ان الكثير من العراقيين يعتقد ان الثقافة والإلتزام والتمدن يسببون الميوعة والتخنث وما شابه، لكن هنا سنرى العكس.

تيودوريك لم ينجب إلاّ ثلاث بنات، وزوجهن زيجات سياسية. ابنته الصغرى تزوجت من سيگموند حاكم اقليم بورگوندي. في عام ٥٢٢م قام سيگموند بقتل تلك الزوجة وأبنها (الذي هو ابنه منها) وتحالف مع قبائل الفرانك (اجداد الفرنسين).. البنت الثانية أرسلت كعروس الى هيرودريك زعيم الڤاندال[١] كان قد سيطر على شمال افريقيا. وصلت العروس بالسفن مع ٥٠٠٠ من الحرس في ٥٢٣م. هيرودريك ذبح الجنود جميعا وسجن العروس حتى الموت، ثم قام على الفور بالتحالف مع بيزنطة نكاية بتيودوريك وباقي القوط (ذلك هو التعبير عن شعوره الغريزي بالعصبية الضيقة. فالكل بالنسبة له غرباء ماعدا قبيلته وحدها).

أخيرا نصل الى أمالاسويَنتا البنت الكبرى للزعيم تيودوريك (الجزء الأول من اسمها Amala يعود لقبيلتها). قصتها مع السياسة والزواج قد تسلط ضوء أكبر على مدى هشاشة عقل وإنتماء القوط وكل من اصر على العصبية القبلية.. كانت ارملة ولها ولد واحد تولد مابين (٥١٦-٥١٨). اي انه، كما يقول پيتر هيذر، عند وفاة تيودوريك في

(١) من الممكن جدا ان تكون مناطق القبائل في الجزائر، حيث يكثر فيهم الشعر الأشقر والعيون الزرقاء، من نسل هؤلاء الفاندال. من الجدير بالذكر ان كلمة ظاندال في اللغاة الأوروبية اصبحت مرادفة للتخريب، كلمة Vandalism مثلا.

٥٢٦م كان ما يزال طفلا.. حالة القوط الاجتماعية يمكن وصفها بالمثل القائل (كل ما زاد عن حده انقلب الى عكسه) وعليه، الرجولة المبالغ فيها سيقابلها دون شك انوثة متقوقعة وشيء مثل (الحرم والحريم) تنعزل فيه النساء، لكنها تسحب الرجولة معها الى التقوقع عند اول تماس مع الحضارة. هذا ما كان عليه حالها عند موت ابيها وتوليها قيادة الدولة والقبيلة. امالاسوينتا رفضت تربية ابنها على النسق العسكري[٢] الروماني (كون الرومان أناس مهزومين وليس رجال وليس قبائل اصيلة!!!) أبقت ابنها في حضنها فنشأضعيفا حتى مات في ٥٣٤م.

المؤامرات والمؤامرات المضادة كانت تجري على قدم وساق، فقامت (بنت الشيخ) هذه بإغتيال ثلاثة على الأقل من القادة العسكريين الموالين لوالدها وتحالفت سرا مع بيزنطة وارسلت اموالها (التي هي اموال دولة القوط) الى بيزنطة كي تأمن حياتها اذا اضطرت الى الهرب.. رجال القبيلة ضغطوا عليها كي تختار زوج وتأتي بوريث للعرش، فأختارت (تيودوهاد) احد القادة العسكريين بعد اجباره على القسم بالطاعة وعدم الخيانة... الخ. لكن ما أن تزوجها تيودوهاد حتى نفاها الى جزيرة، ثم أمر بقتلها داخل السجن في ١٠/ نيسان ٥٣٥. الصورة كما نرى قاتمة جدا وكل بنات (الآغا الكبير) قتلوا من قبل ازواجهن.

هنا يبدأ سؤال على أعلى الدرجات من الجدّية والحساسية فيما يخص الجنس والشرف والمرأة وعلاقتهم بالإنتماء القومي وفي ثقافة كل شعب. كلنا سمع عن نساء كن يتزوجن احد الملوك، على سبيل المثال النساء التركيات والفارسيات اللواتي تزوجن من الخلفاء العباسيين، حتى يسود عنصر تلك الزوجة على الدولة والجيش. أو حتى السيدة الپاريسية التي تزوجت من كوڤيس زعيم الفرانكيين، لقد كسبته الى المسيحية

(١) في الفصل السابق كان هناك هامش على (الحالة الإنتمائية للروم) كونها حالة قبائل تندمج وتلتزم بالمدنية والنظام وتحارب باقي القبائل البدائية دفاعا عن المدن الرومانية. هنا نرى ان روما لم تعد تستوعب تذويب ذلك المد القبلي الهائل من الشمال كسابق عهدها وبدأة ترفض قبولهم. اي ان الأنوثة رفضت اندماج جديد مع الرجولة. روما لم تعد تستوعب تذويب ذلك المد القبلي الهائل من الشمال كسابق عهدها.. في المقابل القوط كانوا من القبائل التي لم تغير نوعية إنتمائها كي تلتزم بالنظام والتمدن بل بقية على إنتمائها الضيق للقبيلة اي ان القبيلة نفسها بدات ترفض المدينة كرد فعل، وهي نفس الحالة عند قبائل العرب والأكراد وأكثر القبائل التقليدية.

والى (پاريس) نفسها. أو السيدة التي تزوجت من بيگات إمارة اردلان الكردية في إيران (سنندج) كما يقول الاستاذ كمال مظهر أحمد (امراء اردلان اصبحوا غرباء يتكلمون الفارسية).. فما بال بنات القوط كن بعكس ذلك تماما؟

لو قسنا الأمر بالعنصر العربي وبنات القبائل العربية، فلم أقرأ ان ملكا او سلطانا قد تعرب او انحاز للعرب ضد قومه بتأثير زوجة عربية.. اما بالنسبة للكرد فأن الصورة أقتم ومن خلال الأخبار والحوادث القليلة جدا، يبدو ان ما كان يحصل هو تماما ما حصل مع نساء القوط.

لقد سبق واشرنا الى معاوية بن أبي سفيان واحد جواريه من الأكراد وكيفية تعاملها معه (وهي المرة الوحيدة التي اسمع بها ان جارية ما كانت من اصل كردي). اما عن زواج كردية بملك ما، فهي قصة زواج بنت استياك (الظحاك) بملك أنشان (ابو العائلة الأخمينية) ولدت قورش الذي قضى على ملك أقارب والدته.. حسنا لتكن تلك اسطورة غير معتمدة. الحادثة الثانية ماكان عند زواج الشاه عباس الصفوي، اعتى ملوك الصفويين، من أخت قباد خان رئيس عشيرة موكريان في اقليم أذربيجان الغربية (مهاباد الحالية). الشاه الرهيب سمع بجمالها فطلبها من اخيها وتزوجها وقضى معها ثلاث ليالي. في صباح اليوم الرابع مباشرة أمر عباس الصفوي بإبادة الموكريانيين عن بكرة ابيهم اينما وجدوا. فما حصل يا ترى؟

لا معلومات لدينا عن ما حصل في مخدع الزوجية بين الإثنين، والكل يعرف مدى تشدد عباس الصفوي. لكن هل بطش بكل القبائل دون استثناء وهل قتل كل زوجاته؟ طبعا لا.. اذا راودتنا نفسنا بأيجاد شماعة لتعليق فشلنا المستمر عليها وكأن الأمر كله ومن البداية كان لأجل الهتك والإبادة وما شاكل، فلماذا تأخر قراره ثلاث ليالي؟ اعتقد لو انها كانت امرأة تركية او فارسية او فرنسية او رومية لكان وقع القرار سيلين قليلا حتى بوجود قرار مسبق بضرب تلك القبيلة، فهل نتجرأ ونتهم كل بنات حواء من ترك وفرس وكل الأمم المتحضرة بأنهن يستغلن الجنس في سبيل السياسة وأنهم (حاشا لهن ولكل انواع التعميم) قليلات الحياء أو ما شاكل؟.. سأترك القاريء العراقي، كرديا كان أم عربيا، يجيب على هواه. طبعا سيصعب على الكردي ان ينظر بحيادية حيث ستتداخل المشاعر والتفاسير والحق والباطل وحقوق المرأة وو والخ. لكن استحلف

القاريء قبل ان يفسر ويبرر ان يتذكر بنات تيودوريك قبل ان يصل الى الجواب[1] ولنرجع الى القوط في إيطاليا.

الجواب أمر من العلقم ويمكننا ان نستخلصه من تصرفات نسائنا في القرن الواحد والعشرين. هناك نسبة معتبرة من العشائر والقرى الكردية (مثال السيدة الموكريانية الموما اليها) ينتمين الى بيت الأب بكل قوة. انهم يعشون ويموتون من أجل ابهاتهن وامهاتهن وأخوانهن. مثلا، قد يتورط ابن العائلة القبلية في جريمة قتل فترى اخوات القاتل يتراكضن كالفدائيات يعرضون انفسهن للزواج بأقرباء القتيل كنوع من الدية (فصلية) ناهيك عن استعدادهن لبذل كل ممتكاتهن المادية. وهنّ يقومون بذلك بأندفاع قوي لا لشيء فقط لأجل (اخي المفدى الذي لم يخلق الله احسن منه وأحق منه و...،الخ). أو عندما يتزوج أبن العائلة ترى البنات يعملن كجيش منضبط ضد العروس وعائلتها، يعملن كل ما وسعهن لفرض سلطة أخوهم (المفدى) على العروس والويل لها منهن فهي لن تخشى زوجها بقدر ما تخشى إخوته وحماتها. ثم انها هي ايضا تطبق نفس القانون الأنثوي وبعدها ستراها عندما تصبح حماة كيف ستسحق عروس ابنها كانها ضحية من ضحايا (ريا وسكينة).. هذا وقد سمعت من مسعود محمد عن نوع التنابز والسباب خاص تستعمله نساء القبائل يقولن (ماينێ بێ يشم.. له برایێ خومت دهكيشم) (ايا فرس بدون لجام.. سأجعل اخي يهتك عرضك) وأنا شخصيا خالطّ العشائر عن قرب ولاحظت ان ابسط مسبة تتفوه بها النساء قولهن (سأجعل أخي يهتك عرضكِ) (به برایێ خومت ده...).. ترى هل من الممكن ان تكون السيدة المذكورة آنفا قد قضت ثلاث ليالي مع الشاه عباس الصفوي تنوح على فراق بيت ابيها وتمدح اخاها وعشيرتها التي (لم يخلق الله ارجل واحسن واكرم منه، هم وحدهم ولا احد غيرهم) أم إن تلك الشتيمة قد طرأت على لسانها ومع من، مع عباس الصفوي؟!!!

في الجهة الأخرى هناك شريحة متطورة أو على حافة الانقلاب الى إنتماء قومي آخر. هذا النوع فيهم نسبة عالية على تمام النقيض مع النوع السابق فيكرهن الأقارب وبيت الأبهاتهن واخوانهن كره العمى. سنتطرق لاحقا لنفس الموضوع لكن اود الإشارة الى نقطة حساسة جدا.. النوعين المشار اليهن في الظاهر يبدوان على طرفي نقيض، لكن مهلا. ملاحظاتي على نساء الكرد مقارنة بباقي الشعوب انهن في كلتا الحالتين اقل النساء نشاطا في ممارسة الجنس (شرعيا كان ام غير شرعي) فالنوع القبلي التقليدي يجامعن ازواجها الشرعين ويكثر اطفالهم لكن فكرهن يظل مرتبطا ببيت اهلهن اكثر الوقت حتى لو اختارت ذلك الزوج بإرادتها (اقول هذا كي لا يستغل المدافعون عن المرأة كلامي بأن يأولوا الأمر بسبب الضغط عليهن بزواج رغم ارادتهن).. النوع الثاني (المتحرر والمتمرد على الأقارب) الذي قد يتصوره ذوي الفكر المتزمت انهن سيكونون منفلتات (حاشا للقارئة ولكل اخواتي أكرادا أم غير أكراد) فأن هذا ايضا من اكبر الأخطاء الشائعة. نعم ان القسم الثاني بنقلبن على الأقارب ويتمردن وما الى ذلك والبعض وصل حد ان =

في ٥٣٦م، اي بعد سنة واحدة فقط من مقتل امالاسوێنتا، ارسل البيزنطيون اسطولا بقيادة الجنرال بيليزاريوس لتحري الوضع في جنوب إيطاليا. يبدو ان بيليزاريوس ادرك على الفور مدى هشاشة حكم القوط وتجاوب الناس معه، فحرر صقلية على الفور. وفي العام التالي انزل جيشه في ناپولي، جنوب روما.. القوط اصيبوا بخوف وارتباك وبدأوا بتبادل الإتهامات بالجبن والتقصير فقتلوا تيودوهاد (الجبان المتآمر عميل الأجنبي) وكما تقول الأغنية العراقية. منه منه منه كلها منه. ونصبوا زعيما جديدا باسم ويتيطيس الذي من المفروض ان يكون اشجع من سابقه.

ويتيگيس بدأ على الفور بالتفاوض مع بيليزاريوس دون جدوى اذ ان نفس الفوضى والرعب الذي تملكه هؤلاء اولاد القبائل (الشجعان) جعلهم يتركون روما كأن البيزنطيين سينزلون عليهم من السماء. يا لكثرة مارأيت من مناظر مشابهة بين الأكراد فما ان يقول احدهم "انهم آتون" حتى تسود حالة من الإنهيار التام للمعنويات وترى الآلاف المؤلفة تحمل متاعها الى الجبال. والآن بما ان جوازات السفر والدولارات والطائرات متوفرة فكيف ستكون ردة الفعل عندما يقال (انهم آتون)؟!!. من هم الآتون؟. لا أدري، كل ما يعرف الفرد انها حالة انهيار تام.

على كل حال، القوط تركوا روما بدون معركة ودخلها الجنرال بيليزاريوس في ٥٣٧. بعد ان تمالكوا أنفاسهم رد القوط لحصار روما، لكن البيزنطيين ثبتوا داخلها وكرروا نفس خطة الذراع الطويلة والخنق المتبادل التي حصلت بينهم وبين هانيبال. أحد أهم نواقص القوط انهم لم يختلطوا بأحد من سكان إيطاليا بل كانوا يحتفظون بعوائلهم في قرى ومخيّمات او قلاع منعزلة عن باقي البشر[1]. تلك العوائل كانت هدفا مغريا،

= يدعوا بتعدد الأزواج نكاية بتعدد الزوجات والكثير من ظواهر التمرد على الماضي والخ، لكن الحقيقة انهن على نفس الحال من البرود، اذ ان اكثرهن يتوجهن الى إنتماء (مديني، سياسي، فلسفي، ديني، حزبي الخ) يبحثن بالدرجة الأولى عن السلطة ويمارسن قهر الرجال ومن الصعب جدا ان يجدن ازواج او شركاء عمر مع كل تلك اللائحة الطويلة من الشروط. في النهاية ان النتيجة واحدة فالعلاقة الحميمية ستكون ضعيفة.

من الجدير بالذكر ان عشائر الموكريان المذكورين في الهامش السابق كانوا قد سيطروا في القرن السادس عشر على مناطق واسعة حتى مدينة مراغة الى الشرق من مهاباد لكنهم تصرفوا بالضبط كما فعل القوط، اذ انهم لم يخالطوا اهالي المدن بل أسكنوا عوائلهم في قلعة منعزلة عن الناس خارج مراغة (فأين هم من التزاوج الطبيعي بين القبيلة والمدينة؟). هناك روايات مؤلة =

فأرسل بيليزايوس قوة من الفرسان اوقعوا مذبحة مؤلمة بين نساء واطفال القوط بالقرب من راڤينا فأجبرهم فورا على فك الحصار عن روما والإنسحاب شمالا.. في العام التالي ارسل بيليزاريوس قوة اخرى الى جنوا، شمال غربي إيطاليا، مما زاد من ارتباك وميل القوط للهزيمة والاستسلام والخلاص بأي ثمن.. ويتيگيس قام بحملة دبلوماسية او بالاحرى حملة تنازلات. تنازل عن اقاليم للفرانك في فرنسا للكف عن عداواتهم السابق كي يتسنى له سحب بعض القوات الى إيطاليا. من جهة اخرى ارسل مستغيثا بالفرس الساسانيين ان يهاجموا البيزنطيين من الشرق وهو يرى الجميع يتباكون وينهارون والكل يتهم الكل بالخيانة والتقصير.. بالفعل احتل الساسانيون انطاكية في ٥٤٠م لكن بعد خراب البصرة. بيزنطة ثبتت وروما ثبتت والكل ثبت، اما القوط فإندحروا وتفككوا نهائيا وزالت دولتهم في نفس العام٥٤٠م[١].

=عن ذبح الأطفال وعدم استثناء احد من تلك القبيلة، وتقول الوثائق الإيرانية ان أهل مراغة جلبوا ٣٠٠ رأس مقطوعة من تلك القبيلة عرضوها في المدينة.. نفس الشيء قامت به قبيلة برادوست في نفس الفترة حين سيطروا على مناطق غرب بحيرة أورمية، اذ انهم سكنوا قلعة (قلعة دمدم الشهيرة) ولم يخالطوا او يندمجوا مع مدينة اورمية او اي مدينة او حتى قبيلة أخرى كردية كانت أم غير كردية. اني اتساءل ما مشكلة الكرد مع الأختلاط والى متى هذا التقوقع والإنعزال في كل مرة؟.. الجدير بالذكر كل من الموكريان والبرادوست شارك في المذابح ضد الأخر كذلك كل القبائل الأخرى كانت تشارك في كل مذبحة تقام ضد اي قبيلة أخرى كردية كانت ام لم تكن. قلعة دمدم هذه تحاك حولها اليوم مناحات شعرية تصور الجانب المؤلم فقط مما دار دون اي التفاتة لنواقصنا الجوهرية ودون اي ذكر الى انهم انفسهم كانوا يشاركون في مذابح ضد بعضهم البعض. على الكردي ان يجيب بصراحة: الى من ينحاز اليوم، الى بيزنطة وروما ام الى تيودوريك و امالاسوينتا والڤاندال الذين لم يرحموا حتى اطفالهم؟.. الى متى نضل نسمح بتفشي اعتقاد (باننا احسن البشر لكن مع الأسف اقلهم حظا) ان سمحنا بذلك فأن النتيجة الوحيدة ستكون شيوع وترسيخ اعتقاد بأن (الحق) دائما يخسر و(الباطل) دائما مهزوم.

كل ما أتمناه هو لو كان هناك (كما في قصص الخيال العلمي) آلة للزمن تعود بكل من كتب باكيا على قلعة دمدم ومذبحة مراغة، ان يركب ذلك الجهاز ويعود الى ذلك المكان والزمان ويدخل احد تلك القلاع ويقول لأهلها مثلا (السلام عليكم، انا كردي جئت لأنضم اليكم) هناك كان سيصدم بما كانوا سيفعلونه. كان سيلاقي أسوأ ما يلقاه اي بغدادي لا يتكلم اللهجة التكريتية ويبتلي بالاحتكاك مع أحد حراس القصر الجمهوري (قلعة متطورة من قلاع العشائر).

(١) Heather, THE GOTHS الصفحات من ٢٥٩ الى ٢٦٦ .

نوعية إنتماء القوط يبدو واضحا جدا من خلال عدة نقاط. اولا دينهم (الآريانيزم Aryanism) احد المعتقدات الساذجة في تعظيم الأب والسلف مع تطعيمها ببعض ما في المسيحية. اما خلفيات الجيوبوليتيكية للبلدان التي عاشوا فيها فكانت من أسوأ ما يكون. فهم اصلا جاءوا من بلاد غير مركزية (البلقان) ثم استولوا على بلاد اخرى غير مركزية (إيطاليا) بدون ادنى محاولة تطور وتثقيف او اندماج مع بعض او مع حضارة معينة. بل اصروا بكل غرور على إنتماء قبلي (مع أولاد العم ضد العشيرة ومع العشيرة على العالم) العنصر الوحيد في قوتهم حسب ما اعتقد كان وجود عناصر قبلية اكثر همجية منهم مثل الهون وهم من الجنس الأصفر. هجمات الهون المدمرة بقيادة اتيلا في بداية وصولهم الى إيطاليا طالتهم مع غيرهم من قبائل وحضر على حد سواء . لذلك يبدو لي انها ولدت لديهم نوعا من التكاتف وردة فعل ضد التقوقع القبلي مكنهم من اجتياح إيطاليا واحتلال روما نفسها. لكن الطبع يغلب على التطبع ويبدو انهم اصيبوا بالغرور حال استباب سلطتهم على إيطاليا فرجعوا الى سابق عهدهم معتقدين ان (التماسك القبلي) وليس (الذوبان الكلي للقبائل) هو سر نجاحهم.

الموجة العربية جاءت بعد موجة قوط بقرن تقريبا. في الحقيقة، العرب في اسپانيا واجهوا الـ(Visigoth) اي القوط الغربيين وهم فرع منفصل، ان لم نقل متمرد، على الـ(Ostrogoth) اي القوط الشرقيين في البلقان وإيطاليا، وهم لم يكونوا احسن حالا منهم. وما كان رودريك (الذي سماه العرب لذريق) الا نموذجا من شيوخ القبائل القوطية التي لا تعترف بأحد سوى بالعشيرة والأقرباء فَهُزم شرّ هزيمة. شتان ما بين رودريك القوطي وشارل مارتل الفرانكي. الفرق بينهما هو الفرق بين المنتمي ولا المنتمي، الملتزم واللاملتزم.

لو نظرنا الى الصورة من مقياس واسع جدا كأننا على سطح القمر ننظر لما يدور على الأرض في القرن السادس والسابع الميلادي لرأينا حضارات تجتاحها موجات قبلية. واحدة منها تتجه بعكس عقارب الساعة من شمال البحر الأسود تجتاح أوروبا وتنزل حتى شمال افريقيا. تتبعها الأخرى منطلقة من براري الشرق الأوسط فتجتاح افريقيا وتصعد باتجاه عقارب الساعة حتى إسپانيا. العواصم والقوى الوحيدة التي قاومت الموجتين هم، اولا السيدة القديرة بيزنطة وثانيا الشابة الناهضة پاريس. العرب بتيارهم ذا الشقين (الديني والقبلي) كانوا يحملون معهم الأرث الثقافي للشرق الأوسط

مركزة في دين واحد، ادام حكمهم طويلا بينما القوط كانوا كما بيّننا اعلاه، لم يملكوا الى كتل صخرية بدون اي مادة سمنتية تلصق وتثبت البناء الحجري الهش.

اعجب كل العجب ان ينسى العالم همجية وإنقسامية القوط ولا يبقى من اسمهم اليوم سوى ما يذكر عن طراز فني ومعماري (الطراز القوطي الشهير). المطلع على الثقافة الأوروبية يسمع ان تلك الكتدرائية او القصر الفلاني بني على الطراز القوطي (Gothic) قد يعتقد ان القوط كانوا فنانين او ما شابه والأمر هو على العكس تماما. الآن لنرجع الى اليونان ونرى تاريخهم الحديث.

روما تحولت الى مركز ديني تدَّعي انها العاصمة الوحيدة للكاثوليك، التي اصبحت شرطا اساسيا ولقرون طويلة في أوروبا كي يُعترف بمجتمع ما انه من البشر. لكن كما قلنا في بداية الكتاب عند انقشاع الموجات القبلية وتمدن القارة، في عصر النهضة بالأخص، الهوية الوطنية الإيطالية كانت قد اهملت فعادت إيطاليا الى ايام دويلات المدن القديمة مثل دولة فلورنسا والبندقية وجنوا الخ.. اما بيزنطة فنلاحظ ان قوتها لم تقتصر على عصر معين او حتى دين معين بديل منطقة نفوذ تلك السيدة في العصر البيزنطي والعثماني على حد سواء. نظرة بسيطة لخرائط الدولة العثمانية ومقارنتها بالدولة البيزنطية تبين لنا على الفور ان منطقة نفوذ اسطنبول كانت في الحالتين نفسها تقريبا وفي الحالتين كانت من اكبر اقطاب العالم القديم. فأين أثينا وسپارتا من ان تكونا عاصمتين؟

الفصل العاشر

اليونان في العصر الحديث

الإغريق انقطعوا من اصولهم التي انحدروا منها. الشعوب السلافية استقرت في براري الشرق أوروبية. إغريق آسيا الصغرى تتركّوا وظلوا على علاقة متوازنة مع عاصمتهم الطبيعية. اما باقي الإغريق الذين لم يتتركوا فأن سقوط اسطنبول بيد الترك شكل انقطاعا بينهم وبين عاصمتهم الطبيعية.

بوادر التنافر بين الشعب وحكومة العاصمة (المختلفة عنهم دينا ولغتا) بدأت تتزايد حتى نصل القرن الثامن عشر مع اول حركة قومية يونانية ضد الترك حصلت في عام ١٧٧٠ بمساندة الروس.. بتزامن مع المد القومي الذي تتوج في الثورة الفرنسية وازاحت الولاء الديني عن كاهل الشعوب، دأب اغنياء اليونان على إرسال بعثات من الطلبة الى فرنسا ومدن أوروبا للدراسة مما احيا فيهم روح جديدة وظهرت جمعيات واحزاب قومية معادية للترك. اولها ظهر في رسميا في ١٧٩٨ وكان هدف تلك الجمعية اثارة كل شعوب البلقان ضد الأتراك.

في ١٨١٤ أنشئت جمعية الأخاء برعاية الروس في اوكرانيا. بيسيلانتيس كان جنرالا يونانيا في الجيش الروسي تزعم تلك الجمعية وقاد حملة عسكرية على مولدوفيا. العثمانيون أوقفوا الهجوم لكن الأخبار انتشرت في اليونان وكانت ثورة في اقليم البيلوبونيز وبداية لحرب التحرير. الكنيسة الأورثودوكسية كان لها الدور الريادي ونسمع عن القس جرمانوس الپاترائي. القيمة الثقافية والتاريخ اليوناني في الضمير الغربي والمسيحي بشكل عام شجعهم على مساندة اليونانيين بكل السبل للتحرر من الترك. لكن كل تلك النعرات والطبيعة الإنقسامية المتأصلة وعدم وجود مرجع للإنتماء فعل ما سنرويه ادناه.

محمود الثاني، السلطان العثماني، لم يقف مكتوف الأيدي، عرض جزيرة كريت على محمد علي پاشا الكبير على ان يساعده المصريون في دحر الإغريق. وعليه احتل محمد

علي اقليم البيلوپونيز لصالح الترك، غير ان الأساطيل الفرنسية والبريطانية هزمت الأسطول العثماني–المصري في معركة ناڤارينو البحرية ١٨٢٧ ايذانا بنهاية العهد التركي في اليونان. وفي ١٨٢٩ نصّب الكونت أوانيس كاپودستریاس رئيسا للجمهورية واعترف السلطان محمود باستقلال اليونان. فما المشكلة اذن؟.. لا مشكلة على الإطلاق الا مشكلة صغيرة هي انهم لم يملكوا روحا وطنية وإنتماء موحد، فنرى الرئيس الجديد سرعان ما اغتيل بيد اليونانيين انفسهم في ١٨٣١ ودخلت البلاد في فوضى.

تسارعت القوى الأوروبية لتدارك الأمر وجرى البحث عن عائلة مالكة تستقر اليونان في ظلهم لكن الأمراء الأوروبيين رفضوا الدخول في دوامة اليونان السياسية. ١٨٣٢ نصب الأمير ئوتو الباڤاري (ألماني) وهو في ١٧ من عمره ملكا على اليونان.. من الجدير بالذكر ان اثينا كانت قد تحولت الى قرية صغيرة لا تحوي سوى بعض الآثار والخرائب إلا ان سمعتها التاريخية جعلتهم يختارونها مقرا للملك الجديد. والآن لنرى ماذا كان موقف الشعب اليوناني من الملك والوطن ووحدة الإنتماء والولاء؟

من البداية اطلقت تلك الكلمة المسمومة على الملك (هو ليس منا) وحتى الملك لم يشعر بتقبل لشعب ينفر من نفسه ومن كل غريب. الملك كان پروتستانتي والشعب أورثودكسي أقرب الى الروس. وهكذا الانقلابات والتناحرات بدأت منذ اول الأيام.

في ١٨٤٤ فرض على الملك دستور كان يعد اكثر تطورا من كل الدساتير الأوروبية في وقتها. وعليه، كما الدستور العراقي الجديد وقانون البرلمان الكردستاني ايضا الذي هما الأكثر تطورا حتى من الدساتير الأوروبية، بقي الدستور اليوناني حبرا على ورق.. يبدو لنا ان الحالة العراقية من التحرر من العثمانيين على يد البريطانيين ثم رفض العراقيين للملك والثورة والانقلابات التي لا تنتهي كان قد حصل قبل ذلك في اليونان، اذ أنهم لولا التدخل الفرنسي–البريطاني لما طالوا تراب الحرية ثم قتلوا الرئيس الذي هم منهم وما انكفوا يوما عن معاداة بريطانيا وفرنسا التي حررتهم. كان هناك دائما تيار ما يتطلع الى من هو ابعد من الواقع وابعد من حدود بلادهم ذاتها بالأخص الكريملن[1].. انها الحالة العراقية بالضبط من عبادة هتلر ثم التحول ١٨٠ درجة الى

(١) ينحدر الروس من قبائل القايكينگ ، وكما فعلوا في كل مكان، تكلموا بلغة الشعوب التي حكموها وطبائعهم اتحادية أشبه بالترك اكثر منها بالأغريق. القايكينگ في بداياتهم (القرن العاشر =

عبادة ستالين فكل ممنوع مرغوب وكل بعيد عن العين هو قريب للقلب الخيالي.

بلغ الخلاف بين التيارات اليونانية اشدها في حرب القرم (١٨٥٣–١٨٥٦) بين روسيا من جهة وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى. المعارضة ساندت روسيا ضد الملكيين (الخونة ازلام الاستعمار!) فحصل انقلاب ازاح الملك.. بعدها تم تنصيب ملك جديد هو الأمير دانماركي وليبم ّلوكسبورّ واعطي اسم جديد (جورج الأول). هذه العائلة بقت في الحكم الى ١٩٧٤ لكن لنرى اي نوع من الحكم؟

في ١٨٦٤ وضع دستور جديد وطرأت حقبة جديدة قلت فيها الفتن والتناحر الداخلي، لكن ذلك لم يكن بسبب نمو روح وطنية او ما شابه بل انهم وجدوا عدواً مشتراكا يصبون عليه جام غضبهم هم الأتراك، وبدرجة اقل البلغار والصرب. رفعت الشعارات القومية وطالبوا بتحرير اسطنبول من الأتراك وجعلها عاصمة من جديد. الأوروبيين ساندوا اليونان وتزامن الأمر مع الحرب العثمانية الروسية (١٨٧٧ – ١٨٧٨) التي هزم فيها الترك. في مؤتمر برلين ١٨٨١ اجبر الأترك على التنازل عن اقليم ثيساليا لليونان والتنازل عن قبرص للبريطانيين.. التفت بعدها الإغريق لتحرير مقدونيا حيث انها (تعود

=الميلادي) كانوا تواقين الى الذوبان في المجتمعات الحضرية التي سيطروا عليها. في نورماندي تكلموا الفرنسية وفي روسيا تصقلبوا (تكلمو كما السلاڤ). وقد ظهر من بينهم عوائل ارستقراطية وتزاوجوا مع العوائل الملكية الأوروبية. منها عائلة ريتشارد قلب الأسد التي حكمت مقاطعة أنژو جنوب نورماندي وورثوا عائلة أخرى كانت قد استولت على بريطانيا قبلهم. لكن الهدف الرئيسي ظل كما كان هو الاستيلاء على پاريس.. الفرع الشرقي من القايكينگ توجهوا من السويد عبر البلطيق الى روسيا واوكرانيا احالية. كعادتهم تكلموا لغة الشعوب التي حكموها (كانوا السلافيين) ودانوا بديانتهم التي كانت الأورثودوكسية والتي يعتبر الأغريق نفسهم اصحابها الأصليين. لكنهم بصورة عامة قلما اهتموا بالدين واللغة والمدينة كما كان الأغريق. الإنتماء الروسي وحتى اليوم شيء مناقظ للأغريق فالروس هم اللإنتماء الوحيد تقريبا الذين تفوقوا على الترك في قابليتهم على استقطاب وتذويب الشعوب الأخرى وفي ولائهم بدون اي مناقشة (الإمبراطوريات عسكرية وحتى عالمية)، فكيف يتوقع الأغريق ان يكون الروس احسن من الترك؟. المشكلة ان التاريخ لم يسجل يوما ان الروس سيطروا ولو ليوم واحد على اليونان كي نعرف نتيجة الاحتكاك بين شعب أممي التوجه والإنتماء مع شعب اذاب انتمائه في كنيسة قريته الصغيرة. لكن كما يقول المثل الإنكليزي: The grace on the other side of the fence is greener. ما معناه ان حديقة بيت الجيران أكثر خضارا.

لنا منذ فجر التاريخ). في قضية مقدونيا اصطدموا مع الصرب والبلغار حيث ان الكل اعتبر مقدنيا (تعود لنا) كما يفعل العرب والفرس والترك مع الأكراد فالكل تقول انهم (يعودون لنا في أصل الأصل!!!).. ثم كانت التفاتة الى كريت حيث اشتعلت الثورة في ١٨٩٦. المتطوعين الإغريق هبوا لنجدة بني جلدتهم الكريتيين لكن الأتراك دحروهم بقوة. مرة أخرى تدخلت القوى الأوروبية لصالح اليونان، وبعد عقد من الزمان ضمت رسميا الى اليونان.

مع بداية القرن العشرين شهدت السياسة اليونانية ظهور شخصية مؤثرة جدا هو أليوتوريوس ڤانيزالوس. الموما اليه تولى رئاسة الوزراء خمس مرات من ١٩١٠ الى ١٩٣٢ وفي عهده توسعت مساحة اليونان ١٠ مرات عن ما كانت عليه في نهاية القرن التاسع عشر وقفز عدد السكان من من ثلاث ملايين الى خمس ملايين وقد مثل العدو اللدود للملك والملكيين.

في ١٩١٢ اللأغريق والصرب والبلغار هاجموا الأتراك فتسارعت القوى اليونانية لضم إقليم ثيساليا ومدينة ثيسالونيكي (سالونيك) وطردوا منها الأتراك واليهود[١]. وفي ١٩١٣ وقعت الحرب البلقانية الثانية. هذه المرة اتفق الصرب والإغريق ضد البلغار. وفي نفس العام اغتيل الملك فتولى من بعده ولي العهد كونستانتين الأول. الملك الجديد لم يتفق مع رئيس الوزراء ڤانيزالوس فترك الثاني اثينا متوجها الى سالونيك ومعلنا الانفصال في (جمهورية سالونيك) ١٩١٥–١٩١٦. هذا برأيي يعد تكرارا للروح الانفصالية فإن سالونيك كانت اول مدينة كبيرة تقع بين ايديهم، فما صبروا اكثر من بضع سنوات حتى انشأوا فيها جمهورية مستقلة (او بالاحرى دويلة مدينة).

الجمهورية الجديدة كبرت وقوي مركزها حتى اعترف بها الفرنسيون والبريطانيون رسميا ثم قاموا بالضغط على الملك الشاب، فأزاحوه عن العرش ونصبوا ابنه مكانه. ڤانيزالوس عاد الى اثينا منتصرا في ١٩١٧و أدخل اليونان فورا في الحرب ضد محور (المانيا، النمسا، تركيا، بلغاريا).. في ١٩١٩ وعمليات التقسيمات ما بعد الحرب العالمية الأولى ضمت مقدونيا وجنوب بلغاريا الى اليونان، وفي ١٩٢٠ وحسب اتفاقية سيڤر منحت مدينة ازمير وجزء من الساحل الغربي لتركيا الى اليونان بمساندة

(١) عائلة مصطفى كمال آتاتورك كانوا من الذين طردوا منها الى تركيا.

الإنكليز والأمريكان حتى ١٩٢٢ عند قيام الأتراك الكماليين بدحر الجيش اليوناني وتم تهجير الأقليات بين الطرفين. مليون اغريقي هجروا الى اليونان في مقابل نصف مليون تركي هجروا الى آسيا.

هنا تظهر لنا نوعية تكوين كل عنصر قومي من مقارنة صغيرة بين الأتراك والإغريق، فلم نسمع بتمرد وفتنة حرب اهلية بين الأتراك حتى في اشد أيامهم سوادا من هزائم متلاحقة تلقوها في اكثر الجبهات. بينما الإغريق على طول الفترة السابقة كانوا (شبه متلاحمين) بسبب وجود عدو مشترك ثم بسبب الإنتصارات المتلاحقة والمكاسب المعنوية الضخمة التي تملأ مجاري دم الإنسان بالأدرينالين كأنه في عرس دائم. لكن سنرى ما جرى في اليونان عند تلقي اول نكسة.

اول ما فعله الإغريق بعد نكسة ١٩٢٢ وتنازل اليونان عن كل مطالبها في البر الآسيوي في مؤتمر لوزان ١٩٢٣ انهم إستداروا فورا الى الملك ومرة اخرى بدءوا يغنون الأغنية العراقية (منه منه كلها منه) مرة اخرى ازيح الملك ونصب ولي العهد بدلا عنه. ومرة اخرى تولى ڤانيزالوس الوزارة في ١٩٢٤ فأعلنت الجمهورية بالإجماع وترأس الجمهورية جنرال من الجيش (الحمد لله انزاح الهم) ولم تبقى اي مشكلة على الإطلاق سوى مشكلة بسيطة جدا، أنه بعد عام واحد فقط لا اكثر حصل انقلاب فرض دكتاتورية عسكرية١٩٢٥. ثم انقلاب آخر في ١٩٢٦ أزاح الدكتاتور القديم وجاء بدكتاتور جديد.

في ١٩٢٧ وضع دستور جديد وتولى ڤانيزالوس الوزارة لمدة هدوء نسبي دامت اربع سنوات كأنها رقم قياسي في عدم اشعال فتن. الحقيقة انه امر عجيب كيف صبروا اربع سنوات دون قتال ومشاكل!.. في ١٩٣٢ بدأت المشاكل من جديد وفي ١٩٣٣ جرت محاولة اغتيال فاشلة ضد ڤانيزالوس. هذه المرة تحرك الملكيون وقاموا بأنقلاب في ١٩٣٥هرب ڤانيزالوس على اثرها الى فرنسا وتزامن الوضع مع الأزمات السياسية والإقصادية التي طرأت في الثلاثينات. وعليه الوضع تدهور من شيء الى اسوأ حتى عشية الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ .

قبل الخوض في مرحلة الحرب العالمية الثانية يمكن للمراقب المحايد ان يقيم نوعية الإنتماء اليوناني من خلال البروفايل السابق لأحداث اليونان. هم لم يتوقفوا عن اتهام

بعضهم بعضا والتقاتل الا بسبب وجود تحدي خارجي وإلا فما أسهل ان يجدوا حجة للتقاتل وتصارع. اعتقد ان الحرب العالمية الثانية والتحرش الذي ابداه موسوليني باليونان كان مناسبة تلقاها الإغريق كأنها خلاص من وضع متحجر. المقاتلين والفدائيين الإغريق لا حقوا الجيش الإيطالي كأنهم يقولون لبعضهم (يا أخي احنة كلنة اخوان بس هذولة الإيطاليين هم سبب البلاء. طبعا طبعا) كأنهم العراقيين كردا وعربا، يكذبون ويكونوا أول من يصدق بالكذبة. وهكذا، طردوا الإيطاليين من اليونان وكادوا ان يقتلعوا البانيا من موسوليني لولا تدخل الألمان وإحتلالهم لليونان في١٩٤٠.

جورج الثاني هرب الى مصر واحزاب المعارضة كان لها عرس كبير في اثبات نفسها فحدث ولا حرج عن الاحزاب الجديدة. فظهرت أسماء مثل جبهة الإنقاذ الوطني EAM وجيش التحرير الشعبي ELAS وEDES الله اعلم بطبخاتهم الحزبية. يكفينا مقولة وينستن تچرچل عند وصفه لتجربته مع اليونان في مذكراته قائلا: الأغريق اكثر الناس حبا للسياسة. لا يتوقفون عن المنازعات والسجالات وكل مجموعة منهم يجدون رئيسا لهم في سبيل الإبقاء على السجالات حتى في حالة وجود خطر خارجي وحتى اذا عرفوا بكل تأكيد ان المنازعات لا توصلهم لشيء فأنهم يصرون عليها. الإغريق اشبه باليهود فما اجتمع ثلاثة منهم حتى يصبح احدهم زعيم والثاني مناصر للزعيم والثالث معارضة[١].

الاحزاب اليونانية كما الاحزاب الكردية لم تصبر حتى يزول الاحتلال بل بدؤا الحرب الأهلية في الجبال. في خريف ١٩٤٣ قامت ELAS بمهاجمة EDES واستمر حتى ربيع ١٩٤٤ . هدنة هشة اعلنت انتظارا لزوال الاحتلال وفي آب ١٩٤٤ اعلنت جبهة لمناصرة الملك المنفي كأن واحدهم يقول للآخر (اصبر حتى يزول الاحتلال وسترى كيف انتقم منك يا ابن وطني العزيز!؟).. ما ان انسحب الألمان ولم تمضي ٢٤ ساعة على تحرير اثينا حتى اشتعلت الأرض والسماء. فكانت هناك جبهتان رئيسيتان الأولى تناصر الإنكليز والملك والثانية تناصر روسيا وستالين. قد نخدع انفسنا بأنها كانت فترة ازواجية الأقطاب والحرب الباردة، ولكن، اولا: الحرب الباردة بين السوفييت والغرب لم

(١) مذكرات تشرشل. فصل، عيد ميلاد في اليونان.. من الجدير بالذكر ان بعض الطبعات العربية لم تنشر هذا التعليق والذي جاء في بداية الفصل المذكور.

تكن قد بدأت اصلا.. ثانيا: في اربعينات القرن السابق وحتى نهاية خمسيناتها نفس الحالة تكررت في انشقاق وتحالف مع الأجنبي ضد ابن البلد. كل ما في الأمر ان في وقتها كانت الصلوات ترسل بحياة قيصر في الكريملين اما في اربعينات القرن العشرين فأن الصلوات البروليتارية كانت ترسل بحياة ستالين في الكريملين. اذن ما الفرق؟، انه الإنتماء الإنقسامي المتنافر المسحوب والمستَقطب لا أكثر ولا أقل.

لا يفوتنا التأكيد على فرق جوهري بين سابقاتها من الحروب الأهلية اليونانية مع حرب ١٩٤٥–١٩٤٩، اذ ان التكنولوجيا كانت قد تطورت فبلغ عدد الضحايا ١٦٠,٠٠٠ قتيل و٨٠٠,٠٠٠ مشرد، كل ذلك في بلد تعداده كان بين ٤الى ٥ ملايين نسمة فقط.. والآن لنقارن هذه الرقام بعدد نفوس فرنسا في ذلك الوقت وعدد القتلى من الفرنسيين بيد الألمان وغير الألمان كم كانت خسائرهم نسبة الى اليونان وكم فرنسيا قتل بأيدي فرنسية. لا مجال على الإطلاق للمقارنة بين إنتماء وتحابب وتماسك الفرنسيين مع ما كان عليه حال الإنتماء في اليونان(أيستوي ألذين ينتمون وألذين لا ينتمون)!!!.

اليونان بعد ١٩٥٠

كما نعلم أن البريطانيين فقدوا قدراتهم السابقة بعد الحرب العالمية الثانية في المجال الدولي وحلت الولايات المتحدة الأمريكة دورها تدريجيا. الأمريكان ومنذ ١٩٤٧ قدّموا دعما قويا للحكومة اليونانية ضد التمرد ودحرت الاحزاب اليسارية مما وضع حدا للحرب الأهلية في ١٩٤٩. الأمر بدون شك يدخل في مجال الحرب الباردة والمساومات بين الدول الكبرى وإلا فكان من المؤكد ان تنقسم اليونان مثلها مثل (اليمن، كوريا، ڤيتنام، المانيا) الى يونان ملكية ويونان اخرى باسم الجمهورية اليونانية الديمقراطية الشعبية الإشتراكية الموحدة القومية المسيحية الشيوعية الأورثودوكسية التقدمية العظمى والصغرى في نفس الوقت!!!

منذ الخمسينات تشهد اليونان إستقراراً وهدوء. بين الحين والآخر تقع ازمات وزارية واضطرابات سياسية وإقتصادية لكنها لا تصل ابدا الى حد التقاتل والحرب الأهلية والإنقسام وهو وضع على عكس كل ماضيها ما عدا فترة الإمبراطورية البيزنطية. فما هو السبب وراء هذا الاستقرار وهل نعزو الوضع الى التدخل الأمريكي والغربي

عامة؟.. جوابا اقول انه لا يمكن التغاضي عن الدعم المادي والسياسي الذي تلقته اليونان خلال القرنين الماضيين وخاصة اثناء الحرب الأهلية الأخيرة. فهي كالعراق ما كانت لولا التدخل البريطاني ضد الإمبراطورية التركية ولكن رغم عدم وجود ذلك الإختلاف الديني فتصرفاتهم كانت أسوأ نسبيا من تصرفات العراقيين ضدّ وطنهم وضدّ بعضهم البعض.

الحقيقة ان هناك واقع سحري ساد على اليونان بدون أن يشعر به أحد. فمن جهة، ان عدد سكان اليونان قفز تصاعديان كما الحال في اكثر بلدان القرن العشرين وبلغ مؤخرا ١١–١٢ مليون. من جهة أخرى وهي أهم نقطة، ان الكثافة السكانية بدأت تتركز في أثينا حتى تجاوز الربع (أكثر من ٤ ملايين يوناني يقطنون العاصمة منذ العقدين الأخيرين).. هذه الحالة الديموگرافية من تركيز ربع السكان في العاصمة بدأت منذ عشرينات وثلاثينات القرن الماضي، وما مرّ جيل واحد (اقل من ٤٠ عام) على تلك الحالة حتى اصبحت اليونان بلاد ساكنة نسبيا كأن تخدروا او قرأ عليهم السحر او شيء مشابه.

اكرر ولكن بصيغة أخرى، منذ الأزل وحتى القرن العشرين لم تحدث حالة ديموگرافية داخل اليونان أن يتركز ربع أو ثلث السكان في مدينة واحدة ايا كانت.. لقد تقاتلوا ثم لجأوا الى التحالفات والسياسة والفلسفة بدون جدوى. فيليب والإسكندر زهقت ارواحهم مع اليونانيين ومشكلة توحيدهم. الفلاسفة استنفذوا بحارا من الحبر في الكتابة. الأديان استهلكت أعمار ملايين البشر دون جدوى. الترك والروس والإنگليز والفرنسيين والألمان والأمريكان ذاقوا الأمرّين من اليونانيين بدون جدوى. كلمة (بلقنة) في القاموس السياسي شاهدة بحد ذاتها على المستنقع السياسي الذي تمثله البلقان لكل من تورط فيها، حيث ان اليونان كانت في صلب الموضوع. لكن بين ليلة وضحاها (قياسا بالتاريخ الطويل) وبمجرد نشأة جيل واحد على وجود حالة ديموگرافية تعطي عاصمة طبيعية الى البر اليوناني، نراها تنقلب رأسا على عقب؟!

لندن ومنذ عدة قرون كانت تضم ربع سكان بريطانيا وكما يقول توينبي انها كانت اكبر مدينة أوروبية في القرون الثلاثة الماضية[1]. كذلك پاريس والقاهرة وطهران

(١) موجز المجلدات السبعة ٣٩٦ .

واسطنبول حتى ان لم يصلوا الربع أو الثلث لكنهم جميعا كانوا مدن كبرى تضم شرائح من كل البلد مشكلين ثقافة واحدة، وبالتالي إنتماء واحد. اما البر اليوناني فأنها لم تحضى ابدا ومطلقا بوضع سياسي او اقتصادي يجعل احد مدنها تضم ربع أو ثلث السكان من كل الأقاليم. هذا ما اعتقد من تأويل للاستقرار السياسي والفرق الهائل بين ماضيها قاطبة مع حاضرها فتراهم يعيشون بصورة طبيعة دون المذابح و(مبادىء).

السؤال الآن هو هل سيستمر الوضع الديموگرافي نفسه قاطعا الطريق أمام نمو عصبيات مدينية تشطر إنتماء الإغريق من جديد؟ وهل ستتكون نويات أخرى دون النواة الواحدة لتسطقب الألكترونات السائبة من جديد؟ الله اعلم. الثابت في الأمر ان ليس للقبيلة والدين والفحولة والترك والإنگليز وكل هؤلاء ذنب فيما حصل من مآسي للبشر الذين عاشوا على تلك البقعة من كوكبنا. الذنب كل الذنب كان بسبب ڤايروس واحد سكن ادمغتهم هو ڤايروس التعصب الأنثوي.

الباب الثاني

الفصل الأول

العراق

أهم سؤال تطارده عيوننا اليوم هو (هل من حل للمشكلة العراقية؟) والجواب هو كما يقول عادل إمام "مش باين".. نكتة سمعتها من الجيل السابق أن بعد سقوط الملكية في العراق، الطبقات المحافظة كانت تتابع ما يجري بقلق. مازحهم أحد ما قائلا "هذا الوضع راح يستمر سبع سنوات" فإندهش الحاضرون وقالوا "أي، وبعدين"؟ قال "بعد السبع سنوات راح تتعودون"!!

لقد صدرت في الفترة الأخيرة كُتب تُصور وتُركز على دموية تاريخ العراق، إلا انني لا استسيغ الثقافة التي تصور الشعوب على انها معصومة من الخطأ كأنهم يحثون القراء على البكاء (أترون كم كان الشعب مظلوماً).. إذا كانت الشعوب (ابطال معذبة) على طول الخط، فلابد انهم احبوا العذاب. من الخطأ ترسخ الإعتقاد داخل الفرد العراقي انه (مظلوم أكثر من الآخرين) وعليه فهو (أعظم من الغير ويستحق اكثر منهم) ثم في النهاية لا نجد ربع أرباع ما يشفي غليلنا فنستدير ١٨٠ درجة نحو الاستكانة المطلقة للعقائد القدرية. حذاري من ذلك المطب الثقافي المليء بالسموم الماسوشية اللذيذة التي يسهل الإدمان عليها وإقناع أنفسنا بسرابها.

الجغرافيا

آلاف الكيلومترات المربعة من جبال زاگروس تحلب غمام السماء امطارا تتدفق معظمها في نهرين عظيمين الى سهول واطئة تسهل فيها الزراعة والري بعيدا عن اخطار القحط البوادي وثلوج شمال. فكيف لا تنشأ الحضارة؟.. العراق من اهم الوحدات الجغرافية في الشرق الأوسط ومهد حضارته ومنبع أطروحاته الدينية إبتداءا بالفكرة السومرية أن الإنسان خلق ليبعد، إنتهاءا بفرض الشرائع.

يمكن تمييز بعض الوحدات الجغرافية في العراق. هناك اقليم كردستان (أو

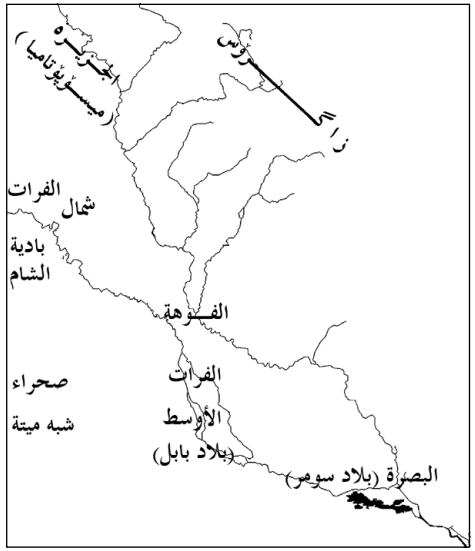

زاگروس) الذي يتمييز بخصوصيات ستبحث لاحقا. أما الأجزاء الرئيسية في العراق العربي فهي:

- شمال دجلة، جزيرة الموصل او ما سمي بميسوبوتاميا
- بادية الشام المتمثلة بمنطقة الأنبار وشريط المدن شمال الفرات
- اقصى الجنوب (مثلث البصرة، الناصرية، العمارة) أو بلاد سومر
- الفرات الأوسط التي عرفت اولا منطقة اكد، ثم بابل
- المركز ويمكن وصفه بمنطقة الفوهة، تتوسط الوحدات السابقة وتمتد جغرفيا في مثلث فلوجة، تاجي، المدائن.

الدكتور فوزي رشيد أشار في حوار شفهي[1] الى ان حضارة العراق (السومريين) بدأت في اقصى جنوب الفرات (الناصرية تحديدا) لسببين.. اولا، منسوب الأرض فيها منخفض ولا يرتفع عن منسوب الأنهار الا بقليل. اي ان الري كان ابسط من باقي المناطق.. ثانيا، بالتحديد على ضفاف الفرات وليس دجلة لأن فيضان الفرات يتأخر عدة اسابيع عن فيضان دجلة.. هذا وان الحدود القومية للمدن السومرية تركز في الجنوب وكحد أقصى مدن الفلوجة وهيت.

سأدخل مباشرةً الى موضوع أصبح يحتل نقاشات الإعلام والمفكرين، ألا وهو موضوع الشيعة والسنة في العراق. ترى ما الذي يجعل السومريين والشيعة ينشأون في نفس الأقاليم؟. أعتقد بأننا لو أخذنا بالحقائق أعلاه وقارنها بواقع انتشار الشيعة في الجنوب والسنة في الشمال، أمكننا ان ندنو من استنتاج عام أن المذهب الشيعي

(١) الدكتور الفاضل فوزي رشيد له كتب ومقالات ومقابلات تلفزيونية كثيرة، لكن الأهم كمصدر أنه سكن وعائلته الكريمة بجوارنا لسنوات طويلة في بغداد واعتبره استاذي حتى وأن لم يعلم بذلك. كان دائم التحدث عن السومريات والتاريخ وكان في قمة التواضع والإنفتاح والبساطة وأيضا، الصراحة والحياد.

انتشر في المجتمعات الزراعية (أراضي سيحية) والتي تكثر في الجنوب. اما السنة فهم مجتمعات تنحدر من أصول (رعوية) حيث قلت الزراعة.. في إيران مثلا نرى معظم السنة (أكراد، بلوش، تركمان الشرق) ذوي اصول قبلية. كذلك في العراق الأكراد والعرب السنة ذوي خلفيات اجتماعية رعوية وقبلية حتى ولو تحضرنا في القرن الماضي.

المسافة المباشرة بين الفلوجة وكربلاء، حوالي خمسين ميل، كانت قبل الإسلام وبعده خط احتكاك بين الزراعة والرعي. فكل من تلك المدينتين تمثل قمة إنتماء اجتماعي له جذوره في التاريخ.. اولا- الفلوجة، آخر مدينة من مدن بادية الشام على الفرات قبل انحداره الى الفرات الأوسط. تلك المدينة تمثل القمة في النزعة القبلية والسلطة الأبوية المجردة.. ثانيا- كربلاء، اول مدينة على الفرات عند انحداره للسهول المنخفضة جنوب الحبانية. كربلاء مثلت احد خطوط احتكاك المناطق الزراعية مع قبائل شمال الفرات وتجمع فيها ارث ماسوشي ثقيل بسبب ذلك الاحتكاك الدموي. فمثلا البصرة ايضا ذات اغلبية شيعية، لكن شتان مابين طباع اهلها، اليوم وفي الماضي، عن اهالي منطقة الفرات الأوسط[1].

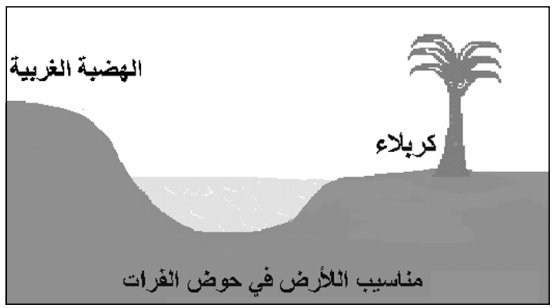

لعل المخطط ينجح في توصيل الفكرة، فهناك تباين في أرتفاع (أكتاف) نهر الفرات يناهز العشرة أمتار على ما اعتقد بين اراضي كربلاء واراضي الفلوجة ومدن شمال الفرات. في هيت مثلا توجد نواعير يرفعون بها الماء بضع أمتار وذلك لري بعض المساحات الضيّقة على كتف الفرات. بينما في الجنوب تكاد مناسيب الأنهار تتساوى مع منسوب الأرض، والري فيها أبسط بكثير.. اعتقد أن هذا التباين قد فرض ومنذ القدم حياة رعوية على سكان شمال الفرات وحياة

(١) بعد الاحتلال لوحظ هدوء نسبي في منطقة البصرة عزاها المحللين الى وجود قوات بريطانية في البصرة قائلين ان البريطانين اكثر خبرة من الأمريكان بسبب تاريخهم الاستعماري.. انا لا اتفق مع ذلك المنطلق وسنرى لاحقا كثرة ما شهدته تلك الأرض من هجمات ومعارك وتوتر.

زراعية في جنوبه. واعتقد أن نفس الخط تجسد على شكل التباين المذهبي الحالي بين مناطق الشيعة ومناطق السنة.

الاستنتاج أعلاه ينطبق على اكثر المجتمعات في العالم الإسلامي، حتى أنه لا يكاد يوجد مجتمع زراعي من العالم الإسلامي الا وطغت عليه احد المذاهب الشيعية في فترة ما من تاريخها.. هناك بعض استثناءات من الطرح أعلاه، مثل الفاطميين في مصر مثلا كانوا قبائل. كذلك بعض القبائل البدوية الآسيوية، تركية او إيرانية، التزمت احدى مذاهب التشيع وذلك بسبب توجهاتهم بالاندماج مع مدن شيعية، لكنها استثناءات. فحتى الأقليات الشيعية في بغداد وشمالها والعلويين في شمال سوريا وفي اليمن وأفغانستان والخ، كلها مجتمعات زراعية. اما اذا سأل احد لماذا لم ينتشر التشيع في مصر، وهي اكبر وحدة زراعية وفي العالم الإسلامي؟ جوابي سيكون انه بسبب تأثير الأمواج القبلية (كالأتراك والأكراد وغيرهم). مثلا، كان الأيوبيين اول من رد المذهب السني بعد انحلال الفاطميين، وترسخ الأمر مع الحكم التركي وهكذا.

سلسلة التاريخ

سنقوم بسرد سريع جدا لتاريخ العراق منذ فجر السلالات السومرية حتى فترة الصراع البابلي الآشوري، فتكون لنا وقفة.

وجود دويلات مدن يجرّنا مباشرة لاستشفاف نوعية شعور السومريين الحضر بالإنتماء ونوعية تصرفاتهم مع بعضهم البعض ومع كل غريب. نفس اللعنة الجغرافية التي عانى منها الإغريق، عانى منها السومريون قبل ذلك بآلاف السنين ولم يعرف أحد منهم مدى خطورتها ولا حتى أكراد اليوم يعرفون خطورتها، الكل يحاربها اذا استعملت ضده والكل يمارسها ضد الآخرين عند المقدرة.

الأساطير السومرية تخبر عن خمسة مدن فقط وجدت قبل الطوفان لكن بعد الطوفان تظهر كيش في منطقة الفرات مستقلة عن أريدو[1]. إذن، يمكن تصور أن المدن وكثافة السكان تركزت في أقصى الجنوب ثم انتشرت شمالا. ثم مع أول فرصة استقلت مدن الفرات الأوسط عن الجنوب.. هذا الشكل البسيط يبين التوزيع الديموگرافي للمدن

(١) هاري زاكس-عظمة بابل- ترجمة د. عامر سليمان ابراهيم. صفحة ٥٥.. تقول الأساطير السومرية ان الملكية أثناء الطوفان رفعت الى السماء ثم انزلت في مدينتي كيش وأريدو معا.

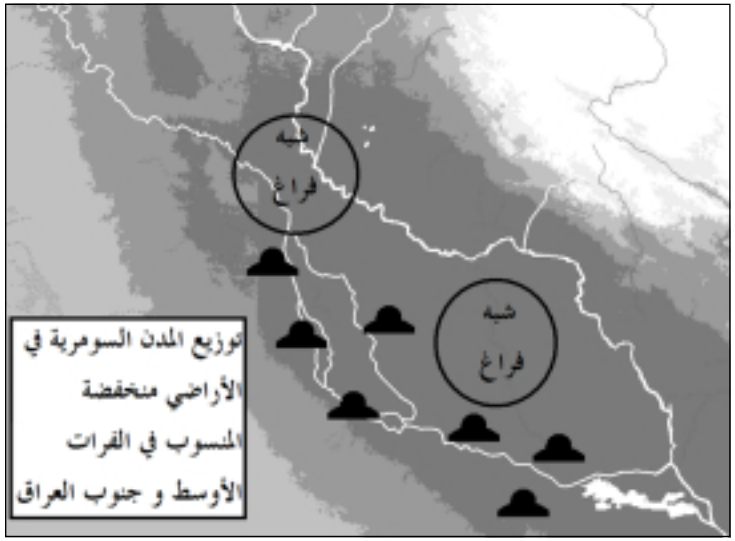

السومرية، وسبب لامركزية بلاد سومر. مدن منطقة الناصرية (اريدو، وركاء، أور) كانت أكثر المدن امنا وأقواها مركزا لكن موقع الناصرية لم يديم لهم السيطرة. فالمدن الأخرى نمت وتقوت واستقلت بذاتها.. منذ فجر التاريخ نسمع كيش ونيپور (قريبتان من الحلة الحالية) مستقلتان وتنافسان أريدو والوركاء (منطقة الناصرية). ثم الحروب المتكررة خاصة بين مدن الفرات الأوسط كونها منطقة أحتكاك مباشر بين الحضر والقبائل. ملحمة گلگامش مثلا تسرد حروب بين مختلف مدن، وإن گلگامش نفسه برأي البعض كان متنفذ في مدينة لگش والتابعة الى العاصمة الإقليمية كيش لكنه يقنع أهل المدينة بالانفصال، فنسمع عن آگا ملك كيش يحاصر لگش[1]. ثم نسمع بالحرب بين لگش وأوما والخ. الحالات الوحيدة التي اتحدوا فيها كانت تحصل تحت احتلال اجنبي او بسبب موجة قبلية كالأكديين او الكوتيين والآموريين الخ.

أود تسليط بعض الضوء على مسألة الآلهة السومرية ومدى تجسيدها لروح المدينة قبل ان تكون مسائل لاهوتية.. يقال مثلا أن (انكي) كان إله الأرض وكان مركز عبادته يقع في اريدو. ثم يقال إن أننا (لاحقاً عشتار) كانت في مدينة الوراكاء وهكذا. هذا دليل على أن الآلهة لم تكن ايكونات معنوية يتركز عبادتها صدفة في مكان ما. ابدا،

(١) هاري زاكس–عظمة بابل– ص ٦٠–٦١ .

فأهالي كل مدينة ابتكروا شيئا يمثل تفكيرهم وأن التعصب كل مجموعة لمدينتهم خلقت منافسة وتطور الأمر الى أسماء ورموز مقدسة تمثل روحية سكان كل مدينة وإنتمائهم المنفصل[1]. وهناك حالة إندثار مدينة معينة كأريدو، بسبب تحول مجرى الفرات عنها أو إنحسار البحر. المدينة ماتت لكن رمزها الدينى (أنكي) ظلَّ مقدسا في مقام ديني باسم أپسو.. بعبارة ادق، المدن كانت منبع العبادات والتقديس لكن شيئا فشيئا اندثرت المدن وبقيت الرموز الدينية كمعاني انسانية بسيط تطورت الى اساطير وخرافات.

الأمواج القبلية

الموجات القبلية كانت تتغلغل في العراق وتتحول تدريجيا من الرعي والبداوة الى الزراعة. لو قارننا ما كان يجري حينها بما يجري الآن في المجتمع الكردي، سنرى أن استقرار القبائل في قرى ومدن يرافقه تحول تعصبهم من القبيلة الى التعصب لقرية أو مدينة، وهو نفس ما جرى للقبائل العربية التي استقرت في الكوفة والبصرة اذبان الفتح العربي، وهو نفسه حدث مع الاكديين. مثلا، قبائل المارتو (أوائل الأكديين) ظهروا في منطقة ديالى ونزحوا جنوبا.

السومريون يتحدثون عن إله المارتو (أي رئيسهم) يطلب الزواج من بنت من مدينة كازاللو Kazallu فيقول لها أحد رجال المدينة ان لا تتزوجه لأنه "يأكل اللحم نيئاً وهو دائم التنقل وما عنده بيت، وعندما يموت لا يدفن" هاري زاكس يقول ان فيها دلالة على (احتقار) المتحضرين للقبائل.

(١) لننظر في هذ الإقتباس من أسطورة دينية ونقرأ ما بين السطور (ذهبت أنن، آلهة مدينة الوركاء، الى Apsu مقام ابيها انكي في اريدو، حيث أقام لها أنكي وليمة مناسبة. وبعد ان شرب انكي من نبيذه الجيد، اصبح مملوءا بالكرم فأنعم على أنن بأكثر من مائة هدية كالملكية والعدالة والحقيقة والزور والبغاء المقدس والموسيقى وعددا من الحرف والحكمة والمعرفة... الخ. وضعتهم انن في قارب تمكنت من إيصال الهدايا الثمينة الى الوركاء) يعلق الكاتب عليها (انها تظهر تغيير مركز الحضارة من اريدو الى الوركاء) وهو محق. كذلك يمكن استشفاف ما كانت تعنيه ان تكون (الإلهة فلانة بنت الإله فلان) انه حالة انتقال السلطة والقوة (و جزء من السكان) من مدينة الى مدينة أخرى لكن تحت اسم جديد وهوية جديدة تتجسد بإله يصطنعونه ويجعلوه رمزا لإنتماء المدينة. راجع (عظمة بابل) ص ٥٥–٥٦.

وهي بالضبط تلك الروحية المتكبرة لأهل المدن[1].. هذا يعني ان الحضر كالعادة لم يستسيغوا البدو لكن الحروب والمنافسات بين المدن انهكت البلاد مما سرع في تغلغل القبائل الأكدية من بادية الشام وسهل انتزاعهم السلطة. جرى ذلك على يد سرجون الأكدي ٢٣٧٠ ق.م. وفي القرون اللاحقة اندمج الأكديون بالسومرين وأطلق على البلاد اسم جديد (بلاد سومر وأكد). هذان الاسمان تكررا في العصر العربي فنلاحظ ان في البداية كانوا يقولون (العراقين) نسبة الى الكوفة والبصرة.

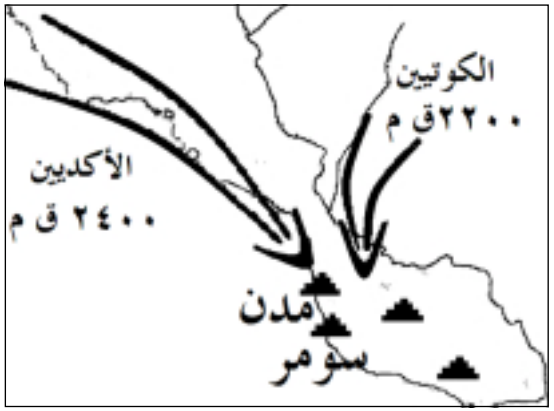

تلا الأكديين بقرن ونصف موجة الكوتيين. انحدروا من جنوب زاگروس ولا داعي للإنكار أن حكمهم كان شبيها بحكم القوط لإيطاليا. معدل حكم ملوكهم كان بين ثلاثة الى سبع سنوات وسجَّل السومريون انه (لم يعد أحد يعرف من هو الملك ومن هو ليس ملك).. حوالي ٢١١١ ق.م حين تمكن أوتوخيگال، الملك الوركاء، من طرد زعماء الكوتيين. لكن جارتها أور سحبت البساط من تحتها بسرعة وأصبحت عاصمة آخر دولة سومرية. أور–نمو كان أول ملوكهم وأول من فرضوا الشرائع النصية.. لقد اعادت الثقافة السومرية على البلاد وقد يتراءى لمثقفينا اليوم انها كانت وما زالت حقبة وضعت حدا للهمجية التي مرّ بها العراق. إلا ان المدنية في العراق، كمثيلتها في اليونان، كانت خطا موازيا للمشاحنات والتناحر، فتفرقت المدن مرة أخرى ودخلت في حروب أهلية. أقليم سومر (البصرة) استعانوا بالعيلاميين وأقليم اكد (الفرات الأوسط والمركز) استعانوا بالقبائل

(١) المصدر السابق ص ٦١ . ان القول بأن (إله المارتو طلب الزواج من فتاة من مدينة كازاللو) لا يعقل ذلك إلا أن يكون شيخ القبيلة قد قام بذلك لنفسه أو لإبنه، وما أكثر رجال القبائل الذين يميلون للزواج ببنات الحضر. هنا تظهر حقيقة أخرى عن معنى الإله لدى السومريين وهم اصل ثقافة الشرق الأوسط. فكل رجل متننفذ عن القبائل وصف بأنهن (رب) تلك القبيلة وليس في الأمر أي معنى لاهوتي على الإطلاق على الأقل عند كتابة تلك النصوص.

الآمورية من بادية الشام. كانت مدن ايسن ولارسا واجهة تلك الحرب الأهلية واستمر الحال قرون طويلة حتى ظهور بابل على الساحة العراقية في القرن التاسع عشر قبل الميلاد والذي أنهى الوجود السومري كشعب واحدث (ببطء) تغيير نوعي في الحالة السياسية للعراق.

السومريون ماتوا كلغة لكن يبدو انهم تركوا بصمات قوية جدا على التراث الإنساني ككل وليس بالضرورة ان تكون كلها بصمات ايجابية لكنها موجودة وقد تمت الأشارة الى الكثير منها. الدكتور فوزي رشيد كان يركز كثيرا على تلك الحقيقة. منها أنه كان يعتقد ان سراديب دفن الموتى في النجف الأشرف قد تعود لإعتقاد السومريين بالعالم السفلي. وكان يشير الى أن المناحات التي يصطبغ بها الأدب والغناء العراقي حتى الغير ديني منها، تعود الى وجود نفس الواقع الحزين لديهم. ففي الكتابة المسمارية رسم السومريون رأس الذئب بمعنى (غناء)! أي ان غنائهم كان ترجمة صوتية لعواء الذئب.. كذلك كان يشير الى القصائد السومرية بقافيات تنتهي بكلمة (نمو) ويقارنها ببعض (الأبوذيات) الحالية ويعتقد أنهم كانوا يطولون لفظ تلك القوافي بشكل (نموووو) مثل عواء الذئب.. كذلك في مقابلة تلفزيونية أشار الى حقيقة النقش الذي يسود على (الچراوية، الكوفيات) التي يعتمرها الرجال في أكثر بلدان الشرق الأوسط عبارة عن شبكة صيد. قال الدكتور أنها تعود لسومريي منطقة الأهوار كانوا يلفون شباك الصيد على رؤسهم وأصبحت كعلامة خاصة بهم مع العصور.. أذن، لو تذكرنا قصة آدابا (الصياد الذي رفض جنة المدينة وأختار الحرية بعيدا عن السياسة) يمكن استشفاف عمق التأثير السومري وما تمثله تلك النقشة التي يعتمرها الرجال[1].

(١) لقد انتشرت نقشتان رئيسيتان، النقشة ذات الخطوط الرفيعة بمساحات واسعة (كالتي غطّت رأس ياسر عرفات طوال الوقت) اعتقد انها انتشرت بين ذوي الأصول الزراعية (الشيعة في العراق وأهل الأهوار مثلا والقرويين في فلسطين) أما النقشة الأدق وبلونيها الأسود والاحمر فإنتشرت بين المجتمعات العشائرية الأبوية في مناطق شمال دجلة والفرات. طبعا هناك الشماغ الأبيض لقبائل العراق والخليج وهناك الأصفر لمن أتم فريضة الحج وهناك نقشات والوان أخرى لكنها لا تمت لموضوعنا بصلة.

ظهور بابل على الساحة العراقية

ظهور بابل على الساحة العراقية أحدث بالتدريج تغييراً معتبراً في تاريخ العراق. موقع مدينة الحلة اليوم وهوائها وبساتينها وعدد سكانها الكبير نسبيا دليل على امتياز جيوبوليتيكي على الأقل في الفرات الأوسط، فبرغم عدم كونها مركزا دينيا كالنجف وكربلاء، إلاّ ان عدد سكانها ومستواهم العام دليل على ما ذكر. لو أن سعد بن أبي وقاص أختار ذلك الموقع بدل من الكوفة لتغيّر مجرى تاريخ العرب والأسلام ووفر بحوراً من دماء العراقيين وعرب الحجاز على حد سواء.

قبائل الآموريين كانوا موجة قوية اجتاحت بوادي الشام والجزيرة (ميسوبوتاميا) جزء منها أتجه الى نينوى وقد يكونون أجداد الآشوريين. الجزء الأكبر استقر في ماري (دير الزور في سوريا) ونزولا الى الفرات الأوسط، سيطروا على ايسن ثم أنشأوا بابل. في البداية لم يعر احد أهمية تذكر لبابل، إلا انها قويت وهزمت باقي المدن. الدولة البابلية الأولى (حوالي١٨٠٠-١٦٠٠ ق.م) خصوصا حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م) فرض توحيدا قسريا، فالتوحيد في البلدان غير المركزية لا يأتي بسلاسة، هو قد فرض قوانينه الرهيبة فكان ثمنه أن وضع نهاية للسومريين كشعب ولغة. هذا وإن نهوض بابل قد أزاح مدن أقليم الناصرية نهائيا عن موقعها السيادي وتجلت بابل بأحسن صورها ابتداءا من النصف الثاني لتلك اللألفية.

يمكن تأويل تفوق بابل على المدن السومرية (مجموعة اريدو، وركاء، أور) كون موقعها اقرب الى منطقة الفوهة. كيش وأكد تأسسا في مواقع قريبة من الفوهة ايضا قبل بابل، لكن اعتقد ان التوقيت كان له تأثير فأن أكد سبقت نشوء بابل بحوالي ٦٠٠ سنة وكيش سبقت أكد بفترة مماثلة. لكن في تلك القرون المدنية لم تكن قد تأصلت بعد في شمال الفوهة العراقية بل كانت مراعي وقفار وان التركيز العمراني كان في الفرات الأوسط والبصرة فقط.. حتى دولة بابل الأولى نفسها فأن سيطرتها أول الأمر (فترة حمورابي) لم يكن طغيانا نهائيا لمدينة بابل كما حصل مع بيزنطة. مثلا، منطقة الأهوار أنفصلت ولمدة ٢٠٠ عام عن بابل الأولى وأن تلك النهضة السريعة لبابل تعرضت لإنتكاسات قوية. النهضة الحقيقية لبابل جاءت في العهد الكاشي.

مملكة كاردونياش:

الفترة الفعلية لدولة كاردونياش حوالي ١٦٠٠ الى ١٢٥٠ لكن استمر وجودهم تقريبا حتى نهاية الألفية الثانية ق.م. لا أعرف اذا كان اساتذة التاريخ في العراق يحاولون وبتقصد التعتيم على أهمية دولة كاردونياش لكون الكاشيين لم يكونوا من قبائل بلاد الشام؟. الوقائع تبين انها كانت تضاهي الدولة العباسية في رخائها واستقرارها وعمرها المديد وكما كان يرى الاستاذ المرحوم زبير بلال مثلا (أن الدولة الكاشية كانت اكثر الدول العراقية استقرارا وعمرا).

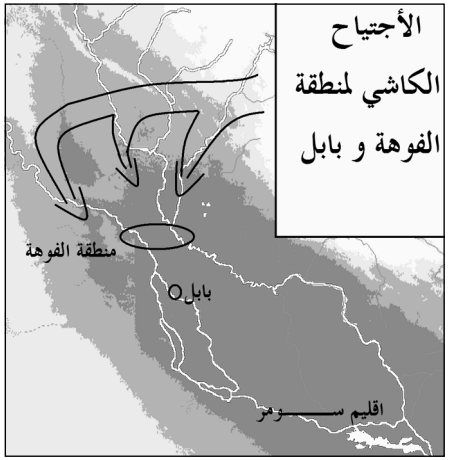

هاري زاكس يروي ان الكاشيين اجتاحوا زاگروس ثم شمال دجلة ثم سهول ميسوبوتاميا حتى شمال الفرات ونزولوا من ديالى ودجلة والفرات سويا الى منطقة الفوهة وبابل. ان صح ذلك الرأي فإنه حالة منفردة في تاريخ العراق قد تفسر عمر دولتهم الطويل.. بعد نهب مورسيليس الأول ملك الحيثيين لبابل وانسحابه السريع الى الأنضول (١٥٩٥ ق.م)، استولى الكاشيين على بابل مباشرة وكان اندماجا مثمرا بين القبيلة والمدينة وأنشئوا دولة مستقرة دامت قرونا طويلة.. لنبيّن بعض أسباب ذلك الرخاء والاستقرار السياسي ونتعلم منه:

١- الكاشيين سكنوا منطقة الفوهة، زقورة عگرگوف في أبو غريب شاهدة على ذلك حيث كانت احدى عواصمهم المؤقتة باسم دور كوري كالزو. أي انهم سيطروا على مركز العراق الستراتيجي.

٢- وحّدوا اكبر المناطق المانحة للثروة البشرية للعراق (زاگروس وميسوبوتاميا وشمال الفرات) ونزحوا إلى السهول الزراعية (المنطقة الشيعية حاليا) من ثلاث بوابات رئيسية، نهر ديالى ودجلة والفرات. اي قياسا بالوضع السياسي الحالي كأنهم وحدوا جنوب كردستان وديالى مع الأنبار للسيطرة على بغداد وجنوبها. كأنهم

وحدوا كل العراق الحالي ما عدا نينوى وجبال زاگروس.

٣- قدّسوا الآلهة العراقية، اي احترموا إنتماءات اهل المدن، وانهم عبدوا مردوخ (اي انهم اعتبروا نفسهم بابليين) هذا يذكرنا بما قام به كلوفيس الفرانكي مع پاريس.. مقارنة بحال العراق في الوقت الحاضر تتراءى لي دولة كاردونياش كأنهم قوة عسكرية وحدت الشرائح السنية (أكرادا وعربا) في الشمال العراقي، لكنها اعترفت بأكثرية الشيعة فيها فقامت المرجعيات الشيعية (المقصود هنا مجاميع آلهة المدن في جنوب العراق) بالاعتراف لهم بالأهلية لحكم العراق. فلا عجب ان دولتهم كانت من أنجح واهدأ دول العراق. حتى العباسيين لم يكن لهم هذا الطابع الشبه وطني. لكنه كان بمقياس ذلك الزمان وفقط للقسم الوسطي والجنوبي للعراق، اما زاگروس وميسوبوتاميا وشمال بادية الشام فهم لم ينتموا الى بابل. حتى الكاشيون في زاگروس انفصلوا عن كاشيي العراق.

يمكن تصور الكاشيين في العراق كحركة اجتياح ثم اندماج تتركز مع الزمن في المدن خاصة بابل وتنتهي مع نهاية الألفية بأن يذوبون في بابل نفسها كان ثقبا اسود إبتلع سديما فضائيا لاهبا.. مع كل هذا التطور المفترض لليونان لم نسمع ان المدن تعترف الواحدة بالأخرى حتى في قمة هزائمهم. بينما مدن جنوب العراق اعترفت ببابل كعاصمة. لكن نقطة الضعف ان البابليون أنفسهم لم يطرحوا إنتماءا وطنيا ونفروا من قبائل شمال وجنوب العراق.. بالتزامن مع تلك الحركة يمكن ملاحظة نمو رد فعل قبائل الشمال أن ازدادت عنفا حتى تمخض في النهاية عن إنتماء قومي أقوى بأضعاف المرات من الإنتماء التقليدي لبلاد بابل (عبادة وتقديس المدينة واهلها) تمثل بدين وإنتماء وإله عسكري وقومي رهيب هو آشور.

الفصل الثاني

آشور

اعتقد ان آشور كان أول إله يجسد إنتماء قومي في التاريخ، على الأقل في الشرق الأوسط. الإله آشور أختلف كليا عن الإله مردوخ فكان يمثل إنتماء قومي، وهو إنتماء من القوة بحيث اننا نحن الأكراد وحتى اليوم لم نصل ذلك المستوى من وحدة الإنتماء. ان التجربة الرومية كان قد حصل عند الآشوريين قبل الروم بألف عام وان الإنتماء القومي للآشورين كان يشمل كل من يتكلم باللغة الآشورية ويوالي ملوكها. قد زالت بينهم الكثير من الفوارق بين مدينة ومدينة، كذلك الفوارق بين المدينة والقبيلة. يكفينا ان نعلم بأن عاصمة الآشوريين لم تكن مدينة واحدة ولم تكن بتلك الأهمية إذا كانت في الشرقاط أو كلخو أو نينوى، فما دمت تتحدث بالآشورية اذن (أنت منا). أعتقد أن هذا هو جوهر ذلك الإنتماء وسر تفوقه وقوته(١).. خطوط التجارة التي شكلت نينوى الحالية

(١) أخواننا السريان وهم بقايا الآشوريين، قد فقدوا تلك الروحية منذ قرون طويلة. أبسط دليل يكمن في مدى تقبلهم لإنضمام قبائل ومجاميع غير سريانية وغير مسيحية الى مجتمعاتهم. بل حتى في مدى زوال الفروقات بينهم. يكفي التنبيه الى ان مجرد انقلاب أحدهم من دينه الى دين آخر يكون سببا مباشرا في اعتباره انه لم يعد من تلك القومية كما كان. هذا دليل آخر على الأصول القومية للديانات وففي هذه الحالة نرى ان الإنتماء القومي قد ذاب نهائيا في الدين.. على كل حال، الإنتماءات ليست منوطة باللغة والنسل، فالإيطاليين احفاد الروم لكن لا نرى فيهم تلك الروح العسكرية التي كانت لدى الروم. يمكن ان نلمس الروح العسكرية الآشورية في إنتماء أهل نفس المنطقة التي نشأ فيها الآشوريون وهم العرب السنة. كما نرى، التفرقة بين مدينة وأخرى ولهجة وأخرى في أوساط العرب السنة وتركمان العراق أقل مما لدى الأكراد والسريان والعرب الشيعة. الا ان عندهم نقاط ضعف رئيسية تفقدهم جوهر الروح التوحيدية لدى الروم والآشوريين: اولا، مشكلة الإنتماءات الضيّقة (العشائرية والنسب وصلة الدم) ثم بعض التعصب المديني في الموصل وتكريت ومدن شمال الفرات كعنة وراوة والخ. هذه نقاط بسيطة وقابلة للهضم والتجاوز، حيث أن بغداد مدينة لا منازع لها في العراق.
ثانيا وهو الأهم، ضعف الروح الوطنية (أو النفور من الأنوثة الوطنية) وعدم مقاومتهم للاستقطاب =

ملتقاها، كانت في التواصل والتذويب بمثابة ميدان الفوريوم الذي أسس اللبنة الأولى للروم.. التجارة هنا ليس عنصر سحري ندخله في موضوعنا لتفسير شيء ما. كل ما في الأمر ان التجارة عامل إختلاط وامتزاج بين الثقافات. شتان مابين مجتمعات انغلقت على نفسها في وديان ومدن، عن أولئك الذين تواصلوا مع بعضهم البعض ومع باقي البشر.

اعتقد ان الآشوريين لم يكونوا قبيلة او حتى شعب له خصائص إثنية ثابتة كلون العين ونوع الجمجمة وما الى ذلك. بل انها كالثقافة الرومانية أصبحت ثقافة عامة وإنتماء مذيب وذلك لسهولة الاندماج بها قياسا بالإنتماءات المغلقة لباقي الشعوب. حتى ان هناك شك كبير في كونهم كانوا اتحاد قبلي سامي او ميسوپوتامي خالص. لا شك ان اللغة كانت من امهات اللغات السامية، غير انها إمتصت من الأمم المحيطة كالكاشيين والخوريين والميتان والحيثيين والآراميين أفواج لاتحصى(١).. نوعية انتمائهم تدل على كونهم خليط تبنوا ثقافة خط التجارة الواصل بين كتلتين من البلدان (١-كتلة العراق والهضبة الإيرانية ٢- كتلة الشام والأنضول ومصر في الجهة الأخرى). فكما كانت الثقافة العربية وليدة خط التجارة بين افريقيا واليمن مع الهلال الخصيب، وكما

=الأممي الخارجي (القفزة من الإنتماء الضيق الى إنتماء يتجاوز حدود العراق كما أشير سابقا لإنتماءات أممية دينية كانت أو قومية وبتعصب). ان ولاء الآشوريين كان لبلاد آشور و ولاء الرومان كان لروما وإيطاليا نفسها وليس كما لدى البعثيين مثلا في إصرارهم على التيارات الأممية وتسابقهم على تشتيت ثروات العراق بسبب استقطاب خارجي.. يمكن مقارنة الفروقات بين بابل وآشور اليوم فيما يدور في البرلمان العراقي (مع احترامي للكل) أهل الجنوب يصرون على الإنقسام الى أقاليم. بعكسه ترى السني يصر على أن العراق (جزء) من الأمة العربية. أي نوع من التبعية كان مرفوضا لديهم ولو نطق روماني بأن إيطاليا (جزء) من اوروبا مثلا فالويل له وكان من الخيانة ان يدعوا قطعة ذهبية تخرج من روما.. القليل جدا من مثقفينا (كردا وعربا) يميزون بين الوطنية والقومية حتى إن العقل العراقي أصيب بنوع من السوفان من كثر استعمال مصطلحات (وطنية، قومية، تقدمية، أشتراكية، رجعية، إمبريالية وصهيونية، شعوبية)، الخ، بالنسبة للشاب العراقي أصبحت تمثل معاني غضب وتهديد لا أكثر.

(١) على الكردي هنا ان لايقفز فرحا لسماعه هذا الرأي قائلا "اذن فالأشوريين ايضا من اصل كردي" هذا طبع ورثناه عن فقرنا الثقافي وهو طبع هدام ومخدر. حتى لو ثبت ان للآشورين اصول كاشية او زاطروسية فأن حقيقة كهذه ستثبت مدى ضعف الإنتماءات والثقافات التي نشأت في زاطروس مقارنة بثقافات السهول المحيطة بها كونها القبيلة او العائلة وأول ما نزلت من الجبل بدلت لغتها وإنتماءها وانقلبوا على اقربائهم في الجبل.

كانت ثقافة الأتراك وقبلهم الفرس وليدة خط الحرير، كان الأشوريون ابناء خط تجاري سيشار اليه الآن.

يبدو ان الآشوريين ورثوا مستعمرات تجارية من الأكديين في كاپادوكيا منذ ١٩٥٠–١٨٠٠ ق.م.[١] هاري زاكس يسلط الضوء على تدفق للثروة على آشور في تلك الفترة، لكن أمواج القبائل الآرية (الحيثيين والميتاني) الى الشمال الغربي أخفتت ذلك الإزدهار.. بعد عدة قرون من التبعية للميتانيين وبابل. نلاحظ ظهور تحركات قبلية تجتاح السهول الشمالية ثم تفوق آشوري على الفور. أي ان هناك علاقة طردية بين قوة آشور مع اي حالة مدّ قبلي تسود شمال الفرات. مثلا القبائل الآرامية استولوا على شمال الفرات في فترة حكم آشور رابي الثاني (١٠١٠ إلى ٩٧٠ ق.م) تتبعها فترة مبهمة المعالم بسبب قلة مدونات المكتشفة. ثم نسمع بإزدهار أكبر تشهده آشور ابتداء من عهد أدد نيراري الثاني٩١١–٨٩١ ق.م يتبعه مباشرة طرد القوات البابلية من منطقة ارابخا وزاموا (كركوك والسليمانية وگرميان الحالية) ثم حملات آشورية تصول وتجول في عيلام وجنوب زاگروس. هذا يدل بدون شك على سقوط أهم الخطوط التجارية التي تربط بابل بخارجها.[٢]

ما سبق دليل على ان خطوط التجارة بين جنوب العراق وخارجه كانت تحت سيطرة آشور ثم اصبح حكرا عليهم. فزاگروس كالعادة وعرة ولا أتوقع أن الخوريين (أجداد الأكراد) كانوا أحسن حالا من احفادهم. المسافر من حلبجة الى زاخو في التسعينات كان عليه أن يمر من ٤٠–٥٠ نقطة گمارگ وتحقيق وإتهامات.. هناك خط آخر محتمل للتجارة عبر شمال زاگروس بمحاذاة بحيرتي اورميه ووان (اورارتو) الحضارة لم تكن قد تجذرت فيها. اذن، الخطوط الآمنة الوحيدة للتجارة كانت تمر ببلاد آشور.

(١) موقع گولتپه في تركيا (عظمة بابل – ص٨٥،٨٦).

(٢) عظمة بابل. ص ١٠٨–١٠٩

نينوى رغم قلة وارداتها الزراعية قياسا ببلاد بابل، لكن لها أمتياز ولحد الآن في القدرة على السيطرة على خطوط المواصلات. فمن الشرق الجبال ومن الغرب والجنوب هناك البادية. نحن الأكراد حتى اليوم نعاني من سيطرة مدينة الموصل على أسهل طرق المواصلات بين جزءين رئيسيين لكرستان العراق. منطقة سوران (أربيل والسليمانية) مع مناطق بهدينان (محافظة دهوك ومناطق الأيزيديين).. غير ان الآشوريين واجهوا تحدي اثني وجيوبوليتيكي دائمي يتكون من شقين:

١– لم يكن للآشوريين حدود معزولة كالتي تحمي ظهور المصريين والفرس. هذا اضطرهم الى اللجوء الى الحملات العسكرية التي قلما توقفت.

٢– عليها ضمان ولاء وحدتين جغرافيتين مختلفتين هما الجبل والبادية.. للّه اقول ان نجاح الموصل في هذا المجال عبر التاريخ كان ممتازاً في إمتصاص ولاء المجتمعات المحيطة. فهي بودقة تذويب ذو وزن لايستهان به خاصة لسكان زاگروس المتراكضين اصلا للأبتعاد عن مجتمعاتهم المعقدة وما كل هذا الكلام الذي يردد عن (أحتواء الموصل ٢٠و٣٠٪ من الأكراد) الا زوبعة في فنجان إذ مادامت الحالة الجيوبوليتيكية ثابتة، فأن التاريخ يعيد نفسه دائما وان نفس القابلية الرومانية على امتصاص ودمج القبائل كانت قد وجدت لدى الآشوريين. ونفس العداء لدويلات المدن عند الروم نتلمسه لدى الآشوريين وبدموية أكثر.

بالإضافة لما ذكر فطبائع الآشوريين شابهت الأتراك العثمانيين أيضا. يقول ارنولد توينبي: العثمانيون فعلوا كما يفعل مربوا الخيل الأصيلة، هم ربوا وانشؤا رجال الشعوب الأخرى وسخّروهم لخدمة جيوشهم.. أعتقد أن هذا بالضبط ما فعله الآشوريون مع كل القبائل والمدن والمجتمعات المجاورة. مثلا قبائل السوتو نزحوا من بادية الشام وهاجموا الفرات الأوسط ودحرهم البابليين في البداية بمساعدة الآشوريين. لكن بعد فترة نسمع انهم يخدمون في صفوف الجيش الآشوري بدليل احد الكتابات المكتشفة فيها شكوى مقدمة من نساء آشوريات يشتكين للملك الآشوري الذي زوجهن لرجال قبائل السوتو ان ازواجهن لا يدفعون مهورهن[١].. على العكس من ذلك، نسمع أن تجاوب البابليين نفروا من القبائل الكلدانية وتكبروا عليهم طوال الوقت.

(١) عظمة بابل صفة ٢٨٧ .

الكلدان حاربوا الآشوريين مدافعين عن بابل (أو بالاحرى منجذبين لأنوثة بابل) طوال القرون التي حكم فيها الآشوريون بلاد بابل وفي النهاية كانوا هم الذين تحالفوا مع الميديين وهزموا آشور. مع ذلك، البابليون لم يتمازجوا معهم أبداً ومطلقاً حتى بعد زوال آشور وحتى في عصر نبوخذنصر الذهبي والى احتلال بابل من قبل الفرس ٥٣٩ ق.م.

نستنتج انه منذ بداية المنافسة بين آشور وبابل في النصف الثاني من نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد كان نمو موارد آشور البشرية والمادية تصاحبه حركة عكسية في بابل. النتيجة ظهرت في ١٢٠٨ ق.م حين هُزم كاشتيلياش الرابع على يد توّولتي ننورتا واحتل الآشوريون بابل لأول مرة.[١]. ذلك النصر كان سابقة فريدة، ورغم انها لم تدم طويلا لكنها كانت دلالة على ما تحمله القرون المقبلة لطبيعة العراق السياسية بأن الإنتماء العسكري لأقاليم شمال العراق (السنية حاليا) ستسيطر على الأقاليم الحضرية والزراعية لبلاد بابل (الشيعية حاليا).

(١) ننورتا اخذ معه هيكل الإله مردوخ الى آشور (شرقاط) فحصل تمرد في صفوف جيشه واطاح به ابنه ودفع ننورتا حياته ثمن سرقته لهيكل مردوخ. الرهبة الدينية لبابل سيطر على آشور مرة أخرى وتجلى ذلك في سياسة وريث ننورتا الموالية لبابل. فالنقارن ذلك بالعصر الحديث، في انتفاضة ١٩٩١ قصفت بعض المراقد في جنوب العراق، بعد سنوات عندما هرب حسين كامل الى الأردن ثم عاد وقتل بأمر صدام حسين قال بعض الناس انه كان انتقام لما قام به ضد المراقد. ولو كان الدين المردوخي استمر الى اليوم لقال اصحابه : ارأيت ماذا فعل به مردوخ؟.. هذه الاعتقادات الدينية تنمو لدى المجتمعات الأنثوية خاصة بعد الهزائم (الهزائم التي عادة يسببها الأنكماش نفسه) وهو نفس ما حصل في اليونان كما أشرنا. أما الزاگروسيين فانهم على طول التاريخ كانوا وما زالوا اكثر الناس استسلاما لديماگوگية. كذلك ما نسمعه عن الهنود الحمر مثلا من انفصام كبير للفحولة يصاحبه استسلام غير طبيعي (لساحر القبيلة).. طبعا ليس القصد هنا ان نشع الناس على التدمير والمذابح فالآشوريين نفسهم في وقتها كانوا منجذين للاستقطاب اللأنثوي لبابل وهو الذي كان يدعهم لتلك الأنثى وهو نفسه الاستقطاب الذي سبب ذلك التمرد. على الأنثى والذكر التعلم كيف يتعاملون مع جرعات الاستقطاب والأنجذاب المتبادل وألا فلن يبقى لأي طرف منهم سوى العبودية للوهم.

بابل في ظل آشور

الحكم الآشوري لبابل يبدو كسلسلة من الثورات البابلية والكلدانية للإستقلال وإصرار مستميت على تطبيق شريعة مردوخ (شريعة حمورابي) واقامة مهرجان اكيتو الذي كان القسم الأكبر منه يحتوي على مناحات هستيرية من نحيب وتعذيب الذات لها شبه كبير بمراسم عاشوراء وما يجري من نحيب وماسوشية.. الحالة السياسية اصبحت مشابهة جدا لحكم السنة للشيعة اثناء فترة العراق الحديث (١٩٢١-٢٠٠٣م) فخلال كل جيل كانت تقوم ثورة في بابل او غيرها من مدن الجنوب، لكنها تتخبط داخليا وتنفض وحدة المدن والعشائر بسبب ذلك التعصب الإنقسامي لكل مدينة ضد كل الغرباء وضد بعضهم البعض. في الكثير من الاحيان كانت بابل تستغيث بالكلدان ضد آشور ثم يتبدل الموقف فتستغيث بالآشوريين للتخلص من الكلدان. في نهاية كل ثورة كان يأتي جيش آشوري يسحق الجنوب كما حصل في انتفاضة شباط ١٩٩١، فتخمد البلاد لعدة عقود من الزمن قد تقصر او تطول، حتى تنمو وتتجمع الثروة المادية والبشرية من جديد في بابل وتثور مجددا.

قوة بابل لم تكمن في استقطاب الثروة البشرية من اقليمها فقط، بل كان لها سحر انثوي مؤثر كما لمصر وفارس تقريبا. مثلا ما ذكر أعلاه من تمرد الآشوريين بعد اول احتلال آشوري لبابل، أو ما حصل بين آشور بانيپال وأخوه شمش أوكين الذي ولاه بابل وأنقلب على آشور (في الأمر شبه بما فعله مارك أنطونيو ضد أهله الروم). بعد أعلان تمرده تجحفل الآشوريون وحوصرت بابل لمدة سنتين ثم احرقوها في (٦٤٨ ق.م) وقتل شمش اوكين فيها. أي أن قوة الاستقطاب الأنثوي لبابل تبدو واضحة ولا يستهان بها لكن هناك فرق بين كميتها ونوعيتها قياسا بمصر وفارس.

بالمناسبة، الآشوريون كانوا يعرفون نقاط ضعف البابليين وكل أهالي المدن من طبعا ع أنثوية يغلب عليها التقزز والتمييز ضد كل ما هو غير بابلي. مثلا، في احد المرات تحاصر بابل من قبل جيش آشوري، وهي حالة متكررة جدا كما بينا، فيقوم المتحدث الآشوري بمخاطبة البابليين على اسوارهم قائلا "كيف تتحالفون مع هؤلاء الكلدانيين القبليين؟ تخلوا عنهم مع وعدنا لكم بأن لا نمسكم بسوء". هذا دليل واضح

على ما سبق وهو الذي كان يسرع في شق تحالفات بابل مع الكلدان وباقي القوى.. لا يعتقد احد ان العقل والأدراك والشعور بالمنافسة في الإنتماء حصر عليه وعلى زمانه، فحتى قطعان الأسود والقرود والذئاب تشم بعضها وتُميِّز بين القريب والغريب. هكذا كان ابن القرية والعشيرة يصد من قبل أهل المدينة فيتجه ذلك المطرود غاضبا الى (العسكرية الآشورية). الشاب البسيط قد ينسى اي شيء إلاّ عيون المرأة المخادعة التي جذبته ثم انقلبت عليه في لحظة، وشتان ما بين النظرة البريئة والنظرة المخادعة، فالعيون تقرأ بضم التاء.

زاگروس في ظل آشور

اعتقد ان بلاد زاگروس كانت من روافد الثروة البشرية لآشور، أي الناس الذين كانوا ينقلبون الى آشورين. من الضروري ان نسلط بعض الضوء على الحالة الداينميكية للذوبان الدائمي الذي عاناه سكان زاگروس اكثر التاريخ.. التنقيبات الأثرية لتل شمشارة في قضاء رانية[1] ومن خلال المكاتبات المكتشفة بين ملوك آشور مع سلطات تلك البلدة تدل على ان التاريخ هو نفسه يتكرر. الرسائل تعود الى القرن الثامن عشر ق.م. البلدة تقع وسط تغمرها مياه بحيرة دوكان حاليا. اللغة والسلطة الآشورية كانت سائدة داخل شمشارة (شوشارا كما لفظت في وقتها نسبة الى اسم احد المتنفذين) بينما كان الخوريين ينتشرون في الجبال والقرى المحيطة. وكما أكراد اليوم كانوا في نزاعات دائمية ولم يأسسوا اتحادا قوميا يذكر. نلاحظ وجود زعماء خوريين موالين للآشورين لهم شبه بما عرف بأفواج الدفاع الوطني أيام حكم البعث، وآخرين يناهضون السلطة كما العشائر والپيشمركة تقريبا.. بالمناسبة، مورسيليس الحيثي الذي دمر بابل في ١٥٩٥ ق.م احتك بالخوريين في منطقة الخابور وكانوا ايضا في

(١) رانية تفتخر بأنها من اطلق إنتفاضة ١٩٩١ غير انها وشقيقتها التوأم قلادزة، كانتا ايضا منطلق شرارة الحرب الأهلية في ١٩٩٤ فما القضية؟ لو نظرنا للأمر من هذه الزاوية لعرفنا انها وكل المدن الكردية لا تنتمي لمجموعة (باريس، طهران، القاهرة) بل الى مجموعة (بابل، الكوفة، اثينا، القدس، الخ) بالمناسبة أن أهلها يمرون حاليا بإنقلاب الى التعصب المديني منذ العقدين الماضيين. لقد سبقتهم كوي والسليمانية في هذا المضمار بقرون وشربوا من كأس ذلك الأدمان. فصبرا يا أخوان (غيركم كان أشطر).

نزاعات داخلية مع بعض[1].. إنها قصة شبه أبدية لسكان جبال زاگروس. داخل الجبال يمارسون شعورهم بالإنتماء الضيق على شكل تعصب قبلي. لكن عند أبتعاد الزاگروسي عن كتلته الإنتمائية (عشيرة معينة أو قرية) إلى أي تجمع سكاني مختلط سيواجه خيارين. إذا كانت المدينة في سهول زاگروس ستنصهر الإنتماءات العشائرية في تركيبة جديدة وهي التعصب المديني. أما اذا وصل الى ميتروپوليس او مدينة تبعد عن الجبل (حيث لا مجال ان تستعمل الخناجر وتهرب الى الجبل!) بل لابد من تفاهم وحتى تنازل وهو شيء محتقر عند العشائر كافة، فلابد لهم من إنتماء وسطي (محلول مذيب) يجمعهم. وطبعا كالعادة، لا أحد يتنازل عن انتمائه الضيق حتى آخر نفس.. الحل الوحيد في وقتها كان الأسلوب الآشوري في الحياة. هذا ما كان قبل اكثر من ٣٠٠٠ سنة. أما لاحقا فقد وجدوا الأسلوب الفارسي (في إيران) والتركي (في العراق وتركيا، ممتلكات الدولة العثمانية السابقة).

طبعا الحواجز الدينية واللغوية الحالية بين الأكراد (قبائل مسلمة بلغة آرية) والسريان (مسيحيين حضر بلغة سامية) لم توجد في ذلك الوقت فالخوريين كانوا مجرد قبائل زاگروسية لا سامية ولا آرية ولا أورالية. لاحقا دخلت مستجدات مهمة كإنقلاب الخوريين الى لغة الميتانيين (اول الموجات الآرية) ويبدو أن تأثيره اللغوي كان قويا. التأثير الأقوى ظهر مع الموجة الميدية حيث أحدثت إزاحة ضخمة للسكان باتجاه الغرب. ثم انهيار الساسانيين والأمواج العكسية من الاجتياح الكرمانجي لأكثر الثقافات السابقة من الشمال باتجاه الجنوب والغرب. سيشرح لاحقا.

(١) عظمة بابل– ص ٩٤

سقوط آشور

سقوط نينوى في ٦١٢ ق.م يبدو لقراء التاريخ كحادث غير متوقع لأقوى إمبراطورية في العالم القديم في أوج عزّها. لابد من ان تكون هناك اسباب مستترة نخرت اساسات ذاك الصرح العظيم واعتقد اننا لو راجعنا أسباب نهضتها، سنرى إنها نفس اسباب سقوطها.

أول الأمر، نفس الإنتقاد الذي يوجه الى بابل في عدم امتصاص ولاء آشور، يوجه الى آشور نفسها عن سبب عدم قدرتها على امتصاص ولاء بابل ومدن الجنوب. في الحقيقة بلاد بابل بالنسبة للآشوريين كانت تقريبا احد املاكهم مثلها مثل زاگروس وسوريا وحتى مصر، مع فارق يعود للتقارب اللغوي والاستقطاب الديني لبابل. اما الشعور بالإنتماء الموحد، فلا أثر له مطلقا. استغرب ان يحتوي النشيد الوطني السابق للدولة العراقية على جملة (بابل فينا وآشور لنا) للمرحوم شفيق الكمالي. على الشباب ان يعرفوا ماذا كانت تعني كل من بابل وآشور بعضها للبعض.

الثقافة الآشورية في بدايتها تبنّت كتابة وثقافة عصرها لكن بعد ذلك نسمع ان الآراميين يبتكرون كتابة الألفابيت (حوالي عشرين حرف) بينما يصر الآشوريين على استعمال الكتابة المسمارية (مئات الرموز)[1]. هذا دليل على تقوقع ورجعية وشيب المجتمع.. ثم ان إحتكار التجارة الذي، كما اسلفنا، كان سببه تخلف القبائل الآرامية، هذا التفوق قد زال لأن الآراميون تطوروا واصبحوا تجار.. من ناحية اخرى وجود دول في ارمينيا (مملكة اورارتو) التي طالما استباحها الآشوريين في القرون الأخيرة من حكمهم، هذا دليل قاطع على تطور خطوط تجارة بين إيران والأنضول دون الحاجة لبلاد آشور. بعبارة اخرى لقد فقد الآشوريون عنصر احتكار التجارة، ليس كمردود مادي فحسب، بل ثقافة وإنتماء خطوط التجارة.

النقطة الأخيرة كانت ظهور بواكير فكرة الأديان التوحيدية (أو بالاحرى الإنتماءات التوحيدية) الآتية من الشرق.. نلاحظ ان كلما قامت دولة ما بتدمير دولة إيرانية معينة

(١) تفاخر العراقيين بإبتكارهم الكتابة يجب ان يصاحبه ادراك للروح الرجعية التي جعلت قدماء العراقيين يرفضون التطور ويصرون على الكتابة المسمارية. هذه النقطة دليل على فقدان العراق للمبادأة في ميدان التطور وتخلفهم عن غيرهم من الأوطان منذ آلاف السنين.

في اي عصر. النتيجة كانت تأتي بردود افعال وطوفانات آسيوية على الشرق الأوسط. مثلا تدمير المقدونيين للإمبراطورية الأخمينية تبعه الموجات الفرثية. كذلك تدمير العرب للإمبراطورية الساسانية تبعه المد الخراساني ثم التركي والمغولي الذي اجتاحا كل الشرق الأوسط.. وعليه، ان أول عملية من هذا النوع كانت قد حدثت على يد الآشوريين في اواسط القرن السابع ق.م حيث جرى تدمير كامل وشامل لمملكة عيلام. لكن بعد بضعة عقود فقط نسمع ان الميديين يظهرون على الساحة ويجتاحون الهضبة الإيرانية وآشور نفسها.

هذا وأذكّر القاريء بما قيل عن سبب تفوق (اله أو إنتماء) آشور من عدم تمييزهم بين قبيلة ومدينة وقرية. اما القبائل الأسيوية (الميديين في تلك الفترة) فمارسوا فكرة التوحيد بين القرى والمدن والقبائل وحتى بين الشعوب والأمم. هذه الحقيقة لا تعني كون الميديين والآسيويين عموما فلاسفة ومنظرين. كل ما في الأمر ان المجتمعات تتطبع بطبائع بيئتها. عشائر الجبال والغابات لا تحتاج كثيرا للأتحاد فهم يحتمون بطبيعة بلادهم بينما سكان السهول يتحتم عليهم الاندماج في وحدات لغوية وثقافية ودينية وسياسية اكبر، حيث لا توجد حواجز تحميهم فأما الإتحاد أو الفناء.

لنجري مقارنة اخيرة بين الأنواع الثلاثة السابقة من الإنتماءات:

١- الإنتماء البابلي المتجسد بالاله مردوخ. اله مدينة واحدة، قد تكون درة المدن لكنها لاتشمل اكثر من اهل المدينة وبعض المنبهرين بها كما رأينا في أثينا والقدس.

٢- الإنتماء الآشوري المتجسد في الأله آشور. اله شعب متكون من العديد من القبائل والمدن. شعورهم بالإنتماء المشترك نابع من اللغة المشتركة وشعور عام بمعاداة نوعين من العصبية (القبلية والمدينة) فهم المحلول المذيب لتلك النعرتين.

٣- التوحيد. يشمل كل الأوطان والشعوب واللغات والأديان، ناهيك عن مدن واقاليم، التي ترتضي بسلطة الدولة العالمية (الأمبرراطورية).

بواكير الدين الزردشتي كانت قد ظهرت في تلك الفترة غير انه لم يتم تبنيها رسميا الا بعد قرون طويلة على ايام الساسانيين واعتقد انها أصلا لم تكن سببا في توحيد الأمواج الآرية بل كما العرب مادة الإسلام على حد قول سيدنا عمر (رض) فالأمواج الخراسانية كانت مادة الزردشتية وعلى استعداد للإيمان بمثل تلك الأفكار وهذا يفسر

ما يقال عن رفض الناس لزردشت في غرب إيران (أقاليم ذات إنتماءات تقليدية ضيقة) بينما استجابت له قبائل شرق إيران عندما هاجر اليهم حاملا خلاصة ثقافة وتجارب الشرق الأوسط في ضلوعه.. ليس القصد ان أحط من شأن الزردشتية ولا أي دين. كل ما في الأمر أن الأديان ترجمة للشعور بالإنتماء. الكثير من المثقفين الكرد اصبحوا يرددون مزايا الزردشتية كأنه يوتوَيا افلاطون، لكن اقول لهم انهم لو عرفوا المعنى الحقيقي للتوحيد لرفضوه أكثر من رفضهم لسلطة البعث المركزي في العراق.

هذا النوع من القدرة على التوحيد طبقه الميديين بصورة جزئية بدليل ما نسمع من قدرتهم في فك تحالف قبائل ساكا وزيگيرتيين[1] وكيميريين مع آشور ودحرهم كل المنافسين وحتى آشور نفسها.. لكن تبعه تخثر وتقوقع سريع افقد الميديين طابعهم الشعبي والأممي بسرعة. ثم ان عاصمتهم اكبتانا (همدان) ليس لها أي قدرة ولا حدود معزولة. وان الميديين لم يندمجوا بأحد المجتمعات (البويضات) السائدة قبلهم.. وعليه، التطبيق الحقيقي لأول إمبراطورية ذات فكرة اممية وتوحيدية جاء من (البذور التي أخصبت بقايا البويضة العيلامية) فظهرة في عهد قورش (Cyrus) الأخميني.

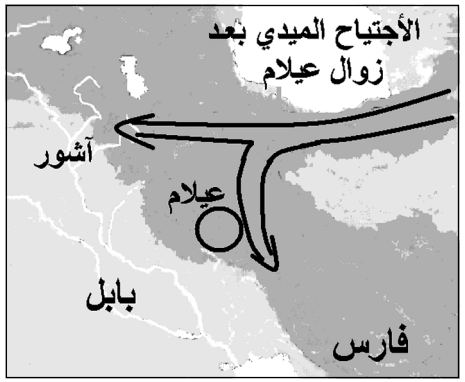

اذا كان الآشوريين قد رفضوا الكتابة الآرامية ونظام الألفابيت واصروا على الكتابة المسمارية، فالأخمينيون تبنوا اللغة والكتابة الآرامية للمخاطبات الرسمية بدون أي تردد (نفس طريقة تعامل الأتراك السلاجقة مع لغات واديان الشرق الأوسط فتبنّوها بدون مناقشات و وجع رأس). واذا الآشوريون تعصبوا لقوميتهم، فإن الأخمينيين لم يلتفتوا حتى الى الفوارق اللغوية والدينية بل عاملوا كل الأديان والأقوام والمدن كما عامل المسلمون اهل الكتاب، بل وأكثر. فهم حتى لم يقولوا ان فلان اهل كتاب والآخر كافر. لقد كفلوا الحرية الدينية بدون تردد ومناقشة ولم يهتموا اصلا بما يعبد الرعايا. التوحيد كان

(١) كلمات مثل زگورتي وزاگروس اخذت من اسم قبائل أساطارتيا.

التوحيد السياسي والعسكري كما فعل الروم في البداية، وأبدلوا أكثر الفروقات العمودية الى فروقات طبقية عامة.

من الجدير بالأشارة ان مسألة ابدال الخطوط العمودية بخطوط أفقية (طبقية المجتمع) يعني تركيزهم وتعاملهم مع الطبقات العليا في كل مجتمع بدون (قمم الأهرام الإنتمائية) بدون إلتفات يذكر الى الطبقات الأدنى. أي انهم حملوا معهم بعضا من الروح الأرستقراطية. لعل هذا يفسر ما نسمعه اليوم عن بقايا الزردشتيين في (الپارسيين في الهند) فقد أصبحوا شريحة ارستقراطية منغلقة جدا وفقدوا كل معاني التوحيد الذي كان عند أوائل الفرس ولم يتبقى لديهم إلا قشورها من الروح الارستقراطية. وهم ينكمشون يوماً بعد يوم فقل تعدادهم ال ٧٠,٠٠٠ ألف شخص في محيط مئات بل آلاف والملايين من البشر في الهند.

الفصل الثالث

نهضة بابل الأخيرة

نبوبلاصر زعيم الكلدان تحالف مع الميديين ومن جهة أخرى تحالف مع الآراميين والعرب (هذا أول تواجد عربي في المنطقة وان عداء العرب والآراميين لآشور دليل على خفوت الروحية الاستيعابية للآشوريين التي كانت سبب نهضاتهم وقوتهم).. هزمت آشور واستولت الإمبراطورية البابلية–الكلدانية على أكبر اجزاء الأرث الآشوري في الهلال الخصيب. ثم خلفه نبوخذبصر فصال في الأرض وجال وتدفقت الثروات المادية والبشرية على بابل التي اصبحت جوهرة العالم القديم وفي قمة مجدها يخدمها مئات الآلاف من الجواري والعبيد. ما المشكلة اذن ولِمَ لم تَدُم سلطة بابل اكثر من جيلين (من٦١٢ الى٥٣٩ ق.م)؟ انها المشكلة المزمنة لعصبية المدن. البابليون حتى في احلك ايامهم ما اعترفوا بأحد من غير مدينتهم، فكيف يفعلونها في اوقات مجدهم وتسلطهم؟. حتى مع كلدان، السواعد التي اوصلتهم للمجد، لم يعترفوا بهم كبابليين ابدا، فلم يعترف احد بهم ولِمَ التضحية والعناء؟.

اسرة نبوخذنصر انقطع نسلها فتولى الحكم من بعدهم احد الكلدان من حاشية العرش البابلي، نبونائيد، المنحدر من شمال الفرات. يشير هاري زاكس الى ان الموما اليه كان سياسيا بعيد النظر حاول فرض دين جديد على بابل باستبدال الإله مردوخ بالإله سين (اله القمر) وهو رمز مدينة أور المندثرة تقريبا. البابليون عارضوه بقوة وكفروه وثم رحبّوا بالفرس نكاية به وبدينه الجديد وانتهت بذلك اخر دولة بابلية وعراقية ولم تقم للعراق قائمة حتى الفتح العربي..

اعتقد انه من المستحيل فهم وتفسير تلك الحركة السياسية–الدينية دون فهم تلك النعرات المدينية المتأصلة في العراق.. الآراميين و أوائل العرب وكل المدن والقبائل الأخرى لم تكن تستسيغ مردوخ (اله الشمس البابلي) بينما بدوا على استعداد لتقبل (سين) اله مدينة اور القديمة المتثل بالقمر والذي خفت نجمه منذ مدة طويلة.. حسنا،

مرة أخرى غنوا أغنية (منه منه كلهة منه). لكن إذا كان الإنتماء المديني للعاصمة بابل لم يقاوم الإنتماء القومي للآشوريين، فكيف سيقاوم حركة توحيد كانت تتسع في الشرق والشمال؟. ثم ألم يسأل أحد البابليين نفسه انهم يُكفّرون نبونائيد لندائه التوحيد (الوطني) لكنهم يُهللِون للفرس (توحيد أممي)؟. الفرس كانوا قد ابتلعوا الإمبراطورية الميدية وتوسعوا غربا وضموا إقليم ليديا وكانت الشعوب ترضخ للنظام ال (دولي، ديني، سياسي) الجديد.

بعد تغلغل الفرس في الأنضول واستيلاء قورش على ليديا، كان له التفاتة الى ما كان يجري في بابل. استغل الشقاق الحاصل بين البابليين والملك الكلداني، فأجج الدعاية التي يرتاح لها البابليون بأن نبونائيد (توحيدي كافر قد خرج عن الدين) وفتح بابل مرحبا به ٥٣٩ ق.م كأنه اغرى طفلا بقطعة من الحلوى وانتزع منه جوهرة. ثم انه ارسل ابنه نيابة عنه لحضور مهرجان الأكيتو ليركع امام الكاهن البابلي نيابة عنه. لعل البابليين كانوا يرون قمة عجرفتهم وانفتهم في تلك الأيماءات السياسية التي كان يتضمنها الأكيتو من خلع التاج والنياشين عن حاكم المدينة واذلاله من قبل الكاهن المردوخي كأنه يقول له "افهم جيدا انه ليس هناك اكبر واعظم من بابل ومردوخ"[1]

(١) لم يتبقى من الأرث الثقافي لذلك المهرجان سوى ظاهرة (كذبة نيسان). الأكيتو كان يبدأ في الأول من نيسان وحتى العاشر منه. كان يعلن تعليق كافة القوانين، فينطلق فيها البابليون في احتفالية تؤججه الجواري الحسناوات. بعدها تأتي ايام اخرى من مناحات هستيرية تتم فيها عرض تمثيليات وتواشيح عن موت الأله الشاب دوموزي (تموز) الذي رفض محاولات السيدة اللعوب اننا (عشتار) لأغوائه فانتقمت منه بقتله. بعدها مراسيم اخرى الى اليوم العاشر حيث يحضر الملك مرة اخرى للمعبد ويذله الكاهن اذلالاً شديداً مهددا اياه ان يلتزم ببابل واهلها وشريعتها. اخيرا، تعاد له النياشين الملكية ويعلن عن عودة تطبيق الشرائع والقوانين الاعتيادية.. اكاد اجزم ان اكثر الملوك كانوا يستحلفون انفسهم بالأنتقام لذلك الذل بمنع المهرجان في السنة المقبلة ان استطاعوا.. نفس الشيء يحصل مع مراسيم عاشوراء، فبعض الحكام يمنعوها وان لم يقدروا فيسمحون بها، هكذا هو الحال في جنوب العراق منذ القدم.

هجرة الهلال

هناك تشابه كبير بين الاسمين قورش وقريش. فهل من الممكن ان يكون قريش مصغر لقورش كما في عمر وعمير؟. لو اطلعنا على الحقائق التالية لبطل العجب.

يقول هاري زاكس ان نبونائيد حاول نقل العاصمة الى الغرب. خطوط التجارة كانت تسقط الواحدة بعد الاخرى بيد الفرس، وحركته التوحيدية كانت تجابه برفض قوي من البابليين فكان عليه ايجاد مصادر أخرى للتمويل ومركزا لدولته. نبونائيد ترك بابل واتجه الى حران شمال سوريا، ثم انحدر جنوبا مع جيشه وحاشيته من الكلدان والبابليين واليهود ومقاتلين حيثيين نحو شمال الحجاز الى مدينة تيماء. هناك قتل ملك المدينة واتخذ تيماء مقرا لمدة عشر سنوات وبدأ يبسط سلطته جنوبا فقام ببعث التجارة مع اليمن بأنشاء ستة قلاع عسكرية على ذلك الطريق التجاري جنوبا، اقصاها كان في موقع دعي يثرب. بعد عودته الى بابل لم يلقى التجاوب المطلوب بل ان بابل فتحت ابوابها لقورش نكاية به.[1]

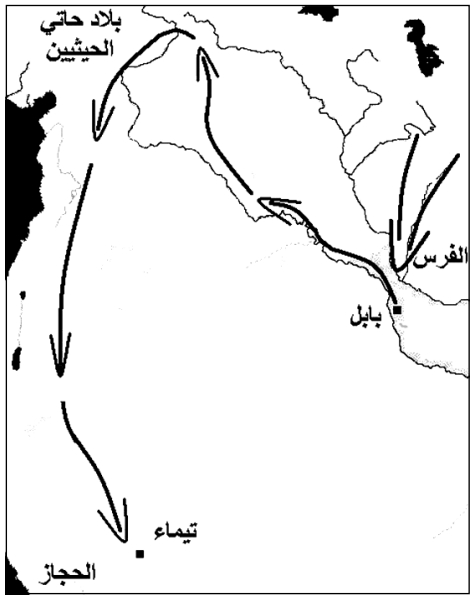

بذلك تنتهي اخبار نبونائيد وحركته التوحيدية تحت شعار القمر. غير اننا نعرف ما حصل في تلك المنطقة بعد الف عام حيث ينفجر بركان توحيدي باسم الأسلام يعادي حتى العظم ابسط ظواهر العصبية والنعرات وعبادة الأصنام (التي هي في الواقع تجسيد للعصبية والنعرات رضافة الى معناها الديني). كذلك نرى منزلة خاصة للهلال كرمز ديني إمتزج مع ثقافتهم بالتقويم القمري الذي اعتمده العرب ثم الإسلام ككل. ونسمع عن يهود في يثرب ومدن شمال الحجاز لكنهم لم

(١) هاري زاكس- عظمة بابل- ص ١٨٠.

يتواجدوا في مدن ابعد من يثرب مثل مكة والطائف. إضافة لذلك، الكتبة العرب عرفوا عرب الحجاز بالعرب المستعربة، من الجائز ان يكون هذا هو سبب تلك التسمية لعرب الحجاز.

المشكلة الرئيسية ان معلوماتنا عن الحجاز لا تمتد أكثر من قرن قبل ظهور سيدنا محمد(ص). الكثير من المفكرين ذهبوا الى ان يكون العرب ورثة حضارة ما، اذ لا يعقل ان يكون هذا التراث اللغوي والفلسفي الهائل ينبع من بلاد يجتاحها القحط.. يبدأ ذكر العرب كقبائل تعادي الآشوريين في شمال الفرات منذ القرن السادس قبل الميلاد وهم تحالفوا مع نبونائيد والميديين والآراميين ضد آشور. لكن يختفي ذكرهم إلاّ بصورة متقطعة في الهلال الخصيب.

هناك نقاط شبه كبيرة بين ميراث عرب الجاهلية الثقافي مع حضارة العراق. فالكعبة في أيام الجاهلية كانت نموذجا من (مجمع الآلهة) المذكور آنفا حيث وضعت كل مجموعة رمزها الديني فيه.. هناك ايضا المنافسة بين مكة مع باقي قبائل ومدن الحجاز، يهودية كانت ام عربية، في سبيل احتكار التجارة والسلطة الدينية والحج، كلها تكرار لما كان في العراق القديم.. نقطة أخرى توحي بوجود بقايا لحركة نبونائيد التوحيدية هم الموحدون الاحناف. كانوا شرائح ضعيفة على اعتقاد توحيدي (لاهوتيا) لكن ليس من إثبات حاسم في هذا الصدد. بصورة عامة، إن حدة التعصب القبلي للعرب لم تدع متنفسا لوجود ثقافة أو إنتماء وسطي يوحد العرب إلا بما قام به محمد(ص) من معجزة التوحيد، على الأقل من منطلق ديني.. ستكون لنا عودة الى الموضوع.

الفترة الفارسية والهيلينية

يبدو ان البابليين تصرّفوا بنوع من التشفي، اذ أن بعض الدلائل تشير لإصرار عجيب على تطبيق حذافير شريعة حمورابي[1] كأنهم ينتقمون من نبونائيد والكلدان (المتآمرون

(١) لوح طيني اكتشف يعود الى عام ٥٣٧ ق.م، اي سنتان فقط بعد طرد نبونائيد من بابل، يتضمن وقائع محاكمة اربعة من العمال سرقوا بطتين من معبد مدينة اوروك. هاري زاكس يعرب عن عجبه لتجمع كل هؤلاء الكهنة وممثل من معبد بابل ومحكمة كبرى كلهم بسبب موضوع تافه كسرقة بطتين. اعتقد ان الأمر يعود لواقع تلك الفترة، كأن العراقيين حرموا من شيء عزيز =

على ديننا)!! لكن الهدوء النسبي لم يَطل ويبدو انهم بعد فترة من رحيل نبونائيد ثاروا هذه المرة على الفرس[1] بقيادة شخص ادعى انه حفيد نبونائيد!؟. الهوية الحقيقية لذلك الثائر لاتهمنا بقدر الموقف الأزدواجي. ففي حينها كان همهم هو التخلص من نبونائيد، وما ان ذهب حتى بدأت بوادر الندم[2]. هذا وإن تلك الثورات المتقطعة اللاحقة في العهد الفارسي تثبت أمكانية تصنيف العراق بأسلوب ماگياڤيللي كونه يوضع مع البلدان التي يسهل إحتلالها لكن يصعب تسييرها..

في ٣٣٠ ق.م اجتاح المقدونيين الشرق الأوسط. بمقارنة بسيطة بين موقف الإسكندر من الفرس والعراقيين يمكن استشفاف نفس المعطيات. من المفروض ان الفرس محتلين وإن المقدونيين قد (خلصوا) العراقيين من إحتلال لكننا لا نجد أي دليل على ترحاب أو ألفة من النوع الذي لاقاه من المصريين والمعاملة التي عامل السكندر بها المصريين في المقابل. بالعكس، أنه نفر حتى من الإغريق ودخل في بداية عملية لإندماج مع الفرس لولا الأجل.

=استعادوه بعد عناء وطول انتظار ألا وهو (تطبيق الشريعة). هذا وملاحظة عدم وجود اي مقترح او إجتهاد في القضية بل كل ما هم المحكمة سؤال واحد فقط لاغير: هل ان السرقة تمت داخل حدود المعبد ام خارجه؟.. السبب يعود الى المادة (٨) من شريعة حمورابي التي تنص على ما يلي: كل من سرق شيء من داخل المعبد يعدم. اما اذا تمت السرقة خارج حدود المعبد، يغرم السارق ٣٠ ضعفا من قيمة الحاجة المسروقة.. طبعا في مجتمع متعطش لأبراز النفس، فأن اي اجتهاد في موضع النص المنزل سيؤدي الى مناقشات ثم تحزب وقد تصل للأقتتال بحجة (الوصول إلى لب وجوهر الحق السماوي!).. لذلك نسمع عن العمال الأربعة يقسمون اغلظ الأيمان ان البطتين كانتا خارج المعبد!!

(١) كتب هذا في نقوش بيستون في كرمنشاه حيث يقول سجل داريوس الأول، وريث قورش، انتصاراته. منها قوله بأنه أخمد تمردا بابليا قاده شخص (إدّعى) بأنه حفيد نبونائيد.

(٢) إنها حالة نراها يوميا في العراق. نمل من حاكم معين فنصرخ (آخ بس لو يروح) ثم بعد مدة قصيرة تنقلب الآية ويقال (أخ لو ترجع أيامه). هذه الحالة تذكرنا بموقف الكوفيين من الإمامين علي والحسن (رض) ثم ندمهم وبيعتهم المستميتة للحسين، ثم انقلابهم عليه ثم ندمهم على مقتله. حين كتبت متن النسخة الكردية في التسعينات، تخوفت من ان أنشر توقعي بأن يوما ما صدام حسين سوف يرثى له من قبل العراقيين. هذا الكلام كان في وقتها ضربا من الجنون لكن بوادره قد ظهرت. ولا يهم اذا كان الذي سيفعل ذلك من الشيعة أو من السنة. المهم ان الذي سيعبد ذكراه سيكون (نصف حضري).

نهاية بابل

الحادث الفريد والتأريخي في الفترة الهيلينية هي زوال بابل من الوجود. القادة السلوقيين، ورثة الإسكندر، اقاموا معسكرا لهم عند نقطة التقاء نهر ديالى بدجلة. فنسمع ان في ظرف قرن واحد من الزمن زالت بابل من الوجود كأنها لم تكن، وقد حصل ذلك دون حرب وحصار وتخريب!!. المدينة ودينها وشريعتها قاومت مئات الحملات والمذابح والحرائق غير انها اختفت عند انشاء اول موقع سلطوي في منطقة الفوهة.. الإسكندر لم يوفق في اختيار اسكندريته الخاصة بالعراق ولو بناها في موقع المدائن او بغداد كان من الممكن تحمل عاصمة العراق لحد اليوم اسم الإسكندرية وكان من الممكن ان يقال أن الإسكندر غير مجرى تاريخ العراق وأنهم أحبّوا هذا الفاتح بدليل ان العراق هدأ في ظل المقدونيين لأنهم (أوروبيين)!

تفسير هذا الحدث في اختفاء بابل السريع نسبيا يكمن في موقع طيسفون (المدائن) ومنطقة الفوهة عموما كونها الموقع ذو سيطرة طبيعية على الطرق والتجارة، والموقع الطبيعي لتجمع الثروات المادية والبشرية للعراق. مسألة إختفاء بابل أشبه بجفاف بركة كان الماء يأتيها من بعض السواقي. السواقي تتحول الى بركة أخرى فإذا بالبركة الأولى تجف بسرعة وتختفي لأن وجود كل ميتروپوليس منوط بمصادرها من الثروة البشرية (القرويين والعشائر الذين ينزحون اليها). بابل كانت تستقبل الثروة البشرية من أقليمها لكن موقع بغداد (الفوهة) له قابلية في ان يكون ملتقى للطرق ومستقبل للثروة المادية (ومن ثم أن يكون مسيطرا على الثروة المادية والقوة والخ).

استنتاجات

بنهاية بابل تطوى آخر صفحة من تاريخ العراق القديم ويتحول العراق الى ولاية تتنقل بين أيدي الإمبراطوريات العالمية التي نشأت وسحقت ما سحق تحت زخمها من بشر وبلدان. أما الثورات التي كانت تحدث هنا وهناك فلم تكن ابدا بدافع وطني إذا كانت دولهم أثناء سيادتها وقوتها لا تتوجه الى روح طنية عراقية حسب خريطة العراق الحالي ولا نصف ذلك.

هذه الفترة إتسمت بمركزية وتوحد أكبر بكثير من الفترة السومرية–أكدية. بابل

كانت عاصمة أنثوية ذات استقطاب معتبر في وسط وجنوب العراق الحالي لكن تاثير استقطابها لم يطال أقاليم شمال دجلة والفرات ناهيك عن اقاليم زاگروس التي كان تفاعلها أكثر الأمر مع آشور وليس بابل.. الإنشقاق المزمن الذي يظهر اليوم على شكل إنشقاق (شيعي–سني) وهو بالأصل (أنشقاق بين المجتمعات الزراعية في الجنوب والرعوية في الشمال) ظهر في تلك الفترة بأقوى صوره على شكل صراع دموي بين كتلتين (آشور وبابل) وما ضمر الصراع الى بعد وقوع آشور وبابل معا تحت حكم أجنبي (الحشر مع القوم عيد).

سنتوقف قليلاً عن سرد تسلسل الأحداث التاريخية من مراجعة بسيطة للقوانين والأرث الديني لتلك العصور ثم نرجع لإكمال تسلسل التاريخ.

الفصل الرابع

الإرث الديني[1]

تزايد خطر استخدام أسلحة الدمار الشامل ضد المدن من قبل إرهابيين وأصبح يؤرق الكثير من الدول المتقدمة. اعتقد أن النتائج المرعبة لوقوع مثل تلك الكوارث، لاسمح الله، واردة جدا ذلك لأن ما من سلاح اوجده الحضر (المجتمعات الأنثوية) إلا وقع بيد مجتمعات ذكورية فطوروها ثم استعملوها ضد الحضر. تلك الحقيقة تشمل الأسلحة ذات القوى المادية إضافة الى القوى المعنوية وعلى رأسها الدين. فالديماگوگيه (التخويف من المجهول) استعملت من قبل الحضر للسيطرة على القرى والقبائل (مجتمعات أكثر فحولة منها).. الحضر في العراق القديم فعلوا نفس الشيء وأضافوا سلاح الشرائع الى قائمة أسلحتهم فروّضوا بها القبائل وسيّروهم لفترة. لكن في النهاية القبائل تعلموا سر المهنة، فإنقلب السحر على الساحر.

أبسط ما يمكن تصوره عن التفاعل بين المجتمعات المستقرة والمجتمعات الرحل هو كالمشهد المسرحي التالي: مجموعة من البدو يقومون بجولة سلب ونهب في مناطق الفلاحين والحضر. أحدهم يجرح أو يمرض فيصل الى قرية سومرية. تخرج له فتاة تدخله البيت الدافئ عند أبيها العجوز، فيعتنون به ويحدثوه أن القوة والشباب لا يدومان لأحد. أغلب الظن أنه سيزداد رزانة وعقلا ولن ينسا فضلهما وقد يتزوجها ويحميها فتوفر له جو المحبة والأُلفة التي أفتقر اليهما، ويوفر هو لها الأمن والقوت وكما يقال (عاشوا عيشة سعيدة).

المشهد السابق شكل من اشكال الاندماج الأبدي بين المجتمع الذكوري والأنثوي وهو يتكرر في كل مكان وزمان وإن القصة لحد الآن ممتازة. لكن ماذا لو أن البنت وأبوها

(١) المعلومات الواردة في هذا الفصل مستقاة من (الشرائع العراقية القديمة– د. فوزي رشيد– بغداد ١٩٧٩) ولقد نشر الموضوع بتفصيل أكبر في أربعة مقالات باللغة الكردية في مجلة (شاندر) الفصلية الصادرة عن مديرية الآثار في اربيل. الأعدد ٣– ٤– ٥– ٦.

ملأوا عقل ذاك البدوي بأنه إذا لم يطيعهم فأن قوى غيبية ستنتقم منه؟. وماذا إذا حّرضوه ضد جيرانهم ليقتل فلان ويسرق من فلان؟. أنهم بذلك قد طوروا روبوت فتاك.. وهو بالضبط ما حصل في العراق القديم.

لم يكن عجيبا في الثقافة السومرية أن يقال أن شيئا ما أنزل من السماء على البشر. الكتابة، الحضارة، الموسيقى، الزراعة، الصناعة، فن الگيشا الياباني المتمثل بالبغاء المقدس، الحكمة والعقل.. الخ كلها عناصر إدعى السومريون انها انزلت عليهم من السماء. بصراحة، أني لا أكذبهم أبدا لأنه يمكننا القول أن كل منجزات البشر قد أرسلت من عند خالقهم ابتداءا بالكتابة وحتى المركبة الفضائية وأشعة الليزر وما مشكلة في ذلك التوجه. المشكلة تكمن في إدعاء بإحتكار العلاقة بين الأرض والسماء (بين المخلوق والخالق) وان أحد ما له صلة بالخالق دون الآخرين والخالق يفضل تلك المجموعة على الباقي وهم وحدهم يعرفون ماتريده السماء وليس لأحد أن يتجاوز على (الصلاحيات) التي منحت لهم. الأنكى من ذلك، أن تقوم مدينة (صانعة أحد تلك الروبوتات) بتوجيه قوتها ضد المدينة المجاورة. ذلك هو الأثم الثقيل الذي تمادت المدن السومرية في اقترافه ضد بعضهم البعض وضد العشائر.

قبل الدخول في تفاصيل الشرائع أود طرح فكرة ناقشتها الكثير من الألسن. لقد دأبنا في السابق وكالعادة بالتفاخر بان العراق هو أول بلد سن القوانين، لكن هناك رأي معاكس يتساءل (لماذا في العراق بالذات؟) فلابد ان الوضع هناك كان من التعقيد للدرجة التي لجأوا فيها الى ذلك كحل أخير. الدكتور فوزي رشيد نفسه يقول في مطلع كتابه إن العراق سبق مصر بألفي عام في سن الشرائع ويبين ان ملوك مصر كانوا آلهة بينما ملوك العراق كانوا يتبوأون موقع (نائب الإله) بما يوحي أن العراقيين كانوا أكثر تطورا من المصريين.. اني أختلف مع هذا الطرح، الفراعنة لم يدعوا انهم خلقوا السموات والأرض كما تقول الكتابات اليهودية، وان معنى الإله في الأصل كان يختلف عن القصد اللاهوتي اللاحق. أما فيما يخص الشرائع الحدية التي لايمكن مناقشة نصوصها فإن الثقافة العامة والتوجيهات الآنية في مصر والبلدان المركزية تكون أكثر من كفاية لتنظيم الحياة. بينما في البلدان غير المركزية الأمر يحتاج الى أضعاف مضاعفة من الجهود (دينية، فلسفية، عسكرية الخ) قد تثمر وقد لا تثمر كما رأينا فيما حدث في اليونان والعراق.

الحاجة هي أم كل إختراع وإن وجود او عدم وجود شرائع كوجود او عدم وجود (هندسة الري) مثلا، ففي بعض بقاع الأرض قلما يحتاجون الى أنظمة ري بينما الآخرون يجهدون في حفر الآبار والكهاريز ثم يتقاتلون عشرات السنين على ملكيتها، فهل كان في وقتها مؤامرة أمريكية ضد العراق أم ان هناك (أبن سبأ) آخر شق صف المسلمين؟.. انها نقطة أخرى كنا نعتقد انها من أحسن الظواهر فإذا بها تضاف الى سجل العراق الطويل في المشاحنات وعدم الإنتظام.. العراقيون اضطروا اضطرارا للتقنين ووضع الشرائع والقول بأنها انزلت من السماء لإضفاء الرهبة عليها.

تسلسل الشرائع:

أول محاولة (إرشادية) اذا جاز التعبير هي إصلاحات أوركاجينا ٢٣٤٥ ق.م كانت موجهة ضد القضاة والسلطات. ثم نصل الى الألف الثاني قبل الميلاد وحسب ما يعرف لحد الآن ان هناك أربع شرائع أكتشفت لحد الآن لكن حسب ما يؤكد الدكتور فوزي رشيد أنها ليست الوحيدة ولا الأقدم.

شريعة أورنمو:

هو كما ذكر آنفا مؤسس آخر دولة سومرية (٢١١١-٢٠٠٣ ق.م) وضع شريعة تحتوي على ٣١ مادة قانونية أبرز ما فيها هي المواد من (١٥) الى (١٩) تحدد التعويضات المادية للمتضررين في حالات قطع القدم وثلم الأنف أو كسر اليد.. إذن فقد وجدنا فذلكة أخرى. إن مبدأ (العين بالعين) لم يكن قانونا أزليا كما كنا نتصور. بل إن الحضر في كل مكان وزمان لا يجدون نفعا من (الإنتقام) بل التعويض المادي الذي يعوض المتضرر وفي نفس الوقت يردع المعتدي كما يجري الآن في لندن ومراكش واربيل وشنگهاي وكل مكان، إلاّ في حالة كون المجتمع غير متحضر لا يحترم الا القوة والعنف. في تلك الحالة سأكون أول من يطالب بوضع قانون (العين بعينين)!.

نموذج آخر من شريعة أورنمو هي المادة ٢٥ التي تجازي شاهد الزور عن سبق إصرار، بغرامة ١٥ شيقل[1]. ان المبلغ ليس بالقليل إذ أن متوسط أسعار البيوت في

(١) الشيقل العملة المتداولة في العراق القديم. من الجدير بالذكر انها الكلمة استعملها اليهود في القدس أيام السيد المسيح ثم أطلقوا نفس الاسم على العملة الرسمية لأسرائيل.

تلك الفترة حسب بعض الأخبار والعقود كان ١٠ شيقل.. كذلك فأن تلك الشريعة تحث على حماية الزوجات والنساء بصورة عامة. هي لا تردع الأرامل مثلا من معاشرة الرجال لكن فيها شبه تحذير مسبق لهن من فقدان كل حقوقهن الشرعية أذا لم يثبتن عقد زواج أصولي مع من يعاشرون من الرجال كما في المادة (٨).

نستنتج مما سبق بصورة عامة أن القوانين وضعت من قبل أناس متحضرين حسب ثقافتهم ومصالحهم اليومية في ذلك الزمان وإن قيم العفة والأخلاق ليست كما يصورها رجال الدين اليوم بأنها أتت مع دينهم فقط وأن الدنيا قبل دينهم كانت عبارة عن غابة وتستشري فيها الدعارة وانها كانت خالية من كل القيم الأخلاقية.

شريعة لبت عشتار:

خامس ملوك مدينة ايسن حكم من ١٩٣٤ الى ١٩٢٤ ق.م. الآموريون في ايسن كانوا متحضرين ومتأثرين بالحضارة السومرية منذ أجيال واستخدموا اللغة السومرية ايضا. يمكن ملاحظة زيادة بسيطة في التشدد من خلال مقدمة الشريعة حيث تحتوي على (الترهيب) وصب اللعنات على من لا يلتزم الشريعة وهي سابقة لأن شريعة أورنمو كانت تستعمل أسلوب (الترغيب) فقط لا أكثر.. هناك زيادة بسيطة أيضا في عدد القوانين حيث قفزت من ٣١ الى ٣٧ مادة. أي إن (الكومپيوتر) تطور قليلا.

المواد من (١) الى (٤) من الشريعة غير واضحة بسبب الكسور لكنها تدل على التركيز على العقود والصفقات وبدليل المواد اللاحقة ابتداء من المادة (٥) حتى المادة (١٣) يتوضح ذلك التوجه، فكلها تخص الممتلكات من أراضي وجواري وأموال عقود إستئجار الأراضي.. ما يجلب النظر فيها المادة (١١) التي تنص: أذا كان لرجل أرض مهجورة مجاورة لدار رجل آخر وصاحب الدار قال له (لكون أرضك مهملة فلربما يدخل أحد الى داري فقوي دارك) وتم الإتفاق بينهما فإن صاحب الأرض المهملة سوف يعوض صاحب الدارعن أي خسارة.. هذا دليل على بوادر زعزعة الثقة بين الجيران.

في الشريعة جانب إنساني قوي جدا فالمادة (١٤) تعتق العبد من سيده إذا أثبت ولمرتين متتالتين أن سيده يسيء معاملته هذه المادة فيها درجة عالية من الإنسانية لم تصله الكثير من الأديان والشرائع حتى القرون الحديثة حين تم تحريم العبودية.. المواد من ٢٠ الى ٢٥ خاصة بحماية النساء (خاصة الزوجة الأولى الحرة) من أي انتقاص

لحقوقها في حالة الطلاق أو زواج الرجل من إمرأة أخرى أو من زانية من الشارع. كأنهم أحسوا ببوادر لسوء معاملة الرجال لزوجاتهم.

الاستنتاج هو ان لبت عشتار مع انه بدة عليه ملامح التشدد لكنه كان ذو توجهات معقولة جدا ومصرا على فرض النظام للمجتمع الذي كان يتكون من خليط من النازحين الآموريين والسكان الأقدم.

شريعة ايشنونا

مدينة ايشنونا كانت تقع شمال بغداد على نهر ديالى. الشريعة سنت حوالي ١٠٠ الى ٥٠ عام قبل حمورابي واعتقد أن قوانينهم لايمكن تفسيرها الا بقراءة مابين السطور.. هناك ظواهر في شريعة ايشنونا ترافق المجتمعات المتعصبة لدنها مثل الزيادة الواضحة في تسلط المرأة وعقوبة الطرد من المدينة[1] ثم التمييز ضد الموالي.. اولا نلاحظ المقدمة التي تؤرخ سنة تدوين الشريعة استنادا الى تدمير مدينة (صوبور شمش). أي أنهم يتفاخرون بتدمير مدينة.

عند مطالعة المواد القانونية نحس بنوع من عدم توازن في العقوبات. لكن قبل مناقشة بعض المواد القانونية يجب توضيح نقطة معينة.. ستتكرر استعمال كلمة (مشكينوم، الموالي) وهم يعتبرون غرباء عن المدينة لكن في نفس الوقت يسكنون داخل ايشنونا ويمتلكون عقارات. لذا فإن سؤالا سيطرح نفسه: كيف يمكن أن يعيشون في المدينة ويمتلكون عقارات، مع ذلك يعتبرون من (الموالي)؟

أكثر الباحثين يركزون على الطبقات والتقسيمات الأفقية. الدكتور فوزي رشيد مثلا في الصفحة ٩٩ من الكتاب يقول ان (المشكينوم–الموالي) هم رجال نصف أحرار لكنه يؤكد في نفس الوقت أن الكلمة تعني (الغرباء عن المدينة). اعتقد ان لا يمكننا تفسير ذلك التضارب بدون إدراك التقسيمات العمودية للمجتمعات وإلا فماذا يعني رجل (نصف حر)؟. من يعايش مجتمعات المدن ذات التعصب سيجد أن التمييز يجري ضد

(١) الطرد من المدينة مازال قائما في المدن الكردية كتراث حتى وان لم يطبق منذ عقود. كلمة (شاربدر) أصبحت مرادفة ل Alienation التي قد لاتعني (الإبعاد) بالضبط بل التحقير وتجنب الإختلاط. كذلك المصطلح المسيحي Excommunication اعتقد انه كان ترجمة لما مارسه الأغريق في طرد احد ما من المدينة والقرية تحول الى طرد من مجتمع الكنيسة.

كل الوافدين الجدد، أو يعتبرون جدد رغم أنهم وعاشوا فيها عقودا من الزمن مع ذلك نرى أهل المدينة الأصليين (او مجرد كونهم أقدم منهم بجيل واحد) لايعترفون بهم ويظلون يوصفون بالغرباء. ذلك هو تفسيري لتلك الحالة في العراق القديم.

تبدو شريعة ايشنونا في البداية وكأنها على درجة عالية من المساواة بين أهل المدينة والغرباء بسبب المواد ١٢ و١٣ التي تفرضان غرامة ١٠ شيقلات على الشخص الذي يقبض عليه داخل أرض أو بيت أحد المشكينوم. أما أذا قبض عليه ليلا فيعدم.. من غير المعقول ان يحرص أهل ايشنونا على الموالي أكثر من حرصهم على أنفسهم؟. لذلك اعتقد إن أهل المدينة قد بالغوا في الاعتداء على الموالي، لذلك رأت السطات إبداء هذا الموقف (الدعائي). وقد يكون هناك دافع آخر للمادتين القانونيتين أعلاه المبالغتان في تشددهما. قد يكون الهدف المبطن لردع أهل المدينة على عدم الإختلاط بالغرباء. المشرعون بذلك ضربوا عصفورين بحجر، اولا في إبعاد الشبهات عن نفسهم وأيضا في تقليل الأختلاط مع الموالي.. حتى أن المادة اللاحقة (م١٥) تمنع التجار من التعامل مع العبيد.

المواد ٣٠ و٣١ جديرة بالملاحظة.م٣٠: اذا خطف رجل أثناء حرب أو غارة أو أخذ أسيرا وبقي في بلد غريب مدة طويلة. وتزوجت زوجته من رجل آخر وولدت له طفلا، فعندما يعود يسترجع زوجته. جيد جدا وممتاز، لكن المادة التي تتبعه ستوضح الهدف الحقيقي وكما يلي. مادة ٣١: أذا كره رجل مدينته وسيده وهرب ثم اخذ زوجته رجل آخر، فعندما يعود لايحق له استرجاع زوجته.. انها ترهيب واضح لكل من أراد الحرية وترك المدينة.. ترى ما الذي كان يدفع رجال مدينة ايشنونا للهرب من نسائها اهو تسلط النساء؟. التسلط والتكبر الأنثوي يتضح من المادة ٦٠: إذا طلق رجل زوجته بعد ان ولدت منه اولادا وأخذ زوجة ثانية فسوف يطرد من بيته وتقطع علاقته بجميع ما يملك وليتبعه من يريده.. هذا المقطع الأخير (ليتبعه من يريد) قد يكون أكثر من كفاية للكشف عن توجهات نزعات اهل ايشنونا وإنها ترجمة حرفية لتسلط المجتمع الأنثوي المنغلق ورغبتهم في أبعاد كل من لم يكن أنثويا و(ايشنونيا أصيلا) مثلهم.

لنطلع على المادة ٥٩: اذا اخبرت السلطات رجلا ان جداره متداعي لكنه لم يقوه وسقط الجدار وسبب موت رجل من الأويلم (أي أبن المدينة) فهذه قضية نفس (اي جريمة قتل) ويكون القضاء متروكا للملك.. هنا يظهر الحرص الكبير على (ابن المدينة)

وما كل ما سبق من التظاهر بالمساواة الاّ لذر الرماد في العيون. الدكتور فوزي رشيد يعلق على هذه الفقرة بأن ليس لها مثيل في القوانين العراقية.. ونلاحظ انهم تركوا العقوبة اختيارية كما يشاء الملك. اعتقد انها لعبة أخرى من أساتذة (النعرات والخوبياتي) لأنهم تركوا مجالا للـ(وساطة) فإذا كان الحائط يعود لأحد الأويلم لربما عفوا عنه قائلين (ياللا خطية مايدري) أما إذا كانت تعود لأحد المشكينوم فمن الممكن ان يعدم.. على كل حال، اعتقد ان اهل ايشنونا وشريعتهم وامثالهم من المجتمعات كانت على طول التاريخ المستفزات التي دفعت الى ردات فعل عنيفة.

شريعة حمورابي:

أرى تشابها قويا في ثلاث شخصيات من تاريخ العراق هم حمورابي والحجاج بن يوسف وصدام حسين. مواقفهم من المجتمع الحضري في العراق، كل منهم في زمانه، كانت متشابه في حدتها وأهدافها. طبعا العربي السني في وقتنا الحالي قد يقدسهم جميعا قائلا (الناس ما تجي الا بالدگ). الكردي سيقف في الوسط يعظم حامورابي لشهرته العالمية ويتغاضى عن جرائم الحجاج لأنه لايعنيه، لكنه سوف لن يطيق اسم صدام حسين. أما الشيعي فبلا شك يكره صدام والحجاج لكنه يتفاخر بملكه حامورابي. أقول له ولغيره أن يصبر ويرى كيف كان حال العراق في العقود الأربعة من حكم حمورابي.

لا يمكننا الجزم بان حمورابي حقد على شعبه كل الحقد، لكن توجهاته لاتنم عن حب ومودة اتجاه شعبه (إن اعتبرهم شعبه!) بل تظهر رد فعل عجيب ضد تلك الطبائع الزئبقية للعراقين الحضر من تلاعبهم بالقوانين ونعراتهم التي لم تتوقف للحظة. قوانينه أشبه بصليات المدافع الرشاشة تطلق لهيبا من أوامر إلهية بالإعدام. انه لم يرهق نفسه بأن يحقق ويدقق بين كل هؤلاء الذين لا يتوقفون عن المنازعات وتبادل التهم، فنسمع عن حمورابي يستفتح شريعته بمادة الأولى التي تنص: إذا إتهم رجل رجلا وألقى عليه تهمة القتل، لكنه لم يستطيع أثباتها، فأن المدعي يعدم.. إنه نفس منطلق وتصرف ضابط أمن تكريتي في مدينة شيعية مثلا ايام البعث، الشخص الذي كان يدخل الى دوائر الأمن والمخابرات في قضية ما كان لابد له من ايجاد ضحية معينة وإلا فلن يخرج سالما.

لننظر في هذه الصلية من أوامر الإعدام نكتبها بإختصار.. المادة ٢: إذا اتهم احد بممارسة السحر سيلقى في النهر. اذا غرق يستولي المدعي على داره، واذا لم يغرق، يجب ان يعدموا المدعي ويستولي المدعى عليه على داره.. المادة ٣: اي شهادة زور في اي قضية قتل تكون عقوبتها الإعدام.. المادة ٦: اذا سرق شيء من القصر، السارق وكل من تعثر الحاجة المسروقة عنده يعدمون.. المادة ٧: كل من اشترى حاجة من عبد بدون عقود واثبات يعدم.. المادة ١٥: أي محاولة لتهريب اي عبد أو أمة الى خارج سور المدينة عقوبتها الإعدام.. ثم تتبعها مئات المواد القانونية التي تتدخل في كل تفصيل من الحيات اليومية. بعضها تفرض عقوبات معقولة لكن أكثرية المواد والطابع العام لها و(مابين سطورها) تبدو لي كإناء ينضح بما فيه من رغبات اكثر ما تكون للأنتقام وليس حبا بنصرة وتقويم مجتمع عزيز على القلب أبدا أبدا.. ولنا أن نتصور ان المحاكم في العراق لم تعد المكان الطبيعي الذي يلجأ له المواطن من يومها.

هناك البعد الديني اللاهوتي ايضا الذي بدأ يمازج الاذهان في طبيعة الأوامر المنزلة من السماء. شريعة لبت عشتار كانت بدأت بوادر الترهيب فيها لكن الترغيب كان أكثر. أما عند حمورابي فلقد تجاوز الترهيب مراحل عجيبة فأصبحت فكرة الإنسان العراقي عن الخالق انه قوة رهيبة تبطش بمن تشاء لحظة ما تشاء وما من رادع. فما من حل لأبن المدينة إلا ان يزيد من نفاقه وزئبقية لسانه وتفكيره.

المادة ٦١ من شريعة ايشنونا كانت ما معناه (اذا اهمل حارس في حراسة دار معينة وكانت الدار المصدر الوحيد لمعيشة صاحب الدار فإن الحارس يقتل ويدفن في نفس المكان).. لنرى كيف قلبها حمورابي في المادة ٢١ من شريعته: أذا احدث رجل ثقبا في دار فعليهم ان يعدموه أمام تلك الثغرة ويقيموا عليه الجدار.. ان فيها تشدد من حيث كيفية وموقع تنفيذ الإعدام ناهيك عن مكان وكيفية الدفن انه ترهيب وانتقام و(كسر عين) أكثر من كونه مجرد عقوبة إصلاحية. ثم ان أهل ايشنونا قد انحازوا لفقراء مدينتهم ضد مسلحين يعملون حراس لديهم ومن المؤكد ان اكثر المسلحين كانوا من الوافدين الجدد. بينما حمورابي حث المسلحين على ترهيب اهالي المدن بعوبات تتجاوز نوع الجريمة.. وهو لم يترك لا العسكري ولا المدني يتصرف بحرية فالكثير من النصوص تمنع العسكرين من التعامل التجاري وقد يراها العسكري العراقي اليوم قوانين جيدة تدفع العسكرين الى التفرغ للجيش. وليكن كذلك لكن لننظر في هذا النص

(المنزل) المادة ٢٦: إذا طلب التحاق جندي أو سماك في حملة للملك ولم يذهب بل أجر بديلا عنه وأرسله عوضا عنه، فإن ذلك الجندي أو السماك يعدم. أما بديله فله أن يأخذ بيته!! ترى كيف كان تعامل العراقيين مع مثل ذلك النص؟ ان حمورابي قد جعلهم يخافون من بعضهم البعض إضافة لخوفهم من الدولة والجيش.. يذكرنا ذلك بالحجاج عند توليه العراق وأول قانون أصدره الذي خص الخدمة العسكرية وأعطى مهلة ثلاث ايام. لم يستجب احد حتى قام بإعدام اول متخلف يقع في يده وكان من أشراف الكوفة، فإذا بالناس يتراكضون الى التجنيد آلافا مؤلفة. أما عن قوانين صدام حسين العسكرية، فحدث ولا حرج.

الآموريين في بابل لم يكونوا قد تمدنوا مثل الموجات السابقة كالأكديين بدليل ملكية الأراضي، كما يبين هاري زاكس، انها في بابل كانت تعود لوجوه القبائل، بينما في المدن السومرية كانت أكثر الأراضي ملكا للمعابد ورجال الدين، وهو نفس الفرق الحالي تقريبا بين مدن الأنبار ومدن الفرات الأوسط.. إضافة لذلك، ان توجهات حمورابي كانت عشائرية أكثر منها حضرية. هو أول من أزاح مبدأ التعويض المادي وفرض مبدأ (العين بالعين كما يسمى) كما في المواد ١٩٦ و١٩٧ من شريعته. الأمر لم يقف عند هذا الحد بل تجاوز (العين بالعين) الى مبدأ (القريب بالقريب) كأن يقتل أبن الجاني بسبب جناية ارتكبها ابوه كما في المواد ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠ المادة الأولى تحدد الأجرة التي يجب ان يتقاضاها البناء لقاء بنائه دارا لشخص ثم المادة ٢٢٩: إذا بنى بناء لرجل دارا ولم يقوي عمله فإنهار البيت الذي بناه وسبب قتل صاحب البيت، فيجب ان يقتل ذلك البنّاء.. ثم تتبعه المادة ٢٣٠ كأنها ملحقات ثوب العرس الدموي: إذا سبب قتل ابن صاحب البيت فعليهم ان يقتلوا ابن البناء. لاحول ولا قوة الا بالله.

سأعترف للقراء بحقيقة شعوري بصدد هذه المادة. لقد رأيت أناس في شمال العراق وجنوبه من الطبقة الوسطى كأطباء وميكانيكيين، قضاة ورجال أمن، عطارين وبقالين وسياسيين ذكورا وإناث، قرأت النفاق والدناءة وبخل المدعي للكرم والجبن المدعي بالعنتريات قرأتها في تصرفاتهم ومنها عرفت ما دفع حمورابي والآموريين قبل ٣٧ قرن إلى درجة الإنتقام من أولادهم. الطبقة العراقية الوسطى التي من المفروض ان تسير البلد وتتبوأ قمة الثقافة نفسهم سمعت ياما سمعت منهم يقولون عن كل عقوبة جماعية وعملية إبادة (احسن، خلي يذبحون اطفالهم) طبعا للقاريء هنا ان يلاحظ

أحرف الهاء والنون في آخر كلمة (اطفال- هُم) تعني (الغرباء عنهم).. لكن هل كان للآموريين الحق في أن يمددوا طفلا على خشبة يسأل (ماذا يجري) فيجبوه (اسكت، انها أرادة السماء). سنرى ماذا جرى لأحفاد الآموريين تحت نير الآشوريين. لقد تركوا أكثر الأمور وركزوا على تمزيق سادي لأجساد نسائهم.

لقد تبنى حمورابي توجهات مقاربة للذين سبقوه في صياغة القوانين. مثلا، هو أبقى على البغاء المقدس، لكن حرص على إحتكار أرباح تلك المهنة من قبل دولته، كما في المادة ١١٠: إذا لم تقم كاهنة الناديتوم والاينيتوم في الدير وفتحت حانة للخمر أو دخلت حانة للخمر لشرب البيرة، فعليهم أن يحرقوا تلك المرأة.. هذا وان شريعة حمورابي لم تخلوا من التعصب المديني، التمييز ضد المشكينوم من حيث التعويضات والعقوبات واضحة جدا. فيما يخص المادة ٣١ من شريعة ايشنونا التي سبق ذكرها، حمورابي كرر ذلك التوجه لكن مع اضافة (نغزة) مذلة للرجال كما نرى في المادة ١٣٦: إذا نبذ رجل مدينته وهرب، ودخلت زوجته بعد ذلك بيت رجل ثان، فإذا عاد هذا الرجل وضبط زوجته، فلا ترجع زوجته الهارب الى زوجها بسبب كرهه لمدينته وهروبه.. الملاحظ ان اهل ايشنونا ذكروا عدم ارجاع الزوجة اذا (تزوجت) من رجل آخر بينما حمورابي لايذكر الزواج. كلمة (ضبط، ضبطت الخ) تتكرر كثيرا وتدل الخيانة الزوجية والزنى.

الطرد من المدينة كانت من أقصى العقوبات في العراق اذ ان المطرود لم تكن له فرصة في الحياة الكريمة، اما ان يقتل، اما ان يباع كعبد الى مدينة اخرى. لننظر في هذه المواد باختصار. م١٥٤: اذا جامع رجل ابنته يطرد من المدينة.. م١٥٥: اذا جامع رجل زوجة ابنه يرمى في الماء.. م١٥٧: اذا جامع ولد امه بعد موت ابيه، يحرقان معا.. اي ان الطرد من المدينة والموت كانا مرادفان لبعض. هذا ولا يعتقد اي احد ان الحرص على العفة وليد مرحلة معينة او بسبب دين ومذهب معين. أكثر عجبي من الذين يعتقدون ان المشاعة الجنسية ستسود بمجرد عدم وجود نصوص دينية. العفة شيء مرافق لغريزة البشر ولا يمكن سكوت القوى والتيارات العلمانية والعسكرية عن مصادرة رجال الدين لقيم الشرف والعفة كأن بدونهم ستنقلب الدنيا الى بيت دعارة يمتد من الأفق الى الأفق.

نقطة أخيرة قبل الخوض في مقدمات وخاتمات الشرائع. انا وانت نتعامل مع اولادنا

يوميا فنقول "والله لو فعلت كذا لأذبحك" هذا اسلوبنا المتبع وقلما نعني معناه الحرفي. يا ترى الى اي حد دخلت هذه المبالغة في التهديد والوعيد في الشرائع والأديان الشرق أوسطية؟ وكم من تعاليمها مجرد كلام ينتهي المجهرين بها في النهاية الى ان يقولوا "يالا يالا ماكو مشكلة، نحلها بيننا"؟. هذه النقطة قد تبدو (صغيرة) جدا وهامشية لكن اعتقد ان صغر حجمها ينعكس بأضعافها على ما قيل وما تم فعلا على طول التاريخ.

عن مقدمة وخاتمة شريعة حمورابي. الأسلوب العام عندهم هو كيل المديح لأكثر عدد من الآلهة حسب تحالفاتهم مع المدن المختلفة. لبت عشتار استعمل ذلك الأسلوب مبينا نفسه كاحسن حامي وحليف للمدن التي ذكرها. أما حمورابي فقد تجاوز أسلوب لبت عشتار بأضعاف مضاعفة. إنها الدعاية الانتخابية التي يضطر الرؤساء الأمريكيين للقيام بها عادة بجولة في الولايات والمدن لكسب الدعاية والأصوات. سنأخذ مدمجة مما يقوله حمورابي:

عندما قام الإله المتسامي، ملك النوناكي والإله انليل سيد السماء والأرض، مقرر مصائر البلاد بالقضاء لمردوخ الابن البكر للإله أينكي، ان يتمتع بقدسية الإله انليل على كل البشر وجعلاه عظيما بين الأيكيكي وسما بابل بأسمها العظيم،، بعد أربعة سطور،، سمياني بحمورابي الأمير التقي الذي يخشى آلهته، لأوطد العدل في البلاد، لأقضي على الخبث والشر،، بعد ستة أسطر،، انا حمورابي،، الذي يمون نيپور بكل شيء،، معيد مدينة اريدو الى مكانها. مطهر عبادة أپسو،، بعد سطرين،، الذي كرس وقته لمعبد الإله ايساكلا... الذي أنجبه الإله سين، الذي جعل مدينة اور تزدهر، التقي المتضرع الذي جلب الخير الى معبد أيكش نوگال،، المطيع لإله الشمس العظيم مثبت أسس مدينة سپار... الخ.. ويستمر بعدها لأكثر من ٦٠ سطر يكاد لا ينسى مدينة وإله بدون مديح ويصور نفسه كأبنها البار (طبعا يعني أبن تلك المدينة وحاميها فالإله تدل على تلك المدن). ثم يختم بسطرين (عندما ارسلني الإله مردوخ... وضعت القانون والعدالة بلسان البلاد لتحقيق الخير للناس)، ومن هنا تبدأ أول رشقات أوامر الإعدام والحرق والخزق.

أخيرا هناك الخاتمة التي يمدح فيها نفسه ويبين أنجازاته في حوالي ٧٠ جملة لكن شيئا فشيئا يزيح القناع الحريري وتبدأ رشقات الترهيب واللعنات في حوالي ٦٠ أو

٦٥ سطر كهذه العبارات (عسى الآلِهة نن كراك، ابنة الآله آنو، شفيعتي في معبد أيطور، أن تبتلي اطرافه بمرض عضال، ووباء خبيث وجرح لايشفى... الخ) تنم عن ما كان حمورابي يكنه لأهل العراق من (ود).

منذ تلك العصور بدأتحلقة مفرغة من النقاشات (ماذا لو طبقنا الشريعة بحذافيرها لأصبحنا احسن البشر) برأيي لو أن البشر وضعوا كل قوتهم في هدف واحد كخدمة الطيور، مثلا، بكل تفاني، فمن المؤكد ان الحياة ستصبح اكثر استقرارا وأمناً لأن الطيور تحتاج كذا وكذا وان خدمتها ستتطلب كذا وكذا. لكنه سيكون على حساب انسانيتنا فالشرائع وسيلة صنعناها وعقدناها مقدار عقدنا النفسية والاجتماعية جعلنا منها غاية بحد ذاتها. تقاتلنا عليها وعبدنا نصوصها واجلين.

الشرائع الآشورية

البابليين وحتى العصر الفارسي أصروا على تطبيق شريعة حمورابي كأنه جزء من حياتهم، فإذا كان القانون بهذا السوء فلِمَ يصرون عليه؟. الجواب يكمن في نقطتين. ان التقديس العجيب لمردوخ وشريعة حمورابي لم يظهر في وقتها مباشرة بل ان حمورابي كأي حاكم عراقي كان مكروها من الشعب (ما عدا جماعته والمستفيدين منه طبعا) لكن يبدو انه بعد موته بفترة كان مصيره التقديس حاله حال أكثر الملوك الميتين. النقطة الأهم تكمن في القوانين الآشورية، من يطلع عليها سيقدس (تساهل) حمورابي والآموريين الى يوم الدين.. القوانين الآشورية أشبه باستعراض مذبحة أو غرفة تعذيب في معتقلات الاستخبارات العسكرية حيث ضربات (الكيبل) هي لغة التفاهم مع السجناء، وإن نظرة واحدة في عيون السجان قد تؤدي رأسا الى سمل تلك العين. وان أكثر اهتمامهم كان ينصب على قهر وإذلال النساء جنسيا وجسديا.

سأستعرض بأختصار شديد مضمون الشرائع الآشورية.. أولا قوانين العصر الآشوري الوسيط (حوالي ١٣٠٠ ق.م) كما يلي.. المادة ١: اذا سرقت امرأة من المعبد يعلم اهلها كي يقرروا ماذا يفعلون بها.. م٢: اذا تفوهت إمرأة بالكفر لن تقترب بعد ذلك من زوجها وابنها وبناتها.. م٣: اذا سرقت زوجة من بيت زوجها اي حاجة فتقتل هي ومن استلم المادة المسروقة أو يعاقبان بنفس العقاب.. م٤: اذا استلم عبد او أمة حاجة من يد زوجة رجل فتقطع آذانهم وانوفهم جميعا.

هناك عشر مواد ممسوحة ثم المواد من ١٤ فصاعدا كلها حول الزنى واللواط منها المادة ٢٠: اذا لاط رجل بصاحبه فسوف يلاط به ويخصى.. يذكرنا ذلك بما يذكره الاستاذ كنعان مكية في كتابه القيم (القسوة والصمت) عن موظفي (هتك الأعراض) في دوائر الأمن العراقية. انها سادية ورغبات انتقامية صارخة والمواد البالغ عددها همها الجنس والمرأة، والكثير من العقوبات تتضمن الضرب والتعذيب وقطع الحلمات والأنف والتشويه، مثلا المادة ٥٣ بإختصار: اذا اجهضت المرأة بطنها توضع على الخازوق ولا يجوز دفنها. واذا ماتت اثناء الإجهاض فأيضا توضع على الخازوق ولاتدفن... الباقي ممسوح.. هناك طبعا مبدأ (القريب بالقريب) اي الإنتقام من أحد أقرباء الجاني وليس منه شخصيا كما المادة ٥٥ بأختصار: اذا اغتصبت فتاة عذراء غير متزوجة في المدينة او في الريف،،الخ. والد الفتاة له أن يأخذ زوجة المغتصب كي يزنى بها. فاذا لم يكن له زوجة عليه دفع فضة تساوي ثلث سعر الفتاة،، الخ.

لقد ظهر الحجاب أول مرة في آشور كما في المادة٤٠ وهي مادة طويلة جدا نختصرها كما يلي: لايجوز لأي امرأة آشورية ان تخرج الى الشارع العام دون غطاء رأس او عباءة... السرية التي ترافق النساء الآشوريات ايضا تتحجب...، اما الزانية فلا يجوز ان تتحجب وكل من يرى زانية متحجبة يقبض عليها ويأتي بها مع الشهود الى مدخل القصر،، له ان يأخذ ملابسها وثم تضرب ٥٠ جلدة ويسكب القير على الراسه. اما اذا لم يبلغ عنها فيجلد الرجل ٥٠ جلدة وتثقب اذنيه وتربطان بقضيب خلف راسها وللمخبر ان يأخذ ثيابه بعدها يوضع في خدمة اعمال الملك مدة شهر.. نلاحظ تناقض حاد في حرية التحرك والتصرف للإنسان الآشوري. الكل يراقب الكل ويُبلغ عن ابسط تحرك. هذا واعتقد ان الحجاب كان له مفهوم تمييز قومي، حيث ان فرضه على الآشوريات دوناً عن الجواري كان فيه نوعا من الاستخفاف بنساء الشعوب المحيطة بهم يجعل من المواطن الآشوري العادي الذي يرى النساء الأخريات لا يتحجبن كأنهم جواري وزانيات فيصبح انطباعا عاما.. الحقيقة اني قلما رأيت شريحة او مذهب في العراق لا يتهمون باقي الناس (الغرباء عنه) بنوع من المشاعة الجنسية (هؤلاء يتزوجون من خالاتهم وعماتهم وأهل فلان طائفة يمارسون الجنس مع اخواتهم)،، الخ وهو يزداد تصاعديا بمقدار تزمت وتخلف كل شريحة.

القوانين ما قبل البابلية كانت تحافظ على حقوق معقولة للمرأة وبعضها هدد الرجال

بالطرد من المدينة. أما القوانين الآشورية فكانت قوانين عشائرية تنمو وحتى الان في نفس البيئة التي نمت فيها قبل ٣٠ قرن فالأرض واحدة والهواء واحد. ونرى ان طبيعتهم اقرب لطبيعة العرب السنة منها الى المجتمعات السريانية. الطلاق الذي كان يؤدي الى حرمان بعض الرجال من ممتلكاتهم (وهو اليوم يجري على الكثير من السريان وحتى مسلمي المجتمعات الأنثوية) إجازه الآشوريون بكل بساطة وبأقل التبعات كما في المادة ٣٧: إذا طلق رجل زوجته فإذا شاء، يعطيها شيئا. واذا لم يشأ، فلا يعطيها أي شيء ويتركها تذهب خالية اليدين.. حتى المواد الخاصة بالزنى أو الترتيب للزنى من قبل أي شخص إمرأة كانت أم رجل فهي تعطي الرجال مساحات أوسع بكثير.

ثقافة الشرق الأوسط ومهدها العراق اتخذ منحى متشدد ضد الأنوثة بصورة عامة. لايمكن إنكار تأثير العقلية العشائرية الرجولية عليه والتمادي الواضح في تحقير المرأة وجسمها وانوثتها كأنها من خلق الشيطان وليس من خلق الذي خلقهم. لكن لا يمكن التغاضي عن نقطة اساسية وهي امتزاج الأنوثة وسلطة المرأة في تاريخ العراق بعصبية المدينة وما سببته من تناحر في كل مرة سيطر فيها على المجتمع. ان مفهوم الحرية (حرية القرار، حرية المرأة، حرية الأجتهاد الديني وحرية التفكير والتعبير والفلسفة والاحزاب... الخ) في العراق كما في اليونان اصبحت فكرة ملازمة للفوضى والحروب الأهلية والتاريخ يعيد نفسه كما نرى.

هاملتون ١٩٩١: إبتعد قليلا عن الشرائع القديمة ونأتي بمثل واقعي نحشره في الموضوع عن كيفية تعامل مجتمعاتنا مع النصوص والدين والأوامر التي من المفروض انها لا تقبل اي نقاش كونها في صلب المصلحة العامة. اعتقد ان المشاهدات الشخصية أهم من كل ما يسطر من كلام عن الماضي الذي يشوبه من هالة من الخوف معتقدين ان البشر في الماضي كانوا عمالقة وملائكة وما الى ذلك مع العلم ان البشر هو البشر.

الهجرة الجماعية التي تعرض لها الأكراد في ١٩٩١ كانت حادثة هزّت الضمير العالمي. الاستاذ محمد حسنين هيكل في كتابه (حرب الخليج) قلل من أعداد المهاجرين الى حوالي ٦٠٠,٠٠٠ مع العلم أني شخصيا شاهدت طابور المهاجرين يتزاحم على طول الطريق المسمى طريق هاملتون (طريق جبلي من بلدة راوندوز وحتى نقطة الحدود

الإيرانية في حاج عمران طوله ٥٧ كيلومتر). التزاحم استمر لمدة أسابيع فعلى القاريء ان يقدر العدد الأجمالي للفارين. بتقديري ان طريق هاملتون وحده احتوى على مليون نفس، ولم يكن الطريق الوحيد.. انا شخصيا قضيت أحد عشر يوم بلياليها على مقود السيارة قاطعا كل متر بشق الأنفس ثم أقفلت راجعا قبل نقطة الحدود بكيلومترين.

حالة أود ان يستوعبها القاريء في كيفية تفسيرنا للنصوص. السواق كانوا يتجاوزون بعضهم والصفوف (السايدات) تضاعفت حتى سدوا طريق العودة. في هذا الوقت شاع خبر بين الناس ان قيادة الجبهة الكردستانية أصدرت امر بنشر البيشمركة لتنظيم الطريق. هنا سنصطدم بمسألة (نص القانون) الناس رددوا هذا النص: قيادة الجبهة الكردستانية تقول يجب ان يكون هناك ساید واحد.. هذا هو (النص) الذي درج على الفور وظل يُردد حتى النهاية.. اكثر الطريق وأكتافه كان سالكاً ما عدا بعض المسافات القليلة جدا سبب بعض الألغام لكنها لم تثنِ أحد فقد داسها الناس ومات من مات ولم يصبر أحد على أحد. طريق بهذا العرض يتسع لثلاث بل أربعة صفوف من السيارات وان العقل كان يفرض ان يتم استغلال قدرة الطريق على الاستيعاب لأمتصاص الزخم الهائل خاصة وان الناس كانت تعتقد ان الحرس الجمهوري سيلحق بهم في أية لحظة، مع انهم هزموا في وادي كوري القريب من اربيل. حالة الأنهيار كانت تغلب على الناس وتدفعهم قدما كالمجانين، غير ان (النص) يقول يجب ان يكون هناك (ساید واحد). فلو نفذ ذلك بالفعل كان من الممكن ان تصل صفوف السيارات الى أربيل !!.

طبعاً النص كان لمجرد فتح طريق العودة للوريات المواد الغذائية والوقود لكن أبدا وطلقا، انه النص والنص فقط الكل كانت تصرخ "يجب ان نلتزم بساید واحد فقط لا اكثر والذي يخرج عن الصف هو خائن ومخرب وسيقتل" لكن الكل خالفته. فأكثر الناس إصرار على (تطبيق نص القانون) كان ينتظر ساعة وساعتان ويوم كامل يمر يرى الطريق امامه واسع فارغ ماعدا صف واحد فقط من السيارات المركونة والتي لا تتحرك مع ان الطريق يتسع لصفين وثلاثة صفوف اضافية دون أي مشكلة. النتيجة انك كنت ترى واحد ينطلق في الصف الثاني والآخر يقلده فيتصادمون مع البيشمركه وباقي الناس.. أنا لا أعرف كيف نطق نص القانون المهم ان يكون لنا روح عملية، فاذا كان المنطوق شيء جامد فلماذا لا ترجع الى عقلك الذي دلك على الاستماع الى النص

لكنه لم يدلك على الحل؟

طريقة التبليغ والتفسير والتنفيذ الأمر كلها كانت تصب في تيار معاكس للواقع والمصلحة والممكنات، النتيجة انهم كلهم أصروا على تخوين من يخالف ثم خالفوه بأنفسهم.. وأخيرا مسألة الخوييات. الكل هتف بنص القانون ولكن الكل تحابي معارفها في التجاوز على النص، فحدث ولا حرج عن المصادمات. الكتل العائلية وحتى الحزبية كانت متداخلة ومتصارعة ويائسة. منظر واحد لا انساه في شجار حدث بين مجموعتين على متر أو مترين من الطريق وما هو إلاّ واحد منهم يسحب سلاحه فإذا بمئات البنادق تشهر مع العلم ان السيارات كانت متلاصقة ومليئة بالأطفال منهم بنتي التي كانت تشرف على عيد ميلادها الأول.. الرجال كانوا متوترين وعلى شفى إطلاق النار لكن الأنكى النساء. لقد رأيت ما يمكن ان يوصف بأنه مشهد تاريخي. مئات النساء يتشبكون بالأيدي والسكاكين والاحجار أعنف مما يتصوره العقل. حتى بدأ الرجال بتهدئتهن، والله لو وجهوا تلك القوة النسوية ضد الحرس الجمهوري لهزموهم قبل الرجال.

كل ما سبق بحثه كان عبارة عن إصرار على تطبيق (نص) ردده الناس كما يحلوا لهم ثم فسروه بأصعب اسلوب واكثرها استحالة ثم نقضوه بأنفسم. وهو نفس ما نراه في حياتنا الثقافية والدينية مسلحين كنا أم من جزر الواق واق. الكل يحب النصوص الصعبة والمستحيلة ثم يصر على ان النص ممتاز وجيد ولو طبقناه لما كانت المشاكل. وفي النهاية ترى الكل يخرج عنه ويخالفه والكل يتهم الكل بالمخالفات وعدم الإلتزام. النتيجة ان مسافة العشرين الكيلومتر النهائي من الطريق سُدَّت بالكامل وبمعدل ستة صفوف من السيارات منعت حتى المشاة من الحركة. فهل نحن مخيرون أم مسيرون أعتقد بأننا مخيرون وقد قررنا أن نكون مسيرين ولا نتنازل عن القيود ألتي أصبحنا نعشقها ونقدسها، فالعبيد يعشقون القيود كما يقول أرسطو.

الفصل الخامس

العصر العربي

جذور العرب

هناك خطأ شائع يجعل الكثيرين يعتقدون أن هجرة الأقوام السامية كانت تأتي الى العراق من الجنوب الى الشمال بسبب شيوع فكرة تعيد أصلهم الى الجزيرة العربية. لكن لا أحد من الساميين دخل الى العراق من الاحساء والكويت مثلا. ان عبور خالد للصحراء مباشرة الى اليرموك في الأردن اعتبر معجزة، وهكذا.. في الواقع أن القبائل السامية كانت تظهر في البوادي الشمالية أولا ثم ينزحون جنوبا الى المناطق الزراعية (الشيعية). بمعنى ان مهد الأقوام السامية لا يشترط ان يكون من جزيرة العرب، بل القوس المسمى الهلال الخصيب.

توينبي ربط بين نشأة العرب كشعب من التجار البدو بعملية تدجين الجمل[١] في الألفية الثانية قبل الميلاد ويشير اليه (كإختراع) وطفرة سببت تغيّراً نوعيا في المواصلات والتجارة مع مناطق ماكانت قبلا.. هذا وان توينبي يشير الى تزايد سكاني في بادية الشام في العهد الآشوري المتأخر وردع الآشوريين لهم.. النقطة التي قلما بحثت هي وجود ربط بين اللغة العربية واللغة الألمانية بسبب الحيثيين الذين رافقوا الجيش البابلي الى الحجاز[٢] حيث ان نزوح الشعوب سابقا كان من الشمال الى

(١) ابن خلدون ايضا وضع مقارنة بين كل شعب بدوي ونوعية حيواناتهم فكلما طالت خطوات المطية قل ارتباط ذلك الشعب بالأرض.. أرجوا ان لا يعتقد احد من (المتمدنين أكثر من اللازم) ان هذا الكلام محاولة إهانة للعرب سيما ان البعثيين اعتبروها كذلك حيث (سحبوا الجنسية العربية من ابن خلدون!!) مع انه أثرى التراث الإنساني قاطبة. اما عن توينبي فكان يدرك تماما مدى تأثير الشعوب القبلية على التاريخ وله تلميحات قوية على وجوب مراجعة الأوروبيين لثقافتهم المعتزة بالمدنية زيادة عن اللزوم..

(٢) الحيثيين رافقوا نبونائيد الى الحجاز كذلك هجرة القبائل الفلسطينية (انضولية الأصل) الى =

الجنوب بعيدا العواصف الثلجية، فهي كانت الخطر الأكبر على البشر في وقتها.

اعتقد ان هجرة نبونائيد الى شمال الحجاز وأنشائه ليثرب وبعض المدن كان له أثر جوهري في تطعيم البادية بالأرث العراقي. في القرن السادس ق.م سمعنا ان القبائل الآرامية (والعرب الذين كانوا قد ظهروا على الساحة) كانت ترفض مردوخ البابلي والسبب كما قلنا لتجسيده إنتماء مديني متعصب لا يعترف بغير بابل فكيف يعترف بالبدو ويعترفون به. بينما تجاوبوا مع نبونائيد في طرحه إله القمر (سين) وبدأ التقويم القمري عنصرا لازم العرب ثم الإسلام ككل واصبح الهلال رمزا موازيا للصليب المسيحي.. من جهة أخرى هناك اللغة العربية التي هي بحد ذاتها معجزة اذا ما اعتبرت انها نشأت بين ليلة وضحاها في بلاد اصلا لا تحتاج الى كل تلك الفصاحة والمفردات (Vocabulary). الكثير من المفكرين ذهبوا الى الاعتقاد بأن الجزيرة العربية حوت حضارة هائلة وكان العرب من بقاياها. لكن حتى يثبت شيء من هذا القبيل اعتقد أن الأرجح هو كون العرب قد ورثوا من كل الحضارات السابقة لهم بالأخص بلاد بابل التي كانت درة مدن الشرق لألف سنة. قد تكون هناك بذور اخرى زرعت في الحجاز لكن مشروع نبونائيد كان الوحيد الذي اكتشف لحد الآن ويبدو ان البذرة التي زُرِعت هناك، لغويا ودينيا، ازهرت بعد الف عام وأزاحة بقوتها وشبابها معظم الثقافات التي سبقتها.

زينوفون (٤٠٠ ق.م) بعد ان تركوا ساحل الإسكندرونة باتجاه الشرق، استعمل اسم سوريا Syria حتى مدينة أسماها Thapsacus على شاطئ الفرات. بعد ذلك استعمل اسم Arabia واصفا الأرض بالمنبسطة كسطح البحر ووفرة حمر الوحش

=فلسطين وكل تلك التحركات من الشمال الى الجنوب لابد لها من تأثير لغوي قوي. بعض المعارف ممن عاشوا في المانيا مؤخرا أشاروا الى ابحاث تجري في جامعة هايدلبيرگ عن تشابه بين اللأمانية والعربية منها ان صيغة الجمع في الالمانية يؤنث كما في العربية، كذلك استعمال القاف بدل الگاف (الكاف الفارسية).. يعتقد ان الحيثيين هم العنصر حيث اتجه قسم منهم الى اوروپا، ولاية هيسن وتعني بالضبط (حيثيين). شخصيا اعتقد بوجود تشابه قوي بين العربية واللغات الآرية، مثلا لو ازلنا حروف العين (التي تكثر في القرن الأفريقي) والحاء (المصرية الأصل) لو ازلناها من تلفظ الكلمات العربية كأن كتبناها باللاتينية أو جعلنا اوروبيا يتلفظ اللغة العربية، لظهرت حقائق عجيبة وغريبة.. الأقوام ليست (دم أصيل) وما الى ذلك بل هي ثقافات وحالات داينميكية متفاعلة.

والنعامات والحباري. ولم يطرأ تغيير على اسم البلاد حتى وصلوا بلاد بابل -Babylo nia بعد اجتيازهم السور الميدي[1] على الفرات.. في العصر الروماني نسمع عن مملكة تدمر في البادية السورية. ثم دويلات الغساسنة والمناذرة اثناء الصراع الساساني البيزنطي وحتى الفتح العربي الذي غيّر وجه التاريخ.. نستنتج ان نشأة العرب لم تشذ عن نشأة الأقوام الساميين إلا ان الإختلاف على ما اعتقد كان امتدادهم الى الحجاز واليمن ثم عودتهم منها بثقافة جرى عليها تغييرات كبيرة.

يبدو ان العرب تبنوا الإنتماء الذي اصر على النفور من اولاد عمومتهم الذين توجهوا الى المدن وارتضوا لنفسهم (ذل) العيش تحت رحمة إمبراطوريات المنطقة وبيروقراطية السلطات المدنية (المدينية) التي إتبعت تلك القوى، فارتبط اسم العرب بالقبيلة والبادية أكثر من باقي الساميين.

العرب كمعظم الشعوب القبلية كان لهم ومايزال ردة فعل من المدن، على الأقل في العراق. فنلاحظ انه بعد تمدن الآراميين وأنحسارهم من البوادي في عصور ما بعد الآشوريين، يخلفهم العرب في مناطق تماس الحضارة والبداوة ابتداءا من الأردن وحتى منطقة التاجي[2] شمال بغداد على دجلة والى الحيرة في الفرات الأوسط حيث

(١) إنشاء نبوبلاصر كخط فاصل بينه وبين الميديين. قد يكون نفس الخط الفاصل بين السنة والشيعة اليوم لأنه يقع على الفرات تقديرا جنوب الفلوجة باتجاه الشرق.

(٢) مسعود محمد نبه الى ان الساسانيين اطلقوا اسم تاجي على العرب القاطنين شمال عاصمتهم المدائن، وكان يعتقد انها نفس منطقة التاجي الحالية شمال بغداد. كان يربطها بكلمات (تانجي أو تازي أو تازيك وتاجيك) ويبدو انها مسميات كان الإيرانيين الحضر يطلقونها رسميا على البدو بصورة عامة. مثلا، عند اكتساح وسط اسيا من قبل الترك، انسحبت المجموعات الآرية الى الجبال فأطلق الترك المتطبعون بالثقافة الإيرانية اسم تاجيك على أكثر القبائل الآرية السنية، حتى الاكراد، لكن الاسم ثبت على شعب التاجيك في تاجيكستان وشمال أفغانستان، هم يتحدثون بالفارسية لكنهم عشائر سنة.. من جهة أخرى، نفس الكلمة تستعمل الآن في الكردية بمعنى (كلب سلوقي). المفارقة التي لا أجد لها حل هي الربط بين كلمة تاجي وسلوقي. كلمة (سلوگي) في بغداد تدل على نفس النوعية الكلاب ال (تانجي كما تلفظ في السليمانية وتازي كما تلفظ في اربيل) وهي تشبه اسم (السلوقية) الاسم القديم لطيسفون. فهل من الممكن ان يكون البدو العرب قد أطلقوا اسم عاصمة الفرس (السلوقية) على كلابهم نكاية بما قام به الفرس من اطلاق كلمة (تاجي) على العرب ومن سكن البراري؟!! على كل حال، يبدو ان الكلمة اطلقت في وقت ما على كل من عاش في البراري من انسان وحتى بعض الحيوانات.

كانت عاصمة المناذرة. لكن العرب لم يثبتوا تواجدهم في اقليم حضري مستقل ذو طابع عربي صرف كما فعل الآراميون في دمشق واوگاريت مثلا، إلا في الحجاز، مدينتي مكة والطائف بالتحديد.

بعبارة أخرى، يمكن تصور المدن الكبرى للهلال الخصيب قبل الإسلام (مدن تحيط بالبوادي كقوس متعرج) كأنها امتصت الرمق الأخير من انوثة البوادي فلم يبقْ للعرب إلاّ الخشونة تجسد في تعصب قبلي أعمى مع روح قتالية عالية ضد الغريب والقريب على حد سواء. اما المدن القليلة التي سادت فيها ثقافة عربية خالصة كانت في أقصى مكان لا تصله المدنية الأجنبية وهو الحجاز، حيث انه يبعد مسافة متساوية عن أقرب الحواضر، اليمن في الجنوب والشام في الشمال.. هذا وان الحجاز في نفس الوقت كان الأقليم الوحيد الذي لم تصله يد الدول والأديان الكبرى.

الحجاز:

قبل كل شيء، الحجاز بلاد جبلية وليست صحراء منبسطة كما يعتقد الأكراد مثلا عن كل العرب. اذا نظرنا لها من زاوية خاصة نراها كاليونان، جبال جرداء تنتشر فيها بلدات متناثرة وتنتقل فيها الزوارق والسفن. إلاّ أن المدن في الحجاز أقل بكثير وبدل السفن والزوارق الأغريقية هناك قوافل الأبل والخيل.

عباس محمود العقاد له اشارة نافذة الرؤيا عن ذلك النوع من الواحات التي اسماها (مدن القوافل) ويقول ما معناه: ان الحضر يعيشون فيها تحت ضغط كبير من القبائل فيضطرون ان يوفقوا بين اسلوبين من الحياة. لذلك ظهر أكثر الأنبياء في مثل تلك المدن[1] كلامه اكثر من صحيح ويمكن ان نضيف لذلك التوجه ان الحجاز بحد ذاتها بلاد غير مركزية توزعت فيها مدن صغيرة تحت ضغط قبلي كبير بالكاد تميزت فيها إنتماءات مدينية. التعصب المديني كان موجودا لكن لم يكن شيئا يذكر مقارنة مع التعصب القبلي عند العرب. كانت هناك منافسة بين الطائف ومكة لكننا نسمع ان التعصب لأفخاذ العشائر (كبني هاشم وبني أمية وبني مخزوم الخ) تطغى على التعصب المديني. ثم ان القبائل لم تُبقي مجالا لعوائل أخرى تعيش معها، لذلك لانسمع بشخص يتحدث عن (مكيين قاموا بكذا) بل يقال (ان قريش في مكة كانوا كذا)

(١) عباس محمود العقاد (ابراهيم ابو الأنبياء) فصل (مدن القوافل).

و(ثقيف في الطائف فعلوا كذا). اذن العصبية المدينية والقبلية تداخلتا في تلك المدينتين وأصبحتا مجرد تعصب (لوجه الله) كما يقال في العامية، اي بدون هدف.

الاحتكاك بين قبلية العرب والسّلم الحضاري في الحجاز على ما يبدو كان يبدأ من يثرب (آخر قلعة انشأها نبونائيد وجلب إليها اليهود) فنسمع بأن الطبقة الوسطى من الحضر كانوا يهود بينما الأوس والخزرج لم يكن لهم شريحة حضرية وسطى، فالعربي إما أن يكون من الأوس أو ان يكون من الخزرج بدون اي حل وسط، كأنها كتل حجرية بدون أسمنت يتمم البناء. فنسمع بالعديد من شخصيات العرب في يثرب كانوا عربا من جهة الأب لكنهم يهود من جهة الأم لعبوا على حبال السياسة والإنتماء بشكل عجيب وشكلوا تحدي للإنتماء العربي الناشئ الذي تبنى الدين الإسلامي كبديل عن كل الإنتماءات الأخرى.

يمكن ان نرى صورة مشابهه لعرب الجاهلية في مدن سهول زاگروس في القرون المتأخرة (اربيل، كركوك، خانقين، اورمية، نغدة... الخ). هوية الكردي ترتبط بنسب أبوي وعشيرة (كتل مشابه لكتل العربية) اللهجة ونوعية النقوش على الملابس وعمامات الرؤس، كل منها نقاط تقرأ غريزيا وتدل على إنتماء يصعب التخلي عنه إلا اذا تخلوا عن اللغة القومية جملة وتفصيلا. بينما التركي والسرياني يتجاوز الكثير من تلك التعقيدات فيمكن لهم ان يكونوا مجرد طبقة وسطى من خياطين ونجارين وموظفين وشرطة الخ، بدون عشيرة، وان وجدت فخير على خير[1]. تلك الحالة ولو انها تبدو

(١) تلك الحالة خفتت في القرن الماضي منذ ان تخلى الاكراد (في العراق بالدرجة الأولى) عن نفرتهم من الوظائف وملابس المدنية وانخراطهم في المسالك الحكومية وحتى الجيش، لكنها مازالت قائمة في كردستان الإيرانية مثلا حسب آخر زيارة قمت بها عام ١٩٩٦الى مدينة سردشت القريبة من الحدود العراقية. مجرد ان يلبس واحدهم زيا أوروبيا يفسره الباقي على ان هذا الشخص قد انقلب على قومه وأصبح ينتمي الى الدولة، بمعنى انه أصبح شيعي. وعليه، فقد اصبح مستعدا أن يزوج اخته او بنته زواج المتعة الى الناس!! فتتداخل العقد االاجتماعية والإنتمائية والسياسية هناك بشكل غريب وعجيب. الأعجب ان نسبة عالية من الأكراد الإيرانيين المعارضين للدولة الإيرانية قبل وبعد الثورة الأسلامية اعتنقوا المذاهب الماركسية بدرجات متفاوتة ووصلت بالبعض القليل منهم الى الدعوة الى الحرية الجنسية وما الى ذلك. غير ان نفس هؤلاء عند مناقشتهم للدين تراهم ينقلبون ١٨٠ درجة ويقفون صف واحدا لا يقبل اي نقاش بأن (الفرس شيعة وهم ليسوا مسلمون اصليون وهم يحللون زواج المتعة الخ) فما هذا وما ذاك؟ بصورة عامة، مجرد =

بسيطة لكنها أكثر الأمور تعقيدا للشعوب القبلية وكانت تجبرهم على ان ينقلبوا دينيا ولغويا الى أي إنتماء آخر يحتضنه كمدني بسيط ويضعه في سلم الاندماج مع حضارة بلاد الشام.

مدن الشام سادت فيها إنتماءين رئيسيين، أولا المسيحيين (أي الهيلينيين والآراميين واليهود المنقلبين الى الهيلينية الخ وكان ولاءهم لبيزنطة). ثانيا، اليهود المتغلغلين أصلا في مدن شمال الحجاز اضافة إلى الذين نزحوا اليها في القرون الميلادية الأولى هربا من بطش الروم. الإنتماء اليهودي هو نفس الإنتماء الذي كان قد ولد إنتماءا أمميا قبل السلام بستة قرون نحو المسيحية وكان ذلك بين الشرائح القروية ضد التعصب المديني كما أسلفنا. يبدو ان اليهود كانوا مرة أخرى سببا في ردة فعل نحو إنتماء أممي أعنف ساد هذه المرة بين المجتمعات القبلية (أي انها أممية تضم القبائل وليس فقط الحضر والقرويين كما كان في المسيحية).. اعتقد ان إنتماء اليهودي قبل الإسلام كان المستقبل الأكبر للعرب المنقلبين على إنتماءاتهم القبيلية الضيّقة في الحجاز، فهم كانوا العنصر الحضري الوحيد في مدن الحجاز ولم يضاهيهم إنتماء حضري آخر (مثلا كعرب مسيحيين أو عرب أحناف) في ضم الناس الذين لم يمتلكوا سندا قبليا. لذلك نسمع حتى بكل العرب، بدو كانوا أم حضر، يدّعون أنساب قبلية بإصرار وفخر وبتعصب.

هذا ما كان في الحجاز أما في الهلال الخصيب والعراق فأن القلة من العرب المتنصرين لم يقدروا أن شكلوا كتلة عربية مسيحية أو (إنتماء قومي عربي ذو دين مسيحي) كما فعل السرياني أو الآرامي. وعليه، الهوية العربية الأصيلة ظلّت مرتبطة بالبدوي الوثيني الرافض للحضارة والمرتد عن المدينة الى العصبيّة القبلية فليس من السهولة ان يصفع على خد فيقدم الخد الأخرى صاغرا كي تصفع كما قالت تعاليم المسيح وفرضه واقع الحضر والقرويين في ظل الروم والفرس. لكن هذا الرفض المبالغ فيه كلفهم الكثير ولحد اليوم. يكفي القول انهم في العهود المغولية والتركية في العراق أنسحبوا الى خارج مراكز الحكم تاركين إياها لعناصر قومية أخرى مثل الفرس والترك والجورجيين والروم واليهود والسريان. وحتى في القرن العشرين، العراقيين

=لبس البنطلون لديهم كانت تمثل حاجزا صعب التجاوز لكنهم تعودوا على المجيء الى كردستان العراق فكان أول ما يفعلوه هو تغير الملابس الكردية بملابس أوروبية والبعض منهم يتراكض الى البارات ثم اول ما يعودون يتراكضون الى دوائر الأمن الإيرانية يفتنون واحد على الآخر.

الحضر قاطبة لما كانوا يخرجون من المدينة كانوا ومازالوا يقولون "رايحين للعرب" كأن المتحدث ليس عربي مع انه عربي. هي تقريبا نفس ما نراها اليوم في كردستان فكلمة (كُردَواري) تعني البراري والريف والجبال ولكنها قلما تعني المدينة والشرطة والنظام والقانون والدولة،، الخ. لنرجع الى فجر الإسلام.

دعنا من الحساسيات الدينية ولنضع انفسنا مكان شاب من عائلة دينية في مكة وهو النبي الأكرم (ص). اعتقد انه صدم ومنذ البداية بالتمييز الذي مورس ضده من قبل أكثر الكتل الإنتمائية التي إحتك بها، عربية كانت ام غير عربية، ماعدا عائلة ابيه (كونه منهم) وأعداد قليلة من القريشيين الأصليين مع اعداد كبيرة من سكان مكة غير القريشيين (غير المكيين) وهم بالضبط العبيد وشرائح (المشكينوم، أحرار لكن ليس من صلب المدينة) كما في المدن العراقية القديمة.. عائليا، فأن عمه ابو لهب إحتكر ميراث العائلة الديني في خدمة الكعبة والحجيج عن باقي اخوانه، فسار هو على طريق عمه وولي أمره ابو طالب الى التجارة. احتك بغير العرب في رحلاته الى الشام ورأى وسمع بقبائل بدوية لاتملك أدنى إنتماء قومي او ثقافة دينية لكنها تصول وتجول وتنهب الإمبراطوريات (بيزنطة مثلا حوصرت من قبل الآڤار Avar في نفس الفترة، وقبلها وأثناءها كانت الأمواج القبلية الأخرى قد عاثت تدميرا في المناطق الحضرية الكبرى من العالم). قومه من العرب كانوا قد اكتسحوا مناطق حضرية من الشام والعراق حتى ان أحد شيوخهم هزم الفرس لوحده في ذيقار.. لقد رأى أيضا مدن هرمة ترزح تحت العبودية الدينية والدنوية لكنها رغم ذلك تتكبر على الشعوب القبلية كأنهم شياطين وليسوا من البشر. ثم يلتفت الى بني قومه فيرى التخلف والعصبية العمياء تأكلهم وتأكل أجيالهم المتلاحقة.

المشكلة الحقيقية التي عانى منها على ما اعتقد هو التعصب القبلي للعرب والنتيجة المؤلمة التي تجعل عنصرا كاليهود يستحوذون على المدنية والأنوثة. عنصر عجيب، يدعون انهم سيدخلون الجنة لوحدهم كونهم المفضلون لدى السماء لكن الله يعذبهم الآن كونهم لا يطبقون شريعته المنزّلة. وهم في نفس الوقت يمتصون آخر قطرات الأنوثة والتحضر من العرب وذلك بحثهم على البقاء في البوادي كون العرب (أبطال، رجال، ذوي كبرياء لا يناسب المدينة فيقولون للعرب: ابقوا انتم أسود الصحراء ودعوا ذل المدينة لنا، سيعوضنا الله عن هذا الذل في يوم القيامة)، فماذا يفعل هذا الشاب؟.

لقد سحب البساط من تحت أقدام اليهود وقارعهم بنفس سلاحهم الديني، وهو نفس ما قام به الآموريين في بابل ضد المدن العراقية المتذابحة والمتنابزة بالشرائع والآلهة.. الإسلام برأيي كان ثاني ردة فعل ذكوري ضد التمييز الذي مارسته المجتمعات الأنثوية باسم السماء والغيب والشرائع. طبعاً هناك فوارق كبيرة في الكيفية والنوعية وفي الليونة والتسامح (النسبي) الذي دعا اليه النبي الكريم قدر المستطاع وحسب ظروف ذلك العصر. المسألة أكثر من حساسة ولاتحتمل مناقشتها بأسلوب علماني صرف، حيث ان العلمانية بحد ذاتها (مع كل أسف) دخلت في عقائد ودروشة فقدت هويتها لصالح دين جديد اسمه (الماركسية) فأصبح كل مثقف وكل علماني يعرف بشيوعي مع ان الشيوعية نفسها لم تكن أكثر من تبديل دروشة غيبية بدروشة أخرى تمنح حقوق المرأة فقط لكنها تصادر اضعاف أضعافها من الحريات.

العرب في العراق:

العرب كأي شعب قبلي ابتلوا بأكثر انواع الإنتماءات إنقسامية كرها للتوحد ورغم كل ما فرض عليهم الرسول الكريم من ظواهر ودوافع للتوحد لكنه لم يستطع قهر تعصبهم الغريزي للقبيلة والنسب.. لنسبر الآن أحد فذلكات الثقافة العربية فيما يخص الإنتماء والتوحد. لقد سمعنا بالمهلب بن أبي صفرة يقول لأولاده (تأبى العصي اذا اجتمعن تكسرا واذا تفرقت تكسرت احادا) اني أتسأل من قصد المهلب ان يتحد اولاده ضدهم؟. هل كان يقول لأبنائه ان يتحدوا ضد الفرس والروم واليهود، أم ضد كل من جاورهم من العرب انفسهم؟.. لنفرض ان احد أولاده كبر واصبح له أولاد وقبل ان يموت جمعهم وقال لهم "اتحدوا يا أولادي" ألن يعني ذلك بديهيا أن يتوحدوا ضد أولاد عمومتهم (أي ضد الأشخاص الذين قال لهم المهلب ان يتحد معهم؟). لنسأل انفسنا لماذا لا يحتاج الفارسي والتركي والفرنسي والإنكليزي الى كل تلك الأشعار والنصائح والآيات كي يتّحدوا؟. ان هذا الكلام من قبيل (هيا اتحدوا، هيا تماسكوا) كالذي يقول لهم (هيا تنفسوا وهيا تغذوا وأشربوا الماء) لا داعي له أصلا. أمّا في المجتمعات المفككة والمتناحرة فعندما نردد هذا الكلام (هيا نتحد، فلنتوحد الخ) الكلام بحد ذاته يحمل صدى إنقسامي ضد جهة معينة عادة ما تكون من نفس البلد وليس ضد اجنبي، بالضبط ما كان يقوله زينوفون لمضيفيه البويوتيين (هيا اتحدوا. هيا فلنتحد الخ) لكن

ضد من كانوا سيتوحدون؟ انه كان ضد الأركاديين والآخيين والسبارطيين مع العلم انهم جميعا إغريق.. أجيال من العراقيين كردا وعربا نشأوا على هذا الخطأ الجوهري ونسمع المقولات بعكس معانيها الأصلية فيقول العراقي واجلا منبهرا (ماشاء الله، أنظروا كم كان أجدادنا متوحدين ومتكاتفين).

ابن خلدون استعمل كلمة العصبية واسهب كثيرا في وصفها لكنه لم يتكلم عن العصبية المدينية. لله اقول اني لم أرى شخصا واحدا يذكر العصبية المدينية أو الأقليمية (المناطقية) من العرب وغير العرب ماعدا كاتب واحد هو علي حسني الخربوطلي الذي يبحث في تاريخ العراق ويذكر مايلي: أخذت عصبية العرب في العراق ثلاث مظاهر أولها العصبية القبلية وثانيها عصبية المدن وثالثها العصبية الأقليمية[1]. وكما يتبع لاحقا.. عرب الحجاز اصلا من المجتمعات الإنقسامية التي لم تتوحد ولم تكف عن التقاتل والمنافسة. وبعد استتباب الأسلام وبدء الفتوحات لم يتوافق العرب الا في أوقات الفتوحات والإنتصارات المتتالية وتدفق الثروات والعبيد عليهم كما عند الإغريق والقوط والخ، لكن ما أن ينتهي التحدّي الخارجي حتى ينقلبون ضد بعضهم البعض. والعرب يذكرون المثل (اتفق العرب على ان لا يتفقوا).

اكثر اوقات العرب تماسكا كان في عهد سيدنا عمر (رض) وهو لم يكن لولا ذلك الإندفاع نحو الفتوحات. يبدو ان سيدنا عمر قد استشف ما ستؤول اليه تلك القبائل لو قعدت لحظة واحدة دون اندفاع وفتوحات وهو نفس ما واجهه الإسكندر قبله بقرون. سيدنا عمر وازن بشق الأنفس ذلك المجتمع الإسلامي الفتي حسب التقسيمات العمودية اللا متناهية. فكما يقول الاستاذ علي حسني الخربوطلي أن الإمام عمر فضَّل العدنانية على القحطانية ثم هناك التقسيمات الى مظر وربيعة ومن بين ربيعة فضل قريش على باقي القبائل وداخل قريش فضل بني هاشم[2]، هذا هو بالضبط الهرم الإنتمائي.. من سوء حظ العرب الذين استقروا في العراق، ومن ظمنهم مثلا الإمام علي (رض)، انهم مروا بما مرَّ به القوط قبلهم بقرنين. فهم نزحوا من بلد غير مركزي الى بلد أخر غير مركزي وباستعداد طبيعي لكل انواع النعرات، فماذا نتوقع؟.. أول

(١) علي حسني الخربوطلي (العراق) صفحة ٢٤١ .
(٢) المصدر السابق. ص ١٢، ١٣، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٤٥.

وصول خالد بن الوليد الى الحيرة كان موقف اهلها انهم اعترفوا بكونهم عرب مثلهم لكنهم طلبوا ان يعاملوهم معاملة الموالي مما اثار غضب خالد[1]. الاستاذ حسن العلوي يقارن بين مواقف خالد المتشددة من اهل العراق في إصراره على ذبح الأسرى بيديه، مع موقفه من أهل دمشق مثلا حيث اذن لهم ان يرحلوا بسلام. اني أتساءل هل هو الجو[2] ام لون البشرة وخضار العيون؟

الفتح العربي للعراقين (البصرة والكوفة) قد يعطينا صورة عن الاجتياحات القبلية السابقة. يقول الاستاذ علي حسني الخربوطلي (وضع العرب اساس العصبية القبلية في نفس الوقت الذي وضعوا أسس البصرة والكوفة. كان المسجد أول بناء خطه سعد في الكوفة وحرص على أن يمثل الروح القبلية خير تمثيل، وجعل لكل قبيلة مكانا فيه) حتى يقول (وقسم سعد الكوفة الى قسمين كان القسم الشرقي أفضل وتنازع القيسية واليمنية على امتلاك القسم الشرقي وحسم بالاقتراع. وقسمت البصرة الى خمسة أقسام قبلية لكل حي مسجد ومقبرة، وكأن هذه القبائل أرادت أن يبتعد بعضها عن البعض حتى في الموت. وكانا نتوقع التقسيم على اساس الحرف ولكن العرب كانوا يمقتون المركزية مقتا شديدا. وكان هذا يدعو الى التمرد والعصيان).

ان موقع الكوفة من أسوأ مواقع الفرات الأوسط، لو اختار سعد مكانا كما فعل العباسيين او حتى مكانا قريبا من بابل لحقنوا دماء قبائلهم التي سالت بعد ذلك على

(١) حسن العلوي – التأثيرات التركية في المشروع القومي في العراق.
(٢) جربت ولعدة مرات السفر والعودة الى العراق. في رحلة العودة، لاحظت وبدون ادنى شك فيما أقول، تغير طرأ على شعوري. مثلا في صيف ١٩٧٧ لحظة فتح باب الطائرة في مطار بغداد الدولي، الهواء الحارق محى كل معاني الفرح والود الذي كان يسود بين المسافرين فأصبحوا لا يطيقون النظر الى وجوه بعضهم البعض. مرة اخرى دخلت العراق بالقطار من تركيا عبر سوريا عام ١٩٨١ . ما ان حل الصباح واقتربنا من الموصل حتى لاحظت تزايد الرغبة الجنسية وقليلا من العنف عندي واني أدرك تمام الأدراك لما اقول مع العلم ان قبل ايام قليلة كنت ارى نساء انصاف عاريات دون ان التفت اليهن. عندي تجارب أخرى في السفر والعودة اثناء فصل الشتاء فلم احس بإختلاف او ضجر او ما شابه. اني اعتقد انها الحرارة الغير طبيعية في جو العراق هي أحد العناصر الهدامة اذا لم نقل الساحقة لحب الوطن. قد يأتي يوم ويقال (ان عالما المانيا قد اكتشف اشعاعات ما او تاثيرات خاصة لجو العراق... الخ) طبعا في تلك الحالة سيقتنع الجميع. الغريب ان لا نقتنع بما نراه ونحس لكن نقتنع بأجنبي ياتينا من ما وراء البحار!!

أرض العراق.. ثم هناك مسألة التوحيد. اين هؤلاء من التوحيد في الوقت الذي لم يرتضوا ان يسكنوا معا او حتى يدفنوا معا؟. انهم لو بقوا يرددوا (لا اله الا الله) الف مرة في اليوم فأنه لن يؤثر ابدا. فهم مشتتون ومتحضرون للأنشقاق في أقرب مناسبة وليس لديهم أي نوع من اللألفة والتوادد ووحدة الإنتماء. أما وحدة الولاء فسنرى نتاجاتها.. طبعا من وجهة نظر دينية فهناك دائما جواب حاضر وحجج لا تنضب لكن النتيجة واحدة، وهي ان الإنسان وانتمائه هما اللذان يحددان مصير المجتمع مهما حفظوا من آيات وأحاديث وأمثال وأشعار وحكم ونصائح، كل ذلك لن ينفع.. الفرس حاربوا العرب بكل قوة وخسروا ما خسروا من سلطان، لكن ما ان استتب الحكم للعرب فلا نسمع بأي حركة تمرد، بل بدأوا مباشرة باستيعاب النظام الجديد. اما العراق فسنرى كيف كانت الأفعال وردود الأفعال في فترة الثلاث أجيال الأولى من الاجتياح القبلي الجديد لسلة الشعير العراقي.

الحجاز والفتنة

لاعبو كرة القدم تتوارى أخطاؤهم عند الفوز، فحتى الأخطاء سيقال عنها (تكتيكات ناجحة) اما عند التعادل او الخسارة فستطول الألسن وتظهر الأخطاء والمشاحنات. هذا ما حدث مع الأجيال الأولى من الإمبراطورية الفتية التي نشأت في الحجاز.

الموضوع حساس وقلما نوقش بصورة حيادية بسبب الحزازيات القومية والدينية والمذهبية العاصفة، لكن لنأخذ وجهات نظر الاستاذ طه حسين في كتابه (الفتنة الكبرى) قد يكون أكثرهم قبولا لدى القراء.. يأول طه حسين الأنشقاق الكبير في صف المسلمين لتجربة صعبة خاضوها يوم أغتيل الأمام عمر حيث انه في اليوم السابق رؤي أبو لؤلؤة يتحدث مع مجموعة من العبيد الفرس. بعد ان قام بطعن عمر وقتل هو على الأثر، لم يكتف ابنه بذلك بل قتل كل من شك بهم من اصدقاء ابو لؤلؤة. لو طبق المسلمون الشريعة كان لابد من اقامة الحد عليه وكان من المؤكد ان إنشقاقا خطيرا سيحدث. اما اذا لم يقيموا الحد فهو خروج عن الشريعة.. يقول طه حسين ان الأمام عثمان (رض) بعد مشاورات مع صحبه سد الموضوع بالتعويض المادي للذين قتلوا، ومن بعدها استتب الحكم له ولأقربائه من بني اميّة اذ ان الأجنحة المتشددة في تطبيق الشريعة بتغاضيها عن الموضوع كأنها فتحت باب لتجاوزات أكبر.

طه حسين نجح في عرض وجهة نظر معقولة متجنبا الخوض في أمور أعقد بكثير من ذلك التبسيط لكن لا داعي من الخوض في تفاصيل الشريعة وما كان يجب فعله، أكتفي بالقول بأن حادثة مماثلة لو حصلت عند المغول مثلا، لقتلوا القاتل واهله واجتثوا شأفة عرقه وبلده بدون تمييز بين طفل وشيخ وإمرأة. اما اذا وقع ذلك في دولة كبريطانيا مثلا، فأذا كان المتجاوز وليا للعهد او حتى الملك نفسه، فأن رجال الجيش والدولة والقانون لن يسكتوا حتى يردع الجاني بعقوبة تضمن عدم تكرار التجاوز الحاصل. هذا وأن الأجراءات كانت ستتخذ بدون عواطف ومنافسة تعصبية.. القصد ان لا داعي اصلا للخوض في تفاصيل الشرائع وتناقضها مع الأعراف والعصبيات، المشكلة هي مشكلة المجتمع الحجازي الذي لم يكن قبليا صرفا ولا حضريا صرفا ولا كانوا موحدي الإنتماء. لقد كانوا في حالة (الطفرة) واي طفرة! من الإنتماء الضيق الى إنتماء عالمي يستحيل حتى مع وجود الإنترنيت والطائرات. يبدو انه منذ تولي الأمام عثمان، ازيحت اقنعة التطبع والتظاهر بأخوة لا توجد حتى بين الأخوان انفسهم وفتحت ابواب النعرات والعصبيات على مصاريعها تصدرها بني أُمية الذين مثّلوا لب العصبية عند العرب ونوعية إنتمائهم المتأصل. اما الشريعة فان منذ كتابة اول شريعة على وجه الأرض والى اليوم، لم ولن تكون البديل عن الإنسان نفسه مهما زادوا من دقة تفاسيرها وتفاصيلها.

الكثير من الكتبة بيّنوا ان الأموال التي كانت تتدفق الى المدينة ومكة صارت كأنها ملكا خاصا للحاشية الأموية المحيطة بالخليفة حتى ان بعض الكتبة يعتقدون ان الخليفة كان مسيرا من قبلهم. ولم يقتصر الأمر على الأمويين فلقد ظهر بين الرعيل الأول من من المسلمين أثرياء تكدست ثرواتهم بمقادير عجيبة.. في المقابل، نرى ردة فعل معاكسة في جناح زاهد معارض لذلك التهافت على المال والسلطة تمثل في شخصيات قليلة مثل الأمام علي (رض) وبلال الحبشي وعمار بن ياسر وتيارهم. نلاحظ هنا ان المجتمع الوسطي والتيار الوسطي كان يزداد ضعفا، فجزء كبير من المجتمع يتجه بكل قوته الى المال والسلطة، والجزء الآخر يتجه بصورة معاكسة الى زهد وتقشف مبالغ فيه يصاحبه تخوين الاتجاه الآخر. فلا حل وسط او تيار او شريحة تتوسط الجناحين لإذابة العناصر المتنافرة من أقصاه الى أقصاه. الإنتماء الروماني تطلّب قرنين لكي ينشأ ويتجذر وينجح في تذويب العصبيات والإنتماءات الأصغر. كذلك الآشوريون

والفرس وكل الإنتماءات القومية والأممية (الأكبر من القبيلة والمدينة) تطلبت أجيال طويلة مع توفر ظروف مساعدة. بينما المجتمع الحجازي قفز من البيت وبيت العم مباشرة عبر الآفاق الى أممية تكاد لا تعترف حتى بجوهرها القومي العربي. او على الأقل تجبر نفسها على التغاضي عنه.

العراق والفتنة

ما يهمنا الآن ليس الحجاز بل ردة الفعل العراقية من الاحتكاك بهكذا مجتمع وفد اليه من الحجاز. لطالما خاطب خالد بن الوليد وباقي القادة العرب اهل العراق بانه قد جاءَهم برجال (يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر) والى اخره من هذا الكلام. اعتقد انه لم يكن لديه ادنى فكرة مع اي نوع من الناس يتكلم. ان الماسوشية وحب الموت والمطاولة في حب العذاب والمعاندة من أبسط ما يمكن للبيئة العراقية ان تنميه في سكانها، خاصة اذا صاحبه أبسط دليل على وجود تحيز و(لعبة!) فما بالك اذا زيد عليه الاستفزاز والتكبر. فها هي امريكا نفسها وقعت في مستنقع قد لا تخرج منه ابدا كما دخلته اول الأمر. ثم ان العراق هو مهد الشرائع واقدم ميدان للتراشق بالنصوص والاحكام الشريعية، فكيف سيكون رد فعلهم امام هؤلاء الفتيان الذين يدعون الأممية والتوحيد والشريعة والمساواة بينما في الواقع يتمزقون حسب نعراتهم وعصبياتهم ويكاد يفتكوا ببعضهم البعض في اول فرصة؟

قبل الخوض في الموضوع، يجب ان نأخذ بعين الاعتبار انه خلال العقد الأول من تأسيس الكوفة والبصرة كان مجتمعاتها تنقسم حسب الإنتماءات العائلية والقبلية. لكن منذ تولى الإمام عثمان ثم وصول الإمام علي الى العراق سنلاحظ تغير يطرأ على نوعية إنتماء أهل الكوفة والبصرة (أي إنقلاب من العصبية القبلية الى المدينية) فيتصرفون بتعصب مديني صرف مشابه لتوجهات اثينا وسپارتا وقلما يلتفت سكان الكوفة والبصرة الى عائلة أو قبيلة بل المدينة قبل كل شيء.

ردة الفعل العراقية بدأت في النصف الثاني من خلافة عثمان (أي بعد انقضاء جيل واحد تقريبا على تأسيس الكوفة) الكوفيين بدأوا بإستعمال نفس السلاح الذي استعمله رجال الدولة (الآيات والأحاديث) بدأوا يناقشون ويفحمون فطاحلة الحجازيين وأكثرهم علما بالقرآن والأحاديث الشريفة (بما ان الآية كذا من السورة كذا تقول كذا، وبما أن

الحديث الفلاني يقول كذا، اذن كلامكم خطأ ويجب ان نفعل كذا وكذا). الكوفيون بالذات نبذوا الولاة وامتنعوا عن الصلاة معهم وقاطعوا الدولة.. يبدو ان الأمام عمر كان يتوخى حذرا شديداً من البداية لما يسمع عن العراق فحرص على ان يوليهم خيرة الصحابة. لكن ردة الفعل العراقية كانت قد بدأت. فرفضوا عمار بن ياسر قائلين (ليس بوالي ولا يحتمل ماهو فيه) والوالي الآخر قالوا عنه انه يطول في الصلاة وهكذا حتى ذكر عن عمر قوله (ماذا أفعل بمائة الف عراقي لايرضون بوالي ولا يرضى وال بهم).. تلك كانت بدايات بسيطة اما في عهد الإمام عثمان فالأمر تطور بشدة مضاعفة لما شهده حكمه من وساطات وانحياز ونعرات. العراقيون بدأوا يناقشون بكل شدة ويلتقطون أدنى خطأ يقوم به الولاة ورأس السلطة الحجازية وأفحموا كل من ناقشهم. فنسمع عن الإمام عثمان يأمر بإرسال ذلك الفريق الى الشام لعل معاوية يهدئهم الا ان النتيجة كانت على العكس، فقد أفحموا معاوية وكادوا ان يثيروا أهل دمشق ايضا.

عشرات الخطط بحثها الحجازيين في كيفية التصرف مع أهل العراق. سعيد ابن العاص نصح بقتل قادتهم بينما ابن عامر نصح عثمان بأشغال الكوفيين بالجهاد حتى يتناسوا امور الدين والدولة لكن ما من حل.. الحقيقة ان المعارضة لم تقتصر على العراق بل ان عرب مصر والحجاز نفسها رفضوه وكانت الأتصالات تجري بين الحواضر لوضع حد لذلك الوضع، حتى كان ما سمعناه عن موسم الحج للعام ٣٥ هجرية حين اجتمع المعارضون من مصر والكوفة والبصرة في الحجاز وأجبروا الخليفة على الاستجابة لمطاليب جدية وجوهرية ووافق الخليفة.

حتى تلك اللحظة كانت الأمور تسير في نطاق معقول وهم المحتجون بالرجوع الى ديارهم راضين بما انجزوا لولا تلك الرسالة التي ضبطت بيد رسول الخليفة يأمر عامله في مصر بقتل كل الذين شاركوا في تلك التظاهرة.. طبعا لم يثبت لحد الآن من بعث تلك الرسالة، أكان الخليفة نفسه أم حاشيته الأمويين ام أحد المحتجين قام به لتأليب الأمر ام هو من عمل (ابن سبأ) كما يفضل البعض ان يقال كي يدفنوا رؤوسهم في الرمال.

على كل حال، غضب المحتجون تضاعف بأضعاف ما كان عليه وشعروا أنهم خدعوا، فردوا الى الخليفة بمطلب لا يقبل النقاش ان يتنحى فورا، فرفض وظل يرفض طوال اربيعن يوما متكاملة من مناقشات مستمرة ومفاوضات تجري على قدم وساق

استنفذت فيها كل الوسائل بدون اي نتيجة واي حل وسط فأما كل شيء أو لاشيء، قتل الخليفة وكانت الفتنة الكبرى كما يسميها طه حسين.

من الملاحظ هنا ان المصريين كانوا يتصرفون ككتلة واحدة والكل يطلق عليهم اسم واحد (المصريين) بينما الحجازيين كانوا تكتلات مختلفة، مكية ومدينية وهاشمية وأموية والخ. اما أهل (العراقين) كانوا كوفيين وبصريين، لكل منهما موقف خاص ضد الآخر وضد الحجازيين والمصريين على حد سواء.. في هذا الخضم بيَّن الكوفيون موقفا مشابها لما فعله الأثينيين في وقتها من تسابق لبسط سلطة مدينتهم على الباقي. المصريون مالوا الى انتخاب الأمام علي بينما الكوفين انتخبوا الزبير والبصريين مالوا الى طلحة، لكن ما أن احسوا برجحان كفة الأمام علي حتى قطعوا الطريق امام كل الفرق الأخرى مهددين بتكرار ما فعلوه مع عثمان.. الناس في هذا الصدد يركزون على مقارنة ما حصل بانتخابات فردية ورأي الأغلبية وما شاكل. لكن الحقيقة ان ما حصل كان فوز (مدينة جديدة) بأن تكون (عاصمة جديدة). يبدو ان الكل يعرف ما تعني العصبية المدينية لكن الكل يحرج عن الكلام عنها أو انه جهل بأحد أهم أنواع الإنتماءات والتيارات التي حكمت البشر منذ تمدنهم.

اعتقد ان الحرب بين علي ومعاوية حسمت منذ يومها حين اختاروا عواصمهم. فالموقف مع معاوية كان أخصاب طبيعي بين إنتماء قبلي صريح وملكي وراثي صريح (حتى وان لم يجهر به في البداية) لقد كان حكم العصبية الوراثية يحمل معانى الفحولة والثراء تزاوج مع مدينة تحمل معاني الأنوثة والاستقطاب. فكانت النتيجة إنتماء شبه قومي لا يستهان به.. اما الإمام علي فهو بلا شك حمل كل معاني الرجولة والصلابة وليس من إنسان حتى أكثر السنة تطرفا يقدرون ان ينتقصوا منه، غير ان تياره لم يكن قوميا أو قبليا أو حتى عائليا ملكيا، بل كان تيار ديني أممي صرف لم يعد له مكان في تلك الأمواج العاتية من العصبيات المتلاطمة.. أما البويضة (الكوفة) فأني اسألكم بالله أين هي من الأنوثة والاستقطاب؟ ان فحولتها أماتت ومنذ أول يوم كل أمل في قدرتها على الإستقطاب والإخصاب والإنجاب.

موقف البصرة أيضا جدير بالملاحظة. التاريخ الإسلامي يتحدث عن طلحة والزبير والسيدة عائشة ومئات الصحابة تمردوا على علي في البصرة، لكن ألم يسأل احد نفسه سبب اختيارهم للبصرة وسبب ذلك الرفض الذي جوبه الأمام علي في البصرة؟

ثم سبب ذلك الإصرار الكوفي على ابادة كل من انشق على سلطتهم؟ طبعا الإنشقاق أصلا نبع من الحجاز لكن وجد ضالته في العراق فكان ماكان مسيرة آلاف الكيلومترات الى العراق والإصرار على القتل في كل من ناصر علي والكوفيين في البصرة. ثم في معركة الجمل تذابح آلاف الحجازيين والعراقيين وكلهم كانوا يحفظون القرآن والاحاديث الشريفة عن ظهر قلب.. لايمكن ان نستمر بتبريرات كالأختراع المسمى ابن سبأ.[١] لو صح جود ابن سبأ للزم علينا نحن المسلمين ان نتراكض لنقبل أيدي بنيامين نتنياهو وحاخامات اليهود لعلهم يقبلوانا بينهم كيهود. هذا كلام فارغ وحجة واهية كما يقال في بغداد (العذر اكبر من الذنب).

الغريب ان بلدان كمصر وفارس كانت ساكنة، خصوصا فارس التي كان من المفروض ان تتمرد وتتذابح وتثور. مصر بدورها التي اختار عربها الأمام علي ورأت في نفسها ان تقود الدولة الجديدة، ما بالها لا نسمع باي تمرد فيها ولا أي تداخل في شؤون الشام والعراق؟.. لقد تورط الإمام علي مع مجتمع إنقسامي حائر بين كل تلك الإنتماءات القبلية والمدينية التي لم يكن لأي منها القدرة على استقطاب الباقي. وإن الوضع الذي طرأ في السنوات الأربعة من خلافته مشابه جدا لما نراه اليوم من دوامات اللإنتماء، قتل وتحالفات ونفاق وضياع للإنسان، حمامات دم ما هدأت إلا بعد تأسيس عاصمة طبيعية وأسرة ملكية نزعت فتيل صراع القوى الهائجة.. بالمناسبة، ان العراق الحالي سيشهد نفس المصير مالم يتم تدارك الأمر بتثبيت العنصرين المذكورين

(١) الاستاذ حسن العلوي تعقب مسألة بداية ونهاية قصة (ابن سبأ) وتوصل الى انه نعت عدائي أطلقه معاوية وحاشيته على عمار بن ياسر (رض). والداه كانا من اليمن (أي انه من سبأ) ويبدو ان أكثر ما كره في نشأته الأولى التكبر والتمييز الذي لاقاه من قريش، فليس غريبا ان يفني حياته في سبيل مساواة أممية دعى لها أكبر داعية مساوات على وجه البسيطة محمد (ص).. يقول حسن العلوي ان ما من موقف قيل عن عمار بن ياسر إلا وكان له حادث مماثل يروى عن وجود شخص يهودي أسمه ابن سبأ قام بنفس العمل وقال نفس الكلام. عمار ذاق الأمرين من عثمان ولم يتوانى عن معارضته ثم اشترك في حصار بيته وفي قتله، فقالوا (ابن سبأ كان هناك) عمار كان في موقعة الجمل، فقيل ان ابن سبأ كان هناك وهو سبب كل تلك المذابح. عمار كان في صفين، فقيل ان ابن سبأ كان هناك، وهكذا.. انه لمن المخجل الإصرار طوعا على الكذب وتجاهل الحقائق.

أولا– عاصمة كقطب للأنوثة.

ثانيا– الأسرة المالكة موازنة الرجولة.

الروح الإنقسامية للعراقيين تجلت في معارك صفين والنهروان وما تلاها. فهم الذين كانوا يلاحقون علي في كل موقف (هذا حرام والرأي الأخر حرام ايضا وبما أن الآية كذا تقول كذا فيجب ان نفعل كذا) أكثر المواقف فضحا للأزدواجية والماسوشية هو ماكان في النهروان. العرب أصروا على ان المنشقين كفرة ويجب أن يقتلوا جميعا (طبعا حسب الآية كذا من السورة كذا والحديث الفلاني) لكن ما أن انتهت المعركة وقتل الآلاف الثلاثة المنشقين (عرفوا لاحقا بالخوارج) حتى بدأ الجيش المنتصر بالنواح والعويل على القتلى. ثم بدأت الأغنية (منه منه كلهة منه) مجددا. بعض المفكرين يعتقدون ان مذبحة النهروان كانت مثل مذبحة كربلاء بالنسبة للخوارج. اي انه حتى لو لم يقتل الحسين عليه السلام فان العراقيين ماكانوا ليهدؤا حتى تحدث مصيبة كبرى يجدون فيها دافعا للتعبير عن حزنهم الدفين. هي تقريبا نفس الماسوشية والهستيريا الهيلينية.

عن موقف العراقيين بالنسبة للإمام علي، هو لم يشذ عن القاعدة العراقية العامة. فالعراقيين الحضر (ليس الشيعة فقط بل كل العراقيين الحضر) يكرهون أكثر الحكام الاحياء بينما يقدسون أكثر الحكام الميتين. الأمام علي مثله مثل حمورابي ونبونائيد والملك فيصل الثاني و صدام حسين على إختلاف اشكالهم وطبائعهم، ما احبهم العراقيون وهم احياء لكن أكثرهم قدسوا بعد موتهم. وهو أيضا ما تكرر مع الإمام الحسن فكادوا ان يفتكوا به لولا هربه الى الشام. ثم كان الحدث الأكبر في التهافت على البيعة للحسين عليه السلام ثم مقتله الشنيع فكانت لحظة تاريخية تجمد فيها الزمن العراقي من يومها والى الآن.. الملاحظة العامة ان أكثر ماكان يدور من تقاتل وتذابح كان ضمن المنطقة (الزراعية–حضرية). طبعا الجيوش كانت تخرج وتتقاتل في شمال الفرات أو الموصل والنهروان قرب بغداد إلا ان القوى المحركة كانت المدن والعواصم غير الطبيعية في منطقة غلب عليها لاحقا التشيع لاحقا.

قبل البحث في التغيّر الجذري الذي أحدثه تأسيس بغداد أود الخوض في أحد أكثر الشخصيان شهرة في تاريخ العراق والعرب.

الحجّاج بن يوسف

كلما دققت في شخصية وتصرفات الحجاج زادت قناعتي بأنه كان (إبن مدينة مؤصل) عرف كل حيل أهلها والنوازع المستترة والتحيّز والتحزّب الذي يمارسه المتعصبون لمدنهم. مثلا نطالع مقدمة أبن خلدون نفاجأ بشيء ما عن سيرة الحجاج تذكر (وقول الحجاج لسلمة ابن الأكوع وقد بلغه أنه خرج الى البادية، فقال له: ارتدت على عقبيك، تعربت؟ فقال: لا ولكن رسول الله اذن لي في البدو)[1]. من قول كهذا يمكن أن نستدل بأن تلك الفروقات بين الحضر والبادية ليست وليدة مكان وزمان واحد بل هي بين اناس كنا نعتقد انهم (عمالقة) لا يعرفون إلاّ السيف والأبل. وان نفس ما يعانيه ابن المدينة العراقية اليوم من صراع داخلي بين الفحولة والميل للتحضر، هو موجود منذ الأزل.

الحجاج ابن مدينة الطائف وهي مدينة كانت ذات هواء أطيب ومياه اوفر بالمقارنة مع باقي مدن الحجاز وسكانها أكثر تمدنا، لكن بالتالي هم أكثر ذكاءاً ومكراً وهي حقيقة تلازم كل المدن المشابهة لها تمتلك أقل درجة من التميّز على غيرها. التاريخ يذكر ان دواهي العرب الأربعة نشأوا هناك، وهم معاوية بن أبي سفيان وزياد بن ابيه وعمر ابن العاص ثم الحجاج، مع ان بعضهم لم يكن ثقفيا لكنهم ترعرعوا فيها.

يبدو ان ما كان يدور بين أغلب مدن البلدان غير المركزية من منافسات قد تكرر بين مكة والطائف وان بعض الثقفيّن (أم أقول الطائفيين) كرهوا مكة وحسدوها. ابو رغال هذا الذي ملأ اسمه دوائر الإذاعة والتلفزيون العراقية بعد زيارة انور السادات الى اسرائيل وصور على انه (خائن يحب الخيانة من أجل الخيانة) ذلك لإرشاده ابرهة الحبشي الى مكة، هذا لم يكن إلاّ احد المتعصبين لمدنهم ولم يتردد لحظة في المساعدة على تدمير مدينة أخرى غير مدينته مثله مثل الأثيني والسپارتي. ببساطة، لأن المكي والحبشي واليمني وكل سكان الكرة الأرضية بالنسبة له غرباء وأعداء يستحقون الموت.. طبعا التلفزيون العراقي لم يعر ولو إلتفاتة لتبيان سبب ما قام به أبو رغال، بل ان الثقافة العربية عامة تود تبيان التاريخ والماضي على انه كان (ابيض) و(اسود) ولا وسط بينهما.

---

(١) مقدمة إبن خلدون ص, ١٢٣

يقول الاستاذ رياض محمود رويحة ان الثقفيين نافسوا قريش في قيادة العرب ويذكر مثلا الشاعر المخضرم امية ابن الصلت الذي أدّعى النبوة.. أكثر المواقف وضوحا في مدى تعصبهم المديني كان موقفهم المشبع بال (Xenophobia) عندما طردوا الرسول الكريم من الطائف يوم لجأ إليهم هاربا من ظلم مكة، فأرسلوا وراءَه صبيانهم يرجموه حتى سال دمه.. لاحقا نسمع عنهم في معركة حنين يقاتلون بشراسة وكادوا أن يهزموا المسلمين لولا الإلتفاف الذي قام به خالد بن الوليد بنفس ما قام به ضد المسلمين قبل ان يسلم في موقعة أحد. ثم انهم عند وفاة الرسول هموا ان يكونوا أول المرتدين لولا ان نصحهم الناصحون.

بعد استتباب الدولة الإسلامية في الجزيرة العربية وجد الثقفيون انفسهم قد تركوا في الصفوف الخلفية مقارنة بمكة والمدينة وباقي العرب. المكاسب المادية والمعنوية كانت تنهال على مكة والمدينة ومن حالفهما بينما هم يتفرجون. يعتقد الاستاذ رويحة ان جيل الحجاج (ولد عام ٤١للهجرة) وهو الجيل الأول الذي نشأ في ظل الدولة الإسلامية الجديدة، ورثوا كرها قويا ضد مكة ومن كان وراء نهضتها وسلطانها، ألا وهم بنو هاشم[١].

هناك كلام ايضا عن بعض الظواهر الخلقية التي تقول ان الحجّاج ولد بدون (دبر) واضطروا ان يفتحوه و... الخ. لكني اعتقد انه ملفق ولا يهمنا. المهم في الموضوع الخلفية الاجتماعية للحجّاج حيث انه حضري من الطبقة الوسطى أو الفقيرة. أمه تطلقت مرتين قبل ان يتزوجها فقير مثل يوسف ابو الحجّاج وكانت شقراء لاحقتها الأعين الجائعة. نفس العقدة الجنسية تكررت بصورة أقوى مع أخته الشقراء المشوقة، حيث ان شاعرا مثل محمد بن عبدالله النميري تغزل بها علنا. ويبدو انها نقطة ضعف لازمته حتى في أوج قوته يوم كان والي في العراق، ارسل له احد الأمراء الأمويين رسالة شتائم وتهديد قائلا (لأعلقنّ الحمراء من ثديها) ويقصد اخته الشقراء.. في صباه درس القرآن وصادف ان يزامل بعض الأمويين المنفيين من مكّة وهذا التعارف افاده في حياته السياسية اللاحقة، حيث انه في وقتها ترك الدراسة ليعمل في المدابغ وما الى ذلك بسبب حاجة والده اليه.

اعتقد ان الحجاج قد ضمر لأهل الطائف وكل المجتمعات المدينية المشابهة لها أكثر

(١) رياض محمود رويحة – الحجاج بن يوسف الثقفي– الصفحات ١١، ١٢، ١٦

مما ضمر لبني هاشم كما يقال. التحقير والتنابز الذي تعرض له كان شيئا لا لبس فيه منه قول بعضهم له ان الثقفيين هم بقايا ثمود فيجيبهم: ألم يقال (وثمود فما أبقى) اذن حتى وان كنا من ثمود فما بقى منهم إلاّ الصالحين.. هذه الحوادث والعار الذي خالط اسم عائلته في الطائف بسبب أمه وأخته لا يمكن ان يمرا مرور الكرام. اهل الطائف كانوا مهزومين وخاسرين مع ذلك كانوا يمارسون شتى النعرات والحزازيات. الحقائق تبين انه لم توثق حادثة ما تشوب نساء عائلة الحجّاج، لكنه الجمال والسمعة التي تتلاقفها المجتمعات النصف متمدنة، فالأكثرية في الطائف كانوا حضر حالهم حال ابن لندن، بينما العقل هو (عنتر). إذن فهو المثل الكردي القائل (غراب يقول لغراب سود الله وجهك) هكذا كانت ومازالت المجتمعات النصف حضرية.

أرى في تصرفات الحجاج كأنه أحد الأتراك أو الشركس الذين رأوا نساءهم يساقون للعبودية من قبل عناتر متعطشة للجنس ولهتك الأعراض، فكانت النتيجة ان انتقموا من العناتر لمدة خمسة قرون على الأقل وباسم نفس الدين الذي سيطروا به على البشر. كذلك كان الحجاج، فلم يهدأ يوما من الإنتقام من أناس انصاف حضر بنعرات مدينية، من الممكن انه تغاضى عن أهل الطائف فهم مهما كان (جماعته) أما المدن الأخرى فالويل لها. لا عجب ان مدن العراق والحجاز سحقت تحت الضربات الإنتقامية للحجّاج، واعتقد ان أعماله الدموية كانت رسائل لأهله في الطائف تقول لهم (هذا مصير النعرات ولا عنتر سوى الملك الأموي).

نوازع الحجّاج نمت فيه طموحات ورغبات إنتقامية لا تهدأ. اتجه للعسكرية ولم يفلح كجندي اذ ترك موقعه عدة مرات في معارك الأمويين ضد ثورة أهل المدينة المنورة، حتى لاحت له إلتفاتة من الخليفة الأموي، فتلاقفها الحجاج كأنه يريد أثبات منطلقاته ويمسح الماضي التعس.. قبل تجربته في العراق كان له تجربة كبرى في سحق التمرد المكي (ثورة عبد الله بين الزبير). جعل من الطائف مقرا للجيش الشامي وكان يرسل قوات الفرسان في عمليات كر وفر موجعة حتى انكفأ المكيّون داخل مدينتهم. فحاصرها لثمانية أشهر لم يتردد قصفها وقصف الكعبة ذاتها بالمجنيق كأنه ينتقم للطائفيين من المكيين. طبعا لمّا سُئِلَ عن كيفية تجرُّئِه على قصف الكعبة كان جواب ابن المدينة أكثر من مفحم، فالحضر هم منبع الأديان والفلسفات، كيف يعجزون عن ايجاد فذلكة دينية؟.. هذا وان تصرفاته في السنوات الثلاثة التي قضاها كوالي لمكة أثبتت

الرأي السابق. فقد دأب على إذلال المكيين بزواج وطلاق بنات أرقى البيوت المكية له ولصحبه.. وعند عودته للشام كانت أمور العراق مستعصية على الأمويين ولم يجرأ أحدهم على الخوض في ذلك المستنقع السياسي بعكس الحجاج الذي ما مل من مطالبة عبد الملك بن مروان أن يوليه العراق وكان له ذلك في عام ٧٠ للهجرة.

أكبر مشاهد التاريخ في دلالاتها هو مشهد وصول الحجّاج الى مسجد الكوفة وما دار فيها من تفاعلات بين تلك المجموعة البشرية داخل ذلك المسجد. أهل الكوفة كانوا قد انقلبوا في الجيل السابق من العصبية القبلية الى العصبية المدينية وكانوا يتفاعلون ككتلة واحدة متحدة ضد كل غريب، فما بالك بإحتكاكهم بالحجاج! انه كإحتكاك جزيئتين تحملان نفس الشحنة الكهربائية، ستتنافران على الفور.. الاستهزاء وكلمات التحقير التي تروى عن الكوفيين شاهد حي على العصبية المدينية وعلى (الزينوفوبيا)..[1] ثم خطبته النارية التي القاها فيهم الحجاج لجديرة بالملاحظة، قال (انا ابن الجلى وطلاع الثنايا) حتى قال (ألا والله، اني احمل الشر بمحمله) حتى قوله المرعب (وإني لأرى أبصارا طامحة واعناقا متطاولة ورؤوسا أينعت قد حان قطافها واني صاحبها).

فلنقرأ مابين السطور في تلك الخطبة النارية للحجاج. طبعا كل التركيز سيكون للمقطع الأخير في قطف الرؤوس والذبح، هي رغبات مازالت تسري بين بعض العراقيين بعضهم ضد بعض وبدون الحاجة لوجود مؤامرات أجنبية. لكن اعتقد ان من الأجدر التركيز على المقطع (أبصار طامحة وأعناق متطاولة) هذا يدل تلك النوازع النفسية للكوفيين التي تفاعل الحجاج معها. فنخبة المدينة كانوا وبلا شك محبون للاستطلاع وتواقون للسلطة والعظمة والقوة لكن رادعا نفسيا كان يسود عليهم بان الحجاج (ليس منّا). اني أتساءَل لماذا لم يتصرف المصريون بنفس الأسلوب مع (المعز) الفاطمي وكذلك الفرس مع الإسكندر. بل ان التنافر بين العراقيين والحجّاج ظل في تصاعد طردي خلال العشرين عام التي حكمهم فيها وتقديرا انه قَتَلَ مابين ١٠٠,٠٠٠ الى ١٨٠,٠٠٠ نفس كما يقول الاستاذ محمود رويحة.

أول أمر رسمي أصدره الحجاج بعد تلك الخطبة المروعة كان التجنيد الإلزامي مع

(١) قد يكون مصطلح (بيگانة بَدَري) Bedery Beagana في اللغة الكردية أكثر دقة وهي بمعنى النفور من الغرباء أو معدات الغرباء.

عقوبة الموت لكل من تخلف وقد ذبح اول من وقعت عليه يده بعد إنقضاء مهلة الثلاث أيام ويذكرنا ذلك بسياسة حمورابي. ثم الحملة التي بدأها لسحق كل المدن والقبائل المنتفضة حاله حال كل حاكم عراقي. فلا الكوفة ولا البصرة ولا الخوارج (شرائح متمردة على المدينيين وعلى كل غريب) ولا أي جزء من جنوب العراق له القدرة على ضبط العراق إذ لا أحد ينتمي للآخر وهي بالضبط الحالة التي وصفها ماكيافيللي (بلاد يتم أحتلالها بسهولة لكنها سرعان ما تتمرد) ولا حل إلا بوجود قطب أنثوي موحد يستقطب الذكور المتناثرين هنا وهناك وفي كل مكان.

الحجّاج لم يكن (دَرّاخ) للآيات فحسب ولم يكن (تنفيذيا ملكيا اكثر من الملك) فحسب بل اعتقد أنه عرف نوازع العصبيات المدينية والقبلية معا. لقد فكر في أجهاض التعصب المديني المستشري بأنشاء عاصمة جديدة تسحب البساط من تحت أقدام الكوفة والبصرة. فأنشأ مدينة واسط، أسمها يدل على الهدف من انشائها، لكنه كالإسكندر أساء أختيار الموقع. ثم أن المدينة يجب ان تحمل انوثة وليست (قلعة عسكرية يجول فيها عناتر القبائل) فالحجّاج جلب اليها عنصر عربي خالص فأين هي الأنوثة وكيف سيستقطبون إنتماء باقي المدن والقرى؟ لذلك نسمع بواسط (الكوت) كأنها لم تكن أصلا، فلا دخلت في المعترك السياسي ولا أثّرت بشيء. اعتقد انه لو اختار موقع بابل او بغداد لتغير مجرى تاريخ العراق بدرجة معتبرة.

من جهة أخرى تصرفات الحجّاج تنم على انه كان يبحث عن اي شيء حقيقي وصادق من بين العراقيين. لطالما وقع بيده أسرى كانوا قبل يوم واحد يستعرضون عنترياتهم امام الآخرين وإذا بهم الآن يتباكون كالنساء. يكاد يكون قد أطلق سراح كل عدو وأسير وقع بين يديه لمجرد قوله اي كلمة تنم عن صراحة دون تصنع وتمثيل وإزدواجية. حتى ان نكتة مستهترة، لكنها صادقة، كانت تكفي في بعض الاحيان لإطلاق سراح قائلها. قال لأحد الخوارج (اتعترف انك كفرت) فأجاب بكل صراحة (لو كان هناك شيء أكثر من الكفر لفعلته أيضا) فأطلق سراحه. أحد شعراء الخوارج كان يساق الى الموت وكالعادة ينهال الحجاج عليه بالمسبة، فيجيبه الرجل (ألا بئس ما أدبّتك أمّك) فإذا بالحجاج يطلق سراحه على الفور!.. من جهة أخرى هناك حوادث تروى عن وقوع اولاد العشائر في الأسر، فيطلبون إطلاق سراحهم بفدية بدون اي تصنع او تمثيل. فإذا بالحجاج يطلقهم سراحهم.. اعتقد ان الحجاج كان يقرأ العيون ويبحث عن

اي كلمة او تعبير صادق (وهو أندر عملة في العراق). كأنه يرى فيهم ألاعيب أهل الطائف التي خبزها وعجنها منذ طفولته البائسة، فيقول لهم (ألم تتعلموا اني اعرف كل ماتضمرون، الن يكفيكم كل هذا؟ حسنا لتذوقوا المزيد منه).. السؤال، هل تعلم العراقيين او تابوا او توقفوا؟. بالعكس الثورات كانت تتزايد كالبذور التي لاتلقى بيوضها فتظل تتضارب. ثم ان هناك حالة الدروشة والماسوشية التي تصل اليها المجتمعات الحضرية المكبوتة كما رأينا عند الهيلينيين في تحولهم الهستيري للمسيحية. لو علم خالد وباقي القادة ما ستكون عليه نتيجة تفاخرهم بعدم الخوف من الموت، ما فتحوا بوابات الجحيم العراقي على دولتهم الناشئة. فكلما زاد الحاكم من ظلمه وقسوته كان تاكيداً لهم بأنهم مظلومون (وبما انهم مظلومون، اذن فهم على حق ويستحقون مكانة اكبر من غيرهم).

مثال أخير عن حكم الحجاج في العراق هي ثورة عبدالله بن الأشعث.. نفس سياسة صدام حسين في إشغال العراقيين بالحروب[1] اتبعها الحجاج وان الكثير من الفتوحات في السند ووسط آسيا قد خطط لها الحجاج لنفس السبب. احد الجيوش ارسل الى خراسان بقيادة عبد الله بن الأشعث فإذا به يعود الى العراق عاقدا العزم على ضرب الحجاج فكانت أكبر ثورة يشهدها العصر الأموي على الإطلاق. هزموا الحجاج في تشتر في الأهواز ثم في البصرة ثم أخرجوه من الكوفة. الخليفة في دمشق

(١) قرأت كتاب–كنت ابنا للرئيس– واعتقد ان الكاتب صادق في شهاداته عن ما رأى ذلك انه هو وعدي صدام مثلي من مواليد ١٩٦٤و تسلسل حياته ونشأته تطابق ما مررت به من ذكريات تلك الحقبة. بالمناسبة، السيدة ساجدة البكري (أم عدي) كانت معاونة مديرة المدرسة الأصيل الأبتدائية في حي الشرطة الأولى عند اول دخولي المدرسة ١٩٧٠ وظلت هناك حتى عام ١٩٧٣ انتقلت بعدها الى مدرسة الكرخ النموذجية على ما أذكر، حتى ان مدرستنا بالكامل دعيت الى المدرسة اياها احتفالا بالمناسبة. ذكرياتي القليلة عن عدي الذي كان يأتي بين الحين والآخر أن المدرسات والطلاب عرضوا ابن الى ٨–٩ سنوات لوابل من الدلال والنفاق يكفيان ان يقلبوا الحمل الى ذئب.. الجدير بالملاحظة لمن يقرأ ذلك الكتاب هو متابعة فترة السلام من ١٩٨٨/٨/٨ يوم اعلان توقف الحرب مع إيران الى ١٩٩٠/٨/٢ يوم اجتاحوا الكويت. سيبدو واضحا كل الوضوح انها كانت اصعب فترات حكم عائلة صدام حسين حيث لم تكن توجد اي حجة تبقي الشباب العراقي المتفجر ساكنين فلا حرب ولا حصار ولا أي عذر، فاين السعادة واين كل ما نستحق؟.

تخلى عن الحجاج ووعد بتولية الثائرين ولاية العراق لكن هيهات. العراقيون رفضوا كل العروض وظلت المعارك تجري بكر وفر في منطقة الاحتكاك وسط الفرات حتى جاء جيش شامي جديد وكالعادة نزل من شمال الفرات الى جنوبة وسحقت الثورة واحمرت النهر بالدماء. منتقدي الحجاج يتحدثون عن انتقام فضيع من أسرى معركة دير الجماجم حيث ذبح ١١,٠٠٠ أسير. ولو صحّ ذلك الإدعاء فأنه سيضعف من حجة الموالين للثورة اياها والثورة الحالية وكل الثورات العراقية التي لا تنتهي. هؤلاء الأسرى كان يجب ان يحتلوا دمشق نفسها وليس ان يثوروا فحسب، ذلك على فرض ان الثورة وكل تلك المذابح كانت واجبة الوقوع. السؤال ليس عن عدد القتلى وجواز أو عدم جواز ذبح الأسرى والتنابز بالنصوص الشرعية فهي لن تغيِّر ماضي ومستقبل العراقيين. السؤال الواجب توجيههُ: هل كان الأمر يقتضي كل تلك الدماء؟.

أتساءل لماذا لَمْ تحدث ثورة في العالم الأسلامي حتى بين غير العرب ماعدا العراق. الفرس كانوا أولى بالثورة فلما لم يحركوا ساكنا؟ ولنفترض ان الفرس حسب رأي السنة هم خونة ومجرمون ومتآمرون فلم لم يعمل عراقي واحد (وحتى اليوم) على ان يغرر بأثنين من الفرس ان يتقاتلا؟. ثم هل من المعقول ان العالم الإسلامي كانوا كلهم خونة وكفرة ولا يعرفون تفسير القرآن والدولة الإسلامية اليوتوَية ماعدا أهل العراق. الى متى يستمر الكذب على النفس؟. ان الحقيقة تقول انهم في ذلك التاريخ وفي الحاضر هم نفسهم يكررون نفس خطأ اللإنتماء والماسوشية وإنعدام الوعي. لنسمع ما قاله الحجّاج لهم بعد كبح الثورة: يا اهل العراق ان الشيطان استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب، والمسامع والأطراف والأعضاء الشغاف. ثم أفضى الى الأفحاح والأصماخ[1] ثم ارتفع وعشش ثم باض وفرخ، فحشاكم شقاقا ونفاقا وأشعركم خلافا إتخذتموه دليلا تتبعونه، وقائدا تطيعونه وآمرا تستشيرونه. فكيف تنفكم تجربة أو يحجزكم إسلام أو ينفعكم بيان؟.

(١) (الحجاج بن يوسف الثقفي) ص ١٧٥.. الدكتور رياض محمود رويحة قد وضع هامشا يقول فيه ان كلمة (صماخ) بمعنى ثقب الأذن. لكن الكلمة تستعمل في العامية العراقية بمعنى الرأس الكبير وقد بيّن الدكتور فوزي رشيد في مقابلة تلفزيونية انها مشتقة من كلمة سومرية (ساك–ماخ) ايضا بمعنى الرأس الكبير.

كلام الحجاج يمطر كرها وتشفي لكنه كره ينبع من القلب كأنه يخاطب ماضيه الذي تخلص منه ويقول لهم ان يفعلوا مثله. ما بقي له إلا ان ينطق بالكلمة الكردية قائلا (كفاكم خوييياتي).. طبعا العقل العراقي يتفحص الصورة وكالعداة يتوصل الى الحل (النهائي والجذري) فيعود ويقول: لو طبقنا حذافير الشريعة لما حدث ما حدث.. فتبدا نفس الدوامة الأبدية لتاريخ العراق قبل الإسلام وبعده.

رغم ضخه الأموال من العراق الى دولة بني امية في الشام، الا ان التاريخ يشهد للحجاج انه لم يكون ثروة فاحشة كباقي متمكني العرب. في هذا الجانب اعتقد ان الفضل لا يعود (لزهد وتقشف) الحجاج. بل انه حالة شائعة في الدول والتنظيمات القبلية. فكونه حضري من الطائف لا يمتلك عشيرة تسانده كما الحال مع اولاد المهلب مثلا او اي اموي مهما بلغ به الأنحطاط، كان لابد له من بعض الحيادية والاعتدال في مسألة الأموال والممتلكات الشخصية. اما لو كان امويا او مجرد مكيا، لكان له ان ينهب الأموال حسب مكانته داخل الهرم الإنتمائي الحاكم. هذا هو الحال مع دول العصبيات المدينية والقبلية. انها تنشأ على اساس التحيز حسب الهرم الإنتمائي الضيق. فهي بمجملها لعبة انحيازات وخداع وتمييز.

الآن لنقيم فترة الحجاج بصورة عامة، الحيادية والتجرد من اصعب الأمور خاصة للشخص الذي يمسه موضوع الصراع فلو سأل البغدادي عن الصراع بين PUK وKDP لأفتى ببساطة، لكن في موضوع الشيعة والسنة والبعث، مواضيع يعيش في دواماتها، سيصعب عليه التجرد بينما سيسهل على المتفرج من بعيد ان يرى اخطاء الغير، تلك هي طبيعة البشر.. وعليه اتوجه الآن الى الإنسان الكردي الذي يتمسك بحزبه ويتحين الفرصة للإنقضاض على اخيه الكردي. او حتى الكردي غير العراقي الذي لايعرف كيف يخاطب عقله وينتظر اقرب فرصة للثورة (الثورة من أجل الثورة). أقول لكل هؤلاء ان الثورة ليست هدف ولا محل إفخار . هناك نكتة تقول ان عدد من المدخنين كانوا يانقشون كيفية ترك التدخين. احدهم قال: اني اتخذت قراري ونحجت من أول محاولة.. الثاني قال: بصراحة لا أقدر، وسادخن حتى اموت.. فإذا بواحد (ذكي) يجيبه: ما الصعوبة في الأمر؟، انا تركت التدخين عشرات المرات، اترك ولايهمك!!

ثقافتنا التي نشأنا عليها في القرن الماضي اشبعت عقولنا بتمجيد الثورات. كان من

الواجب، على الأقل، ان يتجنّبوا التضليل. ثورة وثورتان وعشرة ولا طائل. وعند نجاح ثورة ما فأن مجموعة ما ستتولى الحكم وسيواجه الإنسان اللامنتمي نفس المشكلة. فالكل بالنسبة له غرباء مثلهم مثل الحجّاج وقورش وصدام والياور والطالباني ومدحت پاشا والسلطان العثماني والشاه الصفوي. الأمر منوط بنوعية الإنسان نفسه ومدى شعوره بالألفة والإنتماء مع باقي البشر على تلك الرقعة من هذا الكوكب.

في النهاية أقول ان الحجّاج كان من قلائل حكام العراق الذين ماتوا ميتة طبيعية. والأكثرية من الولاة والثوار، معارضوهم ومناصروهم، أقرابئهم وأعدائهم، أجيال بالكامل تذابحت وابتلعت في دوامات وحمامات لامنتاهية من الدماء. وما من أدنى ظاهرة ولو صغيرة تتحدث عن العراق كوطن، فأما القبيلة واما المدينة واما القفزة الهائلة نحو توحد ديني خيالي من الصين الى المغرب.. أما لو تناولنا تلك الفترة حسب تأثير المدن والعواصم، فيمكن تعريفها بأنها شهدت سقوط سلطة أحد العواصم في منطقة الفوهة العراقية (المقصود طيسفون) فتدهور الأمر لمدة قرن من الزمان ثم استقر وضع العراق بعودة مركز الحكم الى منطقة الفوهة العراقية بإنشاء بغداد.

الفصل السادس

العباسيين

لنجري مقارنة بين دول الكوفة ودمشق والعباسيين عن طريقة تقييم القوى التي تحالفت أو كانت مستعدة للتحالف مع كل منهم. نفس المقارنة السابقة بين آلهة بابل وآشور والفرس تتكرر هنا مع العلم ان كلهم عرب وكلهم مسلمين، غير ان طبائعهم وتوجهاتهم السياسية اختلفت.

١- الكوفة تعصب مديني بحت مع العلم انه أفتقد ادنى درجات الأنوثة التي كانت تتمتع بها بابل قبلها. فلم يدم حكمها الأسمي اكثرمن اربع سنوات وحتى البصرة لم تعترف بالكوفة طوعاً ناهيك عن باقي مدن وعشائر العراق وخارجه.

٢- بني أمية في دمشق. دولة قبلية مزاوجة مع مدينة معتبرة، كانت ذو توجه قومي فيه شبه من الآشوريين لكن لم يبلغ مستواه ابدا. كانت ذات شعار اممي لكن في الحقيقة كانت تمثل إتحاد عشائري بقيادة احد تلك القبائل. العاصمة أيضا كانت نقطة ضعف لا يستهان بها، اذ ان دمشق قد تسيطر على الشام ومصر في أقصى تقدير.

٣- العباسيين وحتى قبل تأسيس بغداد من مجرد خروجهم عن التيار القبلي والقومي وتحالفهم مع عناصر غير هاشمية وغير قريشية وحتى غير عربية كان كافيا ان يضفي عليهم الصفة الأمميمة.. تلك هي حقيقة الفرق بين دعوة العباسيين والعلوييين فلا يجب ان تأخذ شكل مقارنة دينية بين الدعوة العباسية والدعوة العلوية.

العباسيون كانوا عائلة مالكة بمعنى الكلمة ولم يكونوا قبيلة حاكمة كالأمويين أو حزب ايديولوجي حاكم كالنظام اللاوراثي للخلفاء الراشدين.. القبيلة الحاكمة مثلها مثل حكم عشيرة صدام حسين والأمويين والكثير من النماذج القبلية، تكرس السلطة لعصبية معينة دونا عن باقي الناس على شكل هرم إنتمائي. طبعا ستكون هناك حلقة

ضيقة من المستشارين كما كان عند صدام حسين لكنها لن تكن أبداً لُب التيار الإنتمائي الذي يسيّر الأمور. طبعا صدام حسين ليس المسؤول عن وجود تعدد قومي ومذهبي، لكنه سلك ابسط الطرق لحكم العراق بذلك فسح الطريق لتفشي ردات الفعل ألتي نراها اليوم.

الكوفة في وقتها فقدت مصداقيتها على الكثير من الأصعدة، توضح الأمر مباشرة بعد انتصار الجيش الخراساني وإجتثاث الأمويين، فالعباسيين وقلما يذكر السبب[١] لم يدعوا أنفسهم يدخولون منزلق الأقاليم الزراعية في الفرات الأوسط وما تضمره من نعرات أنثوية، بل أختاروا حدودها الشمالية في الفلوجة أول الأمر ثم الجائزة الكبرى في اختيارهم موقع بغداد.

بغداد:

اذا كانت كلمة بابل تعني (باب – الله) وحتى كلمة بايبل Bible قد اتشتقت منها[٢]. فأن بغداد تعني (عطاء– الله) وهي اثبات آخر على ان الدين والغيبيات قد اجتاحت معظم الثقافات، العربية منها وغير العربية.

فيما يخص إختيار موقع بغداد من قبل المنصور، صحيح انه وزع أشلاء الحيوانات هنا وهناك لمعرفة نقاوة الهواء، لكنه كان مسألة ثانوية. المسألة الرئيسية تكمن الأقليم بصورة عامة ولماذا لم يتم إختيار سامراء كما فعل المعتصم مثلا. اعتقد انه أخذ بعض النقاط بنظر الإعتبار:

* اختيار دجلة وليس منطقة الاحتكاك الفراتي.
* اختيار موقع آخر وليس في العاصمة القديمة (المدائن) حتى لا يكون إحياءاً بسيطا لدولة ميتة، مع انه بوجهة نظر الكثيرين كان كذلك لكن بلغة ودين جديدين.
* النقطة الأهم اختيار موقع يتوسط التاجي والفلوجة (موقعان عربيان) والمدائن (حاضرة الفرس) كأن الدولة تأسست من ثلثين من العرب وثلث من الفرس كعناصر قومية رئيسية واستمر حتى دخول العنصر التركي كنصر ثالث ازاح العنصرين السابقين تدريجيا من الساحة.

موقع بغداد من احسن ما يمكن اختياره لاستقطاب الثروة البشرية مقارنة بكل مدن وادي الرافدين، فلا المدن السومرية ولا واسط الحجاج ولا أسكندرية الإسكندر وحتى

بابل حمورابي لها ذلك الموقع المسيطر. هذا وإن العواصم ليست مجرد قرار إداري او فرمان سلطاني، فها هي سامراء المعتصم جُعِلت عاصمة لكنها لم تقاوم أكثر من جيل واحد، اذ ان سامراء لا تحتكر طريقا ماعدا طريق شمال دجلة والذي يمكن الاستغناء عنه بسبب وجود الطريق المسمى لاحقا (خط البريد العثماني) والذي يندمج مع خط الحرير في خانقين فيشكلان رافداً واحداً يؤدي الى بغداد التي تسيطر على أهم طرق التجارة والمواصلات في العراق.

أول ما نلاحظه في تأسيس بغداد هو تقسيم المدينة على أساس الحرف، أي انهم لم يشجعوا التقسيمات العمودية للمجتمع، وهو أهم عنصر من عناصر اي ميتروپوليس مع ان بغداد في القرون اللاحقة شَهدت تخثر الإنتماءات الأقليمية (على شكل مذاهب) في محلاتها. ثم ان العباسيين لم يفرقوا بين عربي وأعجمي بالدرجة التي فعلها الأمويون. وما أن تأسست بغداد حتى نسمع بمدن الكوفة والبصرة وباقي المدن تهدأ ولم يبقى لهما شيء يتنافسان عليه سوى المسائل الأدبية واللغوية حيث تجسدت تلك المنافسة في (مدارس الكوفة ومدارس البصرة) ما نطقت إحداها برأيي حتى عارضتها الأخرى. وهو تكرار لما جرى بين الميتروپوليسات الهيلينية بعد تأسيس بيزنطة.. هذا وعند تاسيس بابل الأولى نلاحظ إنفصال إقليم الأهوار لمدة قرنين. نفس الأمر تقريبا تكرر في تأسيس بغداد في ثورة الزنج، لكن الأمر لم يَطُلْ أرباع المدة السابقة. الاستقرار والرخاء الذي شهد العراق في الدولة العباسية لم يضاهيه في التاريخ إلاّ دولة كاردونياش قبلها بعشرين قرن.. يبقى السؤال المهم في سبب عدم تجذر إنتماء وطني في العراق مع وجود مركز بتلك القوة والاستقطاب. الجواب هو كما أسلفنا.

١- عدم وجود حدود طبيعية تعزل العراق كما في فارس ومصر.

٢- عدد السكان ونسبة الحضر أقل.

٣- المناخ حارق ومتقلب.

٤- لم يطرح شعار وطني بل دائماً شعار أممي نفس الخطأ الذي ارتكبه الرومان وپاپاوات روما من عدم طرح اي مفهوم وطني. كان اولا بأوائل الأباطرة الروم ان يحددوا وطنا قوميا بدل تلك القفزة الهائلة من فتوحات وتوسيع للحدود والإنتماء، توسع لا يلائم طبيعة البشر.. ثم الخطأ الأكبر كان الطرح الأممي (الديني) الصرف للبابوية الكاثوليكية. كأن لا فرق بين إيطالي وغيره إلا بمدى استسلامه للدين وقبلته روما، وهو نفس الطرح الخاطئ للإمبراطورية العباسية ذات الطرح الديني من خلافة الرسول (ص) والزيادة كالنقصان.. وعليه، لو اخذنا مواطن من فلورنسا مثلا كان يقول لنفسه: طبعا كلنا كاثوليك ولا فرق بين پاريس وميلانو ومدريد وجنوا وكلنا إخوان وكلنا واحد... ثم يضيف: لكن لا أحد منهم فلورنسي مثلنا.. الطرح العباسي في بغداد كان يدّعي ان ابن بغداد وابن والموصل وسمرقند وطنجة كلهم شيء واحد لكن واقعه وعقله المتواضع يدله غريزيا بان دائرة معارفه لا تتجاوز محلته وبعض الأقرباء وكل ما يقال من شعارات هي للحكم والسلطة. النتيجة كانت ان الطبقة الحاكمة انفصلت عن ما يجري في القصور وخلف الستائر والبوابات والإنتماء تجزأ كما اليوم على مستوى محلات. محلة شيعية ومحلة سنية وشريحة تتبع الحكومة المركزية فإذا انحاز الخليفة للشيعة ذبحوا السنة والعكس بالعكس.. بعبارة أخرى، بدل ان تقوم بغداد بإذابة إنتماء إبن تكريت وإبن الكوفة فيها كي يشعران انهما (بغداديان أو عراقيان لا فرق بينهما) حصل العكس وطغت الخطوط العمودية تدريجيا داخل بغداد نفسها.

كان من حسن حظ بغداد في العهد العباسي الأول والثاني ان الميتروپوليسات الكبرى كأسطنبول وطهران والقاهرة لم تدخل في منافسة مع بغداد، طهران واصفان ام تكونا قد تأسستا أصلا كعواصم، واسطنبول كانت خارج ساحة المنافسة الحقيقية لأنها كانت مسيحية هيلينية. تبريز ومنذ الفترة السلجوقية أصبحت منافسا عسكريا قويا لكنها لم تهدد المركز الديني لبغداد. المنافس الوحيد ظهر مباشرة عند تأسيس القاهرة في القرن العاشر الميلادي على يد الفاطميين. أي ان المنافسة كانت تحتوي على تنافس مديني و اقليمي تجسدا بالمذاهب فلو كان الأمر مسألة فقهية بحتة،

فالدعوة العلوية كانت موجودة على بعد خطوات من بغداد!! وماذا كل هذا القوس. انه قوة الاستقطاب المصرية بدون أي شك.. يمكن ملاحظة نفس المنافسة السابقة تبناها الأيوبيون لدرجة ما حيث وصل استقطابهم الى شمال العراق. لكن بصورة عامة كانت أقل حدة من الحركة الفاطمية فالشعوب القبيلية المندفعة نحو الجنوب الغربي لم تستَغْ الفاطميين و(سب السلف) والعصبيات التي انطوت عليها حركتهم ذات الجذور القبلية. ثم ما أن استتب الأمر للقاهرة وسقطت بغداد بيد المغول حتى كانت اسطنبول قد دخلت دائرة المنافسة الشرق أوسطية فأجتاح استقطابها بغداد والقاهرة على حد سواء وأصبحتا مجرد توابع لأسطنبول. ورافق ذلك نهضة جديدة في الهضبة الإيرانية بعواصمها القوية في تبريز واصفهان اللواتي اصبحتا المنافس الوحيد لأسطنبول في الشرق الأوسط فرجع الشرق الأوسط بأسره الف عام الى الوراء الى أيام المنافسة بين الفرس والروم، وهكذا.

ما سبق كان مختصر سريع جدا لفترة القرون التي تلت طغيان آخر موجة للقبائل السامية. لقد حصل العراق خلالها على مكسب كبير هو تأسيس بغداد درّة المدن العراقية وقلب سلطتها وبؤرة تجمع الثروة المادية والبشرية فيها وأكبر مدينة عربية في آسيا. وجود بغداد قلل وبشدة خطر إستفحال العصبية المدينية على الساحة السياسية فيها وإن بغداد هي سبب نسيان العصبية المدينية التي نادرا ما يعرف عرب العراق خطرها. بغداد قد فرضت مركزية سياسية وعسكرية على الأقل. ثم انها فرضت وحدة لغوية أو (لهجوية) على كل العراق، فاللهجة البغدادية مع افتقارها للأنوثة، هي سيدة اللهجات العربية الشرقية من الخليج وحتى حدود الموصل.. هذه النعمة لا يعرف العراقيون قيمتها لأنهم مع كل الأسف متبطرون على الكثير من النعم كتبطرهم على مياه دجلة والفرات التي تأتيهم بدون عناء والنفط الذي جاءهم لاحقاً على الحاضر. الوحيد الذي يعرف قيمتها هو الذي حرم منها كما سنرى عند بحثنا في بلاد زاگروس. ومع كل الأسف نرى اليوم عند العراقيين تبعية لغوية لعرب الشام ومصر ذوات الأنوثة الأصيلة. فأبن القاهرة والشام وأصغر قرية لبنانية يتحدث في التلفزيون بلهجته والكل تهلل له. بينما ترى العراقي كأنه يخجل من لهجتهِ ويخاف ان يتهم بالخيانة فيصر على قوانين سيبويه التي تزيد من الازدواجية وتُبقي الإنفصام.

العصبيات المدينية والأقليمية بعد ظهور بغداد تراجعت بشدة الى الدرجة الثانية

والثالثة لكن بغداد مثلها مثل الكثير من العواصم فشلت في تحديين مهمين.

أولا- العصبية القبلية حافظت على شدتها والنعرات التبست أشكال مذهبية وفقهية بين الحضر فوجدوا اي سبب كي يقول احدهم للآخر (انتم لستم منّا). مخطىءمن يدّعي ان الطائفية في العراق هي وليدة الإحتلال الأمريكي او أنها بدعة ابتدعها حزب البعث أو حتى العثمانيين والصفويين، بل هي الشكل الآخر لعدم التمازج بين الأنثى والأنثى والذكر والأنثى، بين القبيلة والمدنية وبين الحضر أنفسهم.

ثانيا- بغداد لم تقاوم التوجهات الأممية بل في البداية اعتمد عليها العباسيون ونمت سلطة بغداد من خلالها. هارون الرشيد كان ينظر الى الغمام ويقول "اذهبي حيث شئتِ فأن خَراجكِ عائد إليّ" كلامه لم يكن ادعاءا فارغا بل حقيقة واقعة حيث تدفقت الثروة المادية على بغداد. لكن صَاحبَه تدفق الثروة البشرية من كل الإمبراطورية. وان بغداد لم تكن تلك البويضة المصانة التي تحتمل امتصاص كل تلك البذور. الجيش الخراساني الذي هزم الأمويين في وقتها كان مجرد بداية لطوفان بشري تزايد مع الزمن. فبراري آسيا كانت مرتعا لقوى قبلية هائلة، وما قام به العرب في سحق الساسانيين كان بمثابة تدمير لسد مائي جر طوفانات بشرية استمرت حتى القرن الثامن عشر عند استقرار طهران كسد أو (فلتر للتنقية) بين الشرق الأوسط وآسيا، عسى ان لا يفكر أحد بتدمير السد الإيراني الحالي.

الفترة المظلمة

الموجة العربية اكتسحت بفحولتها أكثر ما تبقى من عناصر الأنوثة في العراق ثم أنسحبت مرة أخرى بعد عدة قرون الى بوادي تاركة بغداد ومراكز الحكم العراقية لمن يحتمل ذلك النوع من الحياة الحضرية التي اصبحت في الفترات المتأخرة من العصر العباسي وما تلاها نوع من الذل لم يُطِقهُ العرب. سأعطي مثال لتوضيح القصد، العرب هزموا الروم في معركة ذات الصواري لكن هذا لا يعني انهم تحولوا الى امة بحرية كالإغريق مثلا. هذا هو القصد من تركهم مراكز الحكم في العراق اما الأرياف والبوادي وكافة مدن الفرات فقد اجتاحتها اللغة العربية حتى قبل السلام تقريبا. بغداد في القرن التاسع عشر كانت بالنسبة للعنصر العربي تقريبا كما كانت اربيل وكركوك

بالنسبة للعنصر الكردي البراري كلها كردية لكن داخل المدينة والمراكز الرسمية لم تكن كردية. كركوك مثلا مازالت نفس الحالة التي كانت عليها بغداد من تنافر بين اهل الريف والقبائل مع ثقافة المدينة المنقلبة عليهم والموالية للدولة.

المد العربي الإسلامي كان ظاهرة حية من ظواهر التاريخ، نشأت وتطورت مذاهبه وتأويلاته لتلائم حياة الحضر. لكن دخول الأمواج القبلية الآسيوية (ذات التوحيد الدنوي) وتفاعلها مع الإسلام (ذو التوحيد الديني) قد خلق حالة من التصلب تفوق قدرة البشر. اعتقد ان الإسلام الذي نعيشه اليوم هو ليس ذلك الجوهر ذو التحرر الاجتماعي والتوحيد الاجتماعي الذي ظهر أولاً في الحجاز ثم تطور وتقولب في المناطق الحضرية كالعراق واليمن وفارس، بل هو إسلام تركي الجوهر بلغة وآيات عربية.. الأسلام في آسيا تبع نفس الخط (التجاري–الحضاري) الذي اتبعته الالفابيت الآرامية والدين المسيحي والمانوي من الهلال الخصيب الى حدود الصين. والإسلام ورث كل الثقافات التي نشأت في الهلال الخصيب واتبعت آثار ما قبلها من ثقافات الى آسيا وضاعفت من طغيانها هناك. لكنها في نفس الوقت زادت من استقطاب الشرق الأوسط للكتل الآسوية مما ضاعف من قوة الى فيضانات البشرية التي اجتاحت خط الحرير الذي كانت بغداد أحد محطاته الرئيسية. النتيجة ان العنصر العربي تمسك بقبليته وانسحب تاركا العاصمة والدولة ومسالك الجيش الى عناصر إيرانية وتركية فازت بها في النهاية العنصر التركي الأكثر توازنا بين الأنوثة والفحولة.

نستعين هنا ببعض آراء الاستاذ علي الوردي. العراقي ومنذ صغره يفتح أذناه على كلام مثل (الخيل والليل والبيداء) ويسمع عن هارون الرشيد يبخشش مئات آلاف الدنانير الذهبية على شعراء منافقين بينما هو ككل حضري على وجه الكرة الأرضية يقضي يومه جريا وراء لقمة العيش ويتكافح على الدينار والدرهم والفلس وبعض التمر ورغيف الخبز.. وعليه، إن أبسط ما نلمسه من طباع اهل بغداد والعراق عامة هو خشونة الطباع قد تشرَّب بها كاتب السطور فلست أحسن ممن أنتقد مع الأسف إنما انا المدخن الذي يحذر الناس من مضار التدخين!.

كَلّم صاحب أحد الدكاكين، ستراه يجيبك كانه يأنف تلك الحياة ويود العودة الى أيام كانت فيها المعيشة تعتمد على الغزو والنهب.. أجلس مع بعض الشباب في بار ستراهم يحتسون كميات لا تصدق من الخمر، لكن اللسان ينطق بالحرام والحلال وأهمية

اللألتزام بحذافير الشريعة. تحدث معهم عن الجوانب المشرقة في الحياة. سترى الصدور منشرحة على نسمات دجلة المنعشة لكن ما ان تشرق الشمس ستحس ان الإشعاعت الحرارية للنهار قد بدأ تأثيرها المدمّر كأنها (جهاز منع السعادة البشرية)، فتنهار معها كل نسمات الود والأمل والإنسانية، وليس غريبا ان يقول العراقيون (كلام الليل يمحيه النهار).. تحدث عن موضوع مثل (السلم العالمي) سترى الشاب البغدادي يقلص يده كأنه يوشك ان يضربك، ويصيح بأعلاه صوته "طبعا، السلام على الكرة الأرضية أهم موضوع في العالم والذي يعارضه يجب ان يمزق ويقتل وو والخ" كلامه شيء وحركاته شيء آخر. قل له "على كيفك ليش عصبي" سيهتاج اكثر ويطلق طبقات أعلى من الصوت تكاد تهد الجدران ويقول "آني مو عصبيييييي!!!" انه يكاد يرتكب جريمة قتل والشرارات تتطاير من عينه، لكن كلامه يتحدث السلام والحب والمودة!!، سبحان الله، ليس غريبا ان يتحول (مؤتمر أنصار السلام) في الموصل ١٩٥٩ الى (مذبحة من اجل السلام!) وليس غريبا ان يصف الاستاذ علي الوردي شخصية العراقي بأنه يقول ما لا يفعل ويفعل ما لا يقول وليس غريبا ان ترى أكثر الشباب يشيبون بسرعة. ان هي إلاّ مغامرة عاطفية بسيطة أكثرها ينتهي بالفشل والكراهية بدل الحب والتفاهم فيبدل العشاق اتجاههم ١٨٠ درجة ضد كل ما هو جميل في الحياة وعادة ما يكون سقوطا نهائيا في غياهب التزمت الديني.

كلمتين طالما ترددتا على لسان فنانين وفنانات عراقيات (الكبرياء والإباء) دأب العراقيون على ترديدها كأنها من فضائل البشرية! ألا يخجلون من جعل التكبر الفارغ شعارا وقدوة وفضيلة؟ انه ليس الا الفراغ النفسي الهائل الذي يعانيه سكان هذا الجزء من الكرة الأرضية من واقع قد يكون غني ماديا أما ذخره العاطفي والإنساني فهو فقير جدا جدا جدا، لكنه في نفس الوقت مشوب بآمال واسعة جدا جدا جدا في حياة لايعيشها حتى الملوك. الجنة والحواري والغلمان الموعودة من الكتب يجعلون من مستوى معيشة هارون الرشيد أقل الدرجات التي يمكن للعراقي ان يرضى بها فكيف نتوقع ان يرضى بأي شيء على الأطلاق. هذا النفاق المشحون المتكاثف في العقول سيجعل حتى أغنى الأغنياء لا يرضى بحياته فكيف بأبن الخايبة المحروم حتى من قبلة أبوية وحضن أُمٌّ متفهمة. اذن، سيزداد الطلب على جرعات الدين بوعود لاتنتهي عن حياة احسن لم تعد قادرة على تهدئة هذا الشاب اللامنتمي الباحث عن أنوثة فقدت منذ قرون ويميتها

هو بنفس عند اول بادرة لها.

هناك فرق بين الإنتماء والهوية. إن وجود او عدم وجود الشعور بوحدة الإنتماء ليس له علاقة بوجود او عدم وجود هوية وطنية. العراق له هوية مميّزة لا يمكن انكارها مطلقا وهي من أوضح الهويات الوطنية في العالم بل انه يمكن التعرف على العراقي من بعد مئة متر فيقال (ذلك هو العراقي) لغة وتصرفا وتفاعلا وسحنة وصوتا مدويا.. هناك ايضا إنتماء قوي للأرض والتراث واسلوب الحياة فحتى بعض اليهود الذين تركوا العراق منذ عقود طويلة، رأيناهم عبر شاشات التلفزيون تكاد اعينهم تدمع بالحنين الى العراق. هذه حقائق لايمكن إنكارها، إلاّ ان السؤال هو: هل ان ذلك الإنتماء هو إنتماء موحد؟، وهل هو مفعم بالمحبة كإنتماء المصري والفارسي والفرنسي والتركي الخ؟.. لو أجرينا إحصائية عن (كم شخص عراقي يحب كم عراقي) و(كم شخص عراقي يكره كم شخص عراقي) و(كم شخص عراقي أذى أو قتل كم شخص عراقي)؟ بالمقارنة مع الشعوب أعلاه.. سؤال آخر: هل أن قوة استقطاب مدينة بغداد أذابت الإنتماءات الضيقة (الإنتماء العشائري والمديني والأقليمي والمذهبي والطائفي؟... الخ) وسؤال أهم: هل قاومت بغداد الإنتماءات الأوسع من الإنتماء الوطني كالدين والقومية والماركسية؟.. ذلك هو المحك.

ان الأنفصام والأزدواجية الاجتماعية التي ترعرعت في المجتمع العراقي الفحل والخشن أخطر بكثير مما نعتقد وله من القوة ما يكفي تدمير أضعاف مضاعفة من مساحات العراق. ثم ان الحجة التي أعمت العيون في القرن الماضي كانت اسرائيل والقضية الفلسطينية. يا اخي كم تتوقع لأسرائيل أن تبقى أكثر ما بقيت. عقد آخر او قرن آخر أو حتى ينضب النفط؟ الاستاذ رجاء النقّاش في كتابه (تأملات في الإنسان) يتحدث عن فنان فاشل انكب على ضرب زوجته وتحميلها سبب فشله فإذا بها تموت ويصدم ذلك الفنان لأن لا يوجد شخص آخر يحمّله تبعات فشله. فكيف ستكون الأجيال اللاحقة وقد تربت على القتل ثم القتل ثم القتل (و الحساب عند أسرائيل). وماذا اذا لم تجد عدوا خارجيا هل ستجلس؟ جيفارا لم يستطع ان يقاوم حياة المدينة والنظام وعاد الى الحياة التي تملأ مجاريه الدموية بالأدرينالين حتى قتل فما فرقك عنه ولو أختلفت الشعارات؟

ان نظرة الى حياة البشر في عصر المماليك والعثمانيين لأكثر من كفاية ان يراجع

العراقي نفسه. الحروب والطاعون والفيضانات كانت تتناوب على حصد أهالي المدن في كل عقد أو عقدين من السنين وكان من الحرام والمخجل لن يحاول شخص ما ان ينجو أو يبكي على مصيره الأسود لأنها تعتبر (تمرد على إرادة السماء) ومن المفروض ان تطير فرحا للبلاء الذي أنت فيه.. لم يكن أحد يجرأ في طول البلاد وعرضها على مجرد السكن في بيت بسيط لأن البيت (لمجرد كونه بيت متكامل غير مهدم نصفيا) يعني أنك تطلب راحة الدنيا وليس الآخرة. إنها تدل على أنك غني، فأما ان تنهبك العشائر وأما ان يتولاك التركي بضرائب سنوية لن تطال ربع قيمتها طول حياتك. وأي كلام من هنا وهناك سيعتبر تمرد ضد السلطة الإلهية حسب الآية الفلانية والحديث الفلاني فهل انت معترض؟ فتفضل وتجرأ على الاعتراض.. تلك هي الأجيال التي بقيت في العراق بعد جفاف أنوثتها وإنحطاط حضارتها والحبل على الجرّار.

الفصل السابع

العراق الحديث

حين استكان الفرنسيون لحكم هتلر فأنهم قبل ان يفكروا بمن الذي يأمر وينهى ومن هو عنتر زمانه، هم فكروا في باريس قبلتهم (بكسر القاف). فهل العراقيين عامة والبغداديين خاصة يعتبرون بغداد قبلة، وكم قبلة غير بغداد تدور في مخيّلة الفرد العراقي تجعله مستعداً لأن يفني بغداد في سبيلها؟.. أعتقد أنه بالأضافة للأقطاب الدينية هناك اقطاب مثل القاهرة والشام وكانت هناك موسكو قبلة الشيوعية لفترة ما، وهناك أوروبا قبلة لملايين العراقيين وهناك طهران واسطنبول. فكلها قادرة على استقطاب العراقي. أما أن يتظاهر العراقي بأن تدمير بغداد هي سبيل غايات (عظمى) فليجرب هل ان القاهري والأسطنبولي والطهراني مستعدين لأن يخدشوا جدار من جدران عواصمهم في سبيل تلك الغايات (العظمى). واذا كانوا كلهم خونة وكفرة والخ، فماذا سيفعل العراقي لوحده في الجنة؟ فتفضل انت وكن بنصف مقدار (الخيانة والكفر) الذي هم فيه.. الحقيقة أنه سؤال مهم جدا: ما هي قيمة بغداد كقبلة للإنتماء مقارنة بمكة وموسكو والقاهرة والنجف... الخ. هذا السؤال الخطير قد يهز الكثير من القلوب التي تعتبر نفسها فولاذية.

جزء كبير من مشكلة ضعف وتشتت الإنتماء العراقي تكمن في هوائه وليس ارضه. لو ان درجة حرارة الصيف في بغداد لم تتجاوز ٣٥–٤٠ درجة مئوية كحد اقصى ولم تصل ٥٠ و٦٠ ، لأنقلبت الأمور رأسا على عقب ورأينا شباب العراق نجوم شباك التذاكر في بنوك الفن ولبهرت المرأة العراقية نساء العالم بأصالة أنوثتها وتسابقت العشائر والعواصم لتعلم حذافير النطق البغدادي والفن والأتيكيت البغدادي الأصيل (كان سيعتبر أصيلا بدل العادات القبلية التي صادرت الأصالة من أهل المدن). اما الإنتحاري العراقي ان وجد، فكان سيستهدف تلك المحطات التلفزيونية التي تقول بكل صراحة "مئة قتيل في العراق وثلاثة شهداء في فلسطين" كأنها تتحدث عن كلاب! وهم

متأكدون ان التعطش العراقي للأنوثة سوف لن ينبس بشفة.

ماحصل في اليونان تكرر في العراق بعد قرن من الزمان فالقوى الأوروبية وحدها استطاعت ردع الأخطبوط العثماني. مساندتهم لليونان كان بتأثير الأرث الحضاري القديم عليهم، اما طرد الأتراك من الشرق الأوسط فكان لمجرد النفط والموارد الأخرى فهم وطنيون يعبدون أوطانهم ومصالحهم ولماذا نتوقع منهم ان يخدمونا بإخلاص وتفاني.. المشكلة تكمن في الفذلكات السياسة والنفاق السياسي المتأصل الفذلكاني ألتي جعلت الكثير من العراقيين يعتقدون كل الاعتقاد ان العراق الحالي دولة عمرها ٦٠٠٠ سنة وأنهم جاءوا لهدمها مع أن الحقيقة يقول ان الحضارة العراقية نشأة وماتت عدة مرات كان آخرها في نهاية العصر العباسي ولم تقوى على النهوض ذاتيا إلاّ بقوة الحضارة الأوروبية التي منحته نهضة استمرت جيلين (٨٠ سنة) وما ان دخلنا في الجيل الثالث حتى بدأ العد التنازلي أقوى مما كنا نعتقد. فالأنوثة هزمت منذ الف عام ففقدت معها دوافع الحضارة، والإنسان فيها يعاني من تبعية وانفصام، فتراه اليوم يفتك بكل ما يمكن ان يسمى حضارة وتطور وأنوثة لكنه ما ان يفتح فمه إلاّ نطق بكلام عن الحضارة والتطور وأناشيد درخية لا يعرف ماذا تعني.

الدولة العراقية الحديثة نهضت في عشرينات القرن الماضي وكان لها قدرات كامنة لا يستهان في القابلية على إنشاء دولة وجيش وقانون. الإنتماءات العراقية الطبيعية أيضا نهضت من تحت الرماد وتفاعلت مع الأوضاع الجديدة. الشيعة (بلاد بابل) كانوا أول الثائرين على السلطة التي حررتهم. أما السنة ورثة آشور فكانوا أول من اندمج مع هيكل الدولة الناشئة. ثم تراكضوا الى الحجاز وجلبوا ملكا يمثل كل ما في التراث العربي الإسلامي من معاني. لكنه كان شخصا حيا يرزق، له عيون ويتكلم ويمشي على الأرض مثلنا فكيف يتحملوه؟ لا أدري!. صحيح انه لم يقتل كالإمام علي، لكن أبنه وحفيده قتلا بيد العراقيين.

النهضة الأخيرة للعراق صادفت عصر التكنولوجيا والثقافة. لقد قطع العراقيون الحضر ما لايستهان به من اشواط في طرق التطور والتحرر من الأرث البالي. بغداد ولبضعة عقود استطاعت ان تحوي طبقة وسطى نمت فيها روح وطنية أو شبه وطنية توالي الدولة وتدافع عن سلطة بغداد التي اصبحت تمثل سلطة العراق بلا تشكيك. ففي اليونان مثلا انفصال جمهورية سالونيك أكتسب شرعية دولية تقريبا ذلك لعدم امتلاك

أثينا في وقتها التفوق الجيوبوليتيكي والديموگرافي الذي تتمتع به بغداد. المشكلة ان النقص الرئيسي في العراق لم يكن أبداً في مقدار القوة والفحولة الكامنة فيه بل بالعكس، هو كالبركان المتفجر ينشر الطاقات في كل مكان لكن الضعف يكمن في أفتقار العراق الى النوع الآخر من القوة (الأنوثة) التي تلم الطاقة الذكورية وتركزه في مكانه والتي مع الأسف يستعر منها وهي شيء محتقر حتى من قبل بنات جنسها.. ان الحجّاج كان يحكم العراق لكن قلبه وولاءه في غرب العراق. فماذا عن صدام والبعثيين؟ هل كانت بغداد هي القبلة أم كان القلب والعقل يهيم في مكان آخر وتحدي أنثوي آخر؟ وهل ان بغداد كانت تحكم أم أنها كانت منساقة ومستسلمة لأناس مستقطبين لأنثى أخرى؟

نقطة أخرى مهمة جداً اعطت احسن المبررات لانفصال الذكر العراقي عن انثاه وأرضه للركض وراء بنت الجيران، هي المشكلة الفلسطينية. لايوجد ادنى شك بعدالة القضية الفلسطينية والأنحياز الأمريكي العلني لليهود[1]. لكن المصريين مثلا قلّما قتلوا بعضهم بعضا تحت هذه الذريعة كما يفعل العراقيون وان اعداد العراقيين الذين قتلوا بيد العراقيين فداءا لبنت الجيران تجاوز مئات المرات اعداد الفلسطينيين الذين قتلهم اليهود. الأمر أكثر وأسفر بكثير من إدعاء تجريدي بمناصرة العدالة وروابط تجمع إبن الحلة بإبن الجليل. الأمر أشبه بالولد المحروم الذي يعشق بنات جاره الجميلات والمتحررات فَيتحيّن اقرب فرصة كي يترك بيت ابيه من أجلهن. التبعية والأنسياق العراقي وضعف انتمائه ظهرت بصورة صارخة ومخجلة في العقود الأخيرة حيث ان

(١) بعض التوجهات التي نلمسها من الثقافة الأمريكية ان بعضهم يُشبه نفسه بالروم. لا اتفق مع ذلك الرأي واعتقد ان الأنوثة (المال، الإعلام، الأديان الأنثوية، التصنع الخ) هي التي تسير الأمريكان ويمكن تلمس (الخوّياتي) والنعرات الأنثوية ولوبيات واضحة. اول قانون روماني كتب في ميدان الفوريوم هو (No Exceptions) بينما أكثر تهافت الأمريكان حسب علمي المتواضع هو ان كل جماعة تريد تحقيق استثناءات لنفسها. العرب القوميين محقون في عن سيطرة اللوبي اليهودي مع ان اليهود ليسوا اللوبي والتيار الوحيد. لكن فيما يخص العراق فأن العرب السنة المنقادين وراء عرب الشام ومصر لا أساس لأدعاءاتهم من صحة في وجود نيّة بتقسيم العراق والأمر هو بالعكس تماما فلولا الإنكليز ما نشأت هذه الدولة. ولولا الأمريكان من بعدهم لتشتت العراق منذ القرن الماضي. كل ما في الأمر ان النفط سلعة ستراتيجية ما ان تنضب حتى يودعونا هم وعرب الشام ومصر ايضا تاركين العراقيين وراءهم ليبتلي به من يتجرأ على حكمه.

المصري مثلا يجوز له ما لايجوز للعراق من إحتكاك وعلاقات مع اسرائيل والغرب أما العراقي (الفحل المنساق وراء الأنوثة المفتقدة) يجب أن يبرهن طوال الوقت انه التابع المخلص وهو في إمتحان دائم قد يرفض في أي لحظة.

يمكن القول ان الأنوثة في العراق والمرأة العراقية بصورة عامة قد سجلت رقما قياسيا في الفشل وعدم القدرة على الجذب والاستقطاب اذا ما قارنّاها بمثيلاتها من نفس المستوى المادي. إذا بحثت الأنوثة على إنها المدينة، فأن المدن العراقية دأبت على الحسد والتناحر فيما بينها. وعندما توحدت الأنوثة في مدينة واحدة (بابل في عصرها ثم بغداد في العصر العباسي ثم في القرن الماضي) فأنها مارست تكبرا عجيبا في أول فرصة سنحت لها. على ايامها كانت الأنوثة البالية تجذب القبائل ثم ترفض كل من أتاها فيفشل الأخصاب. وبعد قرون طغت الفحولة وأجتثت أكثر بقايا الأنوثة. أما في العراق الحديث، مع ان الكثير من الخطوط العمودية تحولت داخل بغداد الى خطوط وفروقات طبقية عامة لكنها لم تذُب نهائيا وان الطبقة الوسطى للعاصمة مارست تكبرا على الفقير وعلى ابن القرية وأنساقت وراء انبهارها بكل ما هو أجنبي جعلت ابن قرية مثل العوجة مثلا ينتقم من كل مظاهر الأنوثة ألتي تبجل فيه العنف والتسلط.. ان ما لمسته انا شخصيا في نساء بغداد كان انبهار عجيب بكل ما يأتيها من الغرب (تركيا، الشام ومصر وأوروبا الخ) أعجب من ان يوصف. ثم ان هناك تكبر ورفض للرجال وتقوقع وخجل ونميمة وخشونة تضاف الى لهجتها في الكلام ونقاط قد لا تكون المرأة وحدها مسؤولة عنها لكن لا يمكن لها التملص من المسؤولية.

الأنوثة هنا ليست بالضرورة أن تكون المرأة بحد ذاتها بل الحضر من الطبقة الوسطى ذكورا وأناث. فكل موظف (درّاخ) دأب على النفاق حتى وصل منصب، ثم أفتى اول ما أفتى بقوله "أووو. ما يصير أشلون يصير" وكل من أصر على تعقيد الروتين و(ممنوع، ميصير، ماكو) قد دفع أشخاص آخرين الى أن يرتدوا عن المدينية الى القبلية ويعودوا للإنتقام من تلك الأنوثة المرائية.. التعقيد والنفاق والواسطات وهذا الادعاء الفارغ بمدنية جوفاء دأب عليها نساء وحضر العراق حتى سطى عليهم الذكور ينتقمون من كل حركة تصنع وروتين ونزاكة وقانون ونظام مصطنع. والأمر يتكرر اليوم بصورة أسوأ وهي تثير ردات فعل ذكورية أعنف بمئات المرات. الطبقة الوسطى المفكّكة أصلا والتي مارست وتمارس واسطات و(خوييياتي) حتى العظم قبل وبعد سقوط

الصنم، يدعون انها (أساليب علمية وحضارية والخ) مع انها مجرد روتينات تعقيدية للحياة تمارس أكثر الاحيان ضد (الذي ليس منّا) وتزول من طريق (جماعتنا).

حسنا إذا كانت القضية (نظريات علمية حديثة في تسيير مجتمع حضاري!) أفلا تشعرون ان جو العراق لا يحتمل كل هذا الروتين والممنوع والعيب وال (أووو، ما يصير، اشلون يصير). فلنترك كل المواضيع جانبا ونركز على أبسط موضوع حضاري (مستورد)، مسألة حزام الأمان في السيارات.. تفضل وأسال عن الموضوع في البرلمان العراقي أو الكردستاني أو أي مجتمع حضري واترك ذاك العراقي يتحدث عنه في التلفزيون مثلا ثم انظر الى التصنع والعيون المبهورة التي تتلفت خائفة من مراقبين وأسمع أناشيد الحضارة (طبعا لازم ما يصير، شلون، اكيد، حضارة، تقدم، علم... الخ) ثم رافق المتحدث الى سيارته. ستعرف على الفور مدى الأنفصام في شخصيته. جسمه بجانبك لكن عينه وعقله يحومان في مكان آخر. انه أنفصام شبه تام وأناشيد مثل (طبعا طبعا، لازم، أكيد) تدرخ وتكرر من المهد الى اللحد.

الحضر في العراق ينقصهم الإنفتاح الطبيعي المصاحب لطبيعة الحضر في باقي البلدان، وهم يتشددون في كل نقطة تناقش لكن بالطبع يقول ولا يفعلون. لو كان الأمر علميا بحتا فلا داعي الى (خبير الماني درجة أولى) يقول لنا ان شد الحزام في جو مثل صيف العراق الذي يتجاوز الخمسين مئوية جريمة بحق العقل والعلم والإنسان. هذا الحزام اللعين لو صادف وأن أنقذ حياة انسان واحد، فأن مجرد الخوف والتراكض ورشاوي شرطة المرور والغرامات والشد العصبي ستكون محصلته النهائية ردة فعل وتمرد ضد كل ما يسمى قانون ونظام. قد نتجنب بعض حوادث المرورية لكن الثورات العصبية والإرتداد الجنوني ضد كل مظاهر الأنوثة والهدوء والإلتزام ستأتي بما لا تحمد عقباه.. اذن، الأمر ليس موضوعا علمياً على الأطلاق بل هي لعنة التمثيل والأصطناع الذي جعل العراقيين الحضر ومنذ آلاف السنين يلتبسون الخوف والتشدد في أكثر ما يفكرون ويا ليت لو حضارتهم انتصرت ولو في جولة واحدة في ترويض الفحولة العراقية ويا ليت ايضا لو ان فيهما جانب منتصر، إذ أن الاحتكاك بين الفحولة والأنوثة عندما يتحول الى المعركة، عندها لن يكون هناك منتصر بل هو الموت حتى لو بقي كذا مليون اناس يتنفسون الهواء.

العراق بلد ذو جغرافيا مركزية فيه إغراءات وإمكانات قوية لفرض حكم مركزي، لكنه

وعلى طول التاريخ فرض بالقوة العسكرية (الذكورية) وقلما سمعنا يوما ان بغداد وحدت العراق بأنوثتها كما القاهرة وپاريس وطهران. من جهة أخرى انشاء اقاليم وأنظمة غير مركزية سيفيد كثيرا في احساس المواطن بمواطنته لكنها في نفس الوقت لعبة خطرة لأن الأمر لن يقتصر على مشاكل بين المدن والعاصمة، ان المشاكل عادة ما كانت بين المدن ذاتها وهي نفسها التي كانت تولد ردّات فعل فتفرض دكتاتوريات عسكرية، وما نراه اليوم من (ابداعات) في مجال التحزب والتزمر والطائفية لا يعدو عن كونه تهيئة الجو ردة فعل قد تفرض دكتاتورية نترحم فيها على صدام حسين نفسه.

ليس لي رأي محدد حيال ما يدور من نقاش على الفدرالية ودرجاتها ومقدار السلطة المركزية. ما اعتقده جازما ان الأنظمة الملكية الدستورية في العالم اكثرها استقرارا فهي تنزع فتيل التهافت على السلطة. لا يتعجل القاريء في اتخاذ موقف سلبي ولينظر بحيادية من بعيد لبعيد الى افغانستان أو الصومال مثلا ويفكر، اليس من الاحسن لو اتخذوا اي شخص كملك لمجرد نزع فتيلة التذابح السلطة؟ ثم ان المفهوم الخاطئ عن الملكية عند العراقيين (عادة أرسقراطيين متطبعين بالغرب) هي ان نقعد ونبكي على ذكرى الملوك الهاشميين. لو أمتلك العراقيين ادنى روح وطنية لأمكنهم إختيار ملك ما لمجرد توحيد الولاء. اذا تعذر إحياء الأنوثة الحرة في بغداد لتوحيد الشعور بالإنتماء فان توحيد الولاء اسهل بكثير ولا يحتاج الى اجيال طويلة. المشكلة تكمن في شخصية العراقي نفسه بل وحتى في الملكيين منهم[1]. الملكي المثالي هو ابن الجيش والدستور. ثم ان الروح الوطنية هي من ألفا بيت الملكية وليس الإنتماء الضيّق (عائلي طائفي عشائري الخ) ولا الإنتماء الواسع (التيارات الأممية وآيديولوجية) وهو ما لم ألمسه في

(١) في ١٩٩٤/٦/٢٢ عقدة الحركة الملكية الدستورية، مؤتمر صحفي في اربيل بأشراف الاستاذ خالد التميمي. كان ذلك أول تواجد علني لهم داخل العراق منذ ١٩٥٨ وكنت أهتم كثيرا بحدث من ذلك النوع. وجهت سؤال الى الاستاذ خالد مستفسرا عن شخصية الشريف علي ومدى معرفته بالعراق واللهجة العراقية مثلا؟. كنت اعتقد انهم سيهتمون اكثر بالإنتماء الوطني، لكن جوابه كان: الشريف علي يعرف العراق والعراقيين واللهجة العراقية لكن ذلك لا يهم لأن العرب كلهم ينحدرون من جزيرة العرب.. ثم بدأ يتحدث عن قبيلة تميم كمثال على ذلك. عرفت على الفور ان الأمر ليس بتلك السهولة وان نفس المشكلة الإنتمائية تتكرر مع اكثر العراقيين. فالإنتماء أما ان يكون ضيق جدا أو واسع جداً ولا وسط بينهما.

صفوف الحركة الملكية الحالية، فمشكلة الإنتماء عند اكثر العراقيين أنها كالبندقية التي توجهة اطلاقات مرة الى الأعلى (عروبة وإسلام وآيديولوجيات أممية) ومرة الى الأسفل (إنتماءات عائلية وقبيلة وطائفية) لكن قلما تصيب الهدف. وهذا الكلام ليس لي بل هو للملك فيصل الأول نفسه في مذكرة الى رجال الدولة العراقية الفتية عام ١٩٣٣ قبل فترة قصيرة من وفاته يقول:

"ان البلاد العراقية ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية ذلك هو الوحدة الفكرية والملية والدينية..." ثم يقول "في العراق أفكار متباينة تنقسم الى، الشباب المتجددون منهم رجال الحكومة، المتعصبون، السنة، الشيعة، الأكراد، الأقليات غير المسلمة، السواد الأعظم الجاهل المستعد لقبول اي فكرة سيئة بدون اي مناقشة"... ثم يقول "مملكة تحكمها حكومة عربية سنية مؤسسة على انقاض الحكم العثماني تحكم قسما كرديا وأغلبية شيعية منتسبة عنصريا الى نفس الحكومة إلا أن الإضطهادات التي لحقت بهم جراء الحكم التركي لم يمكنهم من الأشتراك في الحكم" حتى ما يصل الى أهم نقطة ويقول "بإعتقادي لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد، بل توجد كتل بشرية خيالية خالية من اي روح وطنية".

لا فض فاه وكان يجب ان ندرس هذا الكلام في مناهجنا التربوية بدل التركيز على القعقاع وهارون الرشيد. ليركز القاريء الكريم على آخر مقطع (كتل بشرية خيالية خالية من اي روح وطنية). طبعا من السهولة بماكان ان نتهم كلامه بأنها مؤامرة استعمارية وهو أبن سبأ آخر.

الملكي هو الذي يوالي الملكية حتى لو أختير أبن صدام حسين أو ابن عبد السلام عارف كملك. أي انه ليس لعبة من ألعاب الـ(خوييياتي) اذا ناسبتنا أيدناها وإلاّ عاديناها. عشرات الرجال موجودون على الساحة من كل الطوائف والأعراق وحتى ليس بالضرورة ان يكون رجلا او حتى ان يكون عراقيا. لكن المشكلة ليست في (من يقود) فكل عراقي تقريبا له قابلية في القيادة. الفنانين في لبنان تكاد أعدادهم تفوق الجمهور أما في العراق فأن اعداد القادة تكاد تفوق الشعب والكل خبراء في ابادة وتصفية المنافسين، المشكلة تكمن في عدم وجود (شعب) أصلاً.

الأنظمة الملكية القديمة وحتى الجمهوريات الوراثية التي ظهرت حديثا، هي أكثر

الأنظمة استقرارا. السر يكمن في نقطة بسيطة جدا جدا أنه لن يأتي احد بكلام مثل "هل ان فلان احسن منا وأرجل منا، وما ينقصنا حتى يتحكم بنا فلان"؟ في حالة الملكية الوراثية، سيقول الكل "يالا ايش نسوي خليه لخاطر ابوه" هذا الكلام الذي يعتبره البعض سخيفا، سيكون له وقع أكبر من السحر.. احسن ما فعله السوريون انهم اختاروا ابن الرئيس ليخلف اباه. لكن نقطة الضعف تظل في أنهم مازالوا بعثيين جمهوريين يدعون أن الإبن الرئيس الشاب هو (بطل التحرير القومي ورئيس الأمة العربية والخ). الشجاعة تكمن في الخطوة الحقيقة بأعلان الملكية ثم السعي ان تكون ملكية دستورية في العقود القادمة. الخطر يكمن في النفاق والمزايدات العنترية التي ستحول هذا الشاب الى ديكتاتور. التحدي ليس في اسقاطه والعودة الى نقطة الصفر بل هو في مقدار الصراحة. اي اننا هنا ايضا وصلنا الى احد الفذلكات التي طالما اقنعنا انفسنا بها. في السابق كنا نقول الدكتاتوريات هي المذنبة في كل شيء لكن ألم يسأل احد نفسه من اين أتت الدكتاتوريات هل هي ايضا أنزلت من السماء كما الأديان؟

الفكرة المستعصية في الشرق الأوسط عن الحاكم هي فكرة خالطت الدين نفسه واصبح الحاكم والإله ينظران اليهما على أنهم (يجب) ان يكونا حديين وبدون اي تفاهم، يرحمون من يشاؤون ويذلون من يشاؤون حسب رغباتهم. اذن، لا يتوقع الناس ان يتغير مصيرهم مادام اعتقادهم بماهية الخالق يتمحور حول منطلق من هذا النوع. في ١٩٧٩ لما كان صدام حسين يتلو اسماء رفاقه كي يعدموا، كنت ترى المنافقين يرتجفون حتى يتأكدون أنهم ليسوا ضمن قائمة ذلك اليوم، فيهتفون عاش عاش للجلاد (مع احترامي لكل من كره نفسه في تلك اللحظة). فكيف يتوقعون ان يحترمهم العنتر الذي اختاروه؟

اني أتسأل عن عقلية الكوادر الحزبية وحتى الإدارية في العراق، كردا وعربا وكائنا من كانوا، اذ ما أن يستقر بهم المقام في دائرة ما حتى تبدأ مسابقة شاقة في النفاق وأناشيد "نعم سيدي، أي والله سيد، طبعا طبعا" ثم ترتد مجموعة ١٨٠ درجة معارضين على طول الخط. أي ان ليس هناك حل وسط فأم (عاش عاش) وأما (يسقط يسقط) هل يعتقدون ان مصيرهم ستكون نتيجته احسن من طوابير من اعدموا وهل سيكون مستقبل أجيالهم احسن؟. توينبي يقول ان أي تغيير سياسي سيتبعه في

البداية ظهور (اقليات مبدعة) لكنها سرعان ما تتحول الى (اقليات مسيطرة) بلا ابداع ولا أي شيء. واعتقد اننا نقدر ان نظيف الى كلامه بأن (الشعوب غير الموحدة ستسيطر عليها اقلية متحدة) وان سرعة تحول الثوار الى دكتاتوريين وبيروقراطيين تعتمد على درجة الإنفصام بين المتسابقين على النفاق وبين المعارضين الذين لا يقبلون بأقل من (محق راس الحية).

مخطىء من يقول صدام كان مؤامرة امريكية وان الأممية والعقائد (العروبة، الإسلام السني أو الشيعي، الماركسية والأشتراكية... الخ) لو طبقناها بحذافيرها تجعل من العراق جنة. ومخطىء من يقول ان العلم والثقافة لم تتمكن من حل مشاكل العراق فالثقافة لم تدخل المجتمع العراقي، كل ما دخل فيها هو العقائد (يسارية ودينية) وشتان بين العقيدة وبين الثقافة. أي ثقافة وأي وعي وأي حضارة هذه التي يدعيها كل من يتكلمون في التلفزيونات اليوم؟!.

الباب الثالث

زاگروس

الحل

من الأحرى بالمثقفين الكرد ان يُغيّروا نظرتهم تماما عن ماضيهم وحاضرهم بمجرد إجراء المقارنات السابقة واعتقد ان الكثير من الأمور وضحت فقد إتبعت أسلوب (النظر الى المرايا) أي ان أعكس صورة الشعوب الأخرى كي نتعرف من خلالهم على عيوبنا لأن النقد المباشر يولد التعنت.. الآن، وصولا الى لب الموضوع وبدون إطالة (و إحتراما لأهل بغداد الذين يقولون أن الأكراد يقلبون كل الأمور) سأبدأ الموضوع من النهاية مباشرة الى بحث عن حلول.

هناك بعض الحوادث جرت في التاريخ قلبت أحوال بعض المناطق رأسا على عقب. منها تحويل بيزنطة الى عاصمة. المراقب سيلاحظ انه كان أشبه بفتح مجرى البانيو فاذا بالماء كله يتمحور وتختفي دويلات وتكتلات وصراعات داخلية مزمنة. قبل بيزنطة كان هناك سبع عواصم للحيثيين بالإضافة الى عشرات المدن الأغريقية، كل سيدة منهن كانت قطبا مستقلا لا تعترف بالأخرى. كذلك ما جرى بعد تأسيس بابل وبغداد كل في عصره الخاص، وتأسيس طهران في القرن الثامن عشر. تلك التغييرات أزاحت مشاكل كان من الممكن تجنبها قبل تواريخها بقرون.. أما بالنسبة لزاگروس فليس من أساسيات استقرارها أن نجد لها عاصمة أو دولة أو ماشابه، إن وجدت فخير على خير وإلا فهناك حل آخر. اقول للأكراد وغير الأكراد أن إحداث تغيير جوهري في الطبيعة الغير مستقرة لبلاد زاگروس هو ليس في قهر أهلها وإبادتهم أو تذويبهم قوميا كما يعتقد بعض الشوفينيين، بل ان الحل يكمن في قهر أرضها (ترويض الأرض وليس الإنسان). انه في توفير جسور ومواصلات فوق ممتازة تخترق الجبال والوديان والأنهار لتكسير الحواجز التي شكلت مراتعا للتقوقع والتجزء ومنبتا لروح معاداة الأنفتاح والتواصل والاندماج. لو تم ذلك اعتقد ان الشرق الأوسط كله سيشهد تغير جذري خلال جيل او جيلين كحد أقصى.

فلنضع انفسنا مكان مواطن فرنسي أو إيطالي ونسأل: ما الحالة السياسية التي يفضلونها لجارتهم سويسرا، هل من الأفضل ان تكون قطبا للثروات المادية والبشرية وركيزة للاستقرار كما هي اليوم؟ أم ان تقسم بين إيطاليا وفرنسا فيتراكض أهلها للتحالف مع إيطاليا ضد فرنسا ثم بعد سنة تنقلب الآية كما كانت في القرون الماضية؟. ماكيافيللي طالما نصح أميره بكيفية التعامل مع المرتزقة السويسريين فهل كان الحل في نصائحة أم في ايجاد حل جذري لمنبع هؤلاء المقاتلين؟.. نفس السؤال يوجه لجيران الكرد من فرس وعرب وترك: ايهما احسن اكراد يتدافعون الى مدنكم ويتحالفون معكم اليوم ثم ينقلبون عليكم في أقرب فرصة. أم أكراد متمدنين يستقرون في مدنهم الآمنة ويتراكضون قبلكم لردع أي ظاهرة عدم استقرار في المنطقة؟.. ثم ان نفس السؤال يوجه الى الأمريكان، اذا كان العراق اليوم قد أصبح منبع المشاكل، فأن كردستان لها تاريخ أطول في هذا المجال بل انها، كما يقول الدكتور كمال مظهر، كانت بلقان الشرق. فهل يعرف الأمريكان ماذا يفعلون؟ في الماضي كنت اعتقد ان الامريكان يخططون بدقة لكل شيء. لكن الان اعتقد جازما انهم لا يعرفون ماذا يفعلون. انهم ليس رجال ستراتيجيات، بل انهم تنفيذيون تسودهم ثقافة المقاولات لا أكثر. وهي ليست جريمة لكنها لن تنجح على المدى الطويل.

البلدان الجبلية على كوكبنا نوعين، النوع الأول سلاسل جبلية طويلة تتحول في النهاية الى حدود طبيعية بين البلدان الممتدة على جوانبها. مثلا جبال الأورال بين آسيا وأوروبا، وجبال البرانس بين إسپانيا وفرنسا مع انها ولدت التمرد الباسكي، لكن أكثرها يعتبر حدود لا أكثر.. النوع المعاكس هي الهضاب مثل المكسيك وإيران والحبشة والتيبيت. تلك الوحدات الجغرافية لها من الطول والعرض ما يكفي لتشكيل مدن وعواصم وهوية.. المشكلة تكمن في نوع وسطي من سلاسل جبلية لا هي بتلك النحافة كي تتحول الى حدود، ولا هي هضبة واسعة بذلك السمك الذي يكفيها لتشكيل عمق ستراتيجي وميتروپوليسات مركزية، خاصة زاگروس حيث المدن تتوزع حولها كحلقات متقطعة بمراكز جبلية شبه خالية. أذا كانت مدن الأغريق يتوسطها بحر، فأن مدن كردستان يتوسطها عقد جبلية لا تحصى.

بالإضافة لزاگروس هناك وحدات جغرافية متشابهة كجبال وسهول القفقاس والبلقان وهندوكوش والأطلس والألب وقد تكون زاگروس ارحم، فالتنوع اللغوي والديني في

القفقاس مثلا أعقد بكثير من زاگروس. على الأقل ان الأكثرية في زاگروس لهم اسم واحد وهو (كرد). اما في القفقاس، فأن كل وادي تقريبا فيه لغة أو دين خاص حيث ان التداخلات والصراعات فيها وفي البلقان أعقد بكثير مما عليه الحال في زاگروس. ولا يتعجب القاريء من إدراج جبال اللألپ ضمن القائمة، فالفروقات اللغوية ومشكلة عدم توحد الولاء التي عانوا منها كانت نفسها التي تعاني منها اليوم كشمير وزاگروس والبلقان والقفقاس، ولم تخمد إلاّ بالحضارة والتطور والثقافة (اكرر بأن الثقافة لا تعني درخ نصوص).. شئنا أم ابينا، اليوم أو بعد الف عام، فأن هذا الجزء من كوكبنا يجب ان يقهر بيد البشر، وان قهر تجاعيدها العويصة سيكون، سببا لتغيير جوهري في الشرق الوسط. الدليل هو ما نراه اليوم في سويسرا نسبة الى ماضيها وحتى في كردستان العراق من تعطش للتعمير والتطور والخروج عن المألوف قد يصل بعض الاحيان حد المبالغة في التشبه بالأوروبيين. طبعا الزيادة كالنقصان وان ظواهر التمرد على الماضي (و انا منهم) ماهي الا ردات فعل لا ارادية ستتزن وترجع الى العقلانية مع الزمن. المهم ان إصلاح زاگروس يجب ان ينظر اليه كمسؤولية مشتركة وبفائدة عامة.

ذلك كان لب الموضوع ولعل البغداديين قد ارتاحوا بعد ان أثبتوا ان كاتب السطور كردي بدأ من النهاية. أقول لهم هذا أحسن مما يفعله العرب فعندما تنفجر المفخخات يطفئون المتحترقين بالركل، فيتحول المصابون الى كتلة من الجبس بسبب كثرة العظام المتكسرة. أتعرفون، قد تكون هذه طريقة ناجحة لأن المريض سينسى آلام الحرق من شدة الركلات. لندع المزاح ونرجع من نهاية الموضوع الى بدايته!

نزيف الحضارة

مسعود محمد كان يعزو الضعف المزمن لكل الشعوب التي سكنت زاگروس الى ظاهرة أطلق عليها (نزيف حضارة) يمكن اختصار الفكرة بما يلي: كما يحدث لمياه الأنهار التي تنبع من زاگروس وتجري الى خارجه، نفس الشيء يحدث للحضارة عموما التي قلما استقرت في زاگروس. الثروة كانت دائما تنزح مبتعدة عنه بسبب ما يحيطها من أقطاب حضارية. يمكننا صياغة النظرية السابقة في عبارات أخرى فنقول ان زاگروس تعاني من (تعرية وإنجراف) كما يقال في الجيولوجيا عن عمليات تعرية التربة من

غطائها النباتي. يمكننا عندها القول: ان الثروة المادية والثروة البشرية لا تستقر كثيرا ضمن وديان وسهول زاگروس بل تتجه الى خارجها تاركة ارض شبه جرداء من الثروة البشرية.. الثروات المادية هي الماء، المعادن، المنتوجات الزراعية الخ. أما الثروات البشرية التي هي أهم، فهم أصحاب رؤوس الأموال والفنانين والكتبة والعسكريين (العسكريين الحضر) والحرفيين والموهوبين، الخ، اكثرية هذه العناصر لا تستقر على أراضي زاگروس ولو قارنّاها بمصر فأن مصر إناء عميق يضم كل قطرة مطر تنزل عليه. أما زاگروس فإنها كالإناء المقلوب ينزلق الماء الى خارجه.

النزوح الدائمي الى خارج زاگروس السبب لوجود شخصيات ومشاهير نسمع عنهم في البلدان المجاورة (الذين هم من أصول كردية). فمنذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد أحتوت المدن السومرية على شريحة معينة من العمال والحرفيين النازحين من زاگروس[1]. من جهة اخرى، الأساتذة جمال رشيد وفوزي رشيد في كتابهم المشترك (تاريخ الكرد القديم) يؤكدون ان أقوام زاگروس كانوا دائمي النزوح الى السهل الرسوبي وان شدة نزوحهم كانت تتزايد مع كل بادرة ضعف للدول العراقية.. لعل ذلك سيكون كفاية لشباب الأكراد بان يتوقفوا عن تكرار لا ينقطع في تعداد المشاهير الذين عاشوا خارج كردستان. صلاح الدين وكريم خان الزندي وعباس العقاد ومحمد عبده وابراهيم طاطلساس وهايدة ومهستي[2] الخ. يا أخي اذا عدد الجورجيون مثلا عدد

(١) هاري زاكس – عظمة بابل– ص– ٧٢

(٢) مقارنة بسيطة بين موقف الشباب الكرد من المغنيتين الإيرانيتين (مهستي وليلى فريقي) تعطينا الجواب. مهستي كردية الأصل من كرمنشاه لكنها لم تغني باللغة الكردية ومع ذلك عرفت شبابا أكراد قدّسوها. اما ليلى فريقي فهي لم تغني الا المقامات الكردية الأصيلة لكن النتيجة انها لعنت وسفهت من قبل الكثير.. اعتقد لو كانت فعلت مثل مهستي وغنت بلغة غير كردية لقالوا "فديت تراب قدميها. آه لو غنت ولو اغنية واحدة باللغة الكردية" هذه النقطة (الصغيرة) هي أكبر امتحان يواجهة الكرد.. انها حالة الإنفصام والإنقياد والإنبهار بكل ما هو بعيد كما نقول باللغة الكردية (گلى دور درمانة) أي (كل بعيد جيد).. المشكلة ان ليلى لا تحيط بها هالة من التعظيم بسبب كونها اصبحت (طهرانية) مثل مهستي. ثم أن ليلى حية ترزق تمشي في الشوارع وهي (لا تطير) كما يعتقد عن مهستي.. نفس المشكلة تتكرر فيما يخص الملوك والرؤساء. الآن أسمع بعض المثقفين يقولون "ياليت لو يعود الملك فيصل، لكن لا أحد من سياسيي اليوم يستحقون الاحترام" أي أننا كالبابليين والأغريق نقدس الميت والبعيد لكننا لا نحتمل الحي المرئي.

الملوك والولاة والقادة الذين حكموا بغداد والقاهرة لقرون طويلة (دول المماليك) سوف لن ينتهوا من الموضوع أبدا فهم ايضا يعانون من لعنة تعرية البشرية والانقلاب الى الإنتماءات الأممية ضد أهلهم وأصلهم، يكفي القول ان ستالين جورجي لكنه انقلب وأصبح روسي أكثر من الروس فرض سلطة موسكو على ثلث الكرة الأرضية!!.. موسكو ام بغداد ام القاهرة، الأمر لا يعدو عن مسألة مراكز ذات قابلية لإستقطاب الثروة البشرية، فيتولاها كل مرة مجموعة معينة. فما الغريب اذا صادف مرة ان يكون صلاح الدين وكريم خان زاگروسييان.

القنوات الفضائية العربية بدأت تتكلم عن (هجرة العقول)، إذا كانت دول الشرق الأوسط حديثة العهد بتلك الحالة، فأن هجرة العقول وتعرية الثروة البشرية من زاگروس يعود لعصور بدايات الزراعة. الإستثناء الوحيد الذي حدث كان في العقدين الأخيرين في كردستان العراق وأرجو الله ان لا يكون تغيير مؤقت. اليوم نرى في كردستان العراق حالة نادرة بأن السكان يغادرون بغداد مثلا الى كردستان ويكاد الأكراد لا يعرفون كيفية التصرف مع تلك الحالة، لأن المعتاد هو ان الكردي ينزح الى بغداد وغيرها من الميتروپوليسات يزاحم اهلها على لقمة العيش والسكن. أما إذا حصل العكس فستبدأ الطاقات العقلية ذات القطب الواحد بأفراز أفكار وتيارات رافضة للأنوثة (أنوثة الأرض).

پروفايل كردي

اعتقد ان (النزيف) الذي تحدث عنه مسعود محمد لا يقتصر على الثروات المادية والبشرية، بل يطال المشاعر والإنتماء فترى الإنسان يعيش بجسده في مكان وعقله يدور في مكان آخر. لقد تمَّت الإشارة وبتكرار الى الإستقطاب، صدام حسين نفسه كان تحت تأثر إستقطاب (شامي ومصري)، فماذا عن الزاگروسيين؟.. لو أخذنا مقطعاً عرضيا Profile لخط يبدأ من أقصى قرية جبلية وصولا الى بلدة ثم مدينة ثم الى احد الميتروپوليسات (اسطنبول، حلب، طهران، ميونخ، مصر، لندن، بغداد...، حدّث ولا حرج). الإنسان الزاگروسي في كل واحدة من تلك المراحل يعتبر نفسه مركز العالم ولا يتفهم وضعية من قبله ومن بعده في ذلك الپروفايل. سأوضح الأمر.

لننتقي نقطة معينة من ذلك الپروفايل، المدينة مثلا، الشخص الذي يعيش فيها سينظر

الى إبن القرية والعشيرة على انه متخلف ويستهزىء به (بالمناسبة، تلك هي مرحلة العصبية المدينية) أما نظرته الى الشخص الذي إبتعد أكثر عن زاگروس، ستكون عبارة عن نظرة تخوين. سيعتبره نصف خائن لأنه ترك أصله ولم يعد كما كان والخ، وهذا التخوين له انواع. مثلا اذا كان الزاگروسي قد توجه الى طهران، سيتهم بأنه تشيع وخان مذهبه ويمارس زواج المتعة... الخ. وأذا كانت الوجهة الى أوروبا فأن التهمة ستأخذ أشكال اخرى.. يا اخي أنت ايضا بنظر أبن القرية تعتبر قد تغيرت ونظرته اليك كما نظرتك الى الذي وصل الى لندن وان الذي وصل الى لندن ينظر اليك كما تنظر انت الى ابن القرية وهكذا.. انا وانت جزء من حركة مستمرة ابتليت بها زاگروس و قبل أن يقحم الزاگروسي نفسه في حزب وعقيدة ويتَّهم زيد وعمر بالتقصير والمؤامرة، عليه ان يتصور ذلك الپروفايل وبعدها له ان يقول ما يشاء.

الفلاح الفرنسي يتجه الى المدينة ويُكَّون ثروة ثم بعد جيل يعود هو الى الريف او يدفع أحد أغنياء المدينة للرجوع الى هدوء الريف. اما في كردستان فهي هجرة بإتجاه واحد فقط.. مؤخرا بدا بعض الزاگروسيين (أكراد، تركمان، سريان، كاتب السطور الخ) يعودون بعكس التيار المعتاد غير انهم يواجهون حالة إغتراب ناهيك عن غير الزاگروسيين. حتى السياحة قلما يفكر بها احد والأهتمام ككل العراقيين ينصب الاستحواذ على النفط ثم التسلط والتبطر بعظمة فارغة.

الديموگرافيا

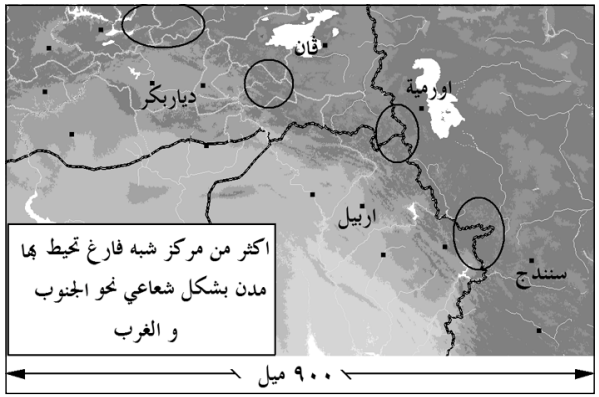

الصورة تتكلم وتبين وجود بدل مركز واحد فارغ أنه جبال زاگروس فيها أكثر من مركز ثقل والمدن ألتي تزيد تعدادها على ١٠٠،٠٠٠ نسمة تتوزع بصورة شعاعية الى الخارج ولا يمكن لأحد أن يحتكر أي شيء وليس بالضرورة أن تكون المدن كوردية.كردستان وحتى القرن التاسع عشر كانت عبارة عن عدد كبير من إمارات هي في الواقع دويلات مدن كثيرة الشبه بالمدن السومرية والإغريقية والإقطاعيات الأوروبية في القرون الوسطى. ان مقدار معاداتهم بعضهم لبعض كان أكبر بكثير مما مارسوه في مقاومة الفرس والعثمانيين. إن الخوييات والتنافر أكلت أجيالا تلو أجيال فعاشوا وماتوا في محاربة بعضهم البعض.

لنستعرض العناصر الأساسية لتكوين الإنتماءات والثقافات الوطنية والموحدة.

١- بعكس مصر وفارس، الأراضي السيحية في زاگروس أقل بكثير جدا من المراعي والأراضي الديمية. هذه الحالة فرضت حياة الرعي بين المشاتي والمصايف مع تكتلات عشائرية تغذي عصبياتها طبيعة الأراضي المنعزلة عن بعضها البعض.

٢- العصبية الذكورية في البراري والأرياف خلقت عصبية أنثوية مضادة نشأت داخل المدن لدرجة ان المدن الكردية حتى لو لم تمتلك أسوار وبوابات، فأن هناك سور قوي داخل العقول يطفح بدون إرادة ضد كل الغرباء.. اعتقد ان دراسة تلك العقليات ممكن ان تعطينا صورة حية عن حالة الأغريق والسومريين والفينيقيين.

٣- الأنهار مع الجبال رسخت حالات الإنعزال. فالإنسان الجبلي قلما يشعر انه يحتاج الى غيره في توفير الأمن والحماية فهو يتكل على الجبل وقلما يصادق سواه. لطالما قيل ان لا اصدقاء للأكراد غير الجبل. لكنني اعتقد اننا نحن الذين اتكلنا على

الجبل دون بعضنا ودون البشر.. أما بالنسبة للأنهار فهي ايضا حواجز منيعة وحدود بين الأقليم. ومن الجانب الإقتصادي، فان فوائد الأنهار لم تكن لسكان زاگروس. فالأنهار في كردستان لها أكتاف حادة وعميقة استحالت معها إنشاء سواقي للري السيحي(١). فهل من مجيب؟

٤- لا توجد اي حدود طبيعة تفصلنا عن أحد، أو تفصل احد عنّا. أي ان الحدود الخارجية مفتوحة أكثر من الحدود الداخلية.

٥- التنافر العام وعدم وجود مراكز استقطاب دفع السكان الى النزوح على طول التاريخ.. هناك بعض الأمواج البشرية دفعت الى داخل زاگروس لكن البلاد بحد ذاتها ما كانت قطبا الثروات البشرية، بل هي أرض ذكرية مانحة للثروة توزعت على أربعة مغانيط هائلة لإستقطاب الثروات(٢).

٦- لا يوجد عمق ستراتيجي مدني وزراعي آمن كما في مصر وفارس بل هي الجبال فقط التي قلما ولَّدتْ مدنيات وان ولدت مدن وحضارة فكانت متفرقة تسود فيها عصبيات مدينية وأقليمية تصل الى حد الإختلاف القومي. لقد رأيت نماذج لا تعد ولا تحصى من ابناء مدن كردية يرى فيك انت والكردي الآخر والعربي والإنگليزي كلهم على الأطلاق (غرباء) ما عدا أولاد بلدتهم وزقاقهم. إذ ليس لكردستان أي مركز ستراتيجي طبيعي كمدينة، طريق تجاري، إقليم زراعي الخ، يسهل لأحد ما السيطرة عليه كمصر وفارس وفرنسا. من يريد السيطرة على زاگروس كرديا كان

(١) هذه النقطة سمعتها من مسعود محمد وكان يكرر: ان الأكراد وحتى العقود الأخيرة كانوا يعيشون ويموتون دون أن يروا الضفاف الأخرى من أنهارهم.. أما بالنسبة لمسألة الري والزراعة، مسعود محمد كان له خبرة عملية كوزير لأعمار الشمال في عهد عبدالسلام محمد عارف وقد شارك في لجان مشتركة مع خبراء مصريين وعراقيين في الستينات وكان ينتقد محاولات القوميين العرب بجعل القوانين العراقية نسخة مكررة مما هو في مصر. منها انه كان يقول ان مصر لها ثلاث مواسم زراعية في العام الواحد بينما العراق فيه موسمان كحد اقصى.

(٢) القطب الخامس كانت روسيا وظهرت على الساحة منذ ان قام پيتر الأكبر بقهر السويد واللألتفاف الى بلدان الجنوب. كان للروس تأثير ولو قليل على الساحة الكردستانية. آخر عملية إستقطاب كانت اثناء الحرب العالمية الثانية فالإحتلال الإنگليزي السوڤييتي لإيران وما تبعها من انفصال مؤقت لأذربيجان ودولة مدينة مهاباد، وتأثير استقطابها العالمي ظل الى التسعينات.

أم غير كردي، فليتفضل ويحاول ذلك. انه لو أحتل ٩٠٪ فان الباقي سيتمرد وينفصل وما أسهل ان يتجمع سكان أحد الأقاليم بالإنفصال مثلا الاستاذ الدملوجي في كتابه التوثيقي (مهد البشرية) مثلا امتدح اقليم بهدينان وقابليتها الطبيعية على الاستقلال. قبل أن يقفز أحد سكان ذلك الأقليم فرحا لتلك المقولة علية ان يعرف انها سر البلاء، يا أخي تفضل وآتني بأقليم زاگروسي واحد لايستطيع ان ينفصل عن أهل الكوكب! قاطبة.

اعتقد اننا اقترفنا خطأً كبيراً في اسلوب التنظير القومي المنقاد وراء ثقافة أواسط القرن العشرين بالتفاخر بعدد الثورات وتصوير التاريخ كأنه مؤامرة أبدية الخاسرون الأبديون فيها هم الخيّرون والمنتصرون الأبديون هم الأشرار. فالدنيا ليست بلونين فقط وان الثورات في البلدان غير المركزية لها مغريات أقوى من مغريات الاستقرار والنضال المدني الذي هو التحدي الأكبر. مثلا، مساوىء المبالغة في التثقيف الثوري والتمردي تجلت بعد ١٩٩١ فما أن نزلت قوات كردية من الجبل الى المدن حتى ملأت الجيوب الجبلية بأحزاب أخرى تعادي السلطات التي سيطرت قبلها على نفس الجبال.. اليوم نلاحظ ان تلك الاحزاب كلما كانت أصغر، تبنت عقائد أكبر! فما قولنا الآن في الشعارات البراقة للأمس التي لم تكن تكلف أكثر من حبرها؟.

جيلنا الحالي شحنت افكاره بأن كردستان أحسن وأننا خير البشر واشجع البشر وأذكى البشر ونتفاخر بعشرات الثورات التي قلما انتصرت. فما تفسير كل تلك الهزائم؟. طبعا سيقال (المؤامرات) لقد بحثنا تاريخ اليونان والعراق ونظرية المؤامرة. ان العراق (الذي لا يعجبنا) له عاصمة تتجمع فيه السلطة شاء العراقيون أم أبوا. أما كردستان فلا تمتلك تلك الأفضلية.. نقطة التفوق الوحيدة تقريبا التي نمتلكها من إحتكاكنا بعرب العراق فقط، كون زاگروس ذو ماء وهواء ومناخ اطيب ومناظر طبيعية لا تقارن بسهول العراق الحارقة. هذه النقطة لا يمكن الاستهانة بها فهي تدفع الإنسان الى الإلتصاق بأرضه وتزيد من حب الحياة وحب الأرض وحتى الى التفاهم وبعض الهدوء وما الى ذلك. غير ان هذا التفوق هو على عرب العراق فقط لا غير، أما في باقي البلدان وحتى عرب الشام فأن أنوثتهم والتصاقهم بأرضهم أقوى بكثير مما نمتلك.

الشعور بالإنتماء وحتى قبل قرنين كان مجزأ حسب المدينة والقبيلة واللهجة لدرجة تصل حد الإختلاف بين الأقوام وما عرفنا بأننا قوم واحد الا عندما سمعنا غيرنا من

الشعوب تطلق علينا اسم معين[1]، ونحن لسنا الوحيدون. مثلا، لورنس العرب يزحف مع الجيش الحجازي الى العقبة فيصادفون قبيلة عربية. لورنس يخبر شيخها انهم يفعلون ذلك "من اجل العرب". فيجيب شيخ "عرب؟ أنا لم أسمع بقبيلة بهذا الاسم" أي ان كل ما يعرفه ذلك الرجل عن الدنيا عبارة عن (قبيلتنا) و(باقي القبائل).

الكرد ايضا لم يتحسسوا الكلمة حتى العهد السلجوقي او القرن السادس عشر حين دونت الشرفنامة وملحمة مم وزين. حتى تلك الحالات كانت حالات فردية ولم نتعرف على شعور قومي حتى القرن التاسع عشر، بالتحديد، ١٨٨٠ مع ثورة الشيخ عبيدلله النهري. ثم تبعتها حركات اخرى تخبّطت بين الإنتماءات العشائرية والمدينية والدينية. الوعي استمر تصاعديا لكن مازال يعاني ادراك للمفهوم الحقيقي وغلبة المشاعر الإقليمية واللهجوية ولا تتوحد قوميا الا ضد غير الأكراد ثم سرعان ما يزول بزوال الخطر.. بعبارة أخرى، ان عمر شعورنا القومي لا يتجاوز ١٥٠ سنة. الأتراك لا يقل عمر شعورهم القومي عن ألف سنة والعرب أرتبط عمرهم القومي بالإسلام (١٤ قرن) وهكذا. فلا داعي لزيادة الشعور بالفشل كأننا فاشلون منذ ٢٧٠٠عام، كيف نتحدث عن فشل مشروع لم يوجد اصلا؟ فهون عليك يا أخي ولا داعي للشعور بالنقص، نحن في حالة مخاض قومي يمكن أن يجهض لدى شرائح كثيرة نرجع آلاف السنين الى الوراء في أية لحظة ويمكن أيضا ان نولد. على الأقل بعد إيجاد لهجة مشتركة.

هناك دوافع وحجج قوية لإدامة الخطاب القومي المعهود فمنذ الحرب العالمية الأولى طرأت تغيرات سياسية واقتصادية كثيرة على المنطقة، وان مسألة الحرية والسيادة لم تعد حكرا على القوى الذاتية للشعوب. ابسط تذمر ينال من الكردي هو سؤاله عن:

(١) بارتولد يؤكد ان كلمة ترك أطلقت على الترك من قبل شعوب أخرى. نفس الحالة تتكررمع الأرمن يقولون لنفسهم (هايك) بينما الكل تسميهم بالأرمن.. بالنسبة للكرد الأساتذة جمال رشيد وفوزي رشيد في كتابهم (تاريخ الكرد القديم) اوضحا ان عبارة (كورداكي) اطلقها السومريين على سكان الجبال ويبدو اختصرت واستقرت على هذه الصغية. نفس الكلمة استعملت من قبل الأذربيجانيين والفرس في وصف العشائر كاستعمالهم لكلمة (تاجيك) انها كانت تدل على القبائل إيرانية غير شيعية. مثلا نادر شاه الأفشاري كان يصفه الأفشار الذين استوطنوا مدينة أورمية بأنهم وحدهم أفشار وهو (كردي من خراسان) حيث كانوا يعتبرون العشائر الإيرانية السنية اكراد حتى لو تكلموا اللغة التركية!. القصد هنا ان نشاة المسميات القومية أقدم وأعقد مما نتصور.

لماذا يكون للعرب أكثر من عشرين علم، بينما الأكراد حرموا حتى من أسمائهم في بعض المناطق؟. هذه النقطة أحزت في قلوب الأكراد خاصة وأن الكثير من العرب مازالوا يدينون اتفاقات سايكس–بيكو والتقسيمات الاستعمارية واصطناع دولة اسرائيل بينما يجلسون مرتخين للغنائم الهائلة التي نالوها بسبب نفس تلك التقسيمات، حتى ان بعضهم يرون في تواجد الكرد على ارضهم كأنه كيان مصطنع او شعب مستورد كأسرائيل. مع العلم ان أكثرية الدول العربية حتى العراق بخريطته الحالية هي كيانات مصطنعة غير طبيعية وانه لمن المؤسف جدا ان يكون أخوان الأمس بهذا المستوى من الأزدواجية.. المواطن الشرق أوسطي في القرن العشرين اصبح ينظر الى الحقوق والاستقلال والسلطة كأنها هبات نزل عليه من السماء فينتظر حظه من (سيادة وعز وكرامة توزع من قبل الجمعية الخيرية الأوروبية) انها نفخت صدورا حتى كادت ان تنفجر من هول المكتسبات، وكما يقول المتنبي (يستخشن الخز حين يلمسه وكان يبرى بضفره القلم).

لكن ذلك لن يعفينا من مسؤولية سوء توجيه للشباب بشحنهم بنفس الأسلوب العراقي بأننا (كنا كذا) ومع الأسف (أصبحنا كذا). هذا هراء والحقائق يجب ان تسود، ولننظر الى موضوع عدد الأعلام هذا من زاوية أخرى ونسأل: لماذا إنتشرت اللغة العربية على تلك المساحات الشاسعة وأدت الى ان تسود في (كذا) بلد بينما كل اللهجات الكردية لا تتجاوز مساحة إنتشار الواحدة منها أكثر من دوائر من ١٠٠ الكيلومتر؟.. ان نقطة الضعف المميتة عند الكرد وكل الشعوب الزاگروسية القديمة كانت ومازالت تكمن في عدم وجود لغة وثقافة ذات قابلية على المنافسة والإنتشار والتوحد وإلاّ فمن من العرب والترك والفرس ينتمي أثنياً الى ارطغل وقصي بن كلاب وقورش!

التاريخ

مصادرنا عن التاريخ فقيرة جدا. بعد التحول من الصيد الى تربية الحيوانات ثم الى الاستقرار في القرى الزراعية في التاريخ السحيق، يمكن وصف حركة الكتل البشرية في زاگروس ان كل شعب استقر فيها انقسموا الى عنصرين رئيسيين، القرويين والبدو.. اللولوبيين (في لورستان وگرميان) والخوريين من كركوك فصاعدا، هؤلاء العنصرين يرد ذكرهم منذ العصور السومرية وكانوا في نفس الحالة الاجتماعية والسياسية التي عاشها اكراد اليوم من تجزّء، وماذا نتوقع من بلاد غير مركزية؟.. الطابع العام لسكان زاگروس كان النزوح التدريجي الى الخارج اما على شكل دفعات قوية كما الكوتيين والكاشيين أو على شكل تغلغل ونزوح نحو الأقطاب الحضرية المحيطة.

الحدود الشمالية والشرقية من زاگروس لها حالة مختلفة. فهي المناطق التي كانت تأتي منها الأمواج البشرية الى زاگروس ثم تتغلغل الى الجنوب والغرب.. نسمع عن الاجتياح الكاشي للعراق نزوحا من جنوب زاگروس بعد دولة بابل الأولى. القليل منهم استقر في زاگروس ولا يعلم مدى تركهم لبصمات لغوية ودينية فيها. المرجح ان الذين استقروا لم يكونوا على علاقة وثيقة بمملكة كاردونياش اذ ان الذين نزحوا (كالعادة) غيّروا دينهم ولغتهم ما عدا اسمائهم. اقول ذلك كي يتحسس الكردي تاريخه مقارنة باليوم حين يرى ابن عمه يتجه الى خارج كردستان وخلال بضع عقود من السنين يسمع ان أحد أبناء ذلك المهاجر قد أصبح شخصا مشهورا في اسطنبول او طهران او... فيجلس هو واقرباءَه يتحدثون "لقد نسى أصلة مع الأسف. أه يا زمن"، الخ. تلك الحالة تتكرر على طول التاريخ وليس غريبا ان اسمع أكراد يقسمون الأيمان ان الرئيس الأمريكي السابق بل كلينتن يرجع أصله الى (قرية تابعة لمدينا)! وما فتحت الأفواه حتى تكرر نفس النشيد (الشاعر س كردي الأصل، والقائد ص كردي الأصل، الخ).

بعد الكاشيين نسمع عن الاجتياح الميتاني لشمال زاگروس في منتصف الألفية الثانية ق.م. دولة الميتانيين دامت وسيطرت لقرون حتى دار الزمان وأحتكر الآشوريون خطوط التجارة فتلاشت قوة الميتانيين. الميتانيون كانوا أول موجة قبلية آرية تندمج

بالسكان وتفرض لغة جديدة على أجدادنا الخوريين، وكان إندماجا جيدا كما يبدو فاسطنبول في ذلك الوقت لم تكن موجودة كي تسحب الثروة من مدن الأنضول وزاگروس.

هنا أود أن أوضح نقطتين للشباب الكرد فيما يخص كلمة (آري) السحرية والتي تتردد كثيرا بين بعض المبهورين بتلك الكلمة تصل حد الفضائح العلنية في بعض التلفزيونات. الأكراد حالهم حال شعوب الشرق الأوسط انبهروا بالنازية والكلام البراق عن (الآريين الشقر) نكاية بالإنگليز. لكن ارجو ان يفهم القارىء كون لغتنا آرية لا يعني ان بنات الألمان سيتهافتون عليك أول ما تصل الى فرانكفورت! ثم ان الإنگليز آريين ايضا. وان نفس الجيل الذي عبد هتلر، انقلب الى عبادة ستالين. واخيرا، ان عيونك السوداء لن تزرق بمجرد قولك بانك (آري) والله لا ادري ما اقول؟

النقطة الثانية هي الفروسية التي أشتهر بها الميتانيين وكل ما يتردد في مخيلة المراهقين بأن "أجدادنا كانوا فرسان آريين عظماء،، الخ". حسنا أيها الفارس العظيم، هل انت مستعد لتأكل لحم الحصان وهل تمد رأسك الى ما بين فخذي الفرس ترضع من حليبها مباشرة كالمهر؟. المغول وقوزاق مثلا كانوا ينامون على خيولهم وعندما يجوعون يشربون من حوالب الفرس كأنهم يرضعون. اما اذا كان ذكرا (فماذا يرضعون؟) كانوا يثقبون وريد رقبة الحصان ويشربون منها الدم Fresh. أي فروسية وعنتريات تتحدثون عنها في مدن مثل اربيل ودهوك والسليمانية؟ ان ثقافتنا الحضارية الناشئة عبارة عن كلمتين "أحم أحم، عيب، لا تنطق، حرام، لا تتحرك" فأين الفروسية.. أيغالا في أيقاض المراهقين من نومهم، أقول ان المغول وقوزاق والهنود الحمر ارتبطت قوتهم بخيولهم فقط وكانوا يفتقدونها لحظة نزولهم من الحصان. اذ ان المغولي لا يحتمل ما يحتمله التركي والآشوري والروماني كمشاة ممتازين وحراس يقفون على باب المعسكر ٣٦٥ يوم في السنة تجف فيها كل قطرات الأدرينالين من دماء الفرسان ويفقدون كل رغبة في الحركة. تيمور لنك مثلا، كان مغوليا في مرحلة التتريك، اول ما قام به ان سمّم الخيول في مدينته فأنهارت قوة العشيرة المغولية التي كانت تسيطر عليهم. فما قولك الآن؟ هل تتمنى ان تكون ذلك الميتاني (الفارس الآري) ام تفضل حياتك الحالية امام التلفزيون والكومپيوتر والمارسيديس وتدرخ وتنفذ ثم تستلم الراتب؟.

الخيول والبغال استعملت على طول التاريخ لكنها لم تدخل التراث القومي للزاگروسيين كما دخل الجمل في تراث العرب أو كما دخل الحصان في حياة المغول والقوزاق لأن أكثرية العشائر تعيش في مناطق غير منبسطة كصحارى العرب وسهول وسط آسيا. طبعا مازلنا نسمع عن الآغاوات والأغنياء كانوا يتفاخرون بخيولهم كما يتفاخر أثرياء اليوم بسيارتهم، لكن نظرة بسيطة لكل تلك الأقمشة والزينة التي تزين المرأة الكردية تدلنا مباشرة انها لم تصنع لركوب الخيل.. يا اخي أصحى من الاحلام فكما انت تشمئز من رائحة الخيول، هكذا كانت نظرة الفلاح الزاگروسي للفرسان الميتانيين الذين ناموا وعاشوا على صهوات خيولهم ورضعوا من حليب ودماء الخيول.

الموجة التالية كانت الموجة الميدية في القرن الثامن والسابع قبل الميلاد وسأركز لاحقا على موضوع الميديين. هم اجتاحوا جنوب كردستان فقط ومازالت لغة الگوران حية في كردستان.. أخيرا، كانت الموجة النهائية في الاجتياح الكرمانجي لزاگروس بعد انهيار الإمبراطورية الساسانية في القرن السابع للميلاد.

بصورة عامة لدينا إشارات قليلة جدا عن تاريخنا واكثر الحوادث سجلت من قبل غير الأكراد وبعضها كان عن طريق الصدفة. لكن الحاضر مرآة الماضي، بالمقارنات والتقريب يمكن لنا ايضاح معالم ما كان يدور في زاگروس منذ القدم.. سأبحث في ثلاث حالات من التاريخ دونت عن أناس زاگروسيين. أولهما عن كتيب صغير اصدره الاستاذ مصطفى جواد عن جاوان (گاوان) احد القبائل الكردية التي نزحت الى العراق وذابت هناك. الحادثة الثانية ما سجله زينوفون الأثيني عن مشاهداته في بلاد زاگروس. الثالثة قصة الزنديين وحكمهم لإيران في القرن الثامن عشر.

الگاوانيين في الحلّة

يتحدث الاستاذ مصطفى جواد[1] عن ان تلك القبيلة لعبت دوراً سياسياً وعسكرياً في نهاية العصر العباسي. سنروي ما يقوله بإختصار شديد وكما يلي: ان گاوان كانوا قبيلة كردية سكنوا منطقة گرميان (جنوب كركوك) ونزحوا تدريجيا الى السهل الرسوبي واستقروا في منطقة بابل الحالية وكانوا من مؤسسي مدينة الحلة.. الرحالة الشهير ابن بطوطة زار الحلة ودوَّن عنها ان أهل الحلة من الشيعة الأمامية وينقسمون الى قسمين، القسم الأول الأكراد والقسم الثاني يدعون (أهل الجامعين) والقسمين يعيشون في نزاع دائمي.

يتحدث بعدها عن العهد الألخاني ويقول ان شخصا يدعى شهاب الدين جاء من الحجاز وتقرب من بهادر خان حفيد هولاكو، ومارس كل انواع الشدّة ضد أهل الحلّة، فإزداد أتباعه فيها. لما مات بهادر خان قتل الوالي ونصب نفسه مكانه وظل هناك يجبي الضرائب ويظلم الناس لمدة ثمانية سنوات. بعد ذلك ظهر حسن بزرگ بجيش كبير هجم على الحلة من منطقة الأنبار. فتفرق عنه اتباعه ولجأ شهاب الدين الى الگاوانيين. الگاوانيين عطفوا عليه وأقسموا له ان يدافعوا عنه حتى النهاية، لكنه لم يأخذ برأيهم وسلم نفسه الى حسن بزرگ الذي عذبه بشده وأخذ منه الأموال ثم قتله.

الآن وقبل كل شيء لنلاحظ وضعّية العراقيين بصورة عامة:

١- الموما اليه جاء من الحجاز ومات في العراق. انها حالة متكررة.

٢- اهل الحلة كانوا حضر لكن متقولبين في كتل وكل الكتل الحضرية كانت تحكم من قبل سلطة عسكرية.

٣- الشخص المذكور كثر أنصاره عندما بدأ يتشدد على الناس!.. ثم تفرق عنه انصاره أول ما ظهرت قوة أخرى!. هذا هو حال العراق.

٤- القوة التي حاصرت الحلّة سلكت طريق الأنبار نزولا مع الفرات.. طالما ذكرنا منطقة الاحتكاك (البدوي-الزراعي) والهجمات الدائمية من منطقة الأنبار الى السهول الشيعية الواطئة. آخر مرة كانت في إنتفاضة ١٩٩١.

٥- العناصر القومية المذكورة هم مغول وعرب وكرد، ثم تأتي قوة تركية (حسن بزرگ)

(١) مصطفى جواد، جاوان القبيلة الكردية المنسية. المجمع العلمي العراقي ص ١٦ .

تجتاح كل من سبقها.. شيء لايمكن ان يتخيله القاريء بسهولة عن سبب طغيان العنصر التركي في الشرق الأوسط حتى على العنصر المغولي. يكفينا القول ان عملية التتريك كانت تجري في آسيا الوسطى في مراحل كان المغول يحكمون الترك. قد أقدم بحث خاص في المستقبل عن القبائل المتحولة أو ذات المرحلتين.

و الآن لنتحدث عن الگاوان ونستشف بعض النقاط الخاصة عنهم.

١- الگاوانيون طوال فترة بقائهم في المناطق الكردية ما فتؤوا يتقاتلون مع القبائل المحيطة بهم أكراد وغير أكراد. وهذا دليل آخر على ضعف أو انعدام الشعور القومي.

٢- الگاوانيون نزحوا الى العراق وخلال بضعة أجيال استقروا في السهول الزراعية (الشيعية) وشاركوا في تأسيس مدينة جديدة وعاشوا حياة حضرية يدفعون الضرائب وما الى ذلك. أي ان الگاوانيين كرروا ما قام به الكاشيين والكوتيين قبلهم بآلاف السنين من عمليات الأنجراف الدائمي.. من جهة اخرى، اعتقد ان تحولهم الى المذهب الشيعي دليل قاطع على تحولهم الى الحياة الزراعية ونبذ البداوة.

٣- الإنتماء القومي والقبلي عندهم تحول الى إنتماء على نطاق (محلة في مدينة).

٤- عند تفرق جماعة شهاب الدين عنه ولجوئه اليهم أقسموا له ان يدافعوا عنه مع انهم لم يلقوا منه سوى الظلم.. اني اتساءَل هل من الممكن ان تكون لعنة ما اصابت اجدادنا كوننا أكثر الأوقات نراهن على الحصان الخاسر؟.. والأنكى ذلك ان شهاب الدين نفسه لم يكترث بوعودهم، بل يبدو انه فضل الاستسلام والموت على ان يتحالف معهم. لا اعتقد ان شخص طماع ووصولي مثله يسلم نفسه للموت في سبيل سلامة جماعة ما. الاحتمال الأكبر هو انه نفر من الگاوانيين وفضّل ان يجرب حضه مع حسن بزرگ.. ترى لماذا لا يتحالف معنا أحد؟. كل الظروف السياسية اليوم في كردستان العراق تحث الأطراف على التحالف معنا مع ذلك نرى التركمان في كركوك مثلا مستعدين للتحالف مع الشيطان ألاّ مع الأكراد. هل يوجد سبب خفي؟ هل ان اشكالنا قبيحة؟ هل نحن مرعبون لهذا الحد؟

قبل ان نرى عيوب الآخرين لنرى عيوبنا التي يراها باقي البشر وقد لاحظت تصرفات الكرد مع باقي الناس في أوقات لم يكتشفوا فيها اني كردي مثلهم مع اني

كنت أقرأ البروفايلات المدينية والسياسية واللهجوية من الدقائق الأولى من التعارف. لو كان الكردي لوحده أو كانوا عائلة واحدة فقط في مجتمع غريب، أوروبا على سبيل المثال، سيكونون أناس ودودين ويعملون بنشاط. لكن ما ان تصل أعدادهم الى وحدة انتمائية (مجموعة أشخاص وعوائل) ستبدأ التحزبات والمشاكل على الفور.. حادثة رواها شاهد عيان عند شابين في أوروبا تشاجرا بسبب المناقشات التي لا تنتهي حول KDP وPUK تدخل أصدقائهم وانصرف احدهم الى خارج البناية، لكن صادف ان يتعرض الى شجار آخر مع شخص غريب. المفاجأة كانت ان خصمه نزل بسرعة البرق وأنهال بالضرب على من كانوا يتشاجرون مع (خصمه السابق) دون ان يسأل عن ما يجري، يا أخي ما هذا وما ذاك!. في الجامعات مثلا، كنا نحتل احد اركان نادي الكلية كأننا حزب معارض. اما اذا زادت الاعداد فكانت الإنقسامات تبدأ على الفور حسب المدن، ثم تبدأ بلورة سياسية. فاذا كانت المجموعة الأولى بتيار مدني ستتحول المجموعة الثانية على عناد المجموعة الأولى الى إسلاميين متعصبين، والمجموعة الثالثة تتحول شيوعيين متعصبين على عناد المجموعة الثانية وهكذا حسب الموديل والويل لمن يقف في الوسط فالكل يعتبره (شبه خائن)!

الحالات اعلاه لا تعدو عن تلك القاعدة العربية التي تقول (انا وأخي على ابن العم... الخ) فالإنسان في حالة دائمية من تحالف مع شخص ضد شخص آخر، وهي حالة جلاتينية، تكبر اذا كان اللامنتمي في مواجهة قوم غريب، وتضيق حال اختفاء الغرباء فيظهر غرباء آخرون على الفور لأن الإنسان نفسه يقرر بأن فلان غريب حسب اللهجة والمدينة والعشيرة. اما عن المشاجرة التي ذكرت، ففي القرون السابقة كان الكردي يقف بكل صراحة مع أي غريب ضد الكردي الآخر (كما سنرى من تاريخ عشيرة زند في إيران) اما اليوم فان الإنتماء القومي هو في منتصف الطريق والشباب حائر بين ما يسمع وما يشعر.

زينوفون والكاردوخيين

بعد مؤامرة تيسافرنيس (قائد الفرس) واعتقاله الجنرالات الخمسة واثناء الأنسحاب الإضطراري والأشتباكات المتقطعة مع الفرس، يروي زينوفون انهم وصلوا الى مدينة تدعى ميسكيلا أو ميسيلا (Miscilla) يمكن ان تكون الموصل. ثم تابعوا المسير شمالا على الجانب الشرقي من دجلة لعدة ايام حتى يصلون منطقة تلتقي فيها الجبال بنهر دجلة حيث يحصرون بين دجلة والجبل..

استفسر الأغريق من الأسرى المحليين، فأخبروهم ان الجهة الأخرى من الجبل يعيش فيها الكاردوخيين وهم أعدا للفرس وتحدثوا عن جيوش فارسية دخلت تلك الجبال ولم يرجع منهم احد. الأغريق فكروا ان يكسبوهم كحلفاء أو على الأقل يسمحون لهم بالمرور.. لعل الفرس كانوا قد خططوا لذلك وقد رأوهم يهربون عبر الجبل كأنهم يقولون لهم ضاحكين (أكلوها)!

الجيش الأغريقي ينطلق تحت جنح الظلام وتصل طلائعهم الى قرى الكاردوخيين فجرا، فيهرب السكان فورا الى الجبال. الجنرالات أمروا جنودهم بعدم المساس بالبيوت والممتلكات كبادرة حسن نيّة، ثم نادوا على الكاردوخيين عن طريق مترجم يخبرونهم أنهم أعداء الفرس ولا يريدون بهم شرا، لكن الكاردوخيين لم يبدو إستجابة.. عبور الجيش استغرق النهار كله وما ان حل المساء وأقتربت مؤخرة الجيش من القرى حتى تجمع الكاردوخيون وهاجموا المؤخرة فأسفر الهجوم عن قتلى وإصابات كثيرة وكما يقول زينوفون ان من حظ الإغريق ان أعداد المهاجمين كانت صغيرة والا كان من الممكن ان تكلفهم مؤخرة الجيش بالكامل.

من هنا تبدأ الأشتباكات ولمدة أسبوع كامل يكاد الأغريق ان يندموا على قرارهم بالهرب الى بلاد الكاردوخيين فيروي ان خسائرهم في ذلك الأسبوع زادت عن كل الخسائر التي تكبدوها في المواجهات السابقة مع الفرس بضمنها معركة كوناكسا والمذبحة التي راح ضحيتها الجنرالات ومئات الجنود في مؤامرة تيسافرنيس، وما تنفسوا الصعداء إلا عند وصولهم لأول منطقة سهلية أطلق عليها زينوفون اسم ارمينيا الغربية.

الكاردوخيون[1] لم يكونوا وحوش وبدو (كما يحب البعض ان يربط كل ظواهر التخلف بالبداوة). بالعكس، ما رواه زينوفون عن بيوتهم والآثاث الراقية وارائك بأرجل برونزية، كذلك مقادير الشراب (الخمر) والعسل والأطعمة فاقت كل ما رآه في باقي البلدان، وان مجرد ذكر شراب العنب المخمر تدل على وجود براميل للتخمير وكروم واقتصاد مستقر. لقد كانوا قرويين مع ذلك ما نطق الكاردوخيين بكلمة واحدة للتفاهم معهم أو الاستعلام عن هويتهم وغايتهم بل هربوا رأسا الى الجبال وبدأوا القتال من أول فرصة وحتى آخر فرصة. فهل من دليل أكبر على الـ Xenophobia (الخوف من الغرباء) حتى اسلوبهم في القتال لم يكن بإشتباك مباشر، بل كان أسلوب الكر والفر واستعمال المقالع والأقواس ودحرجة الصخور.. زينوفون يروي أحضاره اثنين من الأسرى لإستعلام طريق الخروج. الأسير الأول لا ينطق بكلمة واحدة حتى يموت، أما الثاني الذي يرى ما حصل لرفيقه فينطق، وهي أول مرة ينطق فيها احد الكاردوخيين. يخبرهم ان الأسير الأول زوج ابنته مؤخرا الى شخص من قرية تقع على طريقهم، لذلك لم ينطق.. حادثة مثل هذه قابلة ان يحولها الماسوشيين الى ملحمة تاريخية نندب ونبكي عليها كالبكاء على مقتل الحسين لمدة قرون. لا أحد يدافع عن الأغريق، فهم كانوا مقاتلين مأجورين لا أكثر ولا أقل. لكن هل يبرر ذلك كل هذا التخلف وعدم الرغبة في المسايسة أو مجرد التحدث؟

كانت هناك حالات معاكسة تمام العكس لمواقف الكاردوخيين. ففي قرى ارمينيا

(١) لا يستبعد ان يكون الكاردوخيين أجداد اللأيزديين، حيث ان الزردشتيين في منطقة بهدينان اعتبروهم عبدة الديّو بدليل إطلاقهم اسم (بهدينان، أصحاب الدين الجيد) على أنفسهم وأطلاق اسم داسني (ديَو يسنة في الأصل) على الأقليم شمال غرب بهدينان قد تكون نفسها كاردوخي. كلمة ديّو كانت تستعمل بمعنى إله وان بقاياها ومرادفاتها في اللغات الأغريقية واللاتينية كثيرة جدا مثلا (Deo، Diable، Devil، Theo، Theology، Theocracy) ثم كلمة دياوس الأغريقية التي تحولت الى طاوس واصبحت رمزا مقدسا لدى الأيزيديين. الزردشتيين اعتبروا الديّو من قوى الشر وخلقوا في مقابلها Pery (ملائكة) ثم وضعوا آهورا مزدا فوق الكل.. المقطع الثاني (يسن) بمعنا عبادة، تحولت الى ياء فيها الى جيم فأصبحت (جسن) ثم (جژن) بمعنى (عيد). بالمناسبة عندنا كلمة منفردة لا احد يعرف معناها سوى انها شتيمة (نا جسن). قد تكون بمعنى (عديم الأيمان). أقترح استعمال (ناجسن) بعنى (ملحد) بدل مما اقترحه مسعود محمد من استعمال كلمة (بێ خدا).

الغربية النساء استقبلوا الجيش بطريقة اعتيادية جدا دون فزع حتى انه يذكر ما يدل على ممارستهم الجنس مع بعضهن بدون ان يركز على الموضوع كأنه شيء ثانوي. سيد القرية كان تابعا لحاكم أسمه تيريبازوس من الأتباع المخلصين لملك الفرس. لكن العمدة خدم الجيش الأغريقي متّقيا شرهم ثم خرج معهم يدلهم على الطريق سائرا معهم في الثلوج لأربعة أيام ثم فر عائدا الى قريته تاركا معهم ابنه كرهينة. اي انه تحمل كل تلك الإهانات ثم ضحى بأحد أبنائه في سبيل باقي القرية.. بالمقابل كان هناك شعوب اكثر شراسة من الكاردوخيين. الخاليبيين Chalybes مثلا في شمال أرمينيا كانوا فرسان اذاقوا الأغريق ضربات موجعة كرا وفرا وكانوا يقطعون رؤوس القتلى ويرفعوها على الرماح ويغنون على مرآى من الجيش الأغريقي.. من جهة يذكر الطوخيين Taochi كانوا اشد من الكاردوخيين في التقوقع والزينوفوبيا. كانوا يسكنون في قلاع جبلية لمّا استولى الأغريق على أحداها قاموا جميعا، رجال ونساء وأطفال، برمي انفسهم الى الوادي وماتوا جميعا.

هنا نصل الى إشكال أخلاقي، هل ان الكاردوخيين كان أمامهم خياران فقط بين ان يقاتلوا حفاظا على اعراضهم (كما فعل الطوخيين) أم يستسلموا للأغريق في ذل لا يطاق (كما فعلت القرية الأرمنية)؟ الجواب ان الأمر لم يكن بتلك القتامة. الأغريق تعاملوا بصورة طبيعية مع كل القرى والمدن التي مروا بها ابتداءا من الأنضول مرورا بسوريا والعراق ثم سواحل البحر الأسود. فهل أنهم هتكوا نساء الشرق الأوسط قاطبةً؟ طبعا لا.. بعض الناس قدّموا أموال وأغذية وتخلصوا من هؤلاء الجياع. آخرون (استأجروهم) كقوة مقاتلة ضد اعداء لهم، فقدموا لهم أغنام وثيران وشرط ان يقوموا بهزيمة اعداء لهم وهكذا حتى انهم طلبوا ان يمارسوا الجنس مع النساء المرافقات للجيش الأغريقي ولا يذكر هل رضى الأغريق بذلك أم لا.. أي ان الموقف لم يكن بتلك الحدية وان الكاردوخيين أظهروا إنطواءً وعدائية ضد العدو (الفرس) وضد عدو العدو (الإغريق) وحتى ضد الأرمن بدليل عدم وجود قرى في السهول القريبة من جبال كاردوخي بسبب غارات الكاردوخيين كما بين زينوفون. فهل يجب علينا ان نعادي كل البشرية إلاّ الجبل؟.

في السابق كنت امتلئ فرحا حين أسمع عن (شجاعة) الكاردوخيين، لكن لما قرأت مذكرات زينفون، علمت مدى التشويه الذي نعرض أبناءَنا له. الصفة الرئيسية

للكاردوخيين ليست الشجاعة بل الإنطواء والزينوفوبيا والعدوانية ضد كل غريب. من الجدير بالذكر ان كاردوخيين يرد ذكرهم بعد تلك الحادثة بخمسة قرون ونصف (عام ١٥٠ ميلادية) يذكر القس مشيخا زخا انهم نهبوا اطراف الموصل لكنهم انسحبوا فجأة بسبب تعرض قراهم لإجتياح من قبل قبائل أخرى. تلك الحادثة لا تضيف شيئا للإنطباع العام عن الكاردوخيين ومع كل الأسف.

لنركز على بعض الحقائق الديموگرافية والأثنية لبلاد زاگروس في نقطتين مهمتين.

أولا- أورمية والموصل

كلام زينوفون يدل على ان الكاردوخيين لم يعيشوا في السهول بل خلف الجبل المماس لدجلة وان كل بلادهم جبلية وعرة وعند اول منطقة سهلية يتغير اسم البلد من كاردوخي الى ارمينيا. أي ان الكاردوخيين كانوا يعيشون على بعد خطوات من أهم مراكز الحضارة العالمية في ذلك الوقت. لكن تصرفاتهم تدل انهم كانوا منقطعين عن العالم ومايدور فيه.. النقطة التي اود ايضاحها هي مشكلة الأكراد مع المناطق السهلية والمدن الكبيرة (ميترۆپۆليسات) ومع النظام بشكل عام.

لو اخذنا خرائط توزيع الأكراد في الشرق الأوسط سنلاحظ المنطقة الممتدة بين مدينة الموصل في العراق ومدينة أورمية في إيران تبدو كأنها منطقة تخصر والمدينتان على تماس مباشر مع الزاگروسيين منذ الأزل، ويا لكثرة الاحصاءات التي تنتشر هنا وهناك عن وجود كذا الف من الأكراد في الموصل يزيدون وينقصون حسب العصور، لكن ما سمعنا أبدا أن الموصل او أورمية حكمت ولمدة قرن واحد متواصل من قبل أي جماعة من الزاگروسيين (اكراد، كاردوخيين، خوريين، ميديين، ميتانيين، أي اسم كان).. طبعا ستأخذنا العواطف ونثور ونلعن. لكن مهلا، سأحل المعضلة وانا متأكد انه اذا لم يستفد القاريء، فأنه لن يخسر اكثر مما خسر. زيارة بسيطة الى أكراد إيران توضح لنا حقيقة اننا لن نجد فيها أي مدينة أو حتى بلدة تتحدث بلهجة قبائل الشمال (عشائر الشكاك وعدد آخر من العشائر الناطقة باللهجة الشمالية) ينتشرون من نهر آراس الى أطراف ارومية وشنو (أشنوية) لكن ما من مدينة يسودون فيها. بينما نرى ان الموكريان (زراعيين وانصاف حضر) يسودون في مدن وبلدات وقرى تمتد من مئات الكيلومترات الى الجنوب حتى بوكان وسقز وبانة وحدود أمارت اردلان القديمة

(محافظة كردستان، سنندج، ذات اللهجة الخاصة بها). فهل هناك مؤامرة صهيونية على قبيلة شكاك، أم ان الأمر يعود لأنتمائهم العشائري؟

الموكريان أيضا تعصبوا الى قبيلتهم ولم يخالطوا اي بشر حتى عمل فيهم السيف على يد الصفويين وكانت فاجعة مازالت ذكراها تتردد. لكن ألا يحمدون الله انه منذ ذلك التاريخ بدأوا ينسلخون من تكتلهم القبلي (ولو بتدرج بطيء) فتراهم اليوم يفرضون هوية كردية أصيلة في عشرات المدن والبلدات وآلاف القرى دون الحاجة لإستعمال الخناجر والبنادق. طبعا عندهم عصبية مدينية، وهم أيضا لم يصلوا الى السهول المنبسطة. فمدينة نغدة مثلا على صغرها تحولت Forium تركي صغير. لكن لا بأس، فهم بكل الاحوال أحسن من القبائل الشمالية. فالشُكاك لم يكسر تكتلهم القبلي الا في بداية القرن العشرين مع الإغتيال الدرامي لزعيمهم سمكۆ. والآن، شاءوا أم أبوا انهم سيمرون بعملية تمدن. فإذا إستمروا على التعصب للقبيلة واللهجة، سوف لن يبقى لهم حتى القرى التي يعيشون فيها اليوم. أما من أنقلب منهم الى الحضارة فليس أمامه إلاّ المدن الناطقة بالتركية او بالكردية السورانية (مع ملاحظة ان تغيّر اللهجة بالنسبة الى الكردي القح يعتبر انسلاخ قومي كامل). والله أعلم، هل ان الموكريان سيتقبلوهم كما يتقبله التركي والفارسي؟ أم انهم سيقولون للشكاك (انتم لستم مِنّا) فيسارع الشكاكي الى التفرس والتترك؟

ثانيا- ميديا

زينوفون في مسيرة العودة شمالا على الجانب الشرقي من دجلة لايذكر الفرس لكنه يذكر الكثير من المدن والقرى كانت مسكونة أو هجرة من قبل الميديين. أما الكاردوخيين فكانوا شعبا منفصلا تمام الانفصال عن الفرس والميديين على حد سواء.. مع أني لا أعير أهمية كبيرة لمسألة (من أي شعب ننحدر) لكن كمعلومات تاريخة علينا ان نسأل هل نحن فعلا من نسل كي خسرو واستياك (الضحاك) كما قال الشاعر دلدار نشيدنا القومي (أي رقيب)؟ اذا كان كذلك لماذا نحتفل في نوروز بمقتله ولماذا كان تهافتنا كباقي الشعوب الى استقبال (كاوة) للخلاص من استياك؟

قبل ان ندخل في موضوع ميديا الغامض، أود ان يطّلع القاريء على هذا الشكل التوضيحي. انه يتعقب بأداتين لغويتين تميزان بين محورين رئيسيين لإندفاع الأقوام

نحو الشرق الأوسط. محور خراسان، ومحور القفقاس.. لغة الگوران لها خصائص مختلفة تماما عن اللهجات الكرمانجية واللور. انهم مثل الفرس يستعملون البادئة مي Me كما في مي كنم (أفعل) الگوران يقولون Mekeru. بينما الكرمانجية تستعمل De مثل Dekem (أفعل) ويبدو انها امتدت الى عرب العراق

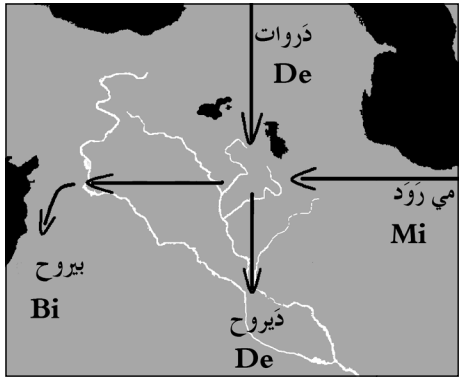

فهم يقولون (دَيمشي، دَينام، دَيروح) وهي تختلف عن الباء في الشام ومصر كما في (بيمشي، بيموت، بيغني) الشبيه بالميم الفارسية فالباء والميم تتبادلان في الكثير من الاحيان.

بالإضافة لما سبق، الگوران ينفردون عن باقي اللغات الآرية بان أفعالهم لا تنتهي بالدال أو التأء، بل تنتهي بالواو. مثلا ملو Melo (يذهبُ) او مواچو Mewacho (يقولُ) مكرو Mekero (يفعلُ) نلاحض الضمة والواو في نهايات الأفعال. بينما الأفعال الإنكليزية تنهي بصوت d أو t مثل talked، paid، bought، والفارسية مي كنَد، مي رَوَد، مي خُرَد. والكردية دَكات، دَخوات، دَمريت. أو الأفعال الماضية بُرد بمعنى أخذ وكِرد أي (فَعَلَ) كما الإنكليزية Did.. انها جميعا تنتهي بحروف الدال أو التاء الساكنة كعلامات لفعل ما. أما لو قارننا بين جملتين من الإنكليزية والكرمانجية (Ez dewet . I do want) انهما متطابقتان في الهيكل ودال في البداية والتاء في نهاية الفعل. وان تلك الدال المفتوحة (De) هي نفسها (Do) الإنكليزية.. القصد هنا ان الگوران ينتمون الى المحور الخراساني أما الكرمانجية أعتقد انها انحدرت من محور القفقاس. وسيتم شرح الدلائل والخلفيات التاريخية ادناه، مع ان هناك نواقص كبيرة في التوثيق يجعلنا نخمن ونناقش المعالم فقط.

في عصر الاجتياح الميدي زاگروس أحتوت على مجموعة إتحادات عشائرية إقليمية Provencial مثل زاموا (تحولت لاحقا الى إمارة بابان) وموساسير (تحولت لاحقا الى إمارات سوران وبهدينان) ومملكة ماني (موكريان الحالية) وهم جميعا تحالفوا مع آشور ضد الميديين.. يجب ان نفهم مواقفهم في وقتها عند بروز قوة جديدة بلغة آسيوية

لم يسمعوا بها. سكان زاگروس لم يتحدوا مع آشور وبابل وحتى مع بعضهم البعض فكيف نتوقع ان يتقبّلوا الميديين بتلك البساطة؟. الأرجح ان قدماء الزاگروسيين تجنبوا الميديين ورفضوا الوحدة والمركزية والذوبان القومي واللغوي. بينما سكان اذربيجان انقلبوا بسرعة الى اللغة الميدية وساندوهم ضد عشائر زاگروس (نفس ما حصل في العهد السلجوقي والعهد الصفوي الأذربيجانيين ساندوا كل حكومة جديدة بينما العشائر عارضوها).

لابد ان إنتصار الفرس على الميديين لاقى إستحساناً فالفرق بين الميدي والفارسي كما اسلفنا كان كالفرق بين الجلائريين (قبائل حاكمة) مقارنة بالعثماني (عوائل مالكة بأطروحات اممية). مع ذلك الأرجح ان الميديين في اذربيجان ضللوا العنصر المفضل في الجيوش الفارسية (حالة مشابهة للموقف الأذربيجاني اليوم من الدولة الإيرانية) وبدليل ما يرويه الأغريق على اعتبار الفرس والميديين أعداء تقليديين للإغريق وتواجد قادة ميديين على رأس الجيوش الفارسية (فراورتيس الميدي الذي غزا اليونان في ٥٠٠ ق.م). بينما الميديين الذين استوطنوا غرب زاگروس (ديالى وكركوك واربيل) كانوا اسرع الى الانفصال. لقد فرضوا لغتهم على زاگروس لكن فقدوا تلك الروح الموالية للدولة وبدأت تطغى عليهم روحية تعدد الإنتماء والثورات والإنقسامات حالهم حال كل من عاش على أرض غير مركزية مثل زاگروس. بعبارة أخرى، الميديين فرضوا لغتهم على زاگروس لكن زاگروس فرضت طبيعتها الانفصالية عليهم.

سأعطي أبسط مثل على الإختلاف النوعي بين توجهات سكان أذربيجان وسكان زاگروس. مدينة اورمية يعود اسمها الى المصدر السومري (أور) بمعنى (المدينة) كذلك الكلمات اللاتنية مثل Urban Urbanize Suburban. المهم، في بداية القرن العشرين تم تغيير إسمها الى (رضائية) نسبة الى رضا شاه الپهلوي. اتذكر الأكراد كافة يصرون على ذكر الاسم الأصلي نكاية برضا شاه. لكن بعد الثورة الإسلامية في ١٩٧٩ أعيد استعمال الاسم الأصلي والمفاجأة ان الأكراد بدأوا يستعملون اسم رضائية وحتى اليوم!!! اذن هي طبيعة معاكسة للدولة والمركزية و(الغرباء).. بعكس الكرد نرى العجم (الأذربيجانيين) يتبعون أوامر الدولة، أخطؤا أم أصابوا. فلو غيّر الفرس اسم أورمية اليوم الى (موزنبيقستان) لسمعت العجم يستعملوها بدون مناقشة. هو نفس ما حدث في يومها بين الميديين الذين اندمجوا بالدولة الفارسية والذين اندمجوا بزاگروس.

أحدهم في حالة رفض دائم للدولة والتوحيد، والآخر يرفع شعار (لبيك ثم لبيك) بدون أي تردد. لعل المثال السابق يوضح فروقات الثقافة والإنتماء، ولنرجع الى العصور القديمة.

كيفية تقبل الخوريين للميديين والذوبان في لغتهم الجديدة، اعتقد انها حصلت بالتدريج إذ بدأ نوع من التآلف مع الميديين، حالة شبيهة بتعاطف الگاوانيين مع شهاب الدين بعد ان هُزِمَ، كأن الحال من الحال وكل يشتركون في كرههم للحكام. مع ملاحظة ان الخوريين واللوبيين كانوا أقدم شعوب زاگروس (بمعنى انهم اكثرهم تهافتا الى ثقافة شابة). بذلك طغت اللغة الميدية في أكثر مناطق كردستان العراق وإيران وكان لهم امتدادات الى الأجزاء الغربية من زاگروس كالزازا[1] وانقرضت اللغات الزاگروسية القديمة مع بقاء مجموعة من المفردات اللغوية.. من الجدير بالذكر ان لغة الگوران كانت اللغة الأدبية الوحيدة التي اعتبرت لغة كردية معترف بها حتى فترات متأخرة جدا ومازالت لها بعض القدرة التنافسية في ميادين الأدب والغناء والدين.

آخر مرة يذكر فيها الميديين كشعب يحمل هذا الاسم كان في عام ٢٢٠ ميلادية عند ثورتهم في كردستان العراق ضد أردشير الساساني وقد تحالفوا مع السريان وسحقوا جميعا من قبل الجيش الساساني، بعدها يختفي ذلك الاسم القومي وتسود فترة شبه مبهمة عن هوية سكان زاگروس ويطغى الاسم السومري القديم (كوردو) وتطلق مرة أخرى على سكان زاگروس بكل مكوناتهم. اما كيف أطلق عليهم اسم گوران فهذا ايضا غير معلوم.

في فترة ما قبل الإسلام، نسمع عن تهافت سكان غرب زاگروس (السريان والگوران على حد سواء) على الأديان الآتية من الغرب. لقد تقاربوا كثيرا مع السريان (أعداء الأمس) واعتنقوا اليهودية في امارة (أديابين) وأصروا عليها ثم تهافتوا على أول إنتماء أممي (المسيحية) فتنصروا ونسمع عن السيدة (يزدان دُخت) أنها ساعدت المسيحيين في اربيل، وإشارات من هنا وهناك كالأضطهاد الفارسي للمسيحيين ودلائل أخرى على عدم استساغة سكان غرب زاگروس عموما للأديان السياسية الفارسية. مسعود محمد كان يعتقد ان الزردشتيين في كردستان أمتلكوا فكرة مستقلة عند الزردشتية

(١) حديث خاص مع الاستاذ شكور مصطفى.

الفارسية. وتوينبي يشير ان كهنة اصطخر كانوا يحاولون فرض الزردشتية الساسانية كدين (أوحد) للإمبراطورية، بمعنى إنجاز دمج كلي بين الدين والدولة والقومية واللغة وكل شيء، أي انه توحيد مبالغ فيه. فكيف نتوقع من سكان زاگروس التنازل عن استقلاليتهم وإنتماءاتهم الضيقة؟

الاجتياح الكرمانجي

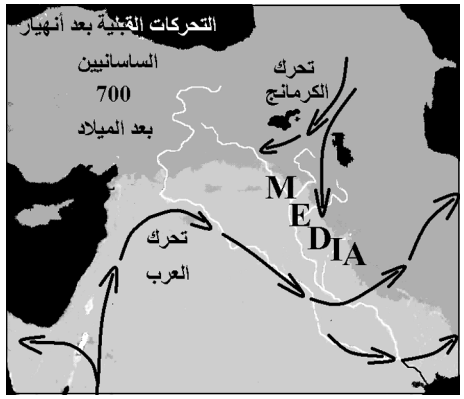

نصل الى آخر تغيير لغوي في زاگروس حصل بسبب الاجتياح الكرمانجي قام به أجداد الناطقين باللهجات الكرمانجية (القبائل الناطقة بالدال).. الاستاذ جمال رشيد يعتقد ان كلمة Kurmanj مشتقة من (كرد،ماد) أي أندماج بين الكرد والميديين، ويؤكد حدوث عملية تغيير لغوي جذري حصل خلال الألف سنة الماضية لكنه لايبيّن بالضبط نوعية ذلك التغيير[1].

أواقفه الرأي واعتقد ان التغير اللغوي كان عبارة عن إزاحة لغة الگوران من قبل اللهجات الكرمانجية.

لاتوجد دلائل مدوّنة لكن من المؤكد ان نهاية الساسانيين على يد العرب ازاح السدود من طريق القبائل وتدفقت تدريجيا من محوري القفقاس وخراسان. مسعود محمد كان يعتقد جازما ان الإسلام رفع من منزلة الأكراد من مواطنين درجة ثانية وثالثة الى مصاف الفرس وكل الحضر ان لم نقل الى مرتبة أعلى[2]. وبالفعل، الإسلام كان ردة

(١) د. جمال رشيد- ليكۆلينەوى زمانەوانى لە وڵاتى سوبارتو.

(٢) مسعود محمد كان يلاحظ انتشار فن غنائي راقي جدا خاص بالمنطقة المتموجة ابتداءا من بلدته (كۆى) التي اشتهرت بالماقامات الى كركوك وجنوبا حتى خانقين وبغداد. هي تختلف عن الغناء الكرمانشاهي والفارسي ذوات نبرات (الچهچهة) ويشمل الوان كثيرة من المقام العراقي إضافة لمقامات كردية وتركمانية منتشرة في ذلك المربع. وكان يعزو تلك الظاهرة الى إنسحاب الفرس من وسط العراق ومناطق كركوك غرب زاگروس بعد سقوط الساسانيين. لكني اعتقد ان الفرس لم=

فعل ذكورية على على المجتمعات الأنثوية والمتضررين كانوا الحضر اما القبائل والمجتمعات الأبوية فقد استفادوا من زوال الساسانيين. طبعا أكثر الميديين في تلك الفترة كانوا قد تحولوا الى الزراع والمدن مستسلمين للقوى الكبرى كالفرس والروم. والمقاومة البسيطة التي جرت في كردستان ضد العرب بدرت من شرائح الحضر (گوران، سريان، يهود، أرمن، الخ).

اذن، القبائل الناطقة بالكرمانجية استفادت من المدّ القبلي الذي قاده العرب وياما سمعنا ادعاءات الأكراد بأصول عربية، مثلا قبيلة خالدي ادعوا أنتسابهم الى خالد ابن الوليد مع ان خالد لم يتزوج وقد انقطع نسله!. انها لم تحدث لشيء الا بسبب التقارب بين الطبائع القبلية ومعاداة الحضر الذين قهرناهم وعسى ان لا يخدعنا تمدننا الحالي الذي لايمتلك من العمر اكثر من قرن. فما قولنا الآن فيما يقال عن الترك والعرب والاجتياحات العسكرية والقبلية للمناطق الحضرية؟. نحن ايضا ننتمي الى أحد تلك الاجتياحات العنيفة التي تتكرر على طول التاريخ. انا لا ادعوا الى معاداة التمدن بالعكس لكن قبل أن نسب ونتذمر ونزيد جرعات الماسوشية جزافا علينا ان نسأل (كين ام)؟.

اندفاع العرب الى العراق كان باتجاه وسط وجنوب العراق الحالي. لذلك من الواضح ان القبائل الناطقة بالكرمانجية استفردت بأذربيجان وزاگروس[1]. فلم يَبقْ للشعوب

= يسكنوا تلك البقاع أبدا، بل انهم الگوران حتى اننا الكرمانج نستعمل كلمة (گۆرانى) بمعنى (أغنية). اعتقد ان تلك الثقافة الموسيقية تعود للعنصرين القديمين في المنطقة أولا الگوران. ثانيا، السريان وقد كنت الاحظ ان مسعود محمد لم يأخذ في الحسبان تواشيح الكنائيس السريانية فلابد ان يكون لها دور رئيسي لا يقل عن دور المقامات الگۆرانية.

(١) اعتقد ان تلك الفترة بالذات وقبل الاجتياح التركي هي التي يشير اليها شرفخان البدليسي مدعيا ان أجداده الأكراد حكموا دولة واسعة مركزها في اذربيجان (راجع د. شمس الدين اسكندر- تاريخ الكرد في القرن السادس عشر- ترجمة شكور مصطفى من اذربيجانية الى الكردية. ص ٦٣). اعتقد انها كانت فترة فراغ سياسي وسرعان ما تبعتها الأمواج الآسيوية في إزاحة القبائل الكردية من اذربيجان ودفعها غربا الى زاگروس بالإضافة الى ما يمكن تصوره من ذوبان الكثير من القبائل (كردية وغير كردية) في المدن الأذربيجانية والفارسية وإنسلاخها عن جذورها، فهي حالات متكررة جدا وطبيعية. القصد هنا ان لا نتوهم عن ما نسمع من هنا وهناك في اننا في يوم ما كنا اجدادنا يحكمون تبريز، حيث ما نسمع مثلا أنه في فترة لاحقة، الأكراد الروادية حكموا تبريز. ان كل ما استغرقهم هناك كان ستة سنوات لا غيرها.

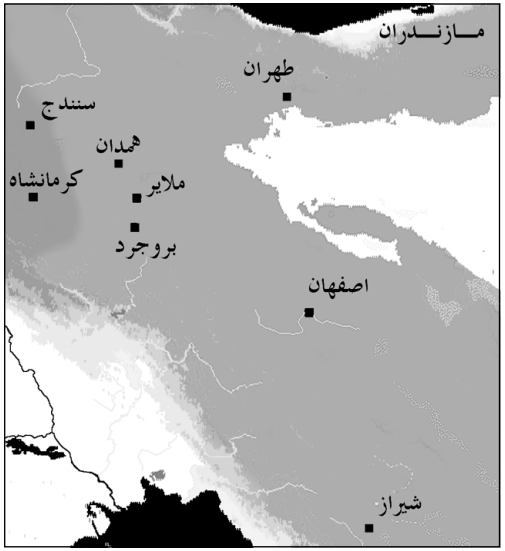

الحضرية غرب زاگروس إلاّ الأنكماش في جيوب معينة كبلدات وقرى منقطعة الواحدة عن الأخرى. الأمر أشبه بإنسكاب سطل من الماء فتتبلل الأرض ماعدا بقع صغيرة هنا وهناك. وهي قاعدة يمكن معرفة ميكانيزمها من خلال دراسة حالات مشابهة لها. فالمغول مثلا عند اجتياحهم آسيا الوسطى سيطروا على السهول (خطوط التجارة). أما العناصر القومية الأقدم كالتاجيك والسرت فقد انسحبوا الى قرى جبلية. يمكن اعتبار ذلك قاعدة عامة تكررت في زاگروس مع كل اجتياح قبلي، فكان السكان المغلوبين ينسحبون تدريجيا الى جيوب آمنة كما الگوران المتفرقين هنا وهناك، وهكذا. يبدو اننا الناطقين باللهجات الكرمانجية أذبنا كل العناصر غير الكرمانجية الساكنة قبلنا في زاگروس وجوانبها من سريان وگوران وامتد التاثير الكرمانجي في سهل اربيل مثلا حتى لامس دجلة اما في الغرب (كردستان تركيا) فحدّث ولا حرج.

الصورة وضحت أكثر، اللهجات الكرمانجية هي بقايا لغات الساكا أو الكيميريين التي عانى منها الميديين قبل قهرهم لآشور. وهم متواجدون منذ القدم في جنوب القفقاس والبحر الأسود لكن يبدو ان الحضر كالفرس والميديين والسريان والأرمن كانوا يشكلون حواجز بينهم وبين المدن الغنية في أذربيجان وفارس وشمال العراق.. هذا وان الناطقين بالكرمانجية، حالهم حال القوط والعرب، قد انتقلوا من بلاد غير مركزية الى بلاد أخرى ايضا غير مركزية فتفرقوا الى ما نعرفه اليوم من لهجات كرمانجية أكثر تنوعا من الگوران. ولم يتم استعمال اللهجات الكرمانجية في الأدب إلاّ في فترات متأخرة جداً جداً (احمد خاني قبل أربعة قرون بالنسبة للكرمانجية الشمالية ونالي قبل قرنين بالنسبة للكرمانجية الجنوبية) أما في الكتابة والنشر وفلا يتجاوز القرن. فهل علمنا الآن مدى حداثتنا؟ يمكن القول ان من حسن حظنا بأن كثرة

الإنقسامات داخل كل المجتمعات الزاگروسية قد غطت على الفارق الجوهري بين لغة الگوران والكرمانج. الگوران أنفسهم انقسموا الى عدة كتل. مثلا الفروقات المذهبية بين الكاكئيين والهورامين تجعل الهورامين اقرب الكرمانج في حلبجة والسليمانية منها الى الكاكئيين في كركوك. والفروقات في الأزياء تجعل الشبك[1] بملابسهم العربية يبدون اقرب الى العرب منهم الى الزازا والكاكئية والهورامين وهكذا. أي اننا من كثرة فروقاتنا العمودية (والحمد لله) أذبنا حواجز رئيسية كانت تفصل بين الكتل الرئيسية التي وصلت زاگروس على دفعات فضاع الفرق الحاد بين الكرمانج والگوران.

احتكاك محوري خراسان والقفقاس:

الإندفاع من محور القفقاس تزامن معه إندفاع أقوى من محور خراسان وان جيش ابو مسلم الخراساني كان البداية فقط، تبعها عبر القرون موجات من بقايا الأقوام الآرية ثم أقوام تركية ومغولية لا تحصى كان آخرها نادر شاه الأفشاري.

عناصر تفوق قبائل هذا المحور تكمن في قابلتهم على الأتحاد ولغاتهم المذيبة التي تكونت اصلا في خطوط تجارية لها قابلية على الأمتصاص والإنتشار يكفي انهم اذابوا المتحدثين بالفارسية في وسط آسيا وخط الحرير فما الحال عند احتكاكهم بالگوران والكرمانج!. لقد فرضوا اللغة التركية في اذربيجان منذ القرن الثاني عشر وكأنه تكرار لما فعله الميديين والفرس قبلهم بخمسة عشر قرن، ثم اندفعوا غربا الى الأنضول واجتاحوا كل المدن الهيلينية. سلطتهم الشرق الأوسط كله بدون استثناء أضافة الى شرق أوروبا (الحشر مع القوم عيد) واعتقد انه لولا استقطاب المدن الهيلينية لهم (الأنضول واسطنبول مثلا) من المؤكد ان يكرروا نفس ما فعله الميتانيين والميديين والكرمانج في زاگروس. فلا داعي للاستغراب من مدى تغلغل وسطوة العنصر التركي في زاگروس والشرق الأوسط عموما.

في القرون الأخيرة عند سيطرة اللغة التركية سمعنا ورأينا إنقلاب الحضر الى التتريك إتقاءً لشر الحكومات التركية وابتعاداً من ثقافة الثارات والنزاعات القبلية التي

(١) الشبك يدعون انهم اتوا الى نينوى في فترة نادر شاه (بداية القرن الثامن عشر) لكن الأمر أعمق من ذلك بكثير واعتقد انهم حالة حيّة من التوافق الذي حصل بين الگوران والسريان اذبان الاجتياح العربي ثم الكرمانجي.

تسود زاگروس. لا يمكن نكران تواجد عنصر تركي ومغولي لكن طغيان اللغة التركية في كركوك واربيل[1] اثبات لما قد حصل للگوران. تلك المدينتين وكل مدن سهول زاگروس هي بحد ذاتها مراتع للأنقلاب الى إنتماء أخرى. الگوران والسريان مازالوا يرهبون الكرمانج ونزعاتهم القبلية الصرفة. حتى نحن سكان المدن المتحدثين بالكرمانجية وقد تمدَّنا حديثا، بعضنا أصبح يحتقر تلك الكلمة ويعتبرها مرادفا للتخلف.. يبدو ما أن الگوران سبقوا الكرمانج في كركوك واربيل في الانقلاب الى التحدث بالتركية. ثم تبعهم الكرمانج انفسهم في القرون الأخيرة على نفس الخط بعد ان بدأوا بالاستقرار والتحول الى الزراعة والمدنية. ليسأل ابن اربيل وكركوك نفسه كم من اقربائه يتحدثون التركية مع انهم يعتبرون انفسهم اكراد وكم منهم انقلب نهائيا

(١) بالمناسبة، في السبعينات حسب ما اذكر كانت نسبة استعمال اللغة الكردية في كركوك أكبر مما كانت في اربيل نفسها والذي يتتبع أخبار بغداد في القرون الماضية يجد انها كانت تعاني نفس ما عانته مدن البريد العثماني من طغيان لغات تركية وفارسية وجورجية مع وجود حد فاصل بين لغة المدينة عن أهل الريف والعشائر. بغداد واربيل تجاوزتا المرحلة وعادتا تشكلان وحدة اجتماعية متجانسة مع الهوية القومية للعشائر والأرياف المحيطة. أما كركوك فأن وجود النفط أبقاها كما كانت مدن العراق في القرون الماضية.. ان المسؤول الرئيسي عن الحالة الإنتمائية المزرية في مدن سهول زاگروس (في العراق وفي إيران ايضا) هو التخلف أولا، ثم العصبيات القبلية والمدينية واللهجات التي ما زلنا نصر عليها، وإلاّ لماذا يتهافت التركمان (الأصليين) على الاندماج مع العرب والذوبان فيهم وتراهم اكثر عروبة من العرب بينما لا يستسيغون الكرد بسهولة بل وان أكثرية المتحدثين بالتركية هم من أصول زاگروسية (گوران أو كرمانج) لكنهم اكثر عروبة من العرب واكثر تتريكا من الترك. في الواقع ان حالة كركوك واورمية والخ هي احتكاك آخر بين المدنية والقبلية ياما جرى هنا وفي بلدان اخرى.. أحداث ١٩٥٩ مثلا يتهم بها الأكراد وقد كلفتنا الكثير من سوء الصيت ولا ادفع عن اي جريمة بل اصر على ابراز العيون والنواقص. ان وجهة نظري ان الزاگروسيين انفسهم في كركوك انقلبوا على مرّ القرون الى إنتماءات قومية أخرى فأصبحوا في العهد العثماني تركمان يزدرون الإنتماء الأبوي المتخلف الذي يسود قرى عشائر زاگروس. ثم في فترة المد الاحمر انقلبوا هذه المرة الى إنتماء أممي وأصبحوا يزدرون الزاگروسي والتركماني سوية، فالشيوعيين الأكراد في الستينات والسبعينات كانوا من اشد الناس على الكرد والتركمان سوية، واعتقد انها مشكلة ضعف الإنتماء تتكرر كل مرة بصورة مختلفة وهي في جوهرها مشكلة واحدة. أنها البذور الباحثة عن بويضات مرة تعبد إسطنبول ومرة تعبد موسكو.

واصبح يعبد تركيا أكثر من الأتراك أنفسهم؟.

ان كل الهجرات البشرية الى زاگروس عانت من شبه ضياع بسبب عدم وجود عاصمة او اقليم رئيسي، تلك النقطة جعلت الكتل النازحة البذور أيا كانت تختلط مع السكان الأصليين (مجموعة بويضات) ثم ان كل خلطة من هؤلاء تُستقطب الى أقليم وعاصمة محلية تضم ما تضم من عناصر حضرية. الاجتياح الكرمانجي كان عبارة عن اتحادات عشائرية وآغاوات منضوون تحت عائلة من الخانات أو البيگات كما في إمارات سوران وأردلان وبابان وبوتان... الخ. بذلك نشأت عشرات الإمارات الكردية على طول بلاد زاگروس تحمل ما تحمل من تعصب وعداوات ضد بعضها البعض كأنها الخانيات المغولية في آسيا الوسطى.[1]

ليس من الضرورة ان تكون قبائل محور القفقاس على عداء دائمي مع قبائل محور خراسان. بالعكس، الدولة الأيوبية في الشام ومصر يمكن وصفها بأنها امتزاج بين المحورين، لقد أمتزجا في زاگروس ونزحا سويا الشام ومصر وصادف ان يترأسها العنصر الزاگروسي هذه المرة (على الأقل في العصر الأيوبي). كذلك بيگات الإمارات

(١) بارتولد في (تاريخ الترك في آسيا الوسطى) يبين ان القرغيز كانوا شعبا أشقر حكموا في تركستان الشرقية في القرن السادس والسابع الميلادي. بعدها قهرتهم قبائل مغولية العرق فنشأ شعب بإسم (قرة قرغيز) أي القرقيز السمر.. هذا التمازج يبين كيفية كسر الحواجز العرقية بين الأبيض والأصفر وهو مثال بسيط على كيفية التفاعل بين الأعراق في آسيا. الكثير منهم كان خليطا من القبائل تتوحد بلغة ونظام الـ(خانيات، ملوك طوائف) يحكمون القبائل. ثم هناك الأنظمة الأقوى كما السلجوقيين حيث ان سلجوق لم يكن شيخ عشيرة بل ضابط عسكري تولى كقائد للجيش بعد اندثار سلطة الخانات وأصبح ملكا على مجاميع هائلة الحجم والتوزيع. ذلك فيه شبه كبير جدا من الروح الرومانية حيث ان الولاء كان للجيش وليس لمدينة أو لعشيرة. طبعا دولتهم لم تعمر لنفس السبب الذي اودى بالدولة الميدية (عدم تخصيب للبيضة الفارسية).. ان تفاعل الأمواج الآسيوية مع القبائل التقليدية (كالاكراد والعرب) كان امتحانا لطالما نجحوا في التغلب عليه في وسط آسيا. لذا نلاحظ منذ عهد السلاجقة (القرن الثاني عشر) قلما ظهرت قوة تقاوم العنصر الآسيوي. لكن في نفس الوقت ان اندفاعهم كان نحو الغرب وليس كما فعل قبلهم الميديون والفرس والأشكانيون. هذا وانهم لم يكونوا أصحاب طرح ديني بل جسَّدوا طبيعتهم التوحيدية من خلال الدين نفسه باتخاذ أكثر المذاهب تجمدا (الحنفية التي تعترف بأقل عدد ممكن من الأحاديث الشريفة) ومحاربة كل انواع الإجتهادات المذهبية.

الكردية، كانوا جزء من حالة عامة يتقدمون ويقهرون كل من يصادفهم وكما نسمع انهم كانوا اكثر الوقت متحالفين مع الاتراك ضد اليزيدية والعرب والسريان والگوران ووزعوا المناطق التي استولوا عليها بينهم وبين الأتراك حسب القوة وحسب الظروف. لكن لا ننسى انهم كانوا أقل توحدا من الأتراك ثم ان عامل ضعف اللغة كانت دائما اللعنة التي أصابت أكثر العناصر الآرية النازحة من الشمال. وأخيرا قاموا بأنفسهم بالإنضواء تحت الدولة العالمية الجديدة (العثمانيين بعد استيلائهم على أسطنبول). اي ان الحواجز القومية لم تكن تخطر ببالهم بدرجة تحسسهم للفروقات القبلية والمدينية.

الشيخ رضا الطالباني أشهر شعراء الهجو عند الأكراد الكرمانج يهجو الكاكائيين حتى لا يكاد يبقي على شيء. هو يهجوهم مساندا عشائر الجاف ويهجوهم بمناسبة وبغير مناسبة وللّه نقول انه قلما نجا أحد من لسانه السليط. المهم، يمكن تحسس بقايا الاحتكاك بين الثقافتين (الكرمانجية والگورانية) حتى أيامنا هذه مع أنها والحمد للّه تلاشت وبدأ شعور قومي و(شبه وطني) يطغى على كل من اعتبر نفسه زاگروسي. لنأخذ پروفايل من نوع آخر (من الشمال الى الجنوب). شعور الگوران في منطقة هورامان أو الكاكائية تجاه عشائر الجاف أو أهل السليمانية مثلا هو نفس شعور ابن السليمانية اليوم ازاء العشائر الشمالية. لقد شعر بها الگوران في وقتهم أزاء بيَگات وأمراء بابان، والحبل على الجرار.. أما في مدن كركوك واربيل مثلا فقد شعروا بنفس الرهبة او الرفض للقبائل الوافدة (تركية كانت او كرمانجية او عربية) فوضِعوا بين إختيارين. إما الإندماج بالكرمانج أو بالترك. ويبدو ان ثقافة الدول السائدة (الخراسانية الأصل مثلهم) قد رجحت كفتها.. الدول السائدة كانت تتحدث التركية حتى الدول الإيرانية فان جيوشها والمتنفذين كانوا يتحدثون بالتركية. هذا وان القبائل التركية كانت ذات إنتماء متحول (ذوات المرحلتين كما اشرنا عند بحثنا في تاريخ العبريين) أي انهم كانوا حضر في الأصل، انقلبوا الى البداوة والعسكرية ثم مرة اخرى الى حياة الاستقرار بإصرار مضاعف على النظام (ملكيين اكثر من الملك). من الطبيعي ان ينقلب الگوراني وحتى السرياني (اذا أسلم) وحتى الكرمانجي والعربي الى التركية عند انسلاخهم من القبيلة التي تحميهم. القصد كل القصد أن مشاكلنا تنبع من ذاتنا اللامنتهية.

إيران والزند

ملاحظة: تاريخ إيران في القرن الثامن عشر تبدو كمتاهه بسبب كثرة أسماء الخانات والمشايخ والملوك وعدد المعارك على الساحة الإيرانية. لذلك، ان ما يسطر هنا هو عرض مقتضب لخلاصة ما جرى حسب التصنيفات التي اعتمدناها في كتابنا أي اننا لن نفصل الاحداث بقدر ما نحاول استخلاص الوصف العام للصراعات ونتائجها.

الحروب الشبه دائمية ضد العثمانيين في الغرب والأوزبك في الشرق انهكت الصفويين بشكل كبير وكان الشاه عباس الصفوي قد نقل عاصمته من تبريز الى اصفهان في القرن السادس عشر تجنبا للخطر العثماني.. في ١٧٢٢ حدث هجوم عسكري من قبل الأفغان الجغتاي وكما ذكر كان الهجوم الوحيد في التاريخ الذي حدث عبر الصحراء الشرقية وطال قلب المدن الفارسية مباشرة. الدولة الصفوية سقطت مع العلم ان الدعوة الى احيائها استمرت الى نهاية القرن.

إيران دخلت في حالة فوضى ومذابح عجيبة حتى نهاية القرن تقريبا أي فترة سبعين عام (جيلين حسب أبن خلدون). القبائل الآسيوية والزاگروسية أنهالت على الهضبة الإيرانية طولا وعرضا فتحولت الى ساحة أبشع مما يجري الآن في العراق وقل نظيرها في تاريخ إيران قاطبة ان تنال الحروب من العمق الفارسي. المتذابحين لم يعودوا يلحقوا بجمع الجماجم بل ان الموديل الماشي كان إحصاء كذا ألف من الأعين المسمولة، وقد يعتبر تقدما في علم الاحصاء العسكري! حتى أننا نسمع عن بعض مدمني الحرب يقعون في الأسر فيخسرون عين واحدة، ثم يعاودون الحرب ويأسرون مرة اخرى فتقلع العين الثانية. ولا أعرف ان كانت هي أم المخففخات العراقية أرحم؟

قد تبدو إيران ظاهريا انها شذَّت عن القاعدة العامة (صعوبة الاحتلال ثم سهولة الأنقياد) لكنها لم تشذ عن ميلها الإتحادي. طهران في وقتها كانت منطقة أصطياف وخط جبهة تقريبا. مدن أصفهان والعمق الفارسي تفككت كل مجموعة تأتمر مجبرة لأحد القادة والمحتلين. مع ذلك، لم نسمع يوما ما ان كرمان هاجمت شيراز أو تبريز هاجمت اصفهان كما كان حضر العراق واليونان او أكراد اليوم يفعلون، بل كانت كلها تناصر وتلتف حول القوى التي تدعو الى احياء الدولة الصفوية. حتى القوى السنّية الصرفة اصطدمت بالتماسك الأنثوي والعناد الفارسي، فأجبرت القبائل تدريجيا على

الكف عن تكفير الصفويين والشيعة والدخول في مسايسات وتحالفات. مثلا كريم خان لم يدعي انه ملك بل أطلاق على نفسه لقب (وكيل الدولة) ونصب أحد الصفوين (إسميا) كأنه ولي العهد.

العناصر الحضرية في الصورة كانوا الفرس والعجم (الأذربيجانيين) وكلهم شيعة في عشرات المدن. ثم مسيحيو القفقاس من أرمن وجورجيين وخاصة الجورجيون. ثم أكراد سنندج وكرمنشاه خاصة سنندج، إمارة أردلان، الذين لعبوا دور قوة توازن بين القوى المتذابحة على الساحة بمواقف مستقلة.. اما الكتل القبلية فحدث ولا حرج من قبائل سنية لا حصر لها من أوزبك وجغتاي (مغول) وتركمان وكرد وبختيارية وعرب وحتى البلوش.. العثمانيون كانوا عنصر ثابت يرابط طوال الوقت في الغرب وكانوا قد انتزعوا بغداد من الإيرانيين فتجلت قوة بغداد في سلطة ولاتها من البصرة الى عراق العجم (لورستان وجنوب زاگروس) إثباتا لقابلية بغداد على المركزية، لكن بالطبع كانت متّكئة على مسند أسطنبولي. هذا وان الأمارات والقبائل الكردية أيضا شمال غربي إيران كانوا حلفاء دائميين لأسطنبول وبغداد.

الثلث الأول تلك الفترة (١٧٢٢ حتى ثمانينات القرن عند تولي القاجار) تقلب الأمر مابين الكثير من القبائل والقوى برز خلالها نادر قُلي خان (نادر شاه الأفشاري آخر الفاتحين الآسيويين) وهو سني من العنصر القبلي التركي الآسيوي وصفه العجم بأنه كردي لمجرد كونه (سني قبلي). لقد وحّد إيران بكلفة عالية من الدماء وصال وجال في حروبه من دلهي في الهند الى بغداد والموصل والى القفقاس في الشمال. عشرات المدن والقبائل دمرت في تلك الحروب والعشرات الأخرى هجرت مواطنها الأصلية. أحد تلك القبائل كانوا الأكراد الزند وقد تألق نجمهم وسادوا في الثلثين الأخيرين من تلك الفترة بعد موت نادر شاه حتى وفاة كريم خان في ١٧٧٩.

الزند خدموا معسكر نادر شاه المتنقل كسخرة طوال ١٥ عام. هم حسب ذكر المؤرخين كانوا رعاة من الأكراد الرحل لكن يبدو انهم قد ابتعدوا كثيرا عن السفوح الشرقية لزاگروس الى مناطق فارسية قرب مدينة ملاير وبروجرد. أي انهم مثل الكوتيين والطاوان والأيوبيين والكثير من الكتل غيرهم نزحوا مبتعدين عن زاگروس. ويبدو ان فترة الخمسة عشر عام في الخدمة العسكرية الصرفة لابد انها ولدت لديهم روح التكاتف وخبرات عسكرية وتعبوية عالية نسبيا، قد نرى مثيلها في ٥٠٠ بارزاني

الذين رافقوا الزعيم مصطفى البارزاني شبها في التكاتف، طبعا مع بعض الخشونة.

إغتيال نادر شاه في خراسان كان اشبه بزوال صدام حسين من هرم السلطة أطلق العنان مرة أخرى للقبائل السنية. فنسمع عن كل واحد من أمراء الحرب يصولون ويجولون بقوى تتراوح من ألف الى عشرة آلاف مقاتل قد لا يعرف البعض لمَ يقاتلون أصلاً.. مذهبيا يمكن تقسيم الصورة (حضر من الشيعة) و(عشائر من السنة) لكن العشائر نفسها انقسمت الى تيارين. الأول التيار التقليدي المكفر لكل الحضر والقرويين الشيعة شمل القبائل الآسيوية من تركمان (قبائل التركمان وليس الحضر الذين نراهم اليوم في كردستان) ومغول وأفغان وبعض القبائل الكردية التي تم تهجيرها الى خراسان قبل قرن من ذلك التاريخ. أما في غرب إيران فكانت قبائل الكرد (بانواعهم) والتركمان (قبيلة بيات مثلا يتردد اسمهم كثيرا في تلك المرحلة) واللور والبختيارية والعرب منتشرين في الساحة.. التيار الثاني كانوا القبائل الملتزمة بالمدن (متعاطفين مع الشيعة الحضر حتى ولو كانوا سنة). مثلا القاجار ومركزهم في مازندران وخط الحرير. هؤلاء كانوا قسمين، القاجار اليوخارباشي والقاجار الأيشاقباشي. الأيشاقباشي وقفوا ضد الصفويين وناصروا الأوزبك والتركمان والافغان والكبچيك وأفشار نادر شاه وكل القوى القبلية. أما اليوخارباشي فقد كانوا طوال الوقت موالين للدولة الصفوية كأذرع ضاربة أثناء الحروب.

بعد إغتيال نادر شاه عاد كريم خان وابناء عمومته من خراسان الى مراعي ملاير ودخلوا طرفا في النزاعات الدموية التي كانت تجري بدون هدف سياسي واضح، بل لمجرد الغنائم والبقاء. في أربعينات القرن الثامن عشر بدأ نجم كريم خان يتألق كزعيم يلتف حوله مقاتلين مرهوبي الجانب من عشيرته. الكاتب جون بيري يصف بروزه بعد عودته من خراسان قائلا: الأزمات وضعت كريم خان على طريق العظمة. كريم خان برز من بين عصابات قطاع الطرق المحليين وعن طريق الأختلاط والعلاقات الخطيرة سلك طريق معتدل في السياسة وأصبح من عظماء رجال غرب إيران[1].. لم يعرف مذهب الزند بالضبط، كل مانعرفه انهم كانوا رعاة من البدو نزحوا من زاگروس الى ملاير. الإنطباع عنهم يرجحة كفة ان يكونوا من السنة وتكلمّوا لهجة الگوران فليس من

(١) جون. آر. پيري. تاريخ إيران في سنوات ١٧٤٧-١٧٧٩ ترجمة صلاح الدين آشتي – ص ٤٧ . الكلام مترجم من الأنگليزية الكردية ثم الى العربية وقد لا يكون ترجمة حرفية.

الغريب ان تقتبس المجتمعات القبلية لغات المجتمعات الزراعية والحضرية التي تتغلغل فيها. المهم ان طبائعهم العسكرية الشرسة لم تنم على اي نوع من الماسوشية وان أطلاق اسم كرد عليهم دليل على اعتبارهم من خارج العالم الحضري الشيعي.

الزند كانوا من جملة الإتحادات العشائرية المتقاتلة لكن صادف ان يقعوا في الخندق المعادي للأفغان والأوزبك الذين كرهتهم المدن الفارسية فالصورة تشبه عدد من الرجال المتوحشين يتقاتلون على إغتصاب سيدة فتحابي أحدهم دون الباقي. مثلا دخل كريم خان في تحالف مع علي مردان خان البختياري لطرد الأفغان من أصفهان. علي مردان خان كان يفشل في مهماته العسكرية بينما كريم خان كان ينجح ويستقبله أهل أصفهان ويدافع عنها. ثم ينفك التحالف مع علي مرادان خان ويهزمه.. ثم يدخل في مواجهة ضد الأفغان وأحد زعمائهم، آزاد خان المتمركز في أذربيجان الغربية. من الجدير بالذكر ان منطقة تمركز آزاد خان كانت ومازالت تضمت نسبة عالية ان لم نقل اكثرية من الكرد، وقد وقف الى بجانب آزاد خان لكن كريم خان تغلب عليهم جميعا وذبح كل أعداء الفرس من ضمنهم قبائل الكرد لكن التركيز كان على ذبح الأفغان، فهلّل له الفرس.

بعد الكثير من التصفيات العسكرية، تكاثفت الخرائط السياسية حتى ظلّت قوتان رئيسيتان على الساحة هما الزند والقاجار. كان لكل منهما مجموعة عداوات، القاجار في مازندران كان لهم عداوات وتحالفات مع التركمان والكبچيك والأفغان. والزند في غرب إيران ايضا كانت أمامهم قائمة طويلة من أفغان وكرد وتركمان وعرب هزموهم جميعا. ثم تصادمت القوتان بمد وجزر حتى تجمد الموقف كما في الشكل التوضيحي الذي بين الخريطة النهائية (بشكل تقريبي) توزيع مناطق النفوذ في إيران.. الشكل يبين ان الزند نزحوا تدريجيا الى العمق

الفارسي وجعلوا من شيراز مقرهم الدائم وسيطروا على كتلة مدن فارس واذربيجان. اما القاجار فأحتفضوا بخط الحرير.

من الجدير بالملاحظة ان القوى التي برزت في النهاية (حتى بدون ان يعلموا سبب انتصاراتهم) هم أولئك الذين تقربوا من كتلة المدن الإيرانية (الزند) وأولئك الذين سيطروا على خط الحرير (القاجار).. الغلبة في البداية كانت للزند لكن في النهاية كانت كالعادة لقوى خط الحرير حيث ان موت كريم خان تبعه انهيار سريع لقوة الزند الذين يمكن ان يوضعوا في مصاف الدول القبلية التي كانت أعمارها من أعمار قادتها كالآثار والأفشار والهون... الخ.

الآن لنضع بعض الملاحظات والإنطباعات العامة:

لا نلاحظ ظواهر قوية من إندماج وإخصاب بين الزند والمدن الفارسية، فلا هم تشيَّعوا مندمجين بالثقافة الفارسية (كما فعل الفرانك مع الغال مثلا) ولا المدن الفارسية تحولت الى المذهب السني. انه أدعى مجاملة أنه وكيل الدولة ونصب اميراً صفويا كان ألعوبة بيده ثم نساه كأنه لم يكن. ولا حتى نادوا بالقومية الكردية، إذا قلنا بفرض المستحيل أن الزند حملوا روح الكردايتي بين اضلعهم. الزند كانوا نسخة من الشيخ العربي الذي قابله لورنس قرب العقبة الذي لم يعرف ماذا تعني كلمة (عرب).

يجب ان نصحى من بعض الاحلام الوردية فان مواقف الزند مع باقي الأكراد لم تكن ودية مطلقا ولا حتى باقي الأكراد مع بعضهم البعض، فكل مدينة وكل قبيلة كردية كانت وحدة مستقلة كأنها شعب مستقل لا علاقة له بالشعوب الأخرى وكما سنسرد الحديث. بعض المدن الفارسية والآذرية كانت تحارب الزند بكل قوة، ثم تهزم فيعفو عنهم كريم خان ويظهر أقصى ما تسمح به ظروفه العسكرية والسياسية من تسامح. بينما المدن الكردية (سنندج وكرمنشاه) والعربية (البصرة ومدن وعشائر الأهواز مثلا) كان لا يطيق أسماءها. مثلا في ١٧٥٠م بعد عدة انتصارات استدار كريم خان راجعا الى سنندج لمعاقبة امراء اردلان على مواقفهم السابقة اذ كانوا قد ساهموا في فك الحصار الزندي على كرمنشاه. أمراء أردلان استقبلوه وترجوه وقدموا انواع العطايا والوعود لكن ابدا. التدمير الذي أمر به كريم خان ضد سنندج قل نظيره.

سؤال يطرح نفسه: لماذا مال الزند الى المدن الفارسية وحتى بعض المدن الأعجمية

بينما نفروا من سنندج وكرمنشاه؟ هذا دليل ان العصبية الكردية ليست حكرا على القبائل بل قد تكون المدن اكثر تعصبا.. الاستاذ نوشيروان مصطفى يتساءل عن سبب المديح الذي يكيله المؤرخون الفرس لكريم خان بينما المؤرخين الأردلانيين لهم مواقف غير ودية منه.[١]

يبدو ان الجواب موجود وواضح فالزند والأردلانيين كرهوا بعض وقاتلوا بعض ما استطاعوا الى ذلك سبيلا؟. المشكلة اننا لم نسمع إلاّ جانب واحد من الموضوع فلو كان كريم خان قد دمَّر خانقين أو چمچمال التي لجأ اليهما في بعض الأوقات، لتغيّر الوضع[٢]. لقد تعتمت عيوننا باسم كريم خان اللامع لكننا يجب ان نتجرد من العواطف أذ لا توجد اقل أشارة بأن كريم خان في يوما ما قد أتخذ اي موقف قومي، مع العلم انه كان اكثر حكمةً وإتزاناً وأبعد نظراً من باقي الزند.. الشجاعة والقابليات العسكرية التي تحلى بها أبناء الزند قل نظيرها وتجلت أسماء لامعة بينهم كمحمد خان وشيَخالَي خان[٣] أبناء عمومة كريم خان. مثلا الموما اليهما ومجموعة من الزند بينهم نساء منهم والدة كريم خان وقعوا أسرى بيد جيش افغاني وأرسلوا مخفورين الى أورمية. أثناء الطريق تمكنوا من قتل الحراس وفروا عائدين الى معسكرات كريم خان في جبال بختياري. هذه الحادثة وآلاف الحوادث تثبت ان الأكراد لا ينقصهم الشجاعة والإقدام. ان ما ينقصهم هو شيء سنعرفه في الحال.

شيخالي خان الموما أوقع شر الهزائم والمذابح في صفوف الأوزبك والأفغان والقاجار وأحتل استراباد عاصمة القاجار وقتل زعماءَهم. اذا قيَّمنا ما جرى بمقياس

(١) نوشيروان مصطفى أمين. (كرد و عجم) التاريخ السياسي لأكراد إيران. أصدار مركز الدراسات الستراتيجية. السليمانية – ص ٥٧١.

(٢) اكراد ايران يكررون نفس الاخطاء بل واكثر. مثلا في كتاب (كۆمەڵناسی كوردەواری) الكاتب يتحدث عن عبدالرحمن پاشا الباباني بسلبية مع أن أكراد العراق يعتبروه مثل أعلى. عبد الرحمن پاشا عاصر الثورة الفرنسية ويشهد المؤرخون ان بوادر الروح القومية الكردية ظهرت في عهد الموما اليه ولو كانت بصورة بسيطة ويطغي عليها الأنتماء الباباني. المشكلة ان كل كردي يرى موقعه فقط من پروفايل طويل عريض ويفسر الأمور حسب الرغبة الآنية.

(٣) الأسم يبدو بوضوح مشابه للكنة الكردية الجنوبية في طريقة لفظهم الكلمات. لأسم (شيخ علي) بتحويل العين المفتوحة الى ألف طويلة وبتفخيم الام. من الجدير بالذكر ان أحد سمات اللكنات الأنثوية كالفارسية والمصرية والفرنسية انهم لا يلفظون اللام المفخمة.

قومي يجب ان نبارك ونهلل له، لكنه هو ومحمد خان رجعوا وحاصروا كرمنشاه[1]. ثم قاموا بعملية تدمير منظم استمر ثلاثة ايام متتالية لم يشهد لها تاريخ المدينة مثيلا حتى العثمانيين لم يدمروها بتلك الشدة، فما مشكلة الزاگروسي مع الزاگروسي يا ترى؟ لماذا كل هذا التنافر إذ نسمع بكل كتلة من الأكراد قد يتحالف مع غير الأكراد لكن قلما يتحالفون مع الكردي، ليس على مستوى القبائل فحسب بل على مستوى المدن أيضا؟

الجواب بسيط، ان كل كردي سينظر الى الكردي الآخر (الذي سمع من الغرباء انه كردي مثله) لكنه سيتفحص لباسه وكلامه ثم يقول (هذا ليس منّا) وهي حقيقة نتلمسها حتى اليوم وبقوة ووضوح لا يقبل الشك فلا داعي ان ننتظر أكاديمي أوروبي يفتي لنا هذه الفتوى. ثم انه من أبسط ما يكون أن ندرك احساسيس ونوعية إنتماء شخص مثل شيخالي خان. انه ككريم خان وكل الزند وهم جميعا حالهم حال الگاوانيين والكاشيين والخ، كلهم بذور مندفعة من بلاد ذكورية مانحة لا ترى هدفا إلا (البيوضة). هم ألكترونات تدور في فلك النواة فتنفر من كل الألكترونات المشابهة. واليك أسماء (الألكترونات) الكردية التي حاربها الزند (باجلان، الفيلية، زنگنة، موكريان، الأيزدية، بلباس، برادوست، شكاك، قوچان... الخ) اما الأمارات والمدن فأن سنندج وكرمنشاه كانوا أول الضحايا والى درجة معينة حاربوا سليم پاشا الباباني فنهبوا امواله وهزموه عدّة مرات حتى تصالح معهم لاحقا، فما قولك الآن ايها المناضل القومي؟

خطأ آخر يبدو كأنه لعنة أصيبت بها كل قبلية كردية أمتلكت أدنى درجة من السلطة. لقد بحثنا طبيعة القوط والموكريان والبرادوست في إمتناعهم عن مخالطة الناس وعزل عوائلهم في (قلاع). الزند فعلوا نفس الشيء في شيراز وعزلوا عوائلهم والحريم عن الناس. كانوا ينطلقون في مغامراتهم العسكرية والعاطفية، واذا تزوج الزندي عشر نساء من غير الزند فتلك مرجلة وعظمة اما ان تتزوج زندية من فارسي أو حتى كردي غير الزند، فهي مذلة وإهانة؟. لا يسعني هنا إلاّ ان أردد القول "سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون".

من يدافع عن توجهات الزند اليوم في القرن الواحد والعشرين أقول له (على عيني)

(١) كرمنشاه ضمت اكبر القلاع العسكرية واكبر مستودع (طوبخانة، سلاح المدفية) للدولة الإيرانية ضد الاجتياحات العثمانية وقلما هزمت الا من بنات جنسها.

ولك الحرية فيما تختار حتى لو كان اختيار انتحاري، لكن لا يأتينا بكلام عن العولمة وحقوق المرأة والحرية والمساواة والحضارة وتلك الأناشيد. فليقل انه مريض يريد السلطة بأي ثمن. النهج الفحولي المطلق الذي حقق للزند كل تلك الأنتصارات، في النهاية كلفهم أكثر مما نالوا. شيخالي خان الموما اليه قلعت عيناه بيد كريم خان نفسه، ولا يعتقد احد انها كانت بسبب موقف أخلاقي أو كردايتي بل (عنترايتي) في جلسة شراب وحشيشة اعتاد عليها معظم أمراء الحرب في تلك الفترة، كلمة من هنا وجواب من هناك فاذا بكريم خان يبطحه أرضا ويقلع عينيه بخنجره. طبعا ندم وتصالحوا (ليس حبا لبعض بل لأنهم في حالة حرب ضد الغرباء!) لكنه فقد أحد أهم قادته العسكريين وتجلى ذلك في الإنهيار العسكري السريع الذي أصابهم بعد كريم خان حالهم حال القوط في إيطاليا.

عند موت كريم خان تركت جثته بدون دفن لأربعة أيام إذ ان العشيرة وأفخاذها (الأصليين) دخلوا مباشرة في تذابح عجيب نترحم بسببها على القوط ونبجل نصائح المهلب بن ابي صفرة التي انتقدناها، ٢٣ جثة من أشراف الزند تكدّسوا في أول اليوم كان من بينهم اولاد محمد خان وشيخالي خان (الأذرع العسكرية للزند). بعد ذلك بدأت التخثرات تتجلى والقوى تتذابح وكان من أبسط الأمور ان يهدد قادة الزند بعضهم البعض بذبح الأطفال والنساء. ولا توجد أشارة ان فارسيا أو كرديا ذرف دمعة حزن على العيون الزندية المسمولة التي تكدست في ساحات الهزيمة. ففي الفترة اللاحقة طغى القاجار (عشائر خط الحرير) وبدأوا يدعون الى إحياء الدولة الشيعية وتصاعد مد انتقامي ضد كل القوى السنية التي عاثت نهبا وهتكا في إيران منذ الغزو الأفغاني فنسمع ان المجتهدين الشيعة ينتقمون من الصوفية السنة ويذبح منهم المئات كما ذبح السنة في وقتها المجتهدين الشيعة[1]. وكما ذبح الزند بقية القبائل، ذبحوا هم

(١) في الفترة الأخيرة من الإمبراطورية الرومانية وما تلالها، الأيمان بالمسيح والحزن عليه كان أول وأهم شرط كي يقبل شخص أو قبيلة او شعب معين ضمن البيت الحضاري الأوروپي. هذا هو جوهر الموضوع فالحضري يهاب القبلي(كانوا ومازالوا يصفونهم بالبرابرة مثلا) وان دخوله العالم المتحضر كان يقتضي امتحان بسيط كأنه يقول له "هل تدرك وتقدر أدنى درجات الأنوثة المطلوب كي تكون متحضرا"؟ نفس الأمر تكرر في إيران والعراق. القبيلة او العائلة الأبوية النازحة من زاگروس او الأنبار أو من براري آسيا الى داخل المجتمع الحضري(الذي تشيع) هناك شرط واحد مماثل كي يقبل ضمن المجتمعات الأنثوية عبارة عن(هل تبكي على الحسين؟)انه نفس الأمتحان.

على ايدي قبائل اخرى؟

للفرس كل الحق ان يتفاخروا بكريم خان وإبادته لكل من عاث فسادا وهتكا وتقتيلا في المدن الفارسية. رضا شاه البهلوي مع انه تركي ولد في مازندران موطن القاجار وعاش في اذربيجان، وأزاح اخر ملوك القاجار، تمنطق سيف كريم خان مفتخرا به وله كل الحق بان يفعل ذلك. لكن كيف للكردي ان ينبهر ويفرح بذلك الفشل القومي المبين؟ انها نفس مشكلة المراهقة (السياسية–الإنتمائية) حين ننبهر بمهستي لكن ننهال باللعناة على ليلى فريقي. كردستان اليوم لا ينقصها كريم خان وصلاح الدين ففي ظهرانينا المئات منهم، المشكلة انه لايوجد ذلك الإنتماء وتلك الثقافة القومية التي تحتضنهم.

بروفايل سياسي

لي أصدقا شخصيين يتفاخرون كل الفخر بكريم خان وهم مثقفون. سأقول لهم شيئا واحدة عن الكردايتي: هناك ثلاث أساليب منها.

١– الكرديني، أي الطبائع الكردية السليقية. انها أبسطها وأكثرها سذاجة تتمثل بشاب عادي يحلم ان يحتل اسطنبول (مثلا!) ويفرض عليها اقاربه واصدقائه ويعبد كإمبراطور ويمتلك ألف جارية والخ.. أقول له لو تحقق ذلك على فرض المستحيل فان هناك شيء واحد مازلنا لا ندركه، هو أن اسطنبول ستظل تحكم زاگروس، فهل وصلت الفكرة!؟.. اي ان مركز الثقل سيظل في اسطنبول ان حكمتها انت او حكمها حفيد كمال أتاتورك.. هذا بالضبط ما حصل مع الزند وقبله الكوتيين والكاشيين والأيوبيين والزنديين... فقد نزحوا الى بلاد بعيدة حكموها حسب أسلوبهم الخاص لكن الحكم ظل في تلك البلدان والضرائب كانت تجمع من زاگروس لتصب في مصلحة تلك البلدان وساهموا في تقوية عملية (التعرية وانجراف الثروة) من كردستان. فهل وصلت الفكرة؟!

٢– الكردايتي العام: ان ندافع انا وانت عن حقوق الأكراد ونعادي التعصب التركي والعربي والفارسي. هذا التيار ممكن ان يمارس في بغداد وكردستان والمانيا والقطب الشمالي وفي كل مكان، وهو شائع منذ القرن الماضي. لكنه ليس الا تيار قومي لا أكثر ولا أقل (أي انه يشمل الإنسان وليس بالضرورة ان يشمل الأرض)

وقد يتطور الى تعصب أعمى ضد غير الأكراد لا سمح الله. اني لا اقف ضد الكردايتي الوسطي بل انتمي الى هذا التيار وقد مارسته طوال حياتي شرط ان لا يصل حد التعصب.. هذا ويجب ان نعلم ان هذا النوع من التفكير كان آخر شيء يخطر على بال الزند في وقتها.

٣– الكردستان پروري أي ان نحترم ونقدس كل بشر يخدم أرض كردستان لو كان عربيا أو تركيا أو فارسيا أو حتى من جزر الواق واق. فهل دق الجرس يا عشاق سيبل جان ونبيلة عبيد وگوگوش؟

لنرجع لموضوع الزند. قوة الزند كانت تتمحور بالدرجة الأولى في الحكمة التي كان يبديها كريم خان ومحبته للمدن الفارسية مقارنة بأعدائه الذين كانوا اكثر توحشا ودموية وطمعاً. نتذكر هنا مقولة نابوليون "المنتصر ليس من لا يرتكب اخطاء. بل هو الذين يرتكب اخطاء أقل من منافسيه" جونپيري مثلا وهو كاتب محايد يصف حياة كريم خان اليومية انها كانت كأكثر أمراء الحرب مجالسه كانت مجالس خمر ونساء وحشيش تزايد ادمانه مع الوقت. (الحرم) عنده إحتوى بين ١٢٠ أمرأة وتهافت القوادين على جلب النساء له وأقربائه. لكن جون پيري يعود ويؤكد ان كريم خان أختلف عن الباقي انه كان يستمع لنصائح العقلاء قدر المستطاع[١] ثم انه كان عسكري ملتزم وتعبوي ممتاز.. بعبارة أخرى يمكننا إختصار تطلعاته بـ(السيف والكأس والأنثى) كما يقول الاستاذ حسن العلوي في وصفه بعض الشخصيات العسكرية في العراق الحديث.

اليوم بيننا تيارات قوية تطالب بحقوق المرأة وأكثرها تيارات يسارية ياما هتفت بسقوط الآغاوات والمجتمعات الأبوية المتشددة ضد النساء، فما قولهم في موضوع كريم خان وعنتريات الزند؟. لنتناول الموضوع من جانب المرأة وحقوقها والأنوثة بصورة تجريدية. الزند أجبروا الكثير من نساء أعدائهم على الزواج منهم (نساء القاجار مثلا). حتى بعد سنوات طويلة من الزواج والعشرة لم نسمع بأدنى دليل على توادد مع ازواجهن ومع الزند عموما. إثنان من نساء القاجار تزوجوا من الزند، احداهن كانت تشتم الأخرى "أيا زوجة سائقي البغال"[٢] وان زوجة كريم خان القاجارية ساعدت ابن

(١) جون بيري. تاريخ إيران في سنوات ١٧٤٧–١٧٧٩ ص ٥٩٤

(٢) جون بيري. تاريخ إيران. ص ٣٠٤

اخوها (آغا محمد خان) على الهرب للاستعانة بالقاجار في أفناء الزند.. سؤال يطرح نفسه: لماذا لم يأمر كريم خان بأبادة نساء القاجار كما فعل الشاه عباس قبل قرنين وكما فعل قادة البورگونديين والڤاندال ضد بنات القوط؟. اما آن لحظة مراجعة للكثير مما كنا نظن بانها أمور محسومة ومنتهية؟.. ثم ان الأنوثة ليست حكرا على النساء. آغا محمد خان هذا هو مؤسس أسرة القاجار التي حكمت إيران بعد الزند حتى الربع الأول من القرن العشرين، الموما اليه كان مخصيا منذ طفولته، أي انه يحسب على الأنوثة. الحقد والأنتقام الذي بدر منه ضد الزند قل نظيرهما في التاريخ فلم يكن يفوت مناسبة إلا وتوج فرحته بقتل وسمل كذا الف من الزند أو كما يذكر الاستاذ كمال مظهر أحمد انه شق بيديه سجادة كانت تذكره بأيام كان يجلس عليها (في حضرة كريم خان!)[1]. فما تفسيرنا لحقد وتقزز الأنوثة من الزند؟

(١) طبائع القاجار فيها شبه من القوزاق الموالين للدولة الروسية على طول الخط فهم كانوا موالين للدول الإيرانية على طول الخط. هم تركمان رافقوا جنكيزخان في القرن الثالث عشر ثم في عهد تيمور لنك (١٣٣٦– ١٤٠٥) كانوا قد وصلوا كما يقال الى بلاد الشام رجعوا الى القفقاس ثم إيران. كانوا احد العشائر السبعة التي اعتمد عليها الملوك الصفويين وقد يذكرنا ذلك بالميدية إذ انهم كانوا إتحاد عشائري من سبعة قبائل.. في فترة الغزو الأفغاني استقروا في مازندران وخط الحرير وكانوا قسمين كما أشرنا. كان لهم يد في مقتل نادر شاه وفي ١٧٥٨ انتقم منهم علي قلي خان (وريث نادر شاه) ان قتل محمد حسين خان اليوخارباشي وأخصى أبنه الصغير آغا محمد وعذبه. بذلك قد حمل هذا الغلام حقدا دفينا قل نظيره. بعد ذلك يطغى الزند على الساحة ويودع الصبي آغا محمد خان كرهينة عن كريم خان في شيراز لمدة ١٦ سنة ويشهد التاريخ ان كريم خان (زوج عمته) كان رحيما به.

في ١٧٧٩ عند مرض كريم خان وحتى قبل ان يموت يهرب آغا محمد خان بمساعدة عمته الى مناطق القاجار ويقنعهم ان الوقت قد حان. يبدو انه كان مطلعا على مدى هشاشة الزند وسرعة تناحرهم الداخلي. منذ ١٧٧٩ وحتى ١٧٩٤ تولى آغا محمد خان تدريجيا قوى القاجار ووحد كل القوى الداعية الى إحياء الدولة الصفوية وخاض حروب في وجهة نظرهم كانت حروب التحرر من آخر القوى القبلية التي برزت على الساحة منذ الإجتياح الأفغاني في ١٧٢٢ وانتقاما من العثمانيين وحلفائهم.. الزند كانوا يتقاتلون فيما بينهم بينما القاجار كانت تتجمع القوى تحت جناحهم تصاعديا منهم القبائل والأقاليم الكردية. أي ان مسألة (ضحاك) الكردي و(كاوه) غير الكردي ليس حصرا على مكان وزمان واحد. ويبدو ان كاوة القرن الثامن عشر كان (خصي) لكنه فعل أكثر كثيرا من الفحول!! هذا هو المفهوم الواقعي الذي يجب ان ندركه. اناس يكرهون =

الفرق بين العوائل الملكية و العشائر المسيطرة

بدل إنتقاد صلاح الدين الأولى ان ننتقد كريم خان والزند الذين لم يفكروا بأبعاد قومية أو ماشابه، بل كل ان كل ماعرفوه هو العشيرة. أما باقي البشر، كردا كانوا أم فرس أو أفغان، بالنسبة لهم كانوا (غرباء) لا أكثر ولا أقل. صلاح الدين على الأقل عرف أصله واعتز به، حتى انه مارس بعض التعصب المضاد حيال ذلك الخليط القومي الذي وجد نفسه فيه. ولو إتهمه التركي أو العربي بالإنحياز قليلاً للأكراد لما أمكنني الدفاع عنه، بالمناسبة هو لم يكن كما تصوره الأفلام العربية، من الممكن جدا ان يكون مسلما أكثر من العرب فالزاگروسيين كانوا دائما أسرع الأقوام تدجينا بأديان المدن العراقية القديمة، اما ان يدّعوا انه عربي اكثر من العرب! فهذا تزوير مخجل. الأتراك ايضا يدعون انه تركي. طبعا الموجة البشرية النازحة الى الغرب كانت بأكثرية تركية لكنها شملت غيرهم من الأقوام وأحدها الكرد، فصادفت الظروف ان يعتلوا تلك الموجة دون غيرهم، فما المشكلة في ذلك؟ انه لن ينتقص من أمجاد الترك وانتصاراتهم أفلا يشبعون؟

زاگروس بطبيعتها مانحة للثروة البشرية ويبدو انه اختلط مع المد التركي الذي أساسا يتكون من عناصر مختلطة تذوب عادة في لغة واحدة وتحت قيادة عسكرية

=بعضهم البعض، يظهر من بينهم مجموعة تتسلط على الباقي وتضع حواجز عمودية بينها وبين الباقي وينعزلون في قلاع ثم ياتي شخص أجنبي يساوي بينهم اما بالتوزيع العادل للظلم كما فعل صدام ونادرشاه. وأما بحد ادنى من العدالة والمساواة. فهناك مساواة في الحالتين.

لطف علي خان وريث كريم خان (وهو يشبه ويتيگيس القوطي) حاول قدر المكان ان يقاوم القاجار في كرمان لكن هزم وتكدست ٢٠ ٠٠٠، زوج من العيون الزندية. ثم بعدها بفترة احتفل آغا محمد خان في عاصمته الجديدة طهران بقتل ما تبقى من الزند. فأنهالت الأذرع الملساء بسيوفها الخراسانية على الصدور المكسوة بالشعر الأسود الكثيف، فهل أحد يناقش ان الفحولة المطلقة والشوارب الكثيفة ستسود طويلا؟

تفوق القاجار على الزند في نقاط بسيطة. أولا عنصرهم النسوي كان فعالا، على الأقل لم يعدموا كنساء القوط. ثانيا كان لهم ولاء أقوى للمدن الإيرانية (هذه أيضا نقطة انثوية). ثالثا سيطرتهم على خط الحرير الذي ضمن لهم النصر النهائي. رابعا انتخابهم طهران مركزا للحكم. قد ضمنت لهم أكثر من قرنين في الحكم.

لعائلة مالكة، كانوا عائلة نوردين الزنكي هذه المرة والتي لم يجرء احد على مخالفته طالما بقي حيا لكن بموته خلَتْ الساحة للأيوبيين. النقطة الأهم كان الدافع الديني بوجود الصليبيين الآتين من وراء أعالي البحار. وجودهم كان عامل توحيد لتلك الخلطة العجيبة من الأقوام والعشائر وإلاّ، كان من الممكن ان يحولوا المنطقة الى ساحة اقتتال داخلي كما فعلوا في إيران القرن الثامن عشر.

لو أدخلنا صلاح الدين وكريم خان في مقارنة لوجدنا الكثير من أوجه الشبه. الإثنان امتلكوا الحكمة الشجاعة والكرم والعدالة (كل حسب محيطه). لكن هناك إختلاف جوهري في نوعية الهرم السلطوي الذي مثلاه.. كريم خان كان يمثل رأس (قبيلة حاكمة) أي ان كل الزندي كان ككل تكريتي او (عوجاوي) في عهد صدام حسين كان يعتبر ضمن النخبة الحاكمة ويجوز له ما لايجوز لغيره. الأيوبيون ايضا كانوا مفضلين وسادوا على غيرهم الا انهم لم يكونوا أعضاء مدينة حاكمة كأثينا او أعضاء قبيلة حاكمة من ١٠٠,٠٠٠ شخص مثلا، بل كانوا (عائلة) ولنفرض انهم خمسين أو مائة عنصر يسودون على بلدان ومدن وأقاليم لا تحصى. فحتى لو تقصد رأس السلطة ان ينحاز في توزيع المهام القيادية سيجبر على أشراك عناصر أخرى الحكم. اما اذا كانت تركيبة المجتمع أصلا متقدمة وموحدة عندها ستزداد شفافية العائلة الملكية وقاعدة الحكم الى درجات ممتازة وطبعا الكمال لله وحده.

ما يهمّنا هو بيان الفرق بين أهرام السلطة التي تسود على المواطن البسيط في حالة ان يكون محكوما من قبل قبيلة أو مدينة أو طائفة بالكامل، مقارنة بان يحكم من قبل عائلة ملكية صغيرة.

الشكل التوضيحي يمثل العوائل الملكية كما في بريطانيا واسپانيا والأردن، كذلك عوائل ملكية سادت قبلا كالعثمانيين والعباسيين والصفويين وعوائل الفراعنة بإختلاف

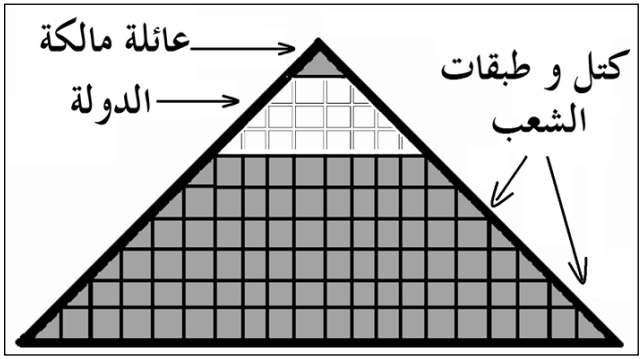

عصورهم وعلى إختلاف اديانهم وطبائعهم. فهما كانت توجهاتهم الأنحيازية ومهما زاد عدد أولاد الملك وامتيازاتهم وسلطاتهم، سيظلون (عائلة) فقط ليس أكثر. وفي الحالات المثالية سوف تقتصر على ملك وملكة ووريث واحدة وبعض الأمراء تزداد أو تقل سلطاتهم حسب الظروف غير أنهم ليس (عشيرة) حاكمة أو (مدينة) حاكمة (عاصمة متسلطة غير طبيعية كما في العراق القديم واليونان) فيتصرفون كلهم كالملوك. كل مضلَّع في الشكل التوضيحي يمثل كتلة أنتمائية معينة. نلاحظ ان المضلَّع الأعلى (العائلة المالكة) صغير. المضلعات التي تقع تحت العائلة المالكة تمثل رجال الدولة والجيش في طبقات معينة، نلاحظ انها جميعا صغيرة، ثم تأتي طبقات الشعب بمضلعات لا تحتوي على تكتلات كبيرة قابلة للانفصال كمدن تنافس العاصمة أو عشيرة تنافس الحكم أو طائفة تنشق. بل ان تكتلات الشعب ستكون صغيرة كعوائل وقرى وحتى عوائل غنية تمتلك شركات وأراضي، المهم ان الفروقات العمودية سوف تتقلص الى ادنى المستويات وتتحول أكثر مشاكل المجتمع الى مشاكل طبقية في توزيع الثروة ومقدار الضرائب وكيفية صرفها وو الخ. حسنا، العقليات البسيطة ستقول ان (العائلة) كتلة صغيرة عددهم قليل ويمكن لأي (عشيرة) او (مدينة) ان تنقلب عليهم وتبيدهم كي تتولى الحكم لنفسها. طبعا الكلام السابق مغري جدا وطالما انقاد الناس الى أخطاء مماثلة لكن على هؤلاء (الأذكياء) ان يعلموا شيئاً واحد انهم ليسوا الوحيدين في مثل هذا التخطيط وستظهر العشرات من الكتل المماثلة فور توليهم السلطة وستتمتد الخطوط العمودية مفرقة المجتمع بالكامل الى كتل وتحالفات وهو بالضبط ما حصل في العراق.

الشكل الثاني يمثل العراق البعث أو اليونان القديم او بلاد سومر او كردستان العراق الخ. نلاحظ ان المجتمع نفسه منضوي تحت أهرام انتمائية متنوعة بمجموعة كتل طائفية أو مدن أو عشائر. المثلث الصغير في الأعلى يمثل الزعامة والتي حاول الإنگليز مثلا فرضها على العراق والتي رفضت وابيدت في النهاية. الزعامة الموحدة ستواجه صعوبة في دمج الأهرام المختلفة مالم تتخلى الكتل نفسها عن تكتلاتها وتنضم تحت لواء الملك أو الرئيس، مدركة انه الحل الوحيد وإلا فهي الحرب الأهلية (اقتل اقتل حتى تُقتَل) ويظهر تيار بعصبية معينة كتيار صدام حسين داخل البعث تدمج الزعامة بأحد الأهرام الإنتمائية دون الباقي. فينشأ النوع الثاني من الأهرام كما في الشكل

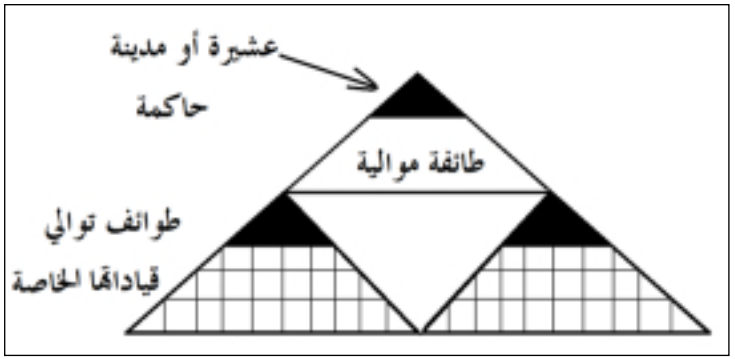

أدناه. يعتمد في الحكم على طائفة معينة.

هذا الشكل يمثل سلطة أثينا وسپارتا على لليونان القديم. في نفس الوقت يمثل دول قبلية وطائفية كالأمويين والزند وصدام حسين والخ. نلاحظ ان الشعب نفسه مقسم الى كتل واضحة الإنقسام ومتحضرة للانفصال في أية لحظة، لكن تسود عليها كتلة من الكتل تحتكر الحكم ثم ينتصب في قمتها زعيم او مجموعة أو عائلة ملكية أو (عائلة رئاسية) سَمِّها ما شئت.

الطبقات تظل وستظل ولا يأمل أحد ان تختفي، كل ما في الأمر انها زادت ولم تنقص وبدل هرم الواحد وسلطة واحدة وعصبية واحدة تجسد الإنتماء الوطني تشكلت اهرام كثيرة وطبقات اكثر في نفس الوقت. هذا هو جوهر الإختلاف بين عائلة مالكة تقليدية (والتي طالما اعتقدنا انها أسواء ما في الوجود)، بينها وبين حكم مدينة او عشيرة أو طائفة تسود على الباقي. انه نفس القانون الذي ذكر (كتل متصارعة تسود عليها في النهاية أكبر أو أقوى اقلية متحدة). شئنا ام أبينا، فأن قمة الهرم ستتشكل حسب نوعية القاعدة. فاذا كانت القاعدة عبارة عن (كل كتلة تكره الكتل الأخرى) ستتكون دولة لا يمكنها البقاء الا بفرض قوة مضاعفة، وقد تستمر في السلطة بضعة عقود، لكن في النهاية ستسقط. فأما ان يأتي دور الكتلة الأخرى لتكرر نفس المذابح، أو في أغلب الاحيان يأتيها أحتلال خارجي يحرق الأخضر واليابس، هذا ما رأيناه في تاريخ الأمم ولا داعي للإنكار.

كل الشعارات الطبقية والدينية والآيدولوجية التي يجري الكلام عنها لم تكن سببا لما جرى طول تاريخنا وتاريخ باقي الأمم الا اذا اردتم اعتبار الكرد (فوق البشر!). لطالما

ردد الأكراد هذا الكلام (نحن حالة خاصة، نحن مختلفين)، اقول لمن يعتبر نفسه حالة خاصة ان لا يتوقع ان يتفوق على باقي البشر بل انه كل من اعتبر نفسه (متميز وخاص) هو دليل على مدى تخلفة ومدى حاجته الى العودة واللِحاق بالأخرين في آخر صفوف الأمم.

اننا في هذه اللحظة نعيش تقسيمات أقليمية ولهجوية أكثرها ناتجة عن إنكماشات نفسية وتوجسات تستملك مشاعرنا. مهما زايدت الألسن في الدعوات الى الأخوة في الدين او العقيدة او العولمة والمساوات والكلام المجتر، فإن إنتماءاتنا الحقيقية دوائرة لا تتجاوز أقطارها العشرة أو عشرين كيلومتر هي محيط الدائرة التي تجسد شعورنا بالإنتماء لأرض محددة ومجتمع محدد ضيّق حسب القرية والعشيرة والمدينة واللهجة الخ.. فان الأزدواجية والأنقياد وراء الاحلام تجعلنا نعلق خرائط عجيبة غريبة عن (كردستان الكبرى!!!) تمتد من الخليج الى الإسكندرونة مع اننا لا نطيق المدينة المجاورة لمدينتنا والعشيرة المجاورة لعشيرتنا ولسنا مستعدين للتنازل عن صوت واحد من لهجاتنا المتخلفة حتى لو قطعت الألسن والرقاب. لا العشائر تطيق المدن ولا المدن تطيق العشائر وكل ما نراه أمامنا هي ردود أفعال لا تردعها عن التذابح إلا التهديدات الخارجية.

التهديدات ماثلة في الآفاق و، لا سمح الله، قد تفتك بكل ما بنته السواعد ودماء الشهداء الذين كل ما عرفوه انهم يستحقون شيء. ماهو ذلك الشيء؟ لا يعرفون ماهيته بالضبط، لكنه موجود وهم محقون. لكن آه على آه من التخلف والتقوقع والتمثيل والتشبه بالآخرين والتنافر وأطنان الكراهية الدفينة التي تحرك من يظن نفسه جبلا لا ينزاح. يا أخي لا تظن نفسك جبلا فما انت اكثر من ريشة في مهب الريح لا يخفي خطأك القاتل الا اخطاء الآخرين. فأن اعتدلوا بملمتر واحد، لأختفيت من الساحة في أقل من لحظة. لكن رغم كل هذا الفقر المدقع في التاريخ والشعور القومي والوطني الهزيل مقارنة بالشعوب المجاورة، مع ذلك نمتلك بعض العناصر الإنتمائية (الصغيرة جدا!!) قد لا نعرف قيمتها الا اذا فقدناها لا سمح الله. العناصر بكل بساطة هي قمتين ووادي. الوادي الوسطي هو اربيل العاصمة (ولو اسميا). أما القمم الفعلية فهي مدينة السليمانية وعائلة الزعيم الراحل مصطفى البارزاني.. انا مستعد ان ادخل في مراهنات ولتكن مراهنات على وجبات من (كباب كويسنجق!) مع كل من يعتقد انه يرى

نواقص في هذا الثالوث أكثر مني فكل عنصر من عناصره يحمل نواقص تخص الميدان الذي من المفروض ان يتفوق فيه، ومخطىء من يظن ان نواقصها وكمالها نابعة من ذاتها وقد روينا ما روينا من صور التاريخ ونماذجه التي لا تحصى.. لننظر ما عندنا من أرصدة في بنوك الإنتماء:

١- اربيل قياسا بمتروبوليسات العالم وبدل ان تكون قبلة بحد ذاتها، بكسر القاف، هي أشبه بقرية كبيرة مستقَطَبة الى قِبل لا تحصى. الشيب والتبعية والإفتقار للأنوثة تستشري في شوارعه وفي شبابه. وهي منذ الأزل مركز ديني بتبعية واستسلام ترفرف عليها آلهة الخجل والتردد. مئات المآذن تتسابق على محو الأنوثة والمدنية اينما صادفتهم لا يدرون ان كل الأمم التي بالغت في ذلك الجهاد، ما جنت بعدها الا عصور من يسودها التفاخر باللواط. وبفضل اهل القرى ذوي الخناجر المعقوفة، كانت أبد الدهر أحد محطات إنقلاب الزاگروسيين الى الإنتماءات غير الزاگروسية.. لكن العجيب ان تفوقها يكمن في ضعفها! كأنها إمتحان أزلي وضع أمام الجبال كي تختبر قابليتها على التوحد والتقدم بدفع ذاتي. أتراكها قبل اكرادها وسريانها قبل اتراكها ومنذ الأزل معتكفين امام كل العشائر والحضر في الجبل وفي الريف المحيط لعلهم يوما يعقلون.. انها المدينة الوحيدة في شمال العراق التي تمتلك أضعف هوية تعصبية. الضعف يمكن ان ينقلب الى قوة، فحقيقة ان اربيل لا تمتلك هوية قوية يسمح لها ان تكون (ميتروپوليس عام). في الواقع ان العراق كله لا يمتلك مدن بتلك الخصائص ما عدا بغداد والبصرة. اذ حتى الموصل، رغم انها عربية لكنها متفوقة على كل المدن الكردية داخل وخارج العراق في قوة استقطابها العريق على جبال وسهول زاگروس، غير ان ما فيها من عصبية مدينية في نفس الوقت يفقدها الكثير من المكتسبات. فها هي الورقة الوحيدة والأهم التي تمتلكها أربيل الحزينة عاشقة الخجل والحزن.

٢- السليمانية، دولة المدينة الأغريقية بعثت من تحت الرماد، ها هي حية ترزق ويكمن فيها تعصب وتمييز مديني وأقليمي ولهجوي يضاهي أثينا والقدس في تاريخهما. انها ولدت ردات فعل ذكورية من حولها تحاول ان تفتك بكل مضاهر الحضارة والأنوثة المستفزة الكامنة فيها، فأي كردي يسأل عن السليمانية يجيب (انهم عنصريون) كأنهم يتحدثون عن البيض في جنوب أفريقيا!.. إلا انها في نفس الوقت

حتى لو لم تكن عاصمة سياسية فهي العاصمة الثقافية بدون اي منازع وفي الواقع هي، حسب علمي المحدود، المدينة الوحيدة من اقصى زاگروس الى اقصاه التي تمتلك استقطاب انثوي شبه حر يحرك جبالاً من الفحولة مع روح مدنية صرفة وقابلية للتطور والأبتكار قد تفوق بغداد نفسها (نوعيا وليس كميا).

٣- الزعيم الراحل مصطفى البارزاني مها بلغت نواقص ورثته أو التراث الذي تركه فهو الشخص الوحيد في تاريخ زاگروس أحيائهم وأمواتهم ومن أقصاه الى اقصاه، الذي تم الاعتراف به كزعيم قومي تجاوز المدن والأقاليم والمشايخ الدينية والعشائرية واللهجات و.... النضال لمن أراد النضال هو في تقويم الهرم الإنتمائي الشفاف (السلطة الشفافة) لتلك العائلة وتراثها، وأقول العائلة تناقصياً نحو أمير واحد فقط وليس العشيرة والحزب وطباخ العائلة وسكرتير أحد أحد مسلحيها وتخثرات الخطوط العمودية التي تتضاعف بين الحين والآخر مهددة جوهر الفوريوم الذي استتب اسميا في اربيل.. لندع جانبا التنافر وأنهار الدماء. سنسطر اسماء بعض الشعوب لنرى عوامل مشتركة تجمعها كما يلي: امريكا، العراق، إيران، اليونان، المانيا، الهند، پاكستان، اليمن، السودان، الصين، روسيا، لبنان، المكسيك، مصر، فرنسا،هولندا، إيطاليا، أكثر الجمهوريات المنفصلة عن الأتحاد السوفييتي السابق، دول أمريكا اللاتينية على الإطلاق، كل تلك المجتمعات لا تمتلك أرثا تاريخيا من (زمن الشدائد الذي حدده توينبي)[1] يمكنها من تنصيب عائلة مالكة أو (أمير أقليمي) يوما ما حتى وان حاولوا.

ان عدم وجود عوائل قممية في فرنسا وامريكا مثلا دليل على مقدار كبير من التطور ما يجعلها لا تحتاج صمامات أمان. اما أكثرية باقي الشعوب فأنها في الحقيقة تفتقد لتلك الصمامات والكثير منها في حالة ضياع للمرجعية والولاء وتضطر الى اللجوء الى عقائد وآيديولوجيات حدية ودموية للحفاظ على ادنى مظاهر الموجود، ونحن أذا كنا مستقلين او تحت ظل الفدرالية او حكم ذاتي الخ، لن نكون احسن حالا منهم. بريطانيا

(١) ارنولد توينبي يقسم حياة الأمم الى قسمين رئيسيين، (زمن الشدائد) و(زمن الدولة العالمية). زمن الشدائد المذكور يقصد به فترات تكوين الهوية القومية ومراحل البداوة والتخلف بصورة عامة. الأكراد دخلوا تلك الحقبة قبل قرنين أو عدة قرون على أقصى تقدير وهي فترة مخاض وولادة عادة ما تشهد كوارث وهزائم كبيرة.

مثلا لها القدرة في اي لحظة ان تتحول الى جمهورية وقد تتفوق على فرنسا وأمريكا في القابلية على إدارة شؤونها. مع ذلك، فهي لا تتخلى عن ذخرها التاريخي والمستقبلي. واعتقد انه من الغباء ان تتخلى عن صمام أمان أمتزج بتراثهم القومي والوطني.

نعود ونؤكد ان الفخر لا يكمن في شعارات (يسقط يسقط) ومعاكستها (يعيش يعيش) أحدهم يعتبر الزعيم شيطانا رجيما كما فعلت اثينا والآخر يؤلهه ويزيد من جرعات التحزب كما فعلت سپارتا والكل تتصرف حسب النزوة والإنتماء الضيق. ان تراثنا الثوري (ثورة وثورة الى الأبد) أصبح عبأً لايمكن ان يديم لنا طريق التطور والاستقرار وبوادر الرخاء. ان التحدي الحقيقي لا يكمن في الأنشقاق والقتال بل هو في القدرة على موازنة توجهات دكتاتورية تنمو طبيعيا في كل مراكز السلطة حتى لو نصبنا الملائكة عليها، وما ينقص الأكراد في الحقيقة ليست الروح القبلية او المدينية بل الروح العسكرية الرومانية التي ترتعد من وجود ادنى خطر خارجي وتحفض راس المال الأنثوي الموجود وتنميه.. أما من يعتقد انه سيطال النفط ويتحكم به بدون وازع وانه سيصبح اله كما كان صدام حسين، فأقول له انه يحلم وان العد التنازلي قد بلغ قمته وان الماء، مثلا، سيكون أكثر قيمة من النفط الذي اعمى عيون الملايين.

هناك نقطة اخرى قلما يدركها المنظرون، اننا لسنا في نهاية طريق ولسنا في مرحلة قطف نهائي للثمرات كما يعتقدون، اننا في البداية فقط. واذا كننا قد تعودنا على تحديات تديم دفعات الأدرينالين في عروقنا فان التحديات لن تنفذ وما اكثرها وأصعبها. أولها برأيي سيكون عملية اخصاب الإنتماء.

دولة العراق على الرغم من كل نواقصها، لكنها في الحقيقة المصدر الوحيد لنمو إنتماء مدني ذو توجهات ديمقراطية عند الأكراد. الآفاق مليئة بالألغام والتقلبات، وان الأنظمة الوراثية أكثر الأشكال مقاومة لتقلبات المستقبل. اعتقد اننا يجب ان نسعى ان تكون كردستان العراق إمارة وراثية لعائلة الزعيم الراحل مصطفى البارزاني (العائلة او شخص واحد فقط وليس العشيرة بأسرها) تحت سقف الدولة العراقية المستقبلية. كردستان ممكن ان تكون حالة مشابه لأمارة موناكو في جنوب فرنسا أو تركيبة دولة الإمارات العربية المتحدة لا أدري. المهم هو (التوجه) خاصة اذا هدى الله العراقيين وأدركوا قيمة الملكية الدستورية. انه حلم ان يتحول المستنقع الدموي العراقي الى مملكة

مستقرة تحتضن وتدافع عن وجود إمارة كردية تحت مظلتها والإمارة نفسها مصرة اكثر من العراقيين انفسهم على العراقية (ادفع بالتي هي أحسن ترى ألذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم).

لعبة الأجيال

نكتة رويت عن الجيل السابق ان أحدالأعيان كان شغوفا بشرب الشاي فاستضافه صديقه وأكد على الخدم ان يقدموا أرقى انواع الشاي، قبل وأثناء وبعد الغداء وحتى ينصرف الضيف. الخادم حزم امره واستعمل كل خبراته في ضبط المقادير والحرارة والسكر وقدم الوجبة الأولى من (استكانات) الشاي والكل تحضر لمعرفة رأي ضيفهم (خبير الشاي). فقال للخادم "أحسنت يا فتى، شايك ممتاز" فرح الخادم، لكن فرحته لم تدم اذ أكمل قائلا " لكن لنرى كم سيصمد شايك وكيف سيكون طعمه في الوجبات السادسة والسابعة" تجمد الخادم في مكانه، فكل ما فكر به كان (الجولة الأولى) فقط!!. هذا هو القصد من لعبة الأجيال. الأجيال الأولى من الحركات السياسية قد تكون ما تكون لكن يا ترى، كم جيل ستقاوم وكيف ستكون في الأجيال ما بعد الأولى والثانية؟.. الأجيال هنا لا تمثل ما ذهب اليه ابن خلدون باعتبار كل اربعين عام جيلا كاملا. بل هي في عدد الزعماء من ملوك ورؤساء والخ. لنقارن المنطلق السابق بالسياسة والكردايتي.. الشيخ عبيدالله النهري قاد ثورة ضد العثمانيين ١٨٨٠، لقد كان الجيل الأول من حركته يواجه أجيال ما بعد الجيل العاشر من العائلة العثمانية.. ماذا عن عبد الكريم قاسم مقارنة بالعائلة الهاشمية في العراق؟ هو ايضا كان الجيل الأول مقارنة بالملك فيصل الثاني الذي كان الجيل الخامس منذ نهضة العائلة الهاشمية في الحجاز في عهد الشريف حسين (آخذين بنظر الاعتبار ان الوصي عبد الإله يعتبر الجيل الرابع في السلطة مع انه لم يكن من صلب العائلة، لا يهم).

مثال آخر، نابوليون هزم النمساويين وفرض سلطته عليهم ثم تزوج من أحد أميراتهم. دعنا من المعارك والمؤامرات التي كلفت حياة طفلهم الوحيد ولنركز على (لعبة الأجيال)، نابوليون كان الجيل الأول من نهضة عائلته الكورسيكية النازحة الى باريس، أما اذا اعتبرنا نابوليون مكملا للثورة الفرنسية، فهو يعتبر الجيل الثاني من ذلك الإنتماء الناهض. بينما ملوك هابسبيَرگ كانوا في أجيالهم ما بعد العاشر[1]. أي انه

(١) أول من يرد ذكرهم كان (في القرن الحادي عشر للميلاد) كعائلة جرمانية تولت بعض المهمات العسكرية والإدارية ثم توالت القرون حتى استقر بهم الملك في النمسا يسودون على عدة شعوب مستقطبة الى فيينا نكاية بالتتريك التي اجتاحت اسطنبول. ثم بدأ الروس ينازعون ڤيينا على استقطاب ولاء الشعوب السلافية مع انحسار الخطر التركي وهكذا.

كان احتكاك بين شاب ناهض وشيخ معتق كالخمر الأصيل.. الجيل الأول لن يستمر في الحكم الى الأبد، سيموت ويخلفه شخص ما شاء أم أبى. ابن نابوليون مات صغيرا، وآخر نهضة شهده هذا الاسم اللامع كان في سبعينات القرن التاسع عشر مع نابوليون الثالث (ابن اخت نابوليون) وقد كان أضعف مما نتصور وخسر الحرب أمام بسمارك (رجل المانيا الحديدي) ولم تقم بعدها لهم قائمة.. ليس من الضروري ان يكون الحديث عن عوائل مالكة بل اي حركة تزعمية وحتى أدبية وفكرية. الدولة السوڤيَتية مثلا منذ نشأتها في ١٩١٧ الى ١٩٩٠ شهدت عدة اجيال قيادية طالت ام قصرت، ضعفت ام قويت، فكلها مسألة أجيال.

ان كل جيل أول من كل حركة سياسية على وجه الأرض تكمن فيه قوة ونمو قويان فالشتلات الحديثة سريعة النمو، لكن القوة الحقيقة تكمن في الأجيال اللاحقة التي تضع حجر على حجر وتبني الصروح وتثبت الأشجار الباسقة؟.. هل يحتمل القاريء فلسفة ومنطلقات جديدة؟ حسنا قبل أن نفكر بحذافير الدين أو ان نسعى الى تأسيس حزب جديد يقوم بثورة عارمة ونقتل وندمر كما كنا في الماضي، دعنا نطلب العلم ولو في الصين كما تفضل الرسول محمد (ص).. في التسعينات كنت أول من كتب عن الفلك الصيني الى المكتبة الكردية الفقيرة، وفي وقتها كتبت نقطة قلما انتبه اليها أحد، فالأكثرية تركز على العواطف والطالع وما الى ذلك. الأطروحة التي تضمنها الكتاب كانت في ان نخرج عن الروتين ونعتبر كل برج من الأبراج الصينية كأنه أحد اولاد عائلة متكونة من ١٢ ولد، كل واحد منهم يتولى السلطة لعام ثم يليه أخاه الأصغر وهكذا. سأسرد شرح بسيط لتسلسل الأبراج الصينية ثم نعود الى المواضيع السياسية.. الفلك الصيني يقسم السنوات الى اثنا عشر سنة كل منها يطلقون عليه اسم حيوان معين يحمل صفات تلك السنة. وكما يلي.

١- الفأر: الاسم أطلق لا لشيء الا لسرعة اندفاعهم وسرعة وقوعهم في المكائد. البرج يمثل الإندفاع والصراحة حتى في العداوات فهو اما عدوك أو صديقك بدون خيار ثالث.

٢- الجاموس: إله العمل الشاق، يعاكس الفأر فيردع التبذير ويفرض بعض الدكتاتورية. ثقيل الخطوات، لكنه لا يتوقف.

٣- النمر: مغامر يكسر قيود الجاموس ويندفع الى صرف المدخرات على الحب والحرب والتألق، وعادة يغفر له أضعاف ما يغفر لغيره من أخطاء.

٤- القط: كاره المغامرات ومحب لجمع الأموال من أجل الأهل والمقربين.

٥- التنين: لن يرضى بأنصاف الحلول فأما نصر عادل أو انسحاب كامل من معركة خاسرة لا طائل فيها.

يكفينا هذا القدر من تسلسل الأبراج اذ ان القليل من التيارات يتجاوزون الجيل الثالث. لنربط الآن مابين تسلسل الأبراج الصينية مع الحركات السياسية حسب الأجيال.. لو اخذنا العائلة العباسية كمثال، سنجد ان ابو العباس السفاح كان الجيل الأول وأشبه ببرج الفأر في إندفاعه في إبادة أعادائه. خلفه ابوجعفر المنصور الملتزم والديكتاتور وباني الصروح ومكدس الأموال[1]. ثم هارون الرشيد الجيل الثالث، النمر الذي ينثر الأموال على الحب والحرب ويغفر له أكثر اخطائه. الأمين، متقوقع منحاز للأهل والأقرباء ثم المأمون الذي حسم أمر عائلته بأن تحالف كليا مع قوى خط الحرير، وهكذا.

الآن لنسطر بعض الأسماء من مؤسسي الحركات السياسية والعوائل المالكة: كريم خان، عبدالكريم قاسم، صدام حسين، كمال اتاتورك، محمد نجيب، محمد علي پاشا، الشيخ عبيد الله النهري، الشيخ عبدالسلام بارزاني، ابراهيم أحمد،، شارل مارتيل، نابوليون، هتلر، جورج واشنطن، الإمام الخميني، رضا شاه الپهلوي، آغا محمد خان القاجاري، نادر شاه، جنكيز خان، لينين، يوليوس قيصر، قورش، يلسن، أتيلا... عشرات ومئات الشخصيات المماثلة مع تنوع اسمائهم وتنوع التيارات التي مثلوها، لكنهم جميعا يمثلون الجيل الأول في ولادة تلك الحركات ويمكن اعتبارهم من برج الفأر، عنيفون ضد الأعداء ورحماء بالأصدقاء، وعادة يهدمون الصروح التي بناها أعداؤهم.

(١) ابوجعفر قتل أبو مسلم الخراساني. لو قسنا هذا الاحتكاك حسب الأجيال سنرى ان ابو جعفر كان الجيل الثاني (الجاموس) وقد احتك بالجيل الأول من قوة خراسانية أدت مآربها وحازت على مكانتها حتى بعد اعدام رأس الحربة وجيلها الأول حتى بعد اعدام ابو مسلم. اذن كأشخاص، الإحتكاك كان بين الفأر والجاموس وعادة ما ينتصر الجاموس حسب ما تقوله الفلسفة الصينية.

الأجيال الثانية هم كما يلي: ابو جعفر المنصور، ستالين، عصمت اينونو، شيخ أحمد بارزاني، جلال طالباني، توماس جيفرسن، جمال عبد الناصر، محمد رضا شاه الپهلوي، فتح علي شاه القاجاري، شارلمان، أوكتافيوس، داريوس، فلاديمير پوتن، الخ. كل واحد من الاسماء السابقة حملوا صفات برج الجاموس الصيني من عمل دؤوب وبعض الدكتاتورية (زادت ام نقصت) مع التوجه الى فرض النظام والبناء وتوسيع مصادر التمويل.. في الجيل الثالث تقل الاسماء لأن الكثير من الحركات لا تستمر طويلا فيأتي فأر آخر من حركة أخرى يزيح التسلسل السابق. عندنا من الجيل الثالث هارون الرشيد، خروشوف[1]، مصطفى البارزاني، قمبيز، انور السادات... الخ كلهم غامروا وكلهم دخلوا في مد وجزر وتقلبات كثيرة.

نظرية ابن خلدون عن الأجيال الأربعينية تصدق في الكثير من الحالات وتفشل ايضا في بعض الحالات، فالقليل جدا من الملوك والرؤساء يصل الى اربعين عام في الحكم. لكن يمكن أن نأخذ كل حاكم باعتباره جيل كامل. بذلك ستتوضح پرڤايل أوضح عن الدول والإمبراطوريات والتيارات السياسية في التاريخ.

هذا وان عراقيي اليوم كردا وعربا يؤيدون الأجيال الأولى فقط من الحركات، كأنه إدمان على تغير دائمي بأي ثمن، حتى ولو تبعه تجمد وموت طويل فيفضلون زعيما شابا يعادي أعداءَهم حتى العظم ويناصر مصالحهم حتى العظم، وذلك ليبقى المجتمع في حالة (ثورة وانقلاب دائمي وتدمير ومسح دائمي) وهذا أمر خاطئ.. الأكراد في تحزباتهم الحالية والميل الطبيعي الى التحزب في مجاميع صغيرة، لمصلحة صغيرة وتحت امرة قائد جديد (برج فأر جديد، مندفع لا يتفاهم) يزيح كل من سبق. أما آن الأوان لمراجعة النفس.. الآن لنتحول الى نوع آخر من لعبة الأجيال.

(١) يجب ان نأخذ بنظر الاعتبار ان كل شخصية بحد ذاتها تنتمي الى أبراج فلكية حسب العام والشهر ويوم الولادة لكنهم بالنسبة لتواجدهم في السلطة يمثلون برج معين قد يختلف عن برج ولادتهم. خروشوف مثلا كان يمثل تطابق عجيب لبرج النمر الصيني (البرج الثالث) ان يتولى القيادة في (الجيل الثالث في السلطة)، لذلك نلاحظ انه تجاوز حدودا أكثر مما كان يمكن تصوره في التمرد على دكتاتورية ستالين الحديدية. للعلم فقط.

أجيال الجبل والمدينة

سنأخذ نموذج عن مقاتل كردي جبلي، لا يهم ان كان من العشائر أو پيشمرگة. هذا المقاتل الذي يسحق الأحجار بأسنانه! كما يقال، في كم جيل سيتحول ابنه او حفيده أو حفيد حفيده الى جيل مائع مخنث وميت. كم نموذج يعرف القارىء عن نساء مسترجلات او رافضات للزواج واولاد مخنثون أو شواذ جنسيا ينحدرون من انساب عريقة؟.. ثم هل ان الأمر حتمي؟ فسنناقش لعبة الأجيال من هذا المنظور.

بعض الشعوب القبلية تفقد روحها القتالية والسلطة الأبوية في جيل او جيلين على الأكثر بعد تحولها الى العيش في المدينة، فتسمع ان جد العائلة كان شيخ او زعيم استقر قبل بضعة عقود في مدينة ما. ثم تسمع ان ابنه اصبح مهندس او محامي مشهور، أما الحفيد فأكثر الأحيان تراه مستسلما لأحد انواع القوى الأنثوية. والقوى الأنثوية هي نوعان، اما ان يكون مستسلما لزوجته أو مستسلما للدين. ولا يتعجب القاريء اذا عرف ان الحالتان هما استسلام للأنوثة. مثلا (الأنوثة الشابة التي تسود في السليمانية والأنوثة الدينية الكهلة التي تسود في اربيل).

في بلدان العالم عندما يتعرض المجتمع للميوعة والشيب والخجل وإنعدام الطاقات، من الممكن ان تتبعها نهضة ثانية عن طريق الروح العسكرية والإلتزام المدني. أي ان الجيل الثالث أو الرابع أو الخامس بعد الأنتقال من القرية الى المدينة، سيسترد ملامح الشباب والحركة وكسر حواجز الخجل بمجرد الحياة العسكرية (أقصد الحياة العسكرية الحضرية وليس حياة العشائر او حياة البيشمركه فالإثنان كالطلقة النارية التي تبرد حال اصطدامها بالماء، لا تعمر اكثر من جيل واحد او جيلين).. هناك أنهار كالڤولگا والنيل والفرات تطول مسافة مسيرتها من المنبع الى المصب آلاف الأميال، بينما بعض الأنهار في اليابان مثلا أو في السفوح الغربية لجبال الأنديز تنبع وتصب في البحر خلال ساعة واحدة او أقل.. نفس الشيء ينطبق على الأجيال. قبل ان نفكر بالعقائد وكيف (نطبقها)، علينا ان نفكر بلعبة الأجيال، فحتى الديناصورات تبدأ من بيضة رقيقة اذا لم تتعلم مقاومة التقلبات، ستقضي عليها اللبائن في أول غفلة.

الآن لنسأل. هل لاحظتم ظاهرة شائعة في المجتمع الكردي الحالي؟. هناك فرق كبير ونوع من الأنفصام بين طبائع الجيال بين الجد الذي عادة كان يشد مسدس او خنجر

في حزامه وبين الحفيد الذي عاش وتربى في حضن النساء فأصبح الولد مايع واصبحت البنت تكره الرجال وترفض الزواج.

الفترات الوسطية بين أقصى (سلطة الأب في القرية) الى سلطة الأم في المدينة. تلك الأجيال كثرة أم قلة هي في الواقع العمر الوسطي الحقيقي لكل شعب. ليس هذا فحسب بل ان الميوعة وطغيان السلطات الأنثوية التي تخصي القدرات تخف تأثيراتها بسبب الحياة العسكرية وتفرعات السلطة بل وحتى روحية اللإلتزام المدنية الصرفة. اي ان الأجيال ترجع شابة وقوية وفعالة، حتى النساء يكونون اكثر فاعلية وحيوية (جنسياً وحياتياً) وأكثر إندماج وغير متقوقعات.. كل الشعوب تمر بمراحل الشباب والكمال والشيب لكنها تتجدد وتعطي دفعات جديدة تضخ فيها روح الشباب الى المجتمع خاصة اثناء الحروب والتحديات.

ظاهرة (نزيف الحضارة) التي يشير اليها مسعود محمد تتضمن نقطة تخص هذا الصدد. الهجرة من الريف الى المدينة في كردستان يثوبها انقطاع فستكون هجرة باتجاه واحد. وإذا كانت المدينة الزاگروسية تحت سلطة اجنبية، عندها سيكون الانقلاب الى المدينة مصاحبا لإنقلاب قومي وليس اجتماعي فقط (هو ما نراه في اربيل وكركوك واورمية والخ). أما اذا كانت المدينة بعيدة عن سلطة الدول فسيكون الانقلاب الى عصبية المدينة فقط لا أكثر (كما في السليمانية وكوي والعمادية والخ).. هذا ومن الصعوبة ان تكون هناك ردة الى الريف، بل ان الموجة عادة تأخذ الى بغداد واسطنبول وحلب والخ، وفي كل حال، الريف لن يشهد نهضة واختلاط وسيزداد تخلفا وإختلافا عن المدينة.

اذن لولا ظاهرة (نزيف الحضارة) كنّا سنصبح كباقي الشعوب نمّر بدورات اجتماعية وأجيال تشيب واجيال تنهض لتجدد الشباب والحيوية. والآن الى لب الموضوع.

كلما أصرت الأجيال الذكورية للأكراد قاطبة على نكران الأنوثة والمدنية وأصرت على العنتريات والفحولة المجردة. النتيجة التي لا مفر منها لهذا التعصب الذكوري ستكون تقليل الفترات الوسطية (الأجيال الوسطية التي هي جوهر وجود كل شعب) وانهم في أول بادرة حرية او مع اول نكسة ستقوم الأجيال اللاحقة بردود افعال نحو (الأنوثة، المدنية، الدين، الماسوشية الخ) هذا لو فرضنا انهم سيبقون على قومية.. نحن في

كردستان العراق ومنذ السبعينات قلت لدينا ظواهر الانقلاب الى اللغة التركية واللغة العربية ذلك أننا لم نعد نحتقر الملابس المدنية والنساء السافرات والوظائف المدنية وحتى من الإنخرط في الجيش والشرطة والدولة. الوظائف المدنية للنساء والرجال لم تعد تعتبر (خيانة وعمالة ولواط والخ) والنساء العاملات لم يعد يعتبرن (زانيات) كما يعتقد المتخلفين (حاشا لهن). بينما هذه الأشياء مازالت عند الكثير من الأكراد في تركيا وإيران تعتبر عيب وحرام وانحطاط والخ. فنلاحظ رغم كثرة المواليد (كل عائلة تنتج ٨–١٠ اطفال) مع ذلك نسبة الأكراد (أو المتحدثين بالكردية) اقل.

اما بالنسبة للجانب الأنثوي في المجتمع الكردي. القرن الماضي شهد نمو مدن كردية ذات وزن وكثافة لا يستهان بها وكالعادة نمت السلطات الأنثوية على اشكالها (سلطات دينية أم سلطة أنثوية سافرة تحتقر أكثر مظاهر الفحولة العسكرية). والآن ليسأل المثقف الكردي المدني رجل كان أم امرأة: الى اي حد عانى من ردة فعل أنثوية بدون أن يشعر؟. والى اي مدى يعاني (او تعاني) من ردة فعل ضد تعصب الماضي بتعصب من نوع آخر لكنه بحد ذاته تعصب حتى وان ادعينا انه انفتاح وعولمة وحضارة وما الى ذلك. أَلَمْ يحِنْ الوقت لمراجعة بسيطة لكل ما سمعناه من الأب والأم؟ هذا هو القصد من التجرد. فاذا كرهنا شيء ما، من الفروض ان نعرف لماذا نكره وأن لا نكره لمجرد الكراهية.

تيارات كبيرة وقوية تجتاح المجتمعات الأنثوية الناشئة في كردستان أصبحت تعادي كل انواع الرجال والرجولة، وان اعداد ليست قليلة من الإناث بدأوا يسترجلون ويرفضون الزواج إلا بشروط قد تكون مستحيلة. ويكرهون لكل ماهو قبلي وعسكري وفحل، من المؤكد انه يحمل أحقية وسبب، لكن فيه نسبة كبيرة من (تعصب مضاد). ثم اني اتوجه الى الشباب الحالي بسؤال: ما كل هذه التأوهات والملل والكلام من قبيل (أنني حزين، اني يائس ولا اعرف ماذا اريد من الحياة. آه اني مظلوم ويائس وو والخ) عليك ان تعرف ان هذه الآهات والميوعة والماسوشية هي حالة عامة تصاب بها قطاعات كبيرة من الحضر والبرجوازية من الشعوب البسيطة التي تمر بأول مراحل تكوينها. وهو جزء طبيعي من تلك الدورة الدائمية كما الأجرام السماوية التي تندفع من الفحولة (الشموس الملتهبة) الى الأنوثة (الثقوب السوداء الميتة). ولا يوجد في اي منها (الشموس والثقوب السوداء) حياة إلاّ في مكان وسطي مثل كوكب الأرض الذي يحمل

توازن بين حرارة النار وبرودة العدم.

ان ابن القرية الذي يعتقد انه يمكنه ان يقاوم التمدن الى الأبد فهو مخطىء وكل ما يقوم به انه يدفن نفسه حيا ويتجمد. اما الوجه الآخر، فان كل أنقلاب سريع من الفحولة الى التعصب الانثوي ما هو الى علامة على قصر عمر الكرد الذين لم تطول أعمار أجيالهم الوسطية إلا جيل أو جيلين على اقصى تقدير يقفزون من اقصى الأبوة الى اقصى الأمومة. هذه هي الحركة (Motion).. سؤال: في كم جيل يتم الانقلاب المشار اليه وهل هو حتمي ان يتحول حفيد شيخ العشيرة قائد من قواد البيشمركه الى لوطي؟.. جوابا أقول:

اولا اذا كانت العائلة غنية (آغاوات وملاكين وشيوخ طرق ذوي واردات كبيرة ومسؤوليين ابديين في الأحزاب!!!) قد يتأخر الانقلاب كثيرا مادامت هناك موارد تصرف على (الفحل المسيطر داخل البيت).. لكن ما ان تتحول العائلة الى طبقة وسطى او فقيرة، سترى العائلة انقلبت الى لغة اخرى بعيدا عن ماض وتراث فحولي يطالبهم بأن يكونوان (فحول وآغاوات كما كانوا ابدا).

ثانيا: اذا كانت العائلة ومنذ البداية غير متشددة ضد الأنوثة والنساء، في تلك الحالة من الممكن ان تستمر العائلة على إنتماء متوازن حتى ولو اجبروا على التحدث بلغة غير كردية. ستراهم يحملون روحا كردية طبيعية ولا يخجلون من اشهارها. وهي حالة كثيرا ما نراها في كردستان العراق حيث ان التباين ليس كبير بين فحولة القرية والعشيرة مع انوثة المدينة (اربيل او بغداد مثلا) بينما شدة التباين مع طهران واسطنبول والشام سوف لن تدع مفرا من تسريع الإنسلاخ.. بمعنى، ان كلما كانت المرأة محترمة في تلك العائلة طال عمر الأجيال المتحدثة بالكردية وطال النهر من الينبوع الى المصب وطالت فترة الاستفادة منها كمياه حلوة. بل وحتى يمكن اعادة تصفيتها وبث الحياة فيها الى متجددة في دورات أبدية. أما ما أراه امامي اليوم فهي تيارات ذكورية تقاوم الأنوثة والحضارة كأنها كونكريت مسلح ما ان تكسر حتى تتهاوى الى ميوعة أنثوية وماسوشية عجيبة (دينية كانت ام مدينية). فما قولكم يا مثقفي آخر زمان، ان ما ترونه من (ديسكوات) وميوعة عند الأوروبيين جاءت بعد اجيال واجيال أما انت فمن المهد رأسا الى اللحد تفتك بكم ماسوشية لذيذة. انتم أضعف مما تتصورون.

الشعوب القبلية كالعرب والأكراد تنبع من الأراضي المانحة (صحارى وجبال) قد يستمر بعضهم في العيش هناك الى الأبد لكن الحركة الطبيعية هي جزء منها يندفع تدريجيا الى الأرياف القريبة من المدن ثم الى المدن ويحصل انقلاب في طبائعها (عاجلا أم آجلا) نحو التمدن.. في المجتمع العشائري يفرض الأب على ابنائه وبناته الزواج من اولاد العم. أما في المدينة فالمرأة تأخذ بزمام السلطة فتزوج اولادها من أقربائها دون اقرباء أبيهم.. ماشاء الله على الديمقراطية والتقدم!، ان كل ما فعلته انها مارست الخوييياتي لكن تحت سلطتها هي دون زوجها.. ثم يأتي الذي له تطلعات (اوسع) فيقول ان هؤلاء متخلفون ويجب ان نمنع زواج الأقارب. المهم ان يكون العريس (منّا). أي من نفس المدينة واللهجة والعشيرة. مهما كان فهو أحسن من التقوقعات الأولى، لكن يجب ان نعرف ان أقصى مدى في التمازج سوف لن يتجاوز الوحدة الإنتمائية كالعشيرة والمدينة التي ابتليت بها الكرد.. اعتقد ان التحدي القادم هو دفع الشباب الى الزواج من خارج نطاق الوحدة الإنتمائية (المدينة والعشيرة) ويجب الخروج من تلك التقوقعات والأبتعاد عن أحضان الأمهات ومراتع التقوقع.

ما ينقص الأكراد الحضر في الحقيقة هو بعض الروح العسكرية الملكية. انا لا يهمني ابن العشيرة اذا اتجه الى الحياة العسكرية أو الى البيشمركه، فهو ليس بالشيء الجديد. التحدي الحقيقي هو وجود عسكريين نظاميين حضري.. الجيوش والنظم العسكرية الحالية في العالم يعود أصول تكوينها الى دول وتشكيلات قبلية. ثم تحول الأمر تدريجيا حسب مراحل التاريخ حتى اصبحت العسكرية (مهنة أو وظيفة) داخل المجتمعات الحضرية. والأمر ما زال قائم حتى اليوم اذ نرى اولاد العشائر وكذلك الفقراء يتجهون العسكرية اكثر من غيرهم أما البرجوازية (أهل المدن) عادة ما يفضلون (الطب والهندسة) وهو نشيد أنثوي حتى لو ان الذي يردده رجل.

الخاتمة

لا يسعني إنهاء الكتاب وكل هذا الكلام عن الإنتماء دون التفاتة أخيرة الى كولن ولسن. لن اتحدث عن كتاباته بل سأستعمل أسلوبه في تناول مقتطفات من روايات وأفلام ذوات مغزى انساني. أول ما أود التنويه اليه أفلام الكارتون. هل تتذكرون گاليڤار. سفينته تغرق في البحر وينجو منها رجل اسمه گاليڤار يصل الى جزيرة فيها أقزام بحجم الأصابع. الرواية تتضمن قصة حب بين أمير وأميرة وقد أضاف اليها والت دزني من الكوميديا ما يجعل عيون المشاهد تدمع من الضحك. لكن هل قرأتم مابين السطور؟ في الواقع انها قصة صراع بين مدينتين تتقاتلان وما ان يصل گاليڤار حتى تتراكض كل مدينة الى كسبه ضد المدينة الأخرى. كانوا قد لجؤوا الى زواج سياسي بين أمير المدينة الأولى وأميرة المدينة الثانية لكن كل مدينة أصرت على فرض نشيدها الوطني الخاص على الدولة الجديدة حتى حلها لهم گاليڤار. لم يحلها بقوة عضلاته فهو بالنسبة لهؤلاء الأقزام كان عملاقا من كوكب آخر، بل حلها بالعقل بان دمج النشيدين الوطنيين في نشيد واحد (و عاشوا عيشة سعيدة) كما يقال.

البرامج الفنية الكردية في العراق برعت في نزر من الكوميديا الناقدة لكنها لم تتجاوز الكوميديا وقلما نحس اننا نرى (فن) فأبسط شروط التمثيل ان لا يشعر المشاهد أنه (تمثيل).. أما في الأفلام العربية، لقد أجهد الفنان عادل امام في الاستهزاء بتلك الاساليب المتبعة في الأفلام التاريخية والدينية، والله كأنه يفعلها نيابة عني. يا أخي ان الأفلام التاريخية والدينية تشحن الأذهان بعنتريات وغضب ما وجدت على وجه الأرض وياليت لو قدم العرب فلماً يبدأ من النقطة التي ينتهي بها فلم الرسالة مثلا، فماذا سيفعلون وكيف سيعالجون ويفذلكون للأبقاء على ذلك الزيف في التفريق الهائل بين الخير والشر والأبيض والأسود، وذلك السعي لأجتثاث البسمة وفرض التكشيرة؟

السوريون وهم اهل نكتة وإنطلاق ومرح. إلا أنهم يقدمون صور عن خالد بن الوليد وملوك الطوائف وتلك الأشكال المرعبة والمعلبة بالأقمشة ما يمكن ان نفسره (انه عرض

لكل شيء لايوجد في حياتهم العادية). استغرب من كل ذلك الغضب الذي تطفح به شاشات التلفزيون وما كل تلك الحواجب القاطبة والأعصاب الهائجة والسيوف التي تقطر كرها وغضبا ولما كل تلك الإزدواجية؟ انه نفس التوجه الذي يستهزىء به عادل إمام قائلا (سأشلخنك يا ابن ابي حمارويه) قمة في التهكم على فذلكلة وتمثيل وزيف. يا أخي لا خالد ابن الوليد كان كذلك ولا حتى المغول كانوا كما تريدون ان تكون عليه حياة الأجيال العربية القادمة من شدة وحدة وغضب ونكد وتعقيد. الغبي هو الذي ينقاد لتلك الاحلام المريضة.

بالنسبة للأفلام الغربية، اعتقد ان فلم (American Beauty) قمة لا تضاهيها قمة اخرى في التنبيه الى خطر تفاقم الأنوثة واستفراد الأنوثة أو الفحولة (كل على حدة) بالسلطة. عائلتان متجاورتان، أحداهما لعسكري متقاعد تراه دكتاتورا (سي سيد امريكي) يفرض الجفاف والخوف على زوجته وأبنه الوحيد. لكن في النهاية تراه يحاول الاستسلام الى الشذوذ الجنسي من شدة انعزاله عن الناس!!.. العائلة الأخرى تقاد من قبل أمرأة منبهرة بالمال و(My career) التي اصبحت تستهلك نساء المدن في العصر الحديث وهي الحالات متكررة من حالات انقلاب الوسائل الى غايات. هي لم تجامع زوجها منذ ثلاث سنوات لمجرد الحفاض على آثاث البيت والمكياج ومواعيد العمل. بالأضافة، هي تحرم زوجها حتى من مجرد التفكير بالجنس (كونه يعتبر خيانة للحياة الزوجية الطاهرة والملتزمة) لكنها في النهاية ترتكب الزنا مع أحد شركاء العمل (حفاظا على حياتها الزوجية والمستوى المادي والمظاهر الخ)!.. ثم هناك البنت المراهقة التي تعرف ان قوة الاستقطاب هي التي تمشي المجتمع تتلذ من التلاعب بعواطف الرجال لا لشيء فقط لأثبات الذات واذلال الآخرين. انها برأيي دليل على ان المبالغة في المداعاة بحقوق المرأة لن يترك للمرأة فرصة كي تتمتع بما تعتقد انه سلطة دائمية بل ان السلطة ستنسل من بين يدها الى عناصر أنعم وأنعم في المجتمع كالمراهقات والأطفال وقد يصل الى حد تقديس كلب العائلة اكثر من البشر انفسهم. لو فلسفت التعابير لقلت بهذا الصدد (الثقوب السوداء لن تتوقف عن أبتلاع وكبت الطاقات حتى تصطدم بثقب أسود مماثل. بذلك تنبعث الطاقات).

الحرية والسعادة وتتجسد في عنصرين. أولا عنصر الحب البسيط، يتجسد في ابن الضابط المتقاعد الذي يعشق ابنة تلك المرأة المتكبرة ويقنعها بالهرب معه بعيدا عن ذلك

الجو الذي ينذر بكارثة.. العنصر الثاني والأهم، زوج تلك المرأة المتكبرة وهو بطل الفلم. رجل مكبوت ويبدو انه قد خسر الكثير لصالح زوجته المتصنعة. لكنه لا يستسلم فيبدأ باستعمال نفس أسلحتها الأنثوية بالتصنع والتمثيل والتلاعب بالحقائق والقانون حتى يتحرر من سلطة مرءوسه في العمل الذي طالما استغله، والأهم انه يتخلص من سلطة زوجته وروتينها الخانق (ان كيد النساء عظيم لكن الويل من كيد الرجال لو أرادوا).

في النهاية يقتل بطل الفلم الذي تحرر في لحظات هي أحلى لحظات تحرره وأبتسامة النصر والحرية مرتسمة على الوجة الميت. أي انه حتى ولو قتل، فقد قتل غدرا وهو منتصر وسعيد وحر.. الفلم لا يبين هوية القاتل، قد تكون زوجته الحسودة (أي سلطة الأنوثة المجردة) او قد يكون جاره الضابط المتقاعد قتله من شدة الحسد والإحباط (وهو يمثل الفحولة المجردة). الجريمة تبين مدى هشاشة عنصري الحياة اذا استفردا بالسلطة.

أخيرا الى الخيال العلمي في مسلسل (ستارترك). ذلك المسلسل كان في وقته سابقة من سابقات التقدم في الأنتاج التلفزيوني وأحتوى على توجهات انسانية وفلسفية ممتازة. بطل المسلسل كان يدعى كاپتن كيرك، أشقر وبقوام رياضي قد يكون نموذج من ما تمناه النازيون ان يكون عليه نسل الألمان. فهنيئا لهولي وود على سحب البساط من تحت اقدام هتلر!!.. المهم، حلقتان من ذلك المسلسل جديرتان بأن ترويان. الأولى تبحث في حالة إنفصام مشابهة للقصة أعلاه من انفصام بين الخير والشر. المركبة الفضائية إنترپرايز فيها جهاز لنقل الأشخاص يقفون في غرفة، يختفون في لحظة واحدة ويظهرون رأسا في المكان المطلوب كأنه سحر.. مرة من المرات يحدث عطل في الجهاز المذكور، فاذا بالكاپتن كرك ينفصم الى اثنين. جسمين متطابقين لكن أحدهم عنيف وعجول وشرير، بينما الآخر هاديء خيّر وطيب لا يكاد يحرك ساكنا..

اعتقد ان المنطلق الفلسفي الذي تم معالجته هناك أظهر الفحولة والأنوثة التي بحثتا منفصمان عن بعضهما حتى ان ارنولد توينبي يلمح الى (افتراض القبلية هي الشر والمدنية هي الخير مع العلم هو لا يوافق على ذلك التعميم) أي انني لست الوحيد في هذا المنظور، وحتى علماء الفلك قد قسموا الأبراج الى ذكرية وأنثوية.. على كل حال، الحلقة تبين الكاپتن كيرك الشرير (أي الفحولة بمعناها التجريدي) بأنه عنيف، سريع القرار، لا يتورع للحظة عن مهاجمة النساء تنفيذا لرغباته الجنسية. أما كيرك الخيّر

(الأنوثة بمعناها التجريدي) فكان لا يقوى على شيء. ضباطه يحثوه على إتخاذ أي قرار لكنه يفشل. الأمر يتطور ويصل الى حد ان القسم الأنثوي من الكاپتن كيرك يشارف على الموت فهو لا يمتلك أي طاقة للحياة والحركة، لولا ان توصلوا الى حل بإعادة دمجهما. لقد وضعوهم في نفس الجهاز ثم أصلحوا العطل وأعادوا العملية. فإذا بالإنفصام قد زال وعاد كاپتن كيرك إنساناً طبيعياً بجسم واحد يحمل الخير والشر معا (أي انه رجع شخصا عاديا يحمل خليطا من الفحولة والأنوثة).

انه منطلق جميل ومعبر لكن ملاحظتي على تلك الحلقة وعلى التوجه الغربي بصورة عامة حول الخير والشر والأنوثة والفحولة، انه لم يقنعني بأن كل ما ينقص الخير، أو الأنوثة، هو عدم القدرة على إتخاذ القرارات وان كل ما يحتاجه من الفحولة هو لأجل الطاقة والحركة والقدرة على القرار. كان من المفروض ان يضيفوا عنصر الأنكماش ورفض الآخرين وعنصر الخوف والطمع والتصنع الى الجزء الأنثوي. عندها كان المشاهد الغربي سيرى مدى خطورة المبالغة في محاربة الرجال في المجتمعات الغربية وان الأنوثة المطلقة تعني ثقب أسود وحيد في السماء، لا يتحرك ولا يعيش ولا يدع احدا يعيش أو يتحرك.

الحلقة الأهم من ذلك المسلسل تتناول موضوع التاريخ والزمن وفي نفس الوقت يتناول كل شخص خانه ضميره فتحول الى اداة عقائدية تنفيذية لا ترى عينه سوى تعاليمها.. يتوجه كاپتن كيرك ورفاقه الى أحد الكواكب فيصادفون مخلوقات تمشي على الأقدام كالبشر لكن لهم أشكال مرعبة. لقد كانوا قسمين، القسم الأول كانوا متوحشين يتقاتلون بالمخالب والأسنان كالحيوانات. اما القسم الثاني فكانوا بنفس أشكال القسم الأول لكنهم كانوا مسلحين ببنادق يقتلون القسم الأول (المتوحش) أينما وجدوهم.

كيرك ورفاقه يقعون أسرى لدى تلك الوحوشة المسلحة ويقرر رئيسهم أن يعدم الكاپتن كيرك ورفاقه.. المنظر أشبه بما يجري في العراق وينطبق على الاحزاب العراقية (كردا وعربا) فما أن يستفرد أحدنا بالسلطة حتى نبدأ تصفيات جسدية كأن مبدأ العراقي (اقتل ثم ناقش) هو الحل. وهو ينطبق على كل ذوي الأفكار العقائدية التي لا تقبل مناقشة. فلنستمع الى الحوار بين كاپتن كيرك وقائد الوحوش المتطورة، سأرويه بتصرف.

كاپتن كيرك: ماذا تريدون منّا؟

الوحش: اسكت ايها الوغد. الآن كشفنا سر المؤامرة. انتم ستعدمون جميعا وعلى الفور.

الكاپتن: أي مؤامرة تتحدث عنها!، نحن بعثة استكشافية من كوكب الأرض. من أنتم ومن هؤلاء الذين تقتلونهم؟

الوحش المتطور: نحن جماعة X من عقيدة Y من مدينة Z. أرقى وأذكى ناس في هذا الكوكب. لو طبقنا أفكارنا لتحول كوكبنا الى جنة. لعلمك نحن لسنا من هذا العصر، نحن عدنا من المستقبل، بعد الف عام من اليوم. كنا نعاني من وجود مؤامرات وحروب واعداء لذلك أخترعنا جهاز خاص يسافر عبر الزمن وعدنا الى الوراء كي نصلح أخطاء التاريخ. هؤلاء المتوحشون هم أجدادنا. كنا سمعنا بوجود مؤامرة دُبرت قبل آلاف السنين لتفرقتنا وأبقاء تخلفنا. وها قد اكتشفناها، ان قتلناكم سنغير وجه التاريخ.

الكاپتن: ما شاء الله عليك أيها المتفاخر بالحضارة! ما فرقك أنت عن هؤلاء المتوحشين؟ كل ما في الأمر أنكم تسفكون الدماء بأسلحة متطورة أما هؤلاء، فهم يسفكون الدماء بأسلحة بدائية. ألا تستعمل عقلك، وانتم أيها الجنود، أما عندكم عقول تستخدمونها؟

الوحش: لا تستعملوا عقولكم يا جنود الحق، فهو ينسيكم لذة الحقد المقدس. هيا أقتلوهم.

الكاپتن: صبرا يا هذا، إمنحيني مهلة لأسأل سؤال واحد. تقول انك أتيت من المستقبل! ان كان ما تقوله صحيح. فهذا النجم الذي تراه قد أنفجر قبل فترة، أشار الكاپتن الى نجمة معينة كانت قد انفجرت وتحولت الى سديم، هل كانت كذلك في زمانكم؟

تعجب الوحش من رؤية النجم وقال: اعتقد اننا أخطأنا في استعمال جهاز الزمن. يبدو اننا سافرنا الى المستقبل بدل من أن نسافر الى الماضي. ارتعب من هول إكتشافه المرير ثم قال: هؤلاء ليسوا اجدادنا بل هم احفادنا. هكذا ستكون اجيالنا اللاحقة!!

الكاپتن: يا ذكي يابو الحقد المقدس. انت لست المستقبل بل انت الماضي البالي. اما هؤلاء فهم أحفادكم، أي إنهم مصيركم الأسود.

الوحش وقد صدم بما ادرك: اشعر بفراغ، كأني لا شيء. ماذا افعل. هل اكرس حياتى للتوبة و الندم،،،،،،

الكاپتن: قد بلغت في الغباء مرحلة الماجستير. قبل دقيقة كنت اله لا شريك له والآن تحولت الى عبد ذليل. يا اوبئة العقول، يا ثقافات الهرج و المرج و يا منابع اجيال القرج. لو عرفتم ماضيكم لما احتجتم لأجهزة تسبرون بها أغوار المستقبل.. تعال و قل لي، أي مؤامرة تتحدث عنها؟

الوحش: لا اعرف، انا سمعته من الباقين و اقنعت به نفسي لعلني اخفف من التشرذم و نتملص من الفشل.

سپۆک معاون الكاپتن من كوكب ڤيگا لا يعرف العواطف، تدخل: لنهدأ قليلا يا كاڤتن. لنساله عن النساء، انه مهما كان من درجات العنف فهو قد ولد من رحم انثوي و استوعب كلاما و مشاعر في عقله الباطن.

احمر وجه الوحش: دع نساءنا خارج الموضوع انهم اطهر من ان نتحدث عنهن. يحبوننا حب العبادة و يبكين علينا طوال الوقت.

سپۆک: تقدسون العرض و مابين الأفخاذ لكن تهملون الارض. اسمع يا هذا، ليس لدي معلومات كافية لكن مجرد كلامك عن (بكاء و حب شديد، الخ) يدل على انهن يحبون شيء ما بشدة لكن في نفس الوقت يكرهون شيء اخر بنفس الشدة.

الوحش: وما المشكلة في ان يكرهوا الغرباء. المهم اننا لا نرسل اخواتنا الى بيوت الدعارة و الملاهي، الادب و الاخلاق اهم من الحياة.

سپۆک: بل قل الخجل الذي هو عنصر انثوي زرعته فيك النساء.. اسمع يا هذا، في الكواكب الاخرى وجدنا المجتمعات التي تمنع الاختلاط و التفريغ الجنسي كالبيوت التي لا تحتوي على دورات مياه، ستطفح بهم من حيث لا يعلمون.. لنركز على هذا الحزن الذي يسود بينكم. الارادة السلبية للنساء تولد ردود افعال عكسية. كل دمعة انثوية تحرك ذكرا ما نحو العنف فالسادية هي وليدة الماسوشية و العكس بالعكس.. سؤال من فضلك، عندما يموت احدكم كيف تتصرفون؟

الوحش: لا شيء اقدس من مراسيم العزاء، نضع كل شيء جانبا و نكرس طاقاتنا

للتعبير عن الحزن لاسابيع و اشهر.

سپۆک: قد تكون حالة مشابهة لما ذكرته لي عن ڤتنام و كمبؤديا في كوكبكم. كنت تقول لي انها كانت بسبب تلك الحرب الباردة بين القطبين الكبيرين حتى اثبت لك ان جوهر القضية كمن في بعض المدن التي مارست التمييز و التكبر، فتحول اهل القرى و المدن الاخرى الى وحوش لا تعرف سوى الانتقام. اتذكر زجاجة الشراب التي فزت بها في ذلك الرهان، متى تشتريها لي؟.

الكاپتن: و زجاجة اخرى مني اليك لو عدنا للمركبة سالمين.

سپۆک: على كل حال، وقد تكون الحالة رقم ١١ مجرد حالة انقلاب كما في الثورة الفرنسية و الروسية عندكم في الارض. انها مرحلة توازي مرحلة (الكلب الصيني) كما في الفلسفة الشرقية عندكم.. اسمع يا هذا، هل تستطيعون ان تمنعوا بكائهن بشكل نهائي؟

الوحش: ما هذه الارقام و الحالات التي تتحدث عنها. ثم كيف نمنع البكاء، نحن لسنا اجهزة كهربائية كي نتغير بمجرد الضغط على زر. ام تطلب منا ان نكتم انفاسهم اكثر مما نفعله الان، او ان نعكس العملية فننفذ كل رغبات النساء. لقد جربتها الاجيال سابقة فتحول النساء الى اخطبوط يخنق كل من حوله بحجج يبتدعونها من العدم. الرجال اصبحوا يتظاهرون بانهم مثقفين فادمنوا على التمثيل. لكن النساء احتقروا الرجال و امتنعوا عن الجنس و الزواج و الانجاب. المنافسة على المجوهرات و الاثاث استحوذ على تفكيرهن فتحولت البيوت الى متاحف للشمع نخاف ان نجلس على اريكة خوفا من العيون التي تراقب اقل حركة و الدموع التي تنهمر و تطين عيشتنا للاقل نقاش. حالات الضجر و الانتحار بلغت اعلى الدرجات ناهيك عن النصب و الاختلاس. نهبوا الموارد و استعبدوا الفقراء وتراكضوا على البلدان الأكثر تقدما يلبسون و يتصرفون مثلهم.

سپۆک: انهم يعانون من حالة استقطاب في الأنتماء يا كاثتن بالاضافة الى الخطوط الأفقية. عذرا يا هذا، ارجوا ان تكمل حديثك.

الوحش: اكثر ما دفعنا الى الجنون تلك النظرة الفوقية التي تزدرينا نحن الفقراء. لذلك

تمردنا و ذبحنا طبقة المسؤولين في النظام السابق و اطلقنا الموارد الطبيعية لكل الناس بدون مقابل ثم منعنا النساء حتى من الخروج من البيت، انهن راس البلاء و سبب المشاكل. دمرنا المدارس و المؤسسات و كل ما مت الى الماضي بصلة. اصبحنا نقرأ العيون و نصطاد كل من يحن الى الماضي. شعارانا في البداية كان (اقتل ثم ناقش) لكن تحول الى (اقتل بالشبه، اقتل ولا تناقش). صحيح اننا قطعنا الاعناق، اما هم فقد قطعوا الارزاق و استهلكوا الكوكب. كان لابد من حل جذري لكن يبدوا اننا عالجنا الخطا بخطا اكبر فالمشاكل خرجت علينا من حيث لا ندري ثم دخلنا في حروب خارجية و داخلية شغلتنا فترة عن رؤية عيوبنا. اخيرا استعملنا هذا الجهاز املا في حل ما او هروب الى الامام، و ها انا اذا امامكم.

سپۆک: نعم نعم الصورة وضحت، انكم حالة شائعة جدا، مجرد خطوط عمودية و طبقات و بعض الأستقطاب الخارجي. انكم بفعل و بردة فعل معاكسة دمرتم الحضارة حتى بلغ احفادكم هؤلاء مرحلة الانحطاط. اخمن ان السلطة انسلت من تحت ايدي الارستقراطيين الى النساء و منها الى الاطفال خصوصا البنات. واستطيع ان اضيف لك بعض عيوب الاناث عندنا في كوكب ڤيگا. مثلا، الواتي يتحدثن عن حرية الجنس ما ان يكتشفوا ان هناك نساء اخريات يتفوقن عليهن في الانوثة و الجاذبية حتى ينقلبوا الى العكس ما سبق.

الوحش: بالضبط، نفس الشيء حصل عندنا.

سپۆک: نحن نسميها حالات تكاثف الانوثة تيمنا بتكاثف النجوم قبل ان تتحول الى ثقوب سوداء. كوكب الارض ايضا شهد حالة قوية مما تقول في فترة سمية بعصر الذرة. ساد الاعتقاد ان الانوثة المطلقة هي التطور غير ان الدراسات بينت ان سبب شيوع هذا الاعتقاد يعود لطبائع المخلوقات فالذكر القوي و منذ الازل ما احتاج الى استخدام العقل. لكن هناك الدافع الجنسي و حاجات اخرى من المستحيل ان تتحقق كلها. لذلك و مع اول بادرة ضجر او ظهور ذكر اقوى منه سيبدا بالتفكير و تلك هي اول قطرات الانوثة في بحر من الفحولة و العنف. ثم يزداد في الاعتماد على العقل، لذلك اعتقدوا ان العضلات و الفحولة عناصر معاكس للحضارة، لكن الزيادة كالنقصان.. اما بصدد جيلكم و الجيل

السابق فهذا ايضا وارد. ان من طبيعة كل جيل ان يتمرد ولو قليلا على جيل الذي يسبقه و كل تطرف سيجر الى تطرف معاكس له في الجيل التالي. فما ادراك ان ما فعله الجيل السابق لجيلكم لكم يكن سوى ردة فعل على تطرف معاكس. اي ان تاريخكم قد يكون عبارة عن سلسلة من التطرف، كل مرة بأتجاه معكس. اما بانسبة،،،

الكاپتن: على مهلك يا سپڈك، انه لا يلحق بكل تلك الافكار.

الوحش: رغم انه سريع جدا في طرحه لكني اشعر اني افهمه قليلا و اعتقد انه صادق لا يبغي المال و مصلحته الشخصية.

سپۆک: لابد انكم حديثوا العهد بالحضارة حيث يكرر هذا الكلام معتبرا ان المال شيء ثانوي ثم تتنازعون عليه في اقرب فرصة. انا بعكس ما قلت، انا اهتم بالمال كثيرا و ابغي مصلحتى الشخصية. انه خطا شائع حيث كان يقال ان كل من ابتغى مصلحته فهو هدام. كل ما هنالك اني لا ارى مصلحتي الشخصية بمنظار ضيق كان استفرد بثروة او انثى جميلة منعزلا عن المحيط. مفهوم السعادة تطور الى ان السعادة المنفردة او التي تاتي من الكراهية او (على عناد) اناس ما ، تتحول بسرعة الى تعاسة. حتى منظورنا الى الراحة الجسدية تطور الى ان انعدام الحركة يؤرقان البشر و (يطينان العيشة) كما تقول.

ابتسم الوحش: انت ذكي جدا. هل تدون لنا دستور نطبقه الى الابد كي لا نخطا.

سپۆک: هذا ايضا احد الاخطاء الشائعة جدا وهو لن ينجح حتى لو سطرت لك شريعة متكاملة تتولاكم من المهد الى اللحد. ما نوعية معتقداتكم الغيبية؟

الوحش: في الماضي كانت الوثنية و كل مجموعة تدعي ان لها اله خاص حتى فرض التوحيد. الدين لابد منه. تخيلوا احدنا يمسك بيده بندقية ليزر، لو لم تكن هناك رهبة من شيء ما في قلبه لأستعمله حسب نزواته.

سپۆک: كلامك نصف صحيح. انت تتحدث عن سلاح متطور، اي انتاج قرون طويلة من الحضارة لكنه يقع فجأة بيد مراهق بدون ان يمر باقل تطور. اي انه حصل على جزء من الحضارة التي صنعت السلاح بدون الأخلاقيات و الظروف التي رافقت صنع السلاح. انه خطا كلف الكواكب الأخرى الكثير فنفس الفكرة التي تمنع

ذلك المراهق المفترض ان يسيء استعمال البندقية سيتطور ليستعمله حسب عقليته. ان انقطاع سلاسل التاريخ و الحضارات كان من اهم مشاكل كواكب. في كوكب ڤيگا ساد الترغيب و الترهيب الديني حتى توصلنا الى ان صحة او عدم صحة تلك التوجهات الغيبية لن يقدم او يؤخر كثيرا فلو صحة احدى معتقدات البعث و الحساب و الثواب فهي هناك تنتظر روادها و مستحقيها.

الكاپتن: في كوكب الارض عانينى كثيرا مشكلة تعدد او توحد الآلهة و حتى الآن مازال عندنا مجاميع وثنية تدعي ان الذي خلقهم يختلف عن الذي خلق غيرهم. في القبيلة المنعزلة يعبدون الاجداد، وفي البلدات الزراعية المنعزلة يعبدون آلهة انثوية او ملالي و مراقد على اقصى تقدير. انها الأنتماءات الذكرية و الأنثوية على ابسط صورها كما ترى. الحركات التوحيدية ظهرت منذ الاف السنين و اجتاحت اكثر القارات، كانت نافعة جدا و انهت الكثير من النزاعات المزمنة. لكن الامر تحول الى مجرد تراشق بالحجج و الكلام و الغيبيات التي لا تكلف قائلها شيء. مازال عندنا اناس يدعون انهم كلهم يعبدون نفس الشيء لكن على سبيل المثال لا يتزاوجون الا حسب الانتماء المتوارث حسب القبيلة و البلدة و الخ، ثم يكفرون باقي الناس. الأختلاف الحقيقي بين الوثني و التوحيدي هو في رفض او عدم رفض الاخرين ؟. طبعا لا يمكن ان تلغي كل الأنتماءات و اللغات و الخصوصيات، لكن لابد لكل منا ان يكون له ادراك عالمي و ان يضع نفسه مكان غيره قبل الحكم عليه.

سپۆک: المهم في حالتكم ان تكونوا من الشجاعة ان تمنعوا انعزال الكتل و خاصة النساء. اذا كنتم ياستم من الجيل الحالي ركزوا على الاجيال التالية. اراهنك يا كاثتن ان انظمتهم التي تمردوا عليها اصبحت تتسابق على وضع اكبر عدد ممكن من النصوص التي تمنع و تمنع و ان المدارس اصبحت مقابر للعقول.

الكاپتن: انا ايضا متاكد ان مدارسهم لم تكن تخرج سوى المتفوقين في الدرخ و المحابات.

الوحش: ما فائدة المدارس، ان ابن الشارع اصبح اكثر عقلا و انتاجا من ابن الجامعة الذي اصبح كالببغاء يردد ما لا يفهم لكنه يبرع في نهب المال العام و التكبر.

سپۆک: اتفق مع ما تقول، انه وجه اخر من التكاثف حيث تسود البيروقراطية و

التصنع. الان لنرجع الى النساء، يجب ان تعلموهم ترك البكاء و التقوقع و الحرص الشديد و الخجل وما الى ذلك. اراهن ان من اصعب ما يواجهكم من تحديات هو ان تجعلونهم يخالطوا البشر، ليس الرجال بل حتى النساء الغريبات. سابقا كان يقال ان الحروب ارتكبت من قبل الرجال لكن عندما نظرنا للكون نظرة تكامل وجدنا للنساء دور موازي لكنه مستتر يتركز في نفرة نساء الكتل الانتمائية من بعضهن، وما الرجال الى الاذرع التنفيذية. انت مثلا اصبحت مستعدا ان تتعاطا معنا خلال دقائق لكن لو كنت انثى لكن من الصعب تغيير رايك. الحركة و التواصل و التغيير عناصر ذكرية في الكون، في الجانب الاخر هناك العناصر الانثوية كالثبات و، مع الاسف، الانكماش و العناد.. ساطرح عليك بعض الحلول الآنية. امنعوا الزواج المحلي، ثم علموهن على العسكرية.

الوحش: النقطة الاولى ممكن التفكير فيها. اما عن العسكرية فاني لا افهم قصدك.

سپوّك: ان بعض الطاقة و الحركة في اكثر نقاط مجتمعكم موتا و تجمدا سيولد بالمقابل مرونة و حكمة و هدوء في اكثر نقاط مجتمعاتكم خشونة و همجية. في الحالات المعاكسة لحالتكم (اي عندما تطغى النساء) سيكون من الصعب ان تجد سيدة حرة ترضى ان تمتص انفعالات زوج و اطفال و تحتمل. الحياة مليئة بمطبات لا تشعرون بها. الوقت يداهمنا يا كاثتن، سننتقل الى المركبة خلال دقائق.

الوحش: لا تتركوني. حتى لو اقتنعت انا، فجنودي هؤلاء سيقطعوني اربا بمجرد التحدث عن نسائهم و خصوصا اخواتهم. لا امل لدينا في تجنب المكتوب الا بمعجزة من السماء.

الكاپتن: وجدتها، انت مدين لي بزجاجة شراب يا سپڭ. الم اراهنك بان القادة يقادون حسب تيارات انتمائهم وان مشاكل الكواكب لا تحل بمجرد قرارات الحكام. هذا الدكتاتور الصغير مجبر على ان يؤدي دور ذلك الأله الساكن في عقولهم و غرائزهم. اذا كانوا انثويين فسطيعون الكاهن الذي يبكيهم كثيرا. اما اذا كانوا مجتمعا ذكريا، فلن يطيعون الا اكثر الاشخاص عنفا. طبعا في حالة الهزيمة سيرفعون شعار (نحن مضلومون، نحن مسيرون، انها اوامر عليا).

الوحش: صدقت، انا لعبت الدورين معا. في المناسبات الدينية كنت مضطرا ان ابكي مع النساء، اما في الحرب و السياسة فكنت اشدهم فتكا. لكن لو لم افعلها انا لفعلها غيري و النتيجة واحدة. قد ابتليت بهم و بمشاحناتهم، انهم يكرهون بعضهم البعض، بالنتيجة ان كل السلطات تتركز بيدي و ويل لمن يخالفني، سيقطعوه اربا حتى قبل ان امر بذلك. لا تسالوني عن ما اراه في شعبي من عيوب لكن كيف لي ان اغير هؤلاء. انتم تطلبون المستحيل.

الكاپتن: قد جعلتني احترم صراحتك و صدقني انني ساعاني مثلك عندما اعود و اقدم تقريري الى المديري (الأنثى) ناصحا اياه ان لا يبالغ في،،،،،. على كل حال اسمع يا هذا، الحياة لعبة اجيال و ليست قرارات آنية و تسطير قوانين. بالمناسبة لايوجد مستحيل، نحن في كوكب الارض كررنا نفس خطاكم تقريبا باطلاق الموارد للناس تقريبا بدون مقابل. اعدادنا تجاوزت السبعة مليارات و فجاة نضب النفط. هندسة جينات في حث النباتات على مضاعفة انتاج السكر و تنقية الهواء لم تعد تنفع. الهواء مجرد الهواء اصبح اغلى عملة. النتيجة ان قارات بالكامل مسحت منها الحياة حتى تولاها العسكرين و نفذوا مشاريع حدية جدا وصلت في بعض الحالات الى ارتكاب المذابح كان يمكن تجنبها. نحن مازلنا نخطا و نتعلم و هكذا. فقط لو نكف جميعا عن الكذب و نفخ الصدور. اقولها نصيحة وما ارخص النصائح، لا تنتظروا حلول تنزل عليكم من السماء، فاني قد قطعت الاف السموات لم ار فيها اية حلول تنهال غلى الكواكب بل ان الكل تعاني من المشاكل وهذا الكوكب هو كل ما تملكون.

الوحش: هل تعتقد ان هناك امل؟

الكاپتن وقد بدا يختفي: طبعا، هناك حالات اخرى اختبرناها لا يهتمون حتى لمصير اجيالهم، ذكور و اناث بلغوا مرحلة الدكتورا في التخلف و التقليدية. اما انت، مع انك متوحش و دموي لكنك على الاقل تهتم لمصير اجيالك. على فكرة، هذه نقطة انثوية فيك، فحتى الابوة نوع من الانوثة.

هتف الوحش: هل سنغير المصير؟

اختفى الكاپتن و فريقه.

فهرست

المقدمة 5
حادث عرضي 9
مدخل وتمهيد 19
الفصل الأول – مقارنة بين أوطان 25
الفصل الثاني – البلدان المركزية 31
بلدان بعواصم طبيعية 31
١– مصر 31
٢– إيران 39
تقسيمات الإنتماء 41
القبائل الإيرانية 44
مقارنة بين مصر وإيران 45
الفصل الثالث – بلدان بدون عواصم طبيعية 47
١– البلدان الألمانية 47
٢– إيطاليا 50

الباب الأول 53
الفصل الأول – اليونان 55
الجغرافيا 57
التاريخ 58
العصر الكلاسيكي 59
الاحتلال الفارسي ٤٩٠–٤٧٩ ق.م 61
إمبراطورية أثينا 62
حرب البيلوبونيز (٤٣١–٤٠٤ ق.م) 64
إمبراطورية سپارتا 66
رحلة العشرة آلاف أغريقي 67
الفصل الثاني – العصر الهيليني 75
من الإسكندر الى كليوباترا 75
الأغريق والملكية والعشائرية 76
الفصل الثالث – الروم 79
"لا إستثناءات – لا تعاطف – لا رحمة". 79
البدايات 79

توسع وتخثر 86
الفصل الرابع – الاحتكاك الدموي بين الروم والإغريق 89
الفصل الخامس – الهيلينيين في ظل الروم 95
الفصل السادس – القدس 99
اليهود في العهد الرومي 104
الفصل السابع - الانقلاب الهيليني إلى المسيحية 111
الفصل الثامن – الروم والمسيحة 117
الفصل التاسع – بيزنطة اول عاصمة للإغريق 123
الفصل العاشر – اليونان في العصر الحديث 135
اليونان بعد ١٩٥٠ 141

الباب الثاني 145
الفصل الأول – العراق 147
الجغرافيا 147
سلسلة التاريخ 150
الأمواج القبلية 152
ظهور بابل على الساحة العراقية 155
مملكة كاردونياش 156
الفصل الثاني – آشور 159
بابل في ظل آشور 164
زاگروس في ظل آشور 164
سقوط آشور 167
الفصل الثالث - نهضة بابل الأخيرة 171
هجرة الهلال 173
الفترة الفارسية والهيلينية 174
نهاية بابل 176
استنتاجات 176
الفصل الرابع – الإرث الديني 179
تسلسل الشرائع 181
شريعة أورنمو 181
شريعة لبت عشتار 182
شريعة ايشنونا 183
شريعة حمورابي 185

الشرائع الآشورية 190
الفصل الخامس – العصر العربي 195
جذور العرب 195
الحجاز 198
العرب في العراق 202
الحجاز والفتنة 205
العراق والفتنة 207
الحجّاج بن يوسف 212
الفصل السادس – العباسيين 221
بغداد 222
الفترة المظلمة 226
الفصل السابع – العراق الحديث 231

الباب الثالث 241
زاگروس 243
الحل 243
نزيف الحضارة 245
پروفايل كردي 247
الديموگرافيا 249
التاريخ 254
الگاوانيين في الحلّة 247
زينوفون والكاردوخيين 260
أولا– أورمية والموصل 263
ثانيا– ميديا 264
الاجتياح الكرمانجي 268
احتكاك محوري خراسان والقفقاس 271
إيران والزند 75
پروفايل سياسي 283
الفرق بين العوائل الملكية و العشائر المسيطرة 286
لعبة الأجيال 295
أجيال الجبل والمدينة 299
الخاتمة 305